

تأليف: محمد بن عبد الوهاب المكناسي
2007

الشيخ
الشيخ
الشيخ

رحمة الملك

أحداز المعالي والرقيب في حج بيت الله الحرام
وزيارة القديسين الشريف والحليل والنبير بقدر الحبيب

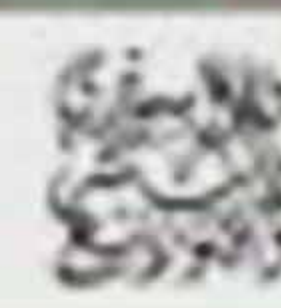
1785

محمد بن عبد الوهاب المكناسي

حفظها وقدمها: محمد بوكبوط

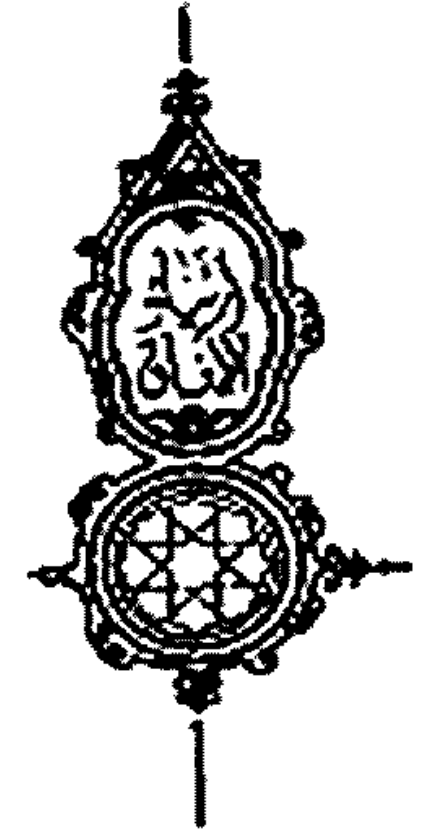


المكتبة
القومية
والأرشيف
لجمهورية
الإسلام



رحمة الله تعالى

1785



رحلة المكناشي (١٧٨٥)

محمد بن عبد الوهاب المكناشي / مؤلف ، [حققتها وقدم لها: محمد بوكبوط]

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣

حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، الصنائع ، بناية عيد بن سالم ،

ص.ب : ٥٤٦٠ - ١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ،

هاتف : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨



دار السويدية للنشر والتوزيع

أبو ظبي ، ص.ب : ٤٤٤٨٠

الإمارات العربية المتحدة ،

هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتف فاكس : ٥٦٨٥٥٠١

E-mail : mkayyali@nets.com.jo

التنفيذ والإشراف الفني :

مكيال سيدي

المخطوط وتصميم الغلاف :

منير الشمراني / مصر

الصفّ الضوئي :

القرية الإلكترونية / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنية / عمّان

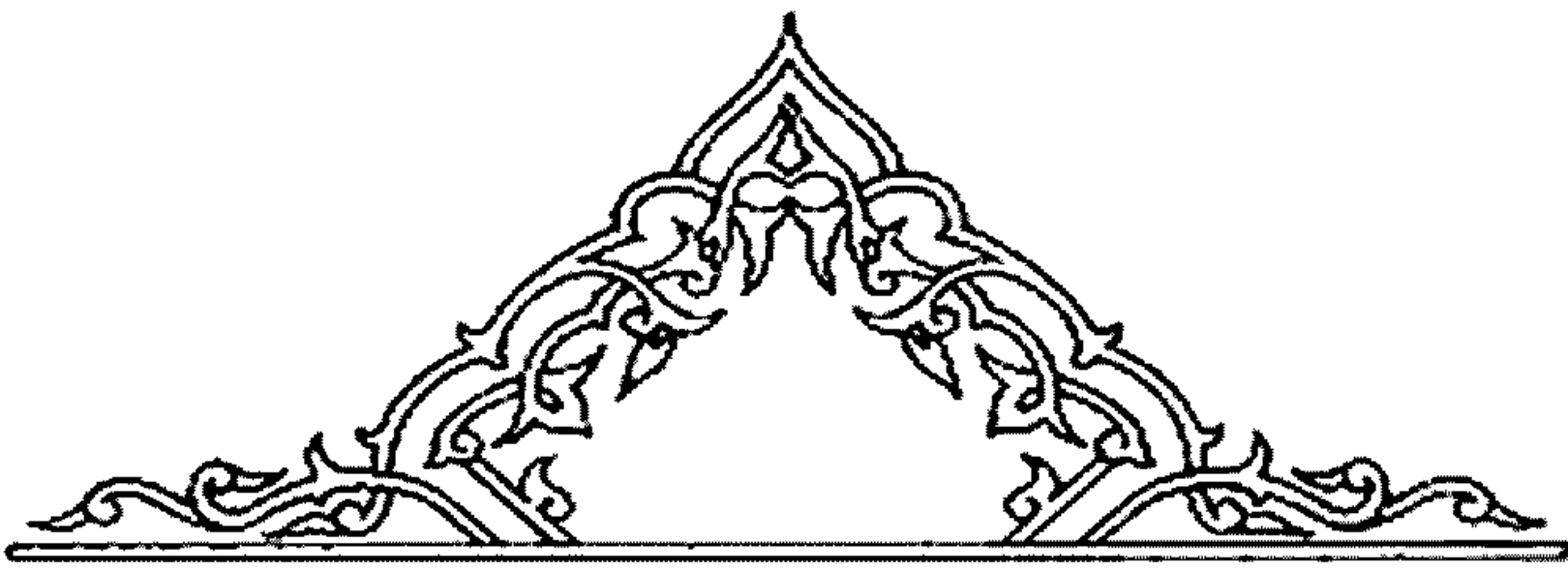
التنفيذ الطباعي :

سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publishers .

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشرين .

ISBN 9953-36-098-7

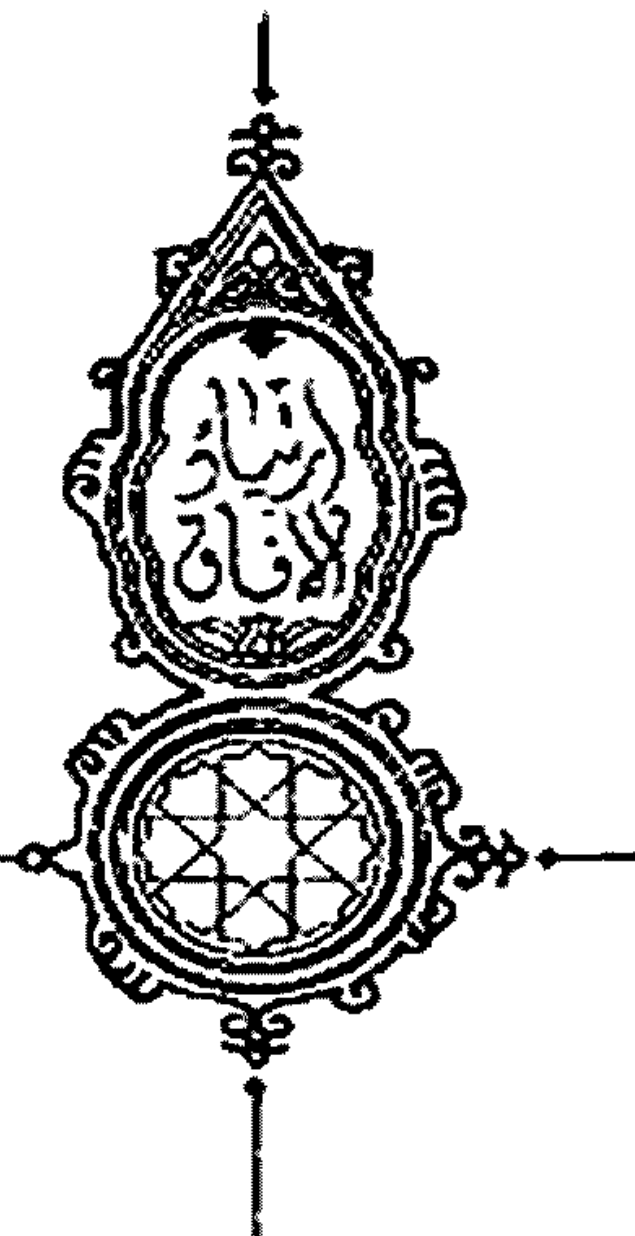


رحلة النبي

احراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام
وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب

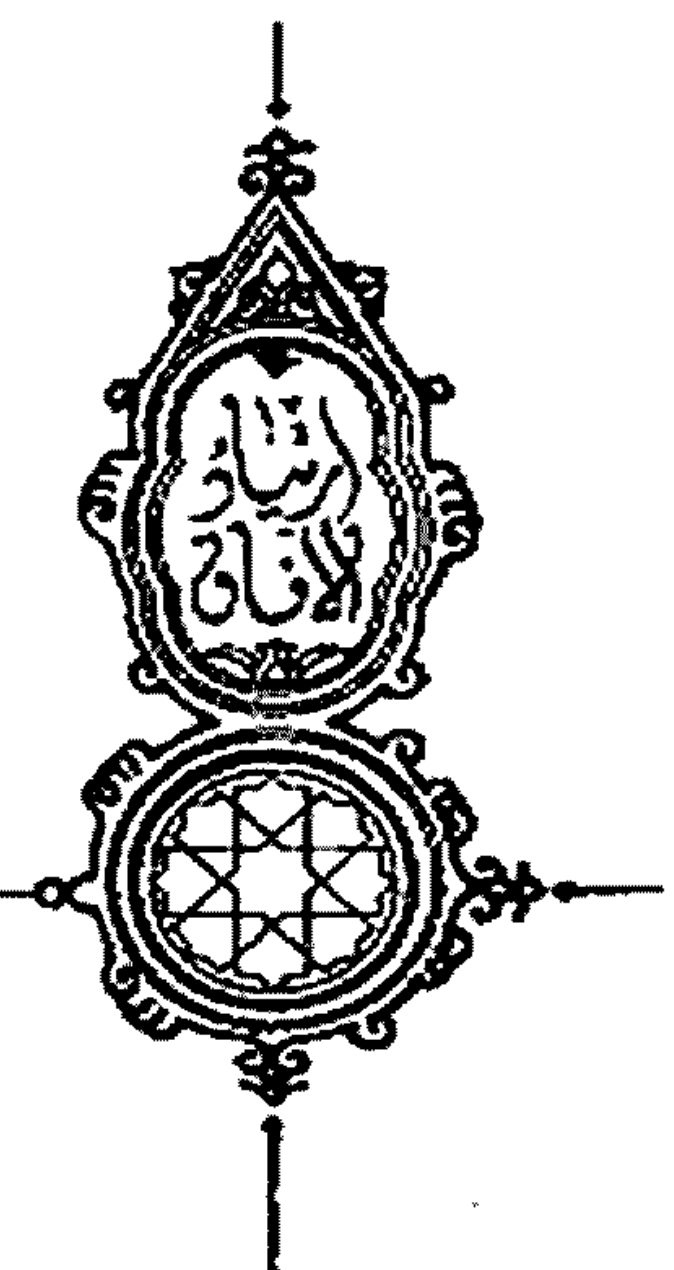
1785

محمّد بن عبد الوهاب المكناسي
حقّقها وقدم لها: عماد يوكبوط



يشرف على هذه السلسلة:

نوري الخراج



٤
 ١٢
 ١٣
 ١٤
 ١٥
 ١٦
 ١٧
 ١٨
 ١٩
 ٢٠
 ٢١
 ٢٢
 ٢٣
 ٢٤
 ٢٥
 ٢٦
 ٢٧
 ٢٨
 ٢٩
 ٣٠
 ٣١
 ٣٢
 ٣٣
 ٣٤
 ٣٥
 ٣٦
 ٣٧
 ٣٨
 ٣٩
 ٤٠
 ٤١
 ٤٢
 ٤٣
 ٤٤
 ٤٥
 ٤٦
 ٤٧
 ٤٨
 ٤٩
 ٥٠
 ٥١
 ٥٢
 ٥٣
 ٥٤
 ٥٥
 ٥٦
 ٥٧
 ٥٨
 ٥٩
 ٦٠
 ٦١
 ٦٢
 ٦٣
 ٦٤
 ٦٥
 ٦٦
 ٦٧
 ٦٨
 ٦٩
 ٧٠
 ٧١
 ٧٢
 ٧٣
 ٧٤
 ٧٥
 ٧٦
 ٧٧
 ٧٨
 ٧٩
 ٨٠
 ٨١
 ٨٢
 ٨٣
 ٨٤
 ٨٥
 ٨٦
 ٨٧
 ٨٨
 ٨٩
 ٩٠
 ٩١
 ٩٢
 ٩٣
 ٩٤
 ٩٥
 ٩٦
 ٩٧
 ٩٨
 ٩٩
 ١٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين



تهدف هذه السلسلة بَعَثَ واحدٍ من أعرق ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيات أدب الرحلة، إلى جانب الكشف عن نصوص مجهولة لكتاب ورخالة عربٍ ومسلمين جابوا العالم ودَوَّنوا يومياتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخبروه في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القرنين الماضيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرف على المجتمعات والناس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرة الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروب الشرق، ورسموا له صوراً شتلاً مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذي أذهان الغربيين وتخيلاتهم، وتُهمّد الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذج الأتم لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

على أن الظاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله، كانت دافعاً ومحرزاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في

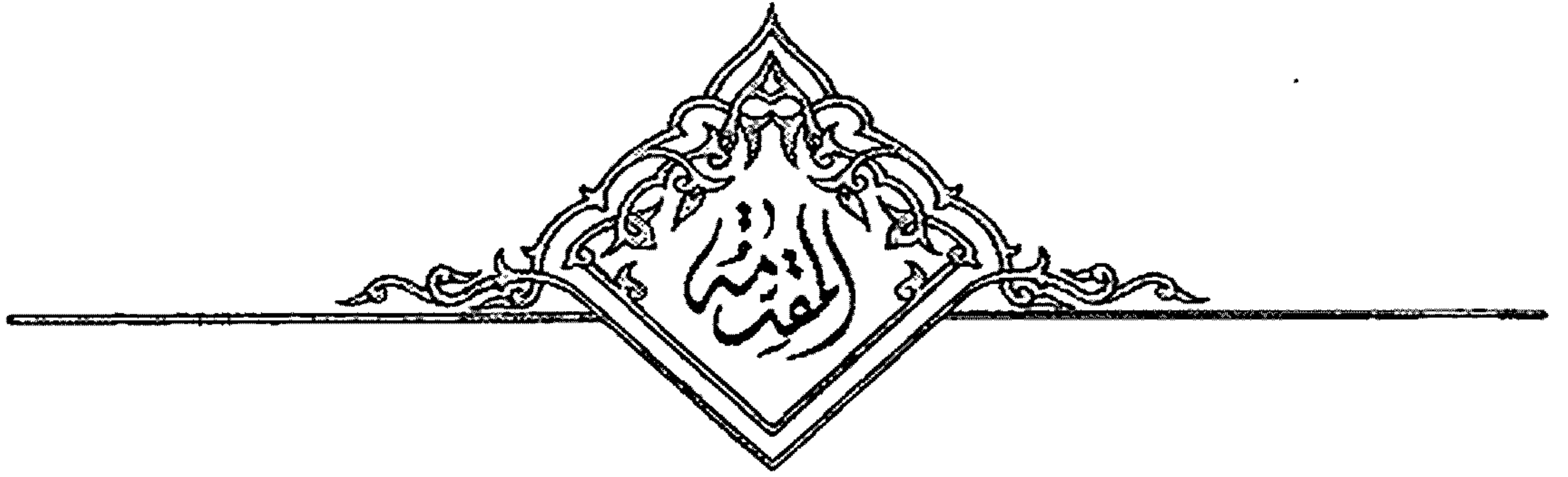
مواجهة صور غريبة لمجتمعاتها جديدة عليها، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري، لتجد نفسها تملك، بدورها، الدوافع والأسباب لتشد الرحال نحو الآخر، بحثاً واستكشافاً، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقول في حضارته، ونمط عيشه وأوضاعه، ضاربة بذلك الأمثال للناس، ولينبعث في المجتمعات العربية، وللمرة الأولى، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيّة في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمس لأفكاره وصياغاته، وبين معادٍ للغرب، رافضٍ له، ومستعد لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، غبّر رسم صور دنيا لهم، بواسطة مخيلة جائعة إلى السحري والأيروسي والعجائبي، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيُتضح من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميّة والصناعيّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرية ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من باب طلب العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالة الشلل الحضاري التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجد أحد المصادر الأساسية المؤسّسة للنظرة الشرقية المندمسة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب النّفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرّحالة، والانتباهات التي ميّزت نظرهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكّل ثروة معرفيّة كبيرة، ومخزناً للمقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفس تنفعل بما ترى، ووعي يلّم بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهر ويتفكّر بها.

أخيراً، لا بد من الإشارة إلى أن هذه السلسلة التي قد تبلغ المائة كتاب من شأنها أن تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلة مؤلّفة من نصوص ثريّة تكشف عن همّة العربيّ في ارتياد الآفاق، واستعداده للمغامرة من باب نيل المعرفة مقرونة بالمتعة، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

محمد أحمد السويدي



يصبُّ موضوع هذا المؤلف في اتجاه الاهتمام بالتنقيب عن المظان والمصادر التاريخية المتنوعة التي لا تزال حبيسة رفوف الخزانات المغربية، بغية الكشف عن مضامينها والإسهام في إلقاء الضوء على المرحلة التاريخية التي تتحدث عنها. وبديهي أن تحقيق المخطوطات ودراستها يكتسيان أهمية بالغة في كتابة أي تاريخ، علما بأن عددا متزايدا من المخطوطات الثمينة يرى النور ولا تزال تنتظر الباحثين لإخراجها إلى ساحة التداول والانتفاع بما تحترنه من معطيات تضيء جوانب من تاريخنا.

في هذا الإطار يأتي اهتمامنا بكتاب إحراز المعلى والرقيب لمحمد بن عبد الوهاب ابن عثمان المكناسي، الذي لفت انتباهنا كشخصية بارزة في مخزن السلطان سيدي محمد بن عبد الله منذ اشتغالنا على عهد هذا الأخير في رسالتنا لنيل دبلوم الدراسات العليا⁽¹⁾. فالرجل من عيار كبار رجال الدولة الذين ساهموا بفعالية في صنع أحداث النصف الثاني من القرن الثامن عشر كما سنفصل في حينه، وخلف ثلاث مؤلفات تعتبر مصادر ثمينة لارتساماته ومشاهداته خلال رحلاته السفارية التي قادته إلى كل من إسبانيا ومالطة ومملكة الصقليتين والإمبراطورية العثمانية.

ونود في هذا المقام أن ننوه بفضل الدكتور محمد بن عبود الذي يعتبر بدوره من المعجبين بابن عثمان وبرحلته، إذ كان خير محفز لنا على الاشتغال

(1) كان موضوع هذه الرسالة: الإصلاحات الاقتصادية والسياسية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790)، نوقشت في يوليو 1987 بكلية الآداب فاس حيث لا تزال مرفوعة.

على هذا المخطوط، الذي تأكد لنا مدى الغنى والثراء اللذين يتميز بهما، ومن ثم قناعتنا بما يشكله تحقيقه ودراسته من إسهام في تكريم الرجل يبعث تراثه المكتوب والتعريف بثتى جوانب نشاطه الدبلوماسي والعلمي، وإغناء حقل الدراسات التاريخية المتصلة بعلاقات المغرب مع قوى حوض البحر المتوسط وأوضاع هذه القوى- وخاصة الدولة العثمانية- كما رآها وروى عنها سفير مغربي يمثل النخبة المخزنية عهدذاك.

فكتاب الإحراز زاخر بمعطيات عن أوضاع عاصمة الإمبراطورية العثمانية وولاياتها العربية تنم عن دقة الملاحظة لدى السفير المغربي، وانتباهه إلى مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والجغرافية التي أورد عنها صورا تبدو واقعية ومحايدة إلى حد بعيد، رغم حتمية تأثير ذاتيته على الصور التي كونها. ومع ذلك تسهم شهاداته في استكمال الصورة عن تلك الأوضاع بمقارنتها مع مختلف المصادر التي تناولت الفترة، بحيث نكتشف عدم دقة العديد من الصور التي التفتت بأوضاع الإمبراطورية العثمانية في الدراسات التاريخية الأوربية والعربية على السواء. وإلى جانب المادة الجغرافية والتاريخية التي يتضمنها المؤلف فإن من مميزاته كما سنفصل في ذلك إirاده لنصوص ثمينة تسعف الباحثين في شتى الحقول الأدبية والصوفية وغيرها .

ولاعجب في أن نقف على مخطوط في مثل هذا التنوع والغنى والطرافة إذا علمنا مكانة وقدر صاحبه، ذلك السفير المتضلع الذي اكتسب رصيدا ثقافيا غير عادي وحنكته تجاربه واهتماماته بشؤون حوض البحر المتوسط، مما جعله ملاحظا دقيقا وناقدا منفتحاً لما كان يقف عليه في رحلاته .

بيد أن المفارقة هي الإجحاف الذي لحق هذه الشخصية الفذة من طرف مؤرخينا، فرغم صعود نجمه في سماء دبلوماسية السلطان سيدي محمد بن عبد الله، والأدوار الخطيرة التي اضطلع بها بإسهامه المباشر في تدشين عهد القطيعة مع قرون من العداة والتوتر والحذر في علاقات المغرب مع جيرانه الأوربيين، كان نصيب ابن عثمان الإهمال وغض الطرف من قبل كتب

التاريخ، إذ يواجه الباحث في حياته وإسهاماته صمت أغلب المصادر واكتفاء النادر منها بشذرات وشتف تبخس حق الرجل، وهي التي كانت سخية مع أخبار أشخاص دونه علما ووجاهة وخدمة لمصالح بلده. من هنا محاولتنا جمع أكثر ما يمكن أن تسعف به المصادر عن هذه الشخصية وإسهاماتها واستنطاق النصوص للكشف عن خاصياتها وسجاياها دون تعسف أو إجحاف.

وغير خاف أن ابن عثمان تكون في مدرسة السلطان سيدي محمد بن عبد الله الدبلوماسية التي طبعت تاريخ العلاقات المغربية مع الخارج بطابع متميز، ينم عن إدراك واضح لمتطلبات الظرف التاريخي ووعي باستحالة الاستمرار في القطيعة مع العالم الخارجي؛ في هذا السياق أبان ابن عثمان عن مؤهلات وكفاءات جعلته من أنجب الدبلوماسيين المغاربة في ذلك العهد، مما يفسر اعتماد سيدي محمد وابنيه مولاي اليزيد ومولاي سليمان عليه، ولا عجب إن كانت سفارته إلى إستانبول- التي ألف عنها المخطوط قيد الدراسة- تدخل في إطار استراتيجية سيدي محمد الدبلوماسية المتصلة بأوضاع البحر المتوسط وموازين القوى داخله.

والأكيد أن قارئ إحراز المعلى والرقيب سيسافر في رحلة ممتعة في الزمان والمكان ويخرج بفوائد علمية شتى تهم مختلف العلوم، كما لن يعدم تذوق أجمل الشعر وأعذب النثر. وحسبنا أننا حاولنا تسهيل هذه الرحلة بما أسعفنا من رسم المعالم راجين أن يكون التوفيق حليفنا في ذلك.

1- أهمية مخطوط إحراز المعلى والرقيب⁽²⁾

انطلاقا من واقع الدراسات التاريخية الأوربية المتصلة بأوضاع الدولة العثمانية التي نحتت لها صورة سادت لمدة طويلة في أوساط الباحثين، نعتقد أن التعويل على مصادر أخرى يسهم لا محالة في كشف الواقع التاريخي لهذه الدولة، خصوصا إذا كانت من وضع طرف محايد نسبيا

(2) اقتبسنا هذه النقاط من الدراسة التي أفردنا لها جزءا قائما بذاته في أطروحتنا لنيل دكتوراه

ومتحرر من الخلفيات التي تحكم في نظرة الأوربيين.

من هنا نعتقد جازمين أن ملاحظات ومشاهدات السفير والوزير والمؤرخ المغربي محمد بن عثمان المكناسي - المتميز بدقة الملاحظة وسعة الإطلاع - رغم تصنيفها ضمن التقارير التي تنظر إلى أوضاع الدولة العثمانية من "الخارج"، تساهم في تصحيح كثير من المقولات التي علفت بتاريخ العثمانيين، من جراء الاعتماد شبه المطلق على كتابات وتقارير الأوربيين، بل يمكن الذهاب إلى أن مخطوطه يتخذ موقعا وسطا، فهو عربي مسلم غير خاضع للحكم التركي، له غيرة على إبراز مظاهر القوة والمنعة في هذه الدولة الإسلامية باعتبارها مكسبا للإسلام والمسلمين، وفي ذات الوقت لم يتردد في ذكر مناحي الضعف والجوانب السلبية في شتى مجالات الحياة كما عاينها، مما يجعل هذا المؤلف مصدرا مهما لمعرفة نظرة أحد ممثلي النخبة السياسية لمغرب القرن الثامن عشر لواقع أكبر إمبراطورية إسلامية في ذلك العهد، بشكل يمكن اعتباره مصدرا للتاريخ العثماني من الداخل نظرا للوشائج العميقة التي ربطت المغرب ونخبته بهذه الدولة.

فكتاب الإحراز يقدم رواية لمشاهدات مؤلفه على طول طريق الحج العثماني، بحيث ينفرد ابن عثمان بذلك نظرا لكون جل الرحلات الحجازية المغربية سلكت الطريق التقليدي عبر مصر التي ظل ركب الحاج المغربي يتخذها. وإذا كانت الترجمانة الكبرى تشترك مع الإحراز في ذلك، فإننا نعتقد جازمين أن الزباني اكتفى بنقل رواية ابن عثمان دون التصريح بذلك كما بنا في حينه، علاوة على اختصاره الشديد في وصف مراحل السفر.

على كل لا يملك قارئ إحراز المعلى إلا الإقرار "بكونه الأكثر غنى ودقة وأصالة" من بين الرحلات التي ألفها محمد بن عثمان المكناسي، إذ "لا يقتصر الأمر على كون هذه الرحلة وصفا دقيقا للمدن والقرى التي زارها، بل يتميز كذلك بتنوع وصفه لتلك المدن وتباين تناوله لمقامه في كل واحدة منها. فمثلا تختلف رواية ابن عثمان عن العاصمة العثمانية عما رواه عن القدس اختلافا جذريا، فالأولى تتميز بالطابع السوسيو اقتصادي

والسياسي، في حين أن الثانية روحية أساساً⁽³⁾، فضلاً عما يزخر به المخطوط من موضوعات تنم عن ثقافة إسلامية واسعة، بحيث أظهر ابن عثمان إطلاعا كبيرا في الحديث والتصوف والفقه والأدب وعلوم اللسان⁽⁴⁾.

ومما يضيفي على الإحراز مزيدا من القيمة العلمية ما أبداه واضعه من شغف للعلم والمعرفة، فلم يكن يتردد في السؤال والاستفسار، مما مكنه من الحصول على معلومات من أصولها ضمنها مؤلفه، فزاده ذلك غنى وتنوعا وطرافة.

موجز القول أن تعويلنا على تحقيق ودراسة كتاب إحراز المعلى والرقيب يعزى إلى قناعتنا بما سيقدمه من مساهمة جديدة في التعريف بالإرث التاريخي المغربي المكتوب، وذلك من حيث كونه نموذجا أصيلا للرحلة العامة حسب تصنيف محمد الفاسي، لما جمعت من أغراض شتى فهي "حجازية سياحية اكتشافية سفارية زيارية علمية"⁽⁵⁾.

ولاعجب في أن نقف على مخطوط في مثل هذه الأهمية إذا علمنا مكانة وقدر صاحبه، ذلك السفير والوزير الذي اكتسب رصيدا ثقافيا غير عادي، وحنكته تجاربه واحتكاكاته مع الدوائر العليا في كثير من البلدان، مما جعله ملاحظا دقيقا وناقدا مصيبا لما كان يقف عليه في رحلاته التي تعكس شخصيته ومؤملاته الثقافية والدبلوماسية.

2- اهتمام المؤرخين بالإحراز ومكانته بين مصادر تاريخ الفترة

من المقارقات التي ميزت تراث محمد بن عثمان المكناسي أن رحلته المشرقية التي بينا بعض الجوانب من أهميتها، لم تنل ما تستحقه لدى النخبة

(3) Benaboud, M., The Spiritual Dimension in Ibn Utman Al-Maknasi's Account of Jerusalem (18th century), in la vie sociale dans les provinces arabes à l' époque ottomane, vol. 3, Zaghouane 1988, p. 77.

(4) محمد الفاسي، مقدمة الإكسير، مصدر سابق، ص. ٥٠.

(5) محمد الفاسي، مقدمة الإكسير، ص. ٥٠.

العائلة في مغرب القرن التاسع عشر، رغم ما أثارته من استحسان لدى معاصريه الذين اطلعوا عليها. فقد اعتاد المؤلفون كما هو معلوم أن يعرضوا مخطوطاتهم على ثلة من أقرانهم الذين يتوسمون فيهم الأمانة والصدق، فكان هؤلاء يقرضون العمل شهادة منهم بعلو كعب صاحبه وبقيمتة الأدبية والعلمية. وجريا على هذه العادة كان من حسن حظنا أن نظم ثلاثة علماء قصائد في تقرّظ الإحراز، تسعفنا في معرفة موقف نموذج من النخبة العالة في أواخر القرن الثامن عشر من رحلة ابن عثمان.

ففي تقرّظ محمد العربي بن إسماعيل الناصري للإحراز، ينوه بما تضمنته الرحلة من " علوم جمة تقصر ألسن الفحول عن وصفها " على حد تعبيره، مضيفا:

فكأنها الدر النفيس مضمخ مسكا ذلائله نفيسا عنبر
أو روضة تزهر لفرط بلاغة الفن البديع عليها وشي أحر
شربت بكل زلال علم حكمة وينصر يحيي الدين أبدت نخب⁽⁶⁾.
ولم ينس المقرّظ الإطراء على مؤلف هذه الرحلة الغنية بعلومها
وبلاغتها، في شكل سؤال استنكاري ينم عن قناعته بإمكانات ابن عثمان
العلمية والأدبية، حيث يقول:

" كيف لا وواضعها المرفع في الوري كل العلوم بصدوره تتقرر

ذو وزارة وفصاحة ونباهة ينبئك عنه ما تراه يسط⁽⁷⁾.

ويزكي عالم آخر من البيت الناصري هو موسى بن محمد المكي اطلع على الإحراز ميزات الرحلة، حيث يؤكد أنها " جمعت من الآداب ما أنست به رحلات مشهورة بفضل فصاحة مبنائها "، محيلا على رحلة العبدري في قوله:

* فالعبدري وإن تقدم تاجه يسعى جلي الدر من معناها

(6) التقرّظ الأول، الإحراز، ص. 282.

(7) نفسه.

فيها من التاريخ روض زاهر ومن المناسك ما كفى فتنها⁽⁸⁾.

أما رأيه في كاتب الإحراز، فما من شك في أنه كله إطراء واعتراف بمكانته العلمية حيث يقول:

"تنبي فصاحتها ورقة لفظها بعلوم جامعها الذي أنشأها فرد الزمان وأوحد البلغاء والوزرا من للعلم حاز الجاه"⁽⁹⁾.

وفي تقرّيط ثالث لمجهول نقف على نفس الإطراء للرحلة ومؤلفها، مركزا على فوائدها في إرشاد الحجاج لقضاء المناسك⁽¹⁰⁾.

يتضح مما سبق أن رحلة "إحراز المعلى والرقيب" لم تبق سجينة الرفوف، بدليل اطلاع بعض العلماء عليها وتقرّيطهم لها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن محمد العربي الناصري أرخ لتقرّيطه بأواخر جمادى الأولى سنة 1210هـ بمدينة مكناس، مما يعني أن الرحلة عرفت وبدأت تنتشر على الأقل منذ السنة الآنفة الذكر.

سقنا هذه الإشارة لما قد يدور بالذهن من احتمال وجود عوامل حالت دون رواج المخطوط بشكل واسع مباشرة بعد تأليفه سنة 1202هـ، خصوصا ما تضمنه من تحميل مسؤولية الجفاء الذي قوبلت به السفارة خلال جزء كبير من مقامها بإستانبول لإحدى الشخصيات المرافقة لابن عثمان، وكذا تبرمه وتظلمه الذي قد يفهم آنذاك أنه ذو علاقة بالسلطان أو بشخصية كبيرة في مخزنه، علما بأن سيدي محمد بن عبد الله توفي سنة 1204هـ/ 1790، وعرف المغرب بعده وضعاً سياسياً غير مستقر اتسم بتطورات سريعة في عهد مولاي اليزيد. غير أن احتفاظ ابن عثمان بمكانته لدى هذا السلطان الذي اشتهر بثوتر علاقاته مع العديد من رجال دولة أبيه، يجعلنا نذهب إلى أن انتقادات ابن عثمان لبعض الشخصيات النافذة لدى سيدي محمد كان لها

(8) التقرّيط الثاني، الإحراز، نفسه، ص. 282.

(9) نفسه.

(10) التقرّيط الثالث، نفسه، ص. 283.

تأثيرها في تقلص تداول رحلة الإحراز.

بل يمكن الاستنتاج بأنه رغم ادعاء ابن عثمان تأليفه الإحراز بناء على تعليمات السلطان، فإنه أحجم عن تقديم المخطوط لسيدي محمد، الشيء الذي يفسر وضعه بين يدي المقرضين من أصدقائه بعد وفاة السلطان سيدي محمد بنحو ست سنوات على الأقل.

وإذا كان المقرضون الآنف ذكرهم أكدوا أهمية كتاب الإحراز في حياة مؤلفه وفي ذروة مجده السياسي، فإن المؤلفين الآخرين من معاصريه أهملوا ذكر هذه الرحلة، إما لعدم علمهم بتأليفها ومن ثم عدم اطلاعهم عليها أو لسبب آخر لا نملك تحديده. ومن أشهر هؤلاء المؤرخ محمد بن عبد السلام الضعيف السوسي الرباطي، الكثير الإطلاع على أوضاع البلاد وتطوراتها في هذا العهد بالذات، والوثيق الصلة بأوساط الناصريين الذين قرض اثنان منهم الرحلة كما أسلفنا، فقد أورد ذكر ابن عثمان في العديد من الوقائع لكنه لم يشر إلى تأليفه للإحراز.

أما المؤرخ المعاصر بدوره لابن عثمان فهو أبو القاسم الزياني، الذي يعد من كبار شخصيات هذه المرحلة من تاريخ البلاد، لمساهمته الفعلية في صنع أحداثها واحتكاكه المباشر برجالاتها. والأکید أن أبا القاسم، بمكانته المخزنية واهتماماته العلمية، لم يكن ليجهل تأليف ابن عثمان "إحراز المعلى"، وحتى إذا حالت الظروف التي أثرتها سالفاً -والتي قد تكون وراء حرص ابن عثمان على عدم ترويع مخطوطه- دون وصول نسخة منه إلى الزياني، فإنه من الثابت أن هذا الأخير نهل من مخطوط الإحراز، دون التحلي بالأمانة والنزاهة التي يقتضيها عمل العلماء بذكر المظان التي اقتبسوا منها.

فإذا كان الزياني قد أشار في خاتمة الترجمة إلى الرحلات التي اعتمدها بقوله: "إنما رسمت ما شاهدته في الأقاليم التي بلغتني، وغيره نقلته من رحلة العياشي ومحاضرة اليوسي ورحلة البلوي، ورحلة ابن نباتة ورحلة السرخسي للأندلس والمغرب، ورحلة الكردي ورحلة البكري، وأخبار الهند

والسند والصين من تاريخ الإسلام للذهبي ومن تواريخ بعض علماء الهند اجتمعت بهم بالحرم الشريف وبمكة⁽¹¹⁾، فإن نصوصا عديدة وردت في كتابه تشي باقتباسها من كتاب الإحراز، لتطابقها الحرفي والموضوعي كما سبق أن فصلنا في ذلك⁽¹²⁾.

بعد غياب ابن عثمان ومعاصريه، يمكن الحديث عن بقاء الإحراز في زوايا الإهمال خلال القرن التاسع عشر، إذ لم يشر إليه الناصري وهو الذي اطلع على كتابات الزياتي، واستقى منها مادة وفيرة في تغطية كثير من الأحداث. ويرجع الفضل في اعتقادنا في إعادة الاعتبار لهذا المخطوط القيم إلى عبد الرحمان بن زيدان، الذي عول عليه في رواية وقائع السفارة التي ألف عنها الإحراز، إذ لخص أخبار البعثة منذ وداعها للسلطان سيدي محمد بالرباط، وظروف سفرها من طنجة عبر قرطاجنة على ظهر مركب حربي إسباني، وصولا إلى إستانبول والاجتماع بكبار رجال الدولة العثمانيين، آتيا على بعض التفاصيل الواردة في الإحراز بخصوص مراسيم استقبال السفارة أثناء انعقاد الديوان.

كما لخص ابن زيدان مراحل سفر ابن عثمان ورفاقه من إستانبول إلى الحجاز وفلسطين، وعودته إلى المغرب عبر تونس والجزائر، خاتما عرضه بقوله: "وقد فصل ابن عثمان أخبار هذه الوجهة وبين مراحلها بالساعات في رحلته الثالثة المسماة بإحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب، وكان جمعه لها بأمر المترجم له (سيدي محمد) عند سفره حسبما أشار لذلك صدرها⁽¹³⁾".

أما أكثر الباحثين المعاصرين اهتماما بتراث ابن عثمان المكناسي، ومن له الفضل في إثارة انتباه الباحثين إلى أهميته فهو الأستاذ محمد الفاسي، الذي يعتبر تقديمه لكتاب "الإكسير في فكاك الأسير" مرجعا للدراسات

(11) الزياتي، الترجمة، مصدر سابق، ص. 581.

(12) أنظر الفصل الثاني من القسم الأول من هذه الدراسة.

(13) ابن زيدان، الإنحاف، مرجع سابق، ج. 3، ص. 305.

المتخصصة في حقل الرحلة، حيث يشير إلى أنه " اكتشفت الآن رحلات ابن عثمان الثلاث"⁽¹⁴⁾ بعدما كان بعضها يعتبر ضائعا، فبادر إلى تدشين مشروعه العلمي الهادف إلى "نشر أكثر ما يمكن من الرحلات في سائر هذه الأنواع المذكورة"⁽¹⁵⁾ بتحقيق رحلة ابن عثمان الأولى -الإكسبر-.

واللافت أن السفارة التي كانت موضوعا للإكسبر لم يتناولها أي مؤرخ مغربي، فكانت الكتابات الأجنبية مصدر معرفة الباحثين المغاربة بوقائعها كما يورد الفاسي، مضيفا أنه وقف على إشارة إلى هذه السفارة في كتاب الإحراز موضوع دراستنا.

ومما له دلالة في هذا المقام أن وقوف محمد الفاسي على مكانة ابن عثمان وأهمية تراثه المكتوب يعزى إلى اشتغاله على رحلة إحراز المعلى⁽¹⁶⁾، حيث يقر أنها "هي التي دفعتني للبحث عن شخصية ابن عثمان الفذة"⁽¹⁷⁾، مترجما اهتمامه وإعجابه في العديد من الدراسات والمقالات عن أدوار ابن عثمان الدبلوماسية ومخطوطاته⁽¹⁸⁾.

وفي السنوات الأخيرة تعددت الدراسات التي تناولت جوانب من هذا المخطوط أو ذاك من مخطوطات ابن عثمان، ونسوق في هذا المقام على سبيل المثال دراسات كل من عبد الهادي التازي ومحمد بن عبود التي اهتمت بالبدر السافر وإحراز المعلى بالخصوص⁽¹⁹⁾، كما لا يفوتنا التنويه بالعمل البيبليوغرافي للمرحوم الأستاذ المنوني⁽²⁰⁾ الذي ورد فيه وصف لمخطوطات

(14) محمد الفاسي، مقدمة الإكسبر، مصدر سابق، ص. س.

(15) نفسه، ص. ز.

(16) يورد الفاسي أنه أعد هذه الدراسة كرسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا من جامعة باريس في الثلاثينات، ووعد بنشرها ضمن مشروعه لكن ذلك لم يتم. ونود هنا الإشارة إلى أننا لم نتمكن من الرجوع إلى هذه الدراسة.

(17) محمد الفاسي، مقدمة الإكسبر، مصدر سابق، ص. س.

(18) انظر لائحة هذه الأعمال في البيبليوغرافيا.

(19) يرجع إلى البيبليوغرافيا للوقوف على هذه الدراسات.

(20) المصادر العربية، مرجع سابق.

ابن عثمان وأرقامها في الخزانات المحفوظة فيها، مما ساهم في التعريف بها وتسهيل وصول الباحثين إليها.

خلاصة القول إن مخطوط إحراز المعلى والرقيب يعتبر تحفة تاريخية وأدبية وصوفية، تجعلنا نكمل الصورة التي رسمتها رحلتنا ابن عثمان إلى أوربا عن ثقافة الرجل وشخصيته، كما تسعفنا بمعطيات عن أحوال البلدان التي زارها قلما تجود بها المصادر التاريخية التقليدية.

3- المخطوط ونسخه

توجد حسب تحريأتنا ولحد علمنا نسختان من مخطوط إحراز المعلى والرقيب كما يؤكد ذلك الأستاذ الحجة محمد المنوني، وهما معا بالخزانة الحسينية بالرباط: تحمل الأولى رقم 5264 وتقع في 174 ورقة تشمل 348 صفحة مقياس 150/21 سم، كل صفحة تضم 17 سطرا بمعدل عشر كلمات في كل سطر، وهي "مكتوبة بخط مغربي مجوهر دقيق مليح مجدول ملون"⁽²¹⁾ من النوع المبسوط⁽²²⁾. وكما لاحظ الفقيه المنوني لم يرد فيها تاريخ النسخ ولا اسم الناسخ. إلا أن هذه النسخة تعرضت لبتري ذهب بالصفحات 9، 10، 11 و12، ولا ندري ظروف هذا التلف خصوصاً وأن النسخة ظلت في حالة جيدة.

أما النسخة الثانية فهي تامة وتحمل رقم 12307ز⁽²³⁾، خطها مغربي جميل⁽²⁴⁾ شبيه بسابقتها، مما يحمل على الاعتقاد أن كتابتهما تمت من طرف نفس الناسخ، وتقع في 167 ورقة تضم 332 صفحة مقياس 4، 20/ 14

(21) المنوني محمد وبنعبد محمد، "رحلة ابن عثمان ..."، مقال سابق، ص. 25.

(22) المنوني محمد، تاريخ الوراقة المغربية، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1991، ص. 13.

(23) لم يرد الحرف التمييزي "ز" مع رقم المخطوط إلا في آخر صفحة، مما جعل المنوني لا يثبت في مصادره العربية، وكذلك فعل مؤلفو فهرس الخزانة الحسينية، ومعلوم أن هذا الحرف يدل على المخطوطات التي أصلها الخزانة الزيدانية.

(24) عنان، ع. م.، المدبر ع. وحنشي م. س.، فهرس الخزانة الحسينية، قسم التاريخ والرحلات والإجازات، مراجعة شوقي بنين، ج. 1، الرباط، 2000، ص. 25.

سم، عدد أسطر كل صفحة 18⁽²⁵⁾. ومما يميز هذه النسخة أنها مصدرية بثلاثة قصائد من البحر الكامل⁽²⁶⁾، يقرض فيها أصحابها رحلة الإحراز كما أسلفنا، وحرصوا على كتابتها بخطوط أيديهم، كما انتبه أحدهم وهو محمد العربي بن إسماعيل الناصري إلى تأريخ تقريظه الذي تم في جمادى الأولى من سنة 1210هـ بمكناس.

وهذه النسخة الأخيرة هي التي اعتمدناها أساسا في التحقيق ورمزنا لها بحرف (أ)، وكانت في ملك عبد الرحمان بن زيدان، حيث كتب في طرة الصفحة الأولى منها: "صار في نوبة أفقر الوري وأحوجهم لرحمة مولاه عبد الرحمان بن زيدان دبر الله أمره وهده"، وعنهما قال صاحب الإتحاف: "وهي موجودة بخطه في مكتبتنا أيضا"⁽²⁷⁾. وقد جاء عند ابن سودة أن محمد الفاسي "قال في حقها (رحلة الإحراز)...وفي خزانة المؤرخ مولاي عبد الرحمان بن زيدان نسخة فريدة منها، وقد تفضل ومكنني منها عندما كنت أدرس بباريز، فأخذت منها نسخة وكتبت بحثا عن مؤلفها، وجعلت لها تعاليق وتقدمت بذلك لنيل شهادة الدراسة العليا"، ويردف ابن سودة قائلا: "والنسخة الموجودة بالخزانة المذكورة هي بخط مؤلفها تقع في سفر وسط"⁽²⁸⁾.

والحقيقة أن فحص النسخة المعنية (أ) لا يثبت أنها كتبت من طرف ابن عثمان شخصيا، لكون الخط الذي كتبت به يختلف عن خطه، بل نرجح أنه أشرف على كتابتها كما يورد الأستاذ المنوني⁽²⁹⁾ وتعهدها بالتصحيح بخط يده، بحيث نقف على آثار مراجعته للنسخة من بدايتها إلى نهايتها، فتراوحت

(25) جاء عند الأستاذين المنوني وبنعبود خطأ أن عدد سطور صفحات هذه النسخة بدورها 17 سطرا، المقال السابق.

(26) كتبت هذه القصائد في صفتين في بداية المخطوط، الشيء الذي يكمل عدد أوراقه المشار إليه.

(27) ج. 4، ص. 163.

(28) عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج. 2، ط. 2، البيضاء، 1965، ص. 334.

(29) محمد المنوني واما محمد بن عبود، مثال سابق، ص. 25.

التصحیحات بین كلمة أو جملة في هذه الصفحة أو تلك إلى فقرات بكاملها⁽³⁰⁾.

وتفيد هذه التصحيحات - وخاصة الواردة في الصفحات 155 و التي تليها - المتميزة بتعدد سطورها في التأكد من خط ابن عثمان، بمقارنته مع بعض الوثائق التي كتبها شخصيا، ممثلة في صورة لرسالة بعثها من قادس إلى الكوند دي أراندة خلال مقامه بإسبانيا سنة 1792⁽³¹⁾، والرسالة الشهيرة التي يخبر فيها نفس الوزير بتكليفه من طرف مولاي سليمان بكل الشؤون المتصلة بالعلاقات مع الأوربيين⁽³²⁾، بحيث يظهر فعلا أن ما كتب في طرر المخطوط من وضع ابن عثمان.

ومما يحملنا على استبعاد نسخ ابن عثمان للإحراز بنفسه أنه في تلك الأثناء كان متبوعا مكانة سامية في المخزن، وكانت مهمته منذ البداية كتابة أوامر السلطان وبالتالي كان على رأس جيش من الموظفين الرسميين المتخصصين في النسخ والتنميق والوراقة، فضلا عن أن الجاه الذي حصل عليه يجعل العديد من النساخ والكتبة يتوقفون إلى خدمته⁽³³⁾.

كما نكاد نجزم بناء على القرائن المتوفرة بين أيدينا أن النسخة (ب) كتبت من طرف نفس الناسخ بعد تصحيح ابن عثمان للنسخة المبيضة المعتمدة (أ)، بدليل إدخال التصحيحات والاستدراكات الواردة في طرر (أ) في متن (ب)، مما يفسر زيادة عدد صفحاتها بالمقارنة مع النسخة (أ)⁽³⁴⁾.

(30) هم تصحيحات ابن عثمان الصفحات التالية من النسخة (أ): 3-12-13-17-23-28-29-32-33-39-44-50-55-56-106-137-155-195-215-250-251-275-321.

(31) انظر صورة الوثيقة في: Arribas Palau, M., *op. cit.*, p. 175.

(32) انظر صورة للوثيقة في الإكسبر، ص. 5.

(33) يورد الأستاذ المنوفي في هذا الصدد عددا كبيرا من النساخ المكناسيين اشتهروا في هذا العهد، بل نجد أحدهم من بيت آل ابن عثمان، انظر تاريخ الوراقة، مرجع سابق، ص. 144 و ص. 145 و ص. 186.

(34) نلنت النظر بخصر من عدد الصفحات أنه إلى جانب هذا العامل هناك فارق في عدد أسطر الصفحات بين النسختين كما سبق في وصفهما.

إضافة إلى ندرة تدخلات ابن عثمان بالتصحيح بحيث لا نعثر على أثر لذلك إلا في الصفحتين (41 و 323)⁽³⁵⁾ من هذه النسخة.

ومما يبرر اعتمادنا النسخة (أ) باعتبارها الأصلية إضافة إلى ما سبق، كتابة القصائد المقرضة لها بخط أصحابها، الشيء الذي يدل على كونها النسخة التي سلمهم إياها ابن عثمان وبالتالي هي التي احتفظ بها لنفسه.

إلى جانب هاتين النسختين المخطوطتين، توجد نسخة مصورة على الميكروفيلم بالخزانة العامة بالرباط تحمل رقم 2327، وهي عن أصل النسخة الموجودة بالخزانة الحسنية تحت رقم 5264 أو (ب) كما رمزنا إليها في تحقيقنا، ويحمل الميكروفيلم رقم 115 ضمن لوائح الخزانة الأخيرة .

كما أورد عبد الله عنان خبر نسخة أخرى بالخزانة الحسنية تحمل رقم 1440 تقع على حد قوله 'في 167 ورقة، 19,5 - 14 وفي الصفحة 18 سطراً'⁽³⁶⁾، لكن الأكيد أنه وقع خطأ في ترقيمها، فتم تدارك ذلك عند مراجعة الفهارس⁽³⁷⁾؛ ولعل هذا ما جعل باحثة تذهب إلى وجود ثلاث نسخ مخطوطة بالخزانة الحسنية، لكن الأرقام التي أوردتها خاطئة: 2420 و 2564 و 12750، كما تقدم النسخة المصورة بالخزانة العامة تارة تحت رقم 1888 وتارة أخرى 2327، مما يعري المعطيات التي أوردتها من كل دقة علمية ومصادقية⁽³⁸⁾.

وفي مؤسسة علال الفاسي بالرباط يوجد مجموع مخطوط تحت رقم ع 708 يضم جزءاً من الإحراز، عنوانه ناسخه بـ "إحراز العلي والتقريب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب"، ويضم هذا المجموع ثلاثين صفحة (من ص. 160 إلى ص. 190) تتناول ما

(35) نشير هنا إلى أن الصفحة 175 من (ب) ملئت حواشيتها الأربع بكتابة لم نستطع لصغر حجمها الجزم بتشابهها مع خط ابن عثمان.

(36) فهارس الخزانة الملكية، المجلد الأول، الرباط، 1980، ص. 24.

(37) عنان وآخرون، مرجع سابق، ص. 25.

(38) انظر تحقيق مليكة الزاحدي للبدر السافر، ص. 42.

جاء به ابن عثمان عن المهدي المنتظر والمهدوية، وقد وصف واضح فهرس مخطوطات المؤسسة المذكورة ابن عثمان بالشيخ، ملاحظا أنه لم يقف على من ذكر الإحراز⁽³⁹⁾.

4- تاريخ وظروف تأليف الإحراز.

يستهل محمد بن عثمان المكناسي مخطوطه موضوع الدراسة بالتأكيد على أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله لما عينه سفيرا لدى السلطان العثماني^٥ أمرني أدام الله اعتناؤه وخلد في الدهر بالجميل ثناءه أننا إذا تقضينا من القسطنطينية غرض الرسالة مع تحصيل رؤية بدر تلك الهائلة، نستعد للسرى إلى أم القرى لنتقضى مناسك الحج ووظائف العج والشج، ونشرق هديته على أهل الحرمين الشريفين التي أصحابنا وبثوابها أتحفنا، وعهد إلينا أدام الله سعادته وحرس مجادته، أن نرسم له ما تتفق رؤيته في هذا السفر في البدو والحضر، فحاولت أن لا أرسم شيئا إلا حررته ولا آتي بشيء إلا وضحته، امثالا لأمره الذي طبق الآفاق، وتتميما لاعتناؤه الذي أراق وخلد في بطون الأوراق⁽⁴⁰⁾.

ونظرا لطول مدة الرحلة وثراء المادة التي تضمنها المخطوط، يحق لنا التساؤل عن تاريخ وكيفية تدوين المؤلف، فهل أقدم ابن عثمان على تدوين مشاهداته و اقتباساته خلال مدة الرحلة، أم اعتمد على ذاكرته لكتابة مؤلفه بعد رجوعه إلى المغرب؟

يكتسي هذا السؤال أهميته حين نستحضر أن "الذاكرة هي الوسيلة الأساس في تسجيل المشاهدات ونقل الأخبار. نعم نجبرنا الرحالة في بعض الأحيان أنه كان يدون ما يراه ويكتب ما يسمعه أو يبلغه، ولكنه يشعرنا مع ذلك أن الكتابة والتدوين يظلان أمرين ثانويين، وأن المعول على الحفظ

(39) عبد الرحمان بن العربي الحريشي، الفهرس الموجز لمخطوطات مؤسسة علان الفاسي، ج. 1، الدار البيضاء، 1991، ص. 267.

(40) ابن عثمان، الإحراز، ص. 4.

والذاكرة. ولذلك كانت الكتابة عند الرحالة تذكرا واستعادة لوقائع ومشاهدات قد يكون مضي عليها في بعض الأحيان زمن طويل، لا تخلو فيه الذاكرة من التعرض لآفة النسيان أو جعل الوقائع تضطرب في تسلسلها والتواريخ تختلط مع بعضها البعض، ولا تخلو بطبيعة الأمر من جعل انطباعات الأمس تمتزج بمشاعر اليوم⁽⁴¹⁾.

فمعلوم أن الرحلة تستغرق وقتا قد يطول أو يقصر، ولا تتم كتابتها إلا بعد الفراغ من التنقل واستقرار عصا التسيار، حيث يعود الرحالة إما إلى ما دونه خلال سفره إذا كانت ظروف تنقله سمحت له بذلك، وإما بالتعويل على "ما حفظته ذاكرته واعتمل في صدره، والعمدة في الرواية والإخبار ما سلم من أثر النسيان"⁽⁴²⁾.

والحقيقة أن ابن عثمان يصرح أنه امتثالا للأمر السلطاني له بتدوين مشاهداته خلال سفره في البدو والحضر، حرص على ألا يرسم شيئا إلا حرره، مما يفيد بأنه واطب على تدوين ما تتفق رؤيته ومعاينته وسماعه خلال سفره، كما أنه من المنطقي الجزم بأن الدقة التي اتسمت بها رواياته وأوصافه للعديد من مظاهر الحياة في الإمبراطورية العثمانية، والنصوص الطويلة التي نقلها عن العديد من الكتب والمظان، والأسانيد الطويلة التي أوردها بأسمائها الكاملة، والتراجم العديدة والأشعار الغزيرة التي نقلها، كل ذلك لم يكن من السهل - إن لم يكن مستحيلا - الاعتماد فيه على الذاكرة مهما كانت وقادة وقوية.

ومما يثبت قيام ابن عثمان بتدوين مسودة رحلته خلال السفر، الاقتباسات التي نقلها عن كتب معينة وقف عليها خلال مقامه بحاضرة الدولة العثمانية إستانبول، إذ نجده مثلا يقترح إيراد موجز عن تاريخ دولة آل عثمان نقلا عن "تاريخ القرماني في كتابه أخبار الدول وآثار الأول"⁽⁴³⁾.

(41) سعيد بن سعيد العلوي، مرجع سابق، ص.ص. 14-15.

(42) نفسه، ص. 17.

(43) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 20.

ليأخذ عن هذا المصدر صفحات طويلة.

ثم إن سفيرنا طال به المقام بالعاصمة العثمانية، مما مكنه من التفرغ للمشاهدة و التعرف على معالم هذه المدينة العظيمة، وكذلك استغلال الاستقرار لارتياح المكتبات والنهل منها، فيها هو يشير إلى هذه المؤسسات بإعجاب حيث يقول: "وأما ما في هذه المدينة من خزائن الكتب المعبرة، التي لا يوجد مثلها في سائر البلاد، فشيء لا يفي به تقرير ولا يؤديه تعبير، كل مسجد له خزانة وهناك خزائن أخرى من غير المساجد، ويظل الجميع مفتوحا والقيم حاضر، ومن أراد أن يطالع أو ينسخ يظل هنالك حتى يقضي غرضه، ولا تخرج ورقة من هنالك⁽⁴⁴⁾."

وعلى طول المخطوط يثبت ابن عثمان أنه نسخ أبوابا كاملة من مظان متعددة، سواء تلك التي وقف عليها في المكتبات والخزانات أو اقتناها خلال سفره، أو تلك التي كان يملكها في خزائنه الخاصة، فقلما طرق موضوعا ولم يأت باقتباس من مصدر أو أكثر.

محمل القول إن قرائن عديدة تجعلنا نذهب إلى أن محمد بن عثمان المكناسي ألف رحلته اعتمادا على كراسات دون فيها المادة التي ضمنها إياها خلال السفر، وبعد رجوعه إلى المغرب جمع كراساتة وتنقحها ونظمها، وهي العملية التي تمت بين أواخر شهر شوال -- تاريخ عودته إلى مدينة مكناس - وممنتصف ذي الحجة من سنة 1202هـ تاريخ الانتهاء من تبسيط المخطوطة⁽⁴⁵⁾. ولعل الحيز الزمني - حوالي شهر ونصف - الذي استغرقته كتابة المخطوط يؤكد فعلا بأن ابن عثمان اقتصر على ترتيب و تنقيح ما دونه خلال الرحلة، كما ينم عن أن الكتابة والنسخ كانا من عمل متخصصين محترفين.

علاوة على ذلك لم يفصح ابن عثمان عن المكان الذي كتب فيه مخطوطة

(44) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 42.

(45) نفسه، ص. 281.

"إحراز المعلى" وإن كنا نرجح أنه مكناس، ارتكازاً أولاً على قصر المدة الفاصلة بين عودته والفراغ من التأليف، وهي المدة التي نعتقد أن السلطان منحها لكتابه للاستراحة، ثم إن الصفحات الأخيرة من المخطوط خصصها ابن عثمان لذكر مسامراته ومداعباته وجلساته الخيمية مع أصدقائه بمدينة مكناس حيث يقول: "ومرت لنا حقبة في محادثة الإخوان ومجازبة أهداب الآداب مع الفقهاء والأدباء أولى الأبواب"⁽⁴⁶⁾.

كما يمكن أن نستشف من نص رسالة لصديقه البيجري أنه أطلع أصدقائه هؤلاء خلال هذه المسامرات والجلسات على مؤلفه، إن لم يكونوا ساهموا في نسخه وتنقيحه، مدعاة هذا القول ما ورد في الرسالة المذكورة حين خاطب البيجري ابن عثمان قائلاً: "المبرز في العلا المحرز للمعلى"⁽⁴⁷⁾، وهي مفردات قريبة كما نرى من عنوان المخطوط.

ومن بين العوامل التي ترجح القول بكتابة الإحراز في مكناس خلال هذه المدة، رغبة ابن عثمان في تقديم المخطوطة للسلطان سيدي محمد عند رجوعه إلى دار المخزن، فقد آنس لنفسه عذر المغامرة بالكتابة والتأليف بقوله: "على أن أرياب هذا الشأن الموسومين بالإجادة والإحسان، الذين انقادت لهم البلاغة بأرسان، لا يدخل أحد منهم ميدان التصنيف، والجولان فيما فيه من صعوبة الترصيف إلا اعتذر، وإن كان ممن نظم أو نثر، فإن لم يسقط عثر، فتجد الفحول بمهدون لأنفسهم الأعذار عند ذوي العلم والمقدار، فكيف حال من هو على أنديتهم متطفل، وللجولان في ميادينهم غير متأهل... وها أنا قد قررت عجزى وألقيت السلاح، وعذري في الدخول في الفضول بأمر مولانا الخليفة بدا ولاح، وإلى ما أمرت به أعتمد، ومن الله سبحانه أستمد وبه أعتمد"⁽⁴⁸⁾.

(46) نفسه، ص. 272.

(47) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 274.

(48) نفسه، ص. ص. 4 - 5.

يتضح من هذا الكلام أن ابن عثمان ألف رحلته تنفيذاً لأمر السلطان فهو كاتبه وسفيره، زد على ذلك أن إهداء تأليف من هذا النوع للسلطان يعتبر مصدر فخر ووسيلة لزيادة الحظوة والمنزلة خصوصاً لدى سلطان عالم مصنف .

5 - الأسلوب واللغة والتوثيق في الإحراز

باعتبار ابن عثمان كاتباً سلطانياً وتأليف رحلته بناء على أوامر سيدي محمد كما صرح بذلك، وجرباً على عادة كتاب المخزن، بذل قصارى جهده لصياغة كتابه في أسلوب أدبي رفيع يعكس مدى تمكنه من ناصية اللغة وأسرارها.

والحقيقة أن الأسلوب الذي كتب به الإحراز لا يختلف كثيراً عن مثيله في الرحلات المغربية، ولا عجب في ذلك إذا علمنا أن ابن عثمان نهل من العديد منها وحرص على ألا يخرج عن نهجها، مما يجعل الباحث يقف على ملاحظة أساسية في هذا الصدد، وهي أن أسلوبه لم يستمر على وتيرة واحدة ولم يلتزم منحى محدد في الكتابة، بل يتغير تبعاً للموضوع المطروح.

دليل ذلك أن ابن عثمان اختار أحياناً أسلوباً خال من أي تأنيق أو زخرفة، "متحرر من السجع وقيود الصنعة المختلفة، يحدو فيه الكاتب توصيل الأفكار وتأدية المعاني"⁽⁴⁹⁾، مما جعله يعول على استعمال الألفاظ الواضحة والتراكيب البسيطة السليمة.

وقد اعتمد هذا الأسلوب خلال تناوله لموضوعات معينة مثل القضايا الفقهية واللغوية، أو التراجم وسرد يوميات رحلته، تقتصر على إيراد عينات منها.

فبالنسبة للموضوع الأخير يكفي قراءة حديثه عن السفر من مدينة قرطاجنة الإسبانية، والرسر بميناء سرقوسة الصقلي ووصفه لهذه المدينة⁽⁵⁰⁾،

(49) الشامي، مرجع سابق، ص. 620.

(50) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 9.

أو وصفه لوصول السفارة إلى إستانبول والاستقبال الرسمي المخصص لها، وبعد ذلك حضوره انعقاد الديوان العثماني وتتبعه الدقيق للحدث⁽⁵¹⁾، لتبين مدى البساطة والسلاسة في الأسلوب الذي اعتمده ابن عثمان.

أما بخصوص المسائل الفقهية، فإن جدية موضوعاتها فرضت صياغتها في أسلوب ولغة واضحين وبسيطين كذلك، والملاحظ هنا أنه عول على اقتباس نصوص طويلة من مظان مختلفة تناولت مثل هذه الموضوعات، مما انعكس على أسلوب مخطوطه، فالانتقال من أسلوبه الخاص إلى أسلوب غيره واضح في المتن، خصوصاً وهو يحيل على المصادر التي أخذ عنها.

من ذلك مثلاً الصفحات الطويلة التي أفردتها لموضوع المهدي المنتظر ومختلف الآراء المرتبطة به، بمناسبة حديثه عن ظهور رجل في داغستان يقال له منصور يعتقد أنه مقدمة المهدي، فما كان منه إلا التعويل على مصادر قديمة في الموضوع مثل "مشكاة المصابيح" للبغوي و"شرح المشكاة" لعلي القاري، و"العرف الوردی في أخبار المهدي" للحافظ السيوطي وغيرها من المؤلفات. كما نجد الأسلوب إياه في الصفحات المفردة للتراجم، سواء كانت من تأليفه هو أو اقتبسها من تأليف غيره.

وفي المقابل يبدي ابن عثمان أحياناً كثرة عناية واضحة بأسلوبه إلى حد التكلف، بحيث يلتزم الزخرفة والصنعة، بالإكثار من السجع والجناس ومراعاة التوازن بين الجمل، في تأثر واضح بالمدرسة البديعية التي سادت لدى كثير من الرحالة المغاربة.

ومما له دلالة في هذا الباب أن هذا النوع من الأسلوب المتأنق هو ما استهل به كتاب الإحراز، إذ ورد في الصفحة الأولى من المخطوط قوله: "الحمد لله العليم الخبير، العلي الكبير، المتفرد بالخلق والتدبير، المتكفل بأرزاق عباده بما اقتضت حكمة التقدير، المفضل من يشاء من خلقه على من يشاء في رزقه، فمنهم غني وفقير، فلا تخرج نفس من الدنيا إلى أن تصل

(51) نفسه، ص. 14 وما بعدها.

من رزقها وآجالها إلى منتهاها، وأرزاق لنا متفاوتات فمن لم تأته منا أتاها، نحمده سبحانه وتعالى على ما ألهم، ونشكره على ما أنعم⁽⁵²⁾. وقد سار في الصفحات الأولى على نفس الأسلوب المنمق، مذكرا القارئ بما دأب عليه الفقهاء من استهلال حديثهم بجمل موزونة مسجوعة، فهذا هو يواصل حديثه عن تكليف السلطان له بالسفارة وتدوين مشاهداته خلالها حيث يقول: "لكن كيف الطيران بلا جناح، والبروز إلى الكفاح من غير سلاح، على أن أرباب هذا الشأن، الموسومين بالإجادة والإحسان، الذين انقادت لهم البلاغة بأرسان، لا يدخل أحد منهم لميدان التصنيف، والجولان فيما فيه من صعوبة الترصيف إلا اعتذر، وإن كان ممن نظم أو نشر، فإن لم يسقط عثر، فتجد الفحول يمهدون لأنفسهم الأعذار عند ذوي العلم والمقدار، فكيف حال من هو على أنديتهم متطفل، وللجولان في ميادينهم غير متأهل، مع ترامي الأرضين والبلدان، وفراق الأوطان والولدان، جواب آفاق، رفيق للوعة وإشفاق، ونجي فؤاد خفاق"⁽⁵³⁾.

والجدير بالإشارة في هذا المقام، أنه لجأ إلى هذا الأسلوب المنمق بعد مقدمته المشار إليها في مواقف معينة استدعت التعويل على المحسنات البديعية، مما جعل بعض المقاطع النثرية التي صاغ أسلوبها على هذا المنوال أقرب إلى الشعر، لعدوبة ألفاظها وانسجام جملها وموسيقية إيقاعها. من ذلك مثلا وصفه للحفل الراقص الذي نظمه أهل ميناء سيراكوزة الصقلي على ظهر المركب الذي يقله حيث يقول: "ثم شرعوا في الرقص رجالا ونساء، من غير تأخير ولا إنسا، لأن ذلك عندهم من العوائد، وما لا ينخرم من القواعد، وباتوا بليلة ذات مراح، لا يعبأون بمن غدا أو راح، من كل فتانة الطرف، كثيرة الدلال والظرف، مهرة مدللة للصبابة على حرف، ودرة عن اللبس مصونة بيضاء مكنونة، فلا ترى أعجب من ليلتنا بظباء القفار فوق أمواج البحار"⁽⁵⁴⁾.

(52) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 2.

(53) نفسه، ص. 4.

(54) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 11.

وحيث يفرض الموضوع على المؤلف اتخاذ أسلوب بسيط وجاف، كما هو الحال مع مشاهداته خلال مراحل السفر، فإننا نكاد نلمس أنه يتحين الفرصة لمعانقة أسلوبه المنمق والشاعري. فوسط وصفه لمصاعب الطريق التي فرضتها تضاريس آسيا الصغرى، لم يفته تسجيل صور جميلة زادها الأسلوب الذي صيغت به جمالاً، من ذلك قوله عن البلاد التي مر منها منذ خروجه من إستانبول إلى خان الوزير: "... وماؤها كثير وأثرها كبير، وظلها من كثرة الأغصان ظليل ونسيمها عليل، ولا تمر بساقية فضلاً عن وادي إلا على قنطرة مضروبة، ولا بمكان ذي وحل إلا على جسر بحجارة مرصفة منصوبة" (55). وفي مكان آخر يصف المنطقة التي مر منها بقوله: "ومن الغد سافرنا في بلاد منفسحة، وفجاج مفرحة ومياه مطردة، وطيور مغردة وأزهار على أنواع متعددة، ما رأيت أكثر من هذه الأرض مياهها عذبة، مسامتين لجبل عن يميننا انبجست بالماء المعين عيونه، وتتابع هديره وأنيبه، قد استوعب ذلك السهل سقيا، وكساه من حله السندسية رعا، وعذب منه الهواء، وطاف في جوانبه النهر وعلى سوق أشجاره صله إلتوى" (56).

وقد لا نكشف سرا إذا قلنا إن الأسلوب الذي يختاره أي مؤلف مرتبط بحالته النفسية، وخاصة بالنسبة لرحالة يكتشف بلادا غير بلاده، ويواجه مواقف متغيرة بعيدا عن أهله وذويه، وما يؤكد ذلك في حالة ابن عثمان أن اعتماده لأسلوب مسجع منمق ارتبط غالبا بحالة نفسية متميزة مر بها، سواء كان مبعثها الارتياح أو القلق. فمن أمثلة الحالة الأخيرة ما ورد في نص يصف فيه المحنة التي عاشها خلال رحلة العودة بحرا من قبرص بسبب هيجان البحر حيث يقول: "فإن كان الريح موافقا لنا أتى وهو عاصف، وأثار أمواجاً لا يصفها لعظمها واصف، وإن كان غير موافق ترجحت البوائق، وتطلعت لولا فضل الله بأعناقها العوائق، فذهب الوسن عن الأماقي، وبلغت الروح التراقي" (57).

(55) نفسه، ص. 84.

(56) نفسه، ص. 86.

(57) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 251.

نختم الحديث عن أسلوب ابن عثمان في الإحراز بالإشارة إلى مراسلاته ومسامراته مع أصدقائه عقب رجوعه من رحلته إلى مكناس، باعتبارها نموذجاً للأسلوب المتبع في مراسلات الفقهاء والأدباء آنذاك، حيث احرص على قوة الأسلوب وتنميته إبرازاً لامتلاك ناصية اللغة، والقدرة على استغلال ذخيرة معجمية في تطريز وتدبيح نصوص بديعة.

ففي كتاب لابن عثمان إلى صديقه الكبير البيجري يدعوه فيه للقدوم عليه لتناول الشاي يقول: "وإنا لنتظر قدومك علينا قبيل الشمس شروقاً، والإبريق يصطك فؤاده لسقياك خفوقاً، حتى نتقضى من منادمتك حقوقاً، فالساق مشمر عن ساق، والإبريق متأهب بما يليق لأن يريق، والكأس بحلا عسجدية كاس، والكل للقياك متأهب، وبطاعتك متقرب⁽⁵⁸⁾ .

وإذا كانت رسالة الدعوة تنم عن عناية صاحبها بالمحسنات البديعية ل يبدو أسلوبها منمقاً، فإن الجواب جاء في حلة أبهى وأجمل إذ كتب البيجري: "البرز في العلا المحرز للمعل، محيي فصاحة الأوائل ومعيي سحبان وائل... هذا وما عسيت أحلى، ولو حصلت لي ملكة المحلى، أو حصلت أنواع بديعة الحل، وأنت أعزك الله السفير بين الملوك، والوزير الذي هو في عقد الوزارة فاخرة السلوك، فأنى يوصل إلى الأوج من فلك مجدك، ولا يقال للزوج إن له معنى من معاني فردك، بيد أنك حفظك الله كريم الأخلاق، وحضرتك العلية حضرة الإطلاق، فبساط أنسك لا شك أنه أرفع، لكن انبساطك فيه أوسع للنفوس وأنفع، وهو وإن كانت به الفرش المرفوعة والأكواب الموضوعة، وألوان الطعام مما طار كما قيل وعام، أو من غيرهما كذلك المشوب بالطيب، المشتبه بقلنسوة الخطيب، فخطابك البليغ أفضل من ذلك كله وأجمل، ومنزعك اللطيف أوصل للنفوس وبها أحل، لأن ذوق معاني الكلام، ألد من ذوق ما في الأواني من الطعام وأجل وأكمل، ومما هزني من ذلك للكلام، ولزني في المداعبة معك كما لز الألف

(58) نفسه، ص. 273.

مع اللام، ما أودعته في رسالة الاستدعاء من قولك والساق مشمر عن ساق⁽⁵⁹⁾.

ومما يسترعي الانتباه في رسالة البيجري إطرأه على ملكة ابن عثمان الأدبية وثنائه على بلاغته وتمكنه اللغوي، فهو يصفه " بمحيي فصاحة الأوائل ومعيني سحبان وائل"، مبديا إعجابه بخطابه البليغ وتمتعه بذوق معاني كلامه، باعتبارها ألد من كل ما كان يرصع مائدة الوزير من أصناف الأكل والشراب.

وإذا كان ابن عثمان قد أبان كما أسلفنا عن علو كعبه وامتلاكه لناصية اللغة والبلاغة، فإن متن الإحراز شابه تسلسل تعابير عامية لم ندر مبرر استخدامها. من ذلك استعماله لألفاظ مثل "الأكحل" الذي اقترن بالبحر الأسود كلما ذكر على طول المخطوط، أو "الزاج" الذي قصد به الزجاج، و"البراوات" عوض الرسائل، و"البيبان" بدل الأبواب، و"الأحبال" محل الحبال أو "الجيهة" عوض الجهة. ويبقى أن هذه الشوائب محدودة من حيث التواتر في نص الإحراز، ومن ثم لا تؤثر على أسلوبه الرصين.

إلا أن هناك مجموعة من الهفوات الإملائية لا بد أن تسترعي انتباه القارئ للمخطوط، من ذلك رسمه لاسم الإشارة "هاكذا" أو "لاكن" كما ينطقان، كما يبدو لنا غريبا كتابة "ابنت" بتاء مبسوطة عوض ابنة، أو "اليل" بدل الليل، بل نجده يكتب "هنيئة" وهو يقصد هنيهة، أو "الفضا" بدون همزة، و"العيى" بدل العياء، بل "الهوى" وهو يقصد الهواء.

أما الهنات النحوية التي وقفنا عليها في متن الإحراز والمخالفة لقواعد النحو والصرف العربيين، فإنها تدعو للاستغراب لكون ابن عثمان على غرار معاصريه من الفقهاء والعلماء تكونوا في مدارس تلقن أساسا قواعد اللغة والنحو.

(59) نفسه، ص. 274.

فمن الأخطاء المنتشرة في الإحراز إضافته حرف الألف في آخر أفعال المضارع الناقصة، التي تنتهي بحرف الواو مثل "نرجوا" و"يعفوا" و"يدعوا"، أما الأفعال المتضمنة للهمزة فأغلبها كتب بشكل خاطئ: بحيث لم يكتب الهمزة على الألف حين تكون مسبقة بفتحة كما في "يعبثون" و"هيثوا" و"تسل" عوض يعباون وهيأوا وتسأل.

كما لم يوفق في رسم الهمزة في مواقع أخرى من الكلمات، إذ كتبت في "مأسسة" على الألف عوض كتابتها على الواو، في حين جاءت على السطر في "مرءى" عوض الألف. ومن أغرب الأخطاء المتصلة بالهمزة كتابته لفعل "رأى" بهمزة على السطر وألف ممدودة "رءا"، وفي كلمات أخرى حذفت الهمزة بالمرّة مثل "مملوءة" و"تودية" و"يتلكى" عوض مملوءة وتأدية ويتلكأ.

أما الكلمات والأفعال المنتهية بالألف فطرحت مشكلا للمؤلف، إذ جاء رسم أغلبها خاطئا بوضعه الألف المقصورة محل الممدودة أو العكس، فنجده يكتب مثلا "القهقرا" و"أعلا" و"أعيا" و"بنا" أو "إحدا" حيث يجب كتابة المقصورة، في حين كتب "غزى" و"تلى" حيث وجبت الممدودة.

ومن الأخطاء التي تنم عن تأثير لهجة التخاطب الدارجة استعمال صيغة الجمع حيث تقتضي قواعد اللغة استعمال المفرد، من ذلك مثلا قوله "قفاطين آخرين" عوض أخرى، أو "السفن الكبار لا يقدرّون" بدل لا تقدر، أو "يتعاطون أهله"⁽⁶⁰⁾.

في مقابل ذلك حرص ابن عثمان على شرح الكلمات غير العربية التي وردت في كلامه، من ذلك تعريفه لبعض الكلمات التركية مثل الأكراك والقشلة وغيرها، وكذا شرح بعض أسماء الأماكن مثل "كاور" و"بياض كوى"، إذ دأب على إيراد اللفظة التركية متبوعة بمعناها العربي مثل قوله: "ويسموننا نعي القرية (أركلة) بلسان الترك كتك شام بتاء مشوية بشين،

(60) يرجع إلى التحقيق للوقوف على مواطن هذه الأخطاء على طول المخطوط.

المعنى الشام الصغير لكثرة مياهها⁽⁶¹⁾، بل نجده يطلع القارئ على بعض القواعد في اللغة التركية كقوله: "فهى إضافة مقلوبة على مقتضى لغتهم⁽⁶²⁾" دون أن يدعي الإلمام بالتركية، مما ينم عن إقدامه على استفسار مرافقيه في الركب عن مثل تلك المعلومات العامة التي يرغب المسافر في معرفتها.

والحقيقة أن هذه الشروح لها قيمة معرفية هامة، لكونها تمد بمعطيات تسهم في الإحاطة بالموضوع المتناول، إضافة إلى كونها تكشف عن مصدر العديد من الألفاظ المتداولة في العامية المغربية، مثل كاور التي تعني بالتركية الكفار، وهي أصل كلمة "كاوري" التي لاتزال دارجة للدلالة على النصارى، وكذا القشلة التي تعني المعسكر وغيرها من الكلمات التركية التي دخلت المعجم المغربي.

أما مسألة التوثيق في الإحراز فإننا نقف على اعتماد ابن عثمان على مجموعة من المصادر التاريخية في استقاء مادة مخطوطه، مصرحاً بعناوينها وأحياناً بالفصول المحددة التي نقل عنها. ومن أهم هذه المظان التي اقتبس منها "تهذيب الأسماء واللغات" للنووي و"وفيات الصحابة" للصاغاني، و"الاستيعاب" لابن عبد البر، و"الإصابة" لابن حجر، التي اعتمدها أساساً في الحصول على تراجم الأعلام، ورجع للتعريف بأسماء الأماكن إلى "القاموس" للفيروزبادي و"المشترك" لياقوت الحموي بالأساس، في حين اقتبس مادته عن موضوعات التصوف والكلام من تأليف جلال الدين السيوطي المتعددة مثل "العرف الوردى في أخبار المهدي" و"الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف"⁽⁶³⁾.

إلى جانب إحالته على المصادر والمظان التي أخذ منها مادته، نجده أحياناً يغفل التصريح بذلك، فقد عول مثلاً على كتاب عبد الغني بن

(61) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 88.

(62) نفسه، ص. 83.

(63) للوقوف بتنصيل على المصادر المعتمدة في الإحراز، ينظر الفهرس الخاص بها في آخر الدراسة.

إسماعيل النابلسي "الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز" في وصف زيارته لأضرحة وقبور وتربات الصحابة والأولياء و الصالحين بالشام، حيث اكتفى سفيرنا بنقل حرفي لصفحات كاملة من هذا الكتاب، موهما بالاعتماد على المصادر التي رجع إليها النابلسي⁽⁶⁴⁾، إذ لم يكن دقيقاً وأميناً في تحديد بداية كل النقول ونهايتها .

ويتضح من كتاب الإحراز أن ابن عثمان كان مولعاً بالاستطراد، إذ نجده كلما ذكر مسألة إلا وانساق في اقتباس ما قاله العديد من المؤلفين عنها أو ما سمعه من روايات حولها، وهي "ظاهرة عامة في التأليف العربية القديمة لا تخلو من فائدة بالرغم من سلبيتها منهجياً"⁽⁶⁵⁾، ويضيف أحد الباحثين مقيماً هذه الظاهرة عند رحالة العصر العلوي الأول بأنه "بدأ الضعف يسري إلى منهجية هؤلاء الرحالين: تطويل في العروض بالاستطرادات التي قد تكون بعيدة عن الموضوع، وتارة اختصار إلى حد الإجحاف"⁽⁶⁶⁾.

ورغم ذلك نعتقد أن المعلومات التي أوردتها عرضاً في استطراداته مفيدة بالنسبة للباحث، ويلاحظ لجوؤه إلى اقتباس منهج المقارنة والمقارعة بين الروايات الواردة في هذه المصادر، ومن ثم ضبط كثير من الأخطاء المتعلقة بأسماء الأعلام ومكان وفاتهم ودفنهم.

خلاصة القول أن ابن عثمان بذل جهداً كبيراً في توثيق مخطوطه، مما

(64) للتأكد من ذلك تكفي العودة إلى كتاب "الحقيقة والمجاز" الذي بدأ ابن عثمان نقل مادته ابتداء من الصفحات الأولى، إذ ورد مثلاً في الصفحة 6 "وقد دفن فيها من الصحابة رضي الله عنهم جماعة منهم بلال بن رباح... فإنه على القول المشهور مدفون هناك وقيل دفن بباب كيسان... وقال السمعاني في الأنساب إنه دفن في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلط، الصحيح الذي عليه الجمهور أنه مدفون بباب الصغير، كذا ذكره النووي في تهذيب الأسماء واللغات.."، وينسحب نفس الشيء على الصفحات التالية.

(65) حسن جلاب، "من مصادر التاريخ الديني والاجتماعي، مخطوط درر الحجال لثيفري"، الماتل، 36، 1987، ص. 428.

(66) محمد المنوي، مرجع سابق، ج. 2، ص. 186.

أكسبه غنى و ثراء معرفيا لا يستهان به ، يبرر ما أورده مقرضوه من إطراء وإعجاب كما أسلفنا.

6 - منهج التحقيق

بديهي أن التحقيق كعملية تقنية تقوم أساسا على محاولة إعادة تركيب النص قيد التحقيق بناء على مقارنة النسخ المتوفرة من المخطوط ، بهدف تقديم متن واضح خال ما أمكن مما قد يكون علق به من أخطاء ارتكبها المؤلف نفسه أو الناسخ الذي بيض المسودة ، علاوة على القيام بالتعليق والشروح اللازمة التي تروم الزيادة في توضيح ما أورده المؤلف.

ووفاء للمنهج العلمي المتبع في هذه العملية فقد قمنا بمقابلة نصي النسختين المتوفرتين من الإحراز لتحقيق المتن ، ملتزمين بنص النسخة المعتمدة وإضافة ما سقط من متنها وكتب في الطرر استدراكا من ابن عثمان نفسه أو من الناسخ ، ووفاء للأمانة عدلنا حتى عن تصحيح بعض الأخطاء ، مكتفين بالإشارة إلى ذلك في الهامش.

غير أننا عولنا على استعمال قواعد الرسم المعاصرة ومن ثم كتابة كثير من الكلمات بشكل مغاير لما ورد في النص الأصلي ، إضافة إلى وضع الفواصل والنقط وغيرها من العلامات التي تساهم في ترتيب الفقرات وتنظيم جملها ، بما يسهل قراءة النص وتقديمه في شكل مقبول.

كما تم التعويل أيضا على مجموعة من الإجراءات التقنية الكفيلة بضمان حلة واضحة للنص وتيسير قراءته أهمها :

- الإشارة إلى بداية صفحات النسخة المعتمدة من المخطوط بكتابة رقم الصفحة بين خطين مائلين ، تسهيلا لمهمة الرجوع إلى أصل المخطوط عند الحاجة.

- وضع عناوين للموضوعات المتناولة في المتن لتسهيل قراءته وإبراز مختلف الجوانب التي تطرق لها المؤلف ، وقد تم استعمال المعقوفتين للتمييز بين العناوين التي من وضعنا وبين الواردة في المخطوط ، كما أشرنا في

الهوامش إلى طريقة كتابتها من طرف المؤلف أو الناسخ.

- التعريف بالأعلام الجغرافية والبشرية وبعض الأحداث التاريخية التي وردت بشأنها إشارات مقتضبة في المتن، مع الحرص على تثبيت مصادر التراجم والشروح في الهوامش بوضعها بين مزدوجتين. ولا يعدم القارئ ملاحظة كثرة ما ورد في الإحراز من أسماء الأعلام والأماكن والوقائع التي تضيف على الكتاب صبغة خاصة، بحيث يتمكن قارئه من الإطلاع على ذخيرة غنية من المعلومات في شتى ميادين المعرفة. دون أن ننكر إغفال إيراد تراجم بعض الأعلام المشهورين، أو التي لم نتمكن من الوقوف عليها وإن كانت قليلة جدا.

- شرح المفردات الغريبة أو العامية أو الأجنبية، ذلك أن ابن عثمان استعمل العديد من الكلمات والتعابير الخاصة بزمانه والتي قد لا يفهمها البعض من غير المتخصصين.

- الإحالة في الهوامش - عند كل تغيير في رسم الكلمات - إلى حالتها كما وردت في النسختين، والاكتفاء بإحالة واحدة عند تكرار نفس الحالة تفاديا لإثقال الهوامش. وإذا كانت الإحالة تهم أكثر من كلمة فإننا نستخدم المعقوفتين لحصر الكلمات المعنية بالهامش.

- استعمال هلالين منمقين للآيات القرآنية مع بيان أرقامها وسورها في الهامش، ونفس الشيء بالنسبة للأحاديث النبوية، أما مختلف الأقوال والنصوص المقتبسة فتم وضعها بين مزدوجتين.

د. محمد بو كبت

أستاذ التاريخ في جامعة

سيدي محمد بن عبد الله - فاس

مسار الرحلة

- أسكدار
- قرطل
- 18 ماي 1787
- كبرة
- خارسك
- كاور كو
- جنز نك
- لفك
- خان الوزير
- مدينة السكوت
- أسكشهير
- سيدي الغازي
- خصرم باشا
- بياض كوى
- بلودم
- مدينة أخ شهير
- إلغين
- اللاذق

- قونية
- إسميل
- قربنار
- أركلة
- وادي قشلة
- شفت خان
- أوابل
- الشاقط
- مدينة أذنة
- المصيصة
- قرطقراط
- بياس
- بيلان
- أنطاكية
- الزنبق
- جسر الشغفر
- قلعة المضيق
- حماة
- رستن
- حمص
- ضيعة الحسية
- النبق
- القطيفة
- دمشق

- ذو النون
- الصنمين
- مزيرب
- الرمثا
- المفرق
- وادي الزرقا
- خان الزبيب
- البلقا
- وادي النسور
- قطرانة
- بوغاز الحسا
- قلعة عنزة
- معان
- العقبة
- قلعة المدورة
- قلعة ذات حج
- القاع
- تبوك
- ظهر مفر
- قلعة الحمراء
- مدائن صالح
- سهل المطران
- البشر الجديد
- هدية

- الفحلتين
- آبار ناصف
- جبل سلع
- ذا الحليفة
- الشهداء
- قرية الجديدة
- بدر
- القاع
- رابع
- قديد
- خليص
- سبيل الجواخي
- مكة

الرحلة بين دمشق وعكا وجولته في فلسطين
- المزة

(الخروج من دمشق 9 ربيع الثاني 1202هـ

- سعسع
- خان الأرنب
- خان الجسر
- قرية الرمة
- عكا
- نابلس
- البيرة
- القدس

- الخليل

- القدس

- عكا

من تونس إلى فاس

- تبرة

الخروج من تونس 3 رجب 1202هـ

- مجاز الباب

- بلدة تستر

- قرية تبرسق

- القنطرة

- بلدة الكاف

- عين الزرقا

- تفش

- مرج كحيل

- مهيرز

- قسنطينة

- الجزائر

- تلمسان

- وجدة

- قاس

آخر يوم من شعبان 1202هـ

نص الرحلة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

يقول أفقر الورى إلى رحمة الله تعالى، الراجي غفرانه وأجرته، محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي لطف الله به في الدارين بمنه وكرمه⁽¹⁾:

الحمد لله العليم الخبير، العلي الكبير المتفرد بالخلق والتدبير، المتكفل بأرزاق عباده بما اقتضت حكمة التقدير، المفضل من يشاء من خلقه على من يشاء في رزقه، فمنهم غني وفقير، فلا تخرج نفس من الدنيا إلى أن تصل من رزقها و آجالها إلى منتهاها، وأرزاق لنا متفاوتات فمن لم تأته منا أتاها، نحمده سبحانه وتعالى على ما ألهم، ونشكره على ما أنعم، ونصلي ونسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم أنبيائه وأمين أمثائه، وعلى آله وأصحابه الذين أسسوا الدين على قواعد بنائه، صلاة وسلاما تامين دائمين، نرجوا (كذا) ببركتهما عند ورود الحوض عليه⁽²⁾ المعاطاة بإنائه، والتنعم في الدارين بفنائه.

في فوائد الرحلة والاعتراب

أما بعد، فإن التنقل في البلاد والتأمل في مخلوقات الله من العباد، تذكرة للقلوب وأي تذكرة، وتبصرة يا لها من تبصرة، أو لم يتفكروا فيما خلق الله من شيء / 2 / آية مبصرة، على أن الاعتراب وحده يحدث في

(1) سقط هذا التقديم من (أ) وورد في (ب).

(2) سقط من (أ) وورد في (ب).

القلب خشوعاً، وإلى الله رجوعاً وعن غيره نزوعاً، والشاهد الطبع وانقطاع الإنسان إلى الله تعالى عند انقطاعه فيه صبغ وطبع، ولو لم يكن في الاغتراب إلا هذه الفائدة التي هي بكل خير عائدة، لكفاه فضلاً وأحرز في السبق إلى الفضل خلاصاً، فهي أعظم الفوائد وأجمل العوائد، جعلنا الله تعالى ممن تمسك بأسبابه وأقصر قيامه على بابه، ورفع لنا عن مشاهدة أنوار حضرته ستور حجابيه، وصرف عنا كل عائق يعوقنا ويشغلنا عن جنبه، إنه الكريم المقصود والجواد المحمود،

لا يبلغ المرء في أوطانه شرفاً حتى يكيل تراب الأرض بالقدم ولما طال تشوقنا إلى حج بيت الله الحرام، وتشوقنا إلى أن ننال من زيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام غاية القصد⁽³⁾ والمرام، وشبت في الأحشاء من شدة الوجد نار لها ضرام، ناديت متمثلاً وإلى جانبه العزيز متبتلاً:

فلا تنسني يا خير من وطئ الثرى فمشلك لا ينسى لديه خديمه

تعيين ابن عثمان سفيرا ومهمته

فهبنا علينا نفحة من نفحاته الطيبة، ولاحظتنا عناية من عناياته محرقة إلى فنائه العزيز مقربة، فعيننا سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وحصن الإسلام والمسلمين، ظل الله في العالمين وملجأ الفقراء والمستضعفين، أبو عبد الله المنصور بالله سيدي / 3 / محمد⁽⁴⁾ بن أمير المؤمنين مولانا عبد الله، أدام الله تعالى أيامه ونصر أعلامه، وجعل النصر والفتح خلفه وأمامه، ووطد له البلاد وجمع على طاعته قلوب العباد، مع رفقة من الإخوان صنوان وغير صنوان⁽⁵⁾، وأمرنا أدام الله علاه وكان له في جميع أموره وتولاه، بالتوجه

(3) سقطت من (أ) وورد في (ب).

(4) يرجع في ترجمة هذا السلطان إلى فصول الدراسة.

(5) كانت البعثة مكونة من ابن عثمان ومولاي عبد الملك بن إدريس ابن عم وصهر السلطان، وأبي حفص عمر الوزبرق وشيخ الركب أبي محمد عبد الكريم بن يحيى. (الزياني، البستان الطريف، مصدر سابق، ص. 455؛ الناصري، الإستقصا، ج. 8، ص. 57)

أولا إلى القسطنطينية العظمى والحضرة الفخمي، حتى نتلاقى مع سلطانها الأعظم الخاقان المعظم، خديم الحرمين الشريفين والقدس الشريف أول القبليتين، السلطان عبد الحميد خان⁽⁶⁾ نصره الله تعالى وأيده، ومهد ملكه وشيده، وجعله في أعين الكفرة قذى، وصرف عنه كل ضير وأذى، وقواه على الكفار وأعانه وكبت عدوه وأهانته، وأبقى هذين الأميرين العظميين الشريفين⁽⁷⁾ الجليلين الكبيرين للمسلمين كهفا وحرزا وللإسلام عزاء، حتى يرجع بوجودهما للإسلام شبابه، وتورق أغصانه وتحضر شعابه وهضابه، وتجتمع للإسلام الكلمة، فتغلب على الفئة المشركة الفئة المسلمة، إنه ولي ذلك.

وأمرني أدام الله اعتناؤه وخلد في الدهر بالجميل ثناءه، أنا إذا تقضينا من القسطنطينية غرض الرسالة، مع تحصيل رؤية بدر تلك الهالة، نستعد للسرى إلى أم القرى، لتتقضى مناسك الحج ووظائف العج والثج⁽⁸⁾، ونفارق حديثه على أهل الحرمين الشريفين التي أصحابنا وبثوابها أتحفنا، وعهد إلينا أدام الله سعادته وحرس مجادته، أن نرسم له ما تتفق رؤيته في هذا السفر،

(6) عبد الحميد الأول (1725-1789)، أصغر أبناء السلطان أحمد الثالث، تولى الحكم سنة 1774 بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث وواجهت الدولة العثمانية في عهده تحديات عظيمة، ففي الوقت الذي كانت تعاني فيه الدولة أزمات مالية وانتفاضات في الولايات، واجه السلطان عبد الحميد تحدي توسع الإمبراطورية الروسية وانضاح أطماعها في البلقان والترم مما كان معه حتميا اصطدام القوتين، فانهزمت الجيوش العثمانية واضطر السلطان إلى التوقيع على معاهدة "كوجك قينارجه" في يوليو 1774، والتي أخلت بالتوازن الدولي بحصول روسيا على تنازلات مهمة في الترم وحق الملاحة في البحر الأسود والمضايق، بل تضمنت المعاهدة بنودا غير واضحة فسرت على أنها تنص على قبول الباب العالي مبدأ حق روسيا في حماية الرعايا الأرثوذكس في الإمبراطورية العثمانية. وفي نفس السنة 1774- اندلعت الحرب بين الدولة العثمانية وإيران، لكن هاجس عبد الحميد الأول ظل الصراع ضد الروس ومخططات كاترين الثانية في الترم والبلقان، وعندما أبرم التحالف بين روسيا والنمسا وبدأ يهدد وجود الدولة العثمانية وممتلكاتها، ورغم إدراك السلطان لضعف إمكانياته أعلن الوزير الأعظم خوجة يوسف باشا الحرب على الدولتين المتحالفتين سنة 1787 وقد كان ابن عثمان شاهدا على أوضاع البلاد وهي تستعد للحرب. (أوزتونا 633؛ E., I., 5-312)

(7) "الشهيرين" في (ب)، علما بأن العثمانيين لم يدعوا الشرف.

(8) العج: رفع الصوت بالتلبية؛ الثج: سيلان دم الهدي، (لسان العرب، 2: 318).

في البدو والحضر، فحاولت أن لا أرسم شيئاً إلا حررتة، ولا /4/ آتي بشيء إلا وضحتة، أمثالاً لأمره الذي طبق الآفاق، وتتميماً لاعتنائه الذي أراق، وخلد في بطون الأوراق.

لكن⁽⁹⁾ كيف الطيران بلا جناح، والبروز إلى الكفاح من غير سلاح، على أن أرباب هذا الشأن الموسومين بالإجادة والإحسان، الذين انقادت لهم البلاغة بأرسان، لا يدخل أحد منهم لميدان التصنيف، والجولان فيما فيه من صعوبة الترصيف، إلا اعتذر وإن كان ممن نظم أو نثر، فإن لم يسقط عثر، فتجد الفحول يمهّدون لأنفسهم الأعذار عند ذوي العلم والمقدار، فكيف حال من هو على أنديتهم متطفل، وللجولان في ميادينهم غير متأهل، مع ترامي الأرضين والبلدان وغراق الأوطان والولدان، جواب آفاق رفيق للوعة وإشفاق، ونجي فؤاد خفاق، أجوب كل مرداء وشجرا وفجاجا غربا، ولله ذر القائل الذي لم تستقر له من التسيار عصي:

يوما بحزوى ويوما بالعتيق ويوما بالعذيب ويوما بالخليصاء

وها أنا قد قررت عجزى وألقيت السلاح، وعذري في الدخول في الفضول بأمر مولانا الخليفة بدا ولاح، وإلى ما أمرت به أعتمد، ومن الله سبحانه أستمد وبه أعتضد، وهو حسبي ونعم الوكيل؛ وسميته إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، صلى الله عليه وسلم ما ماس في دوحة غصن رطيب، وفاح طيب وخطب خطيب، وجعل أنفسنا بزيارة قبره الشريف في الدنيا تنشرح وتطيب، وفي الأخرى بمرافقته والدنو من حديقته تظفر ولا تحيب، /5/ إنه سميع مجيب.

تاريخ بداية الرحلة بالخروج من الرباط

فأقول ومن الله تعالى العون والتيسير مسئولي: وفي مهل المحرم فاتح

(9) يكتبها ابن عثمان "لاكن" على طول المخطوط، وسنقتصر على هذه الإحالة للإشارة إلى

سنة مائتين وألف⁽¹⁰⁾، كان سفرنا من عند سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، أدام الله تعالى وجوده للإسلام والمسلمين و هو في رباط الفتح، وأصبحنا أدام الله نصره وأبد فخره المال الذي على السادات الأشراف أهل الحرمين وغيرهم وهب، من الفضة والذهب، وذلك له أعزه الله في كل سنة طريقة ومذهب، تقبل الله تعالى منه وأعانه، ومهد بوجوده أوطانه وكبت عدوه وأهانه.

مكوث البعثة ستة أشهر بتطوان وطنجة في انتظار هدوء البحر

ووجه في صحبتنا سفيرا⁽¹¹⁾ كان ورد على أبوابه السامية المعراج، وكعبة ذي الفاقة المحتاج، من سلطان حضرة القسطنطينية حيث كتائب للجهاد كمينه، أعانهم الله تعالى وأيدهم ومزق أعداءهم ويددهم، وأمرنا أدام الله وجوده بالتوجه إلى مدينة تطوان، فإن تيسر ركوب منها في البحر فذاك، وإلا فيتعين الميل إلى طنجة والدوران، فلما وصلنا تطوان لم يتمكن للمركب قدوم لشدة هيجان البحر في ذلك الأوان، وقد كان فصل الشتاء، وقد أتى من الأمطار المتوالية والرياح المتراسلة بما أتى، وطال مقامنا بتطوان أربعة أشهر ونصف، لا نستطيع من كثرة الأمطار والطين خروجنا، ولا هبوطا من منزلنا ولا عروجنا، إلى أن ورد علينا أمر سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، صحبة بعض خاصته من أحبائنا يقال له سيدي محمد الزوين⁽¹²⁾ تصغير زين، صرف الله عنه كل شين وحرسه من العين،

(10) الموافق لشهر نونبر 1785.

(11) إسماعيل أفندي، كان كاتباً لدى أمير البحر القبودان جزائري حسن باشا، وأرسل سفيرا من قبل الباب العالي إلى السلطان سيدي محمد سنة 1785، وقد رافق سفارة عبد الكريم العوفي التي كانت في إستانبول في أوج نوتر علاقات السلطان المغربي مع أترك الجزائر. ارتبطت سفارة إسماعيل أفندي بأحداث تفصلها في الدراسة.

(12) محمد بن القائد عبد الله الرحمان المشهور بلقب الزوين، يذكره الضعيف ملقباً بالقائد مثل أبيه، وهو من خدام وخاصة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، كانت أخته البتول الرحمانية زوجة للسلطان، بل نجد وثيقة عثمانية تصفه برئيس وزراء سيدي محمد عندما أرسل في سفارة إلى تركيا. (الضعيف، ص. 193؛ بنحادة، ص. 262).

وقلما أبصرت عيناك من رجل إلا ومعناه إن فتشت في لقيه
/6/ وأمرنا أيده الله بالتوجه إلى طنجة ومنها نركب البحر، لأن
المركب تعذر عليه القدوم لمرسى تطوان لصعوبتها، فتأخرت عن ملاقاته إلى
عشية النهار وقد كان ينتظر ذلك فعاتبني، فقلت:

جاء من طال ما تشوقت النفس إليه بشري لنا وهنيه
أنعش الروح شمس رياه لولا
إذ تداعوا بالأمس وسط نهار
فتأخرت عن لقاء محققا
هكذا الشأن ما تقولون أنتم
فأجابوا أما ترى الشمس ولي
قلت في الفقه إن تبدى هلال
ثم شرعنا في أخذ الأهبة في التوجه إلى طنجة بقصد الركوب منها،
فتوجهنا إليها ونزلنا عند قائدها محبنا الأعظم، وصاحبنا الأديب اللبيب
الأكرم⁽¹³⁾، القائد محمد بن عبد المالك⁽¹⁴⁾ حرس الله تعالى⁽¹⁵⁾ نجابته وحفظ
عليه مرتبته، فأكرم مثوانا سرا وإعلانا، وأقمنا عنده نحو شهر ونصف حتى
أتى المركب وتأهبنا للسفر.

وكثيرا ما كان يقع بيننا وبين صاحب المذکور والخذر المشكور من
المداعبة والنوادر، فمما اتفق لي معه في مدة هذا المقام المذکور، أنه خالف
العادة في إتيانه إلى موضع نزلي نحو اليومين أو ثلاثة لشغل كان عنده،
وكان يبعث لي كل يوم ويقول غدا آتي، فداعبته في أبيات أفرطت فيها في
التنزل /7/ وشبت فيها الخطاب بالتغزل وهي:

(13) سنطت من (أ) ووردت في (ب).

(14) محمد بن عبد المالك الريفي، ولاد سيدي محمد بن عبد الله على طنجة سنة 1180 هـ/ بعد
نكبة عاملها عبد الصادق الريفي، لعب أدوارا مهمة في علاقات المغرب الأوربية كما نورد
في الدراسة، (الإتحاف 3-166).

(15) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

إن عهد الملاح ليس بسواق
كل يوم يعمدني بمجىء
علّني بكاذب الوعد دأبا
ليت شعري إذا الصدود جفاء
أو تظن عنكم سلوا فتفني
موقدا في الفؤاد نار غرام
يا مثير الغرام والله يعقر
جد بوصل ولو بطيف خيال
وأمنت الوشاة والرقبا طرا
وتدارك حشاة القلب إذ كان
لثواكم حنّ للموهوب⁽¹⁶⁾

طمعي الآن في الوصال قوي
يصدق الفجر بعد ما يتجلى
فقدم واعتذر حتى لم يذر، ولم يزل في القيام في مواصلتنا ومؤانستنا
حتى حان السفر.

نادر⁽¹⁷⁾

وذلك أن الرجل القسطنطيني سفير السلطان العثماني المذكور، اشترى
جارية فوجدها تبول، فأراد ردها إلى البائع فامتنع، وعولج في الإقالة فما
نفع، فتعلق بنا الرجل المذكور لنخاطب قاضي البلد لعله يحول بينه وبين /
8/ البائع، فصدرت عني أبيات رأيت أن أذكرها لما فيها من التمليح،
والتنشيط والهزل بالنكاية والتصريح، تسلية للقارئ وإحاضا، وتأنيسا له
كخابط ليل أومض له البرق إيماضا، وإلا فما المقصود في تخليد كلام في
حيز الهذيان معدود، والهدار على النية في السر والعلانية، وهي هذه:

(16) ابتداء من هذا البيت وقع بتر في النص في نسخة (ب) لغياب الصفحات 9 و 10 و 11 و 12 من المخطوط.

(17) العنوان من وضع المؤلف، ونشير هنا إلى أن كل عنوان لم يوضع بين معقوفين فهو من وضعه.

يا أيها القاضي الإمام الكامل
وابن السبيل والغريب قدما
ضيفكم الفقيه إسماعيل
قد اشترى من ذي البلاد جاريه
فلم ير من خيرها علامه
تبول بالليل على الفراش
منتنة الريح وعكسه إذا
كفارة المرحاض أو كجعل
لا مثل نتن جيفة أو حيض
لولا هبوب الريح ذات المدد
نظل بالبخور طول الأبد
أما ثيابها فدأبا تصطفق
عيناه من صنائها في كمد
أشفاره إن لم تدارك سقطت
/ 9 / يقبح أن يأتي لنيل رفعة
مع تحمل نوى الأسفار
عيناه من جواركم في حرم
فهو بما ضره غير معتبر
فاستنقذته واذفغن عساره
وهو مع العلم الذي يمت
في كل بقعة وكل أرض
ثم توسط له في ذلك فوقعت
شائع.

وكافل الأيتام والأرامل
يشمله الإحسان منه حتما
يسبت بالليل له عويل
يحسبها على المراد جاريه
أعيب من بغل أبي دلامه
على الثياب وعلى الرياش
حذفت ياء قبحت به أذى
فقد أضر ريحها بالقل
أو كظة ممزوجة بهيض
وكوننا في منزل عن بعد
أضر نتنهما بأهل البلد
تقطر من أبوالها وتلتزق
ولو ثوى في جبل من إثم
والتزقت أجفانه واختلطت
ويترك الزغب تحت الدفعة
يرجع للأهل بلا أشفار
من بائع عن الإحسان برم
هان على الأملس ما لاقى الدبر
وراع فيه جانب الإمارة
به إليكم شكركم يمنت
وكل إقليم ليوم السعروض
ثم توسط له في ذلك فوقعت
شائع.

تاريخ مغادرة السفارة لميناء طنجة والتوجه نحو قرطاجنة

وفي عشية يوم الإثنين ثاني رجب من سنة تاريخه⁽¹⁸⁾، ركبنا البحر في

(18) الموافق لشهر ماي 1786.

مركب بعثه عظيم الإصبنيزل⁽¹⁹⁾ بأمر مولانا المنصور بالله، بقصد الركوب فيه إلى أن يوصلنا إلى مركب آخر أكبر منه بمدينة قرطاجنة⁽²⁰⁾، وسافرنا في المركب المذكور إلى أن وصلنا قرطاجنة على ثلاثة أيام من طنجة، وأرسلنا بمرساها العجيب ذي الشكل الغريب، وأقمنا به خمسة أيام ثم انتقلنا إلى المركب الكبير، وهو من مراكب الحرب فيه من المدافع المسماة (كذا) بالأنفاض نيف وخمسون مدفعا، ومن العسكر والبحرية ما يقرب من خمسمائة.

الرسو بميناء سيراكوزة بصقلية ووصف الجزيرة

وسافرنا من قرطاجنة إلا أن الريح كان غير موافق، فبقينا نتردد به في البحر شهرا ويومين حتى تغير الماء وتأذى الناس من شربه، فدخل بنا رئيس المركب إلى مرسى من مراسي صقلية يقال لها سرفوزة⁽²¹⁾، مؤسسة على الناحية الشرقية منها، وهي بلد قديمة متوسطة إلى 10/ الكبر أميل، وهي أي المدينة المذكورة من المنعة والحصانة في الغاية التي ليس بعدها شيء، لأنها مؤسسة على طرف من الأرض داخلا في البحر، وقطعوها عن البر

(19) الملك كارلوس الثالث الذي كانت علاقاته ودية مع سيدي محمد ولعب أدوارا مهمة في سياسة قوى البحر المتوسط في هذا العهد.

(20) قرطاجنة أو قرطاجنة، مدينة على الساحل المتوسطي لإسبانيا بناها حيدر بعلى القرطاجي سنة 221 ق.م. وظلت عاصمة لإسبانيا البونيقية حتى الغزو الروماني. اشتهرت بدور صناعاتها البحرية ومن ثم كانت قاعدة للأسطول الإسباني إلى اليوم. لعبت أدوارا مهمة خلال التاريخ القديم والوسطى؛ كانت " ميناء مرسية " و اشتهرت كذلك بخصوبة أراضيها وثروتها الفلاحية (E. I., 4-700).

(21) سرفوزة، مدينة أسسها الكورنثيون الإغريق حوالي 734 ق.م. على الطرف الجنوبي الشرقي من صقلية وتطورت لتصبح من أكبر المدن الإغريقية، وبحكم موقعها لم تغلب من انعكاسات الحروب البونية بين قرطاج وروما، إذ سقطت بعد حصارها من طرف الفتح الروماني مارسيلوس سنة 212 ق.م. نصارت عاصمة إقليم صقلية الروماني، ثم تعاقب عليها النورمان والعرب. وبسبب هذا الماضي الحربي للمدينة ترك حكامها آثارا عبارة عن حصون و استحكامات عسكرية، منها قلعة أوريل والأسوار التي بناها دنيس الشيخ (397-402 Denys l'Ancien ق.م). وانتحصينات التي ظل أهل المدينة وحكامها يعتنون بها على مر الزمن.

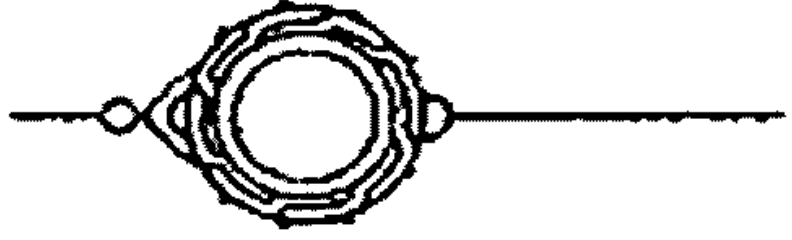
بأربع خنادق، أدخلوا في كل واحد البحر حتى نفذ إلى البحر من الناحية الأخرى، وجعلوا لخروجهم إلى البر قناطر يعبرون عليها على كل خندق قنطرة، وبالليل ترفع القناطر بالسلاسل وتبقى البلاد مقطوعة دونها أربعة أبحر، وهذه الخنادق أحدثها أحد طواغي الإصبيول يقال له كارلوس كينط لنبرطور⁽²²⁾، لأن هذه الجزيرة وكذا نابلي⁽²³⁾ وعملها كانت تحت حكمه.

ومن هذه المدينة كان دخول المسلمين على عهد بني أمية حتى تملكوها، وبقيت في أيديهم نحو من ثلاثمائة سنة، ثم دخلها الكفار عليهم أيضا من هذه البلد ولله الأمر من قبل ومن بعد، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده. فلما كانت معلومة الدخول حصنها الطاغية المذكور، وقد ألمنا بذلك مبينا في رحلتنا المسماة بالبدر السافر⁽²⁴⁾، وبها زيتون كثير فقد ذكر حاكمها أن بها من المعاصر خمسين معصرة، وأنهم يمشون في عصر زيتونها شهرين.

(22) يقصد الإمبراطور شارل كانت Charles Quint (1500-1558) الذي حكم إمبراطورية أوروبية شاسعة ضمت إسبانيا ومستعمراتها الأمريكية ونابولي وصقلية وسردينيا والبلاد المنخفضة وممتلكات آل الهابسبرغ النمساويين، تمكن من تقلد أمور الإمبراطورية الجرمانية المقدسة بعد موت جده الإمبراطور ماكسيميليان سنة 1519، ورغم جهوده الحثيثة فإنه واجه مصاعب كبيرة في إدارة إمبراطورية مترامية الأطراف ومتعددة الأعراق، إذ ظل أجنيا في نظر الإسبان الذين ثاروا ضده مرارا وخاصة في قشتالة، كما واجه تحديات الإصلاح الديني البروتستانتي وما جره من صراعات. من جهة أخرى ظل مستنفرا أمام تهديدات وطموح الأتراك العثمانيين حيث اصطدم عسكريا مع سليمان القانوني وحليفه الملك الفرنسي فرانسوا الأول، وقد أزهقته تلك التحديات الكبرى فاعتزل العرش سنة 1556 تاركا لابنه فيليب الثاني بممتلكاته الإسبانية ولأخيه فرديناند بممتلكات الهابسبرغ ليعتزل في دبر يوست حيث مات سنة 1558. (Encyclopédie 360, vol.3, éd.Romaldi, 1980, p. 94.)

(23) يقصد نابولي، مدينة تقع في خليج ينفس الاسم جنوب إيطاليا وعاصمة لإقليم كمبانيا، وتشتهر ببركان فيزوف الذي يطل عليها. تعتبر من المدن المتوسطة ذات التاريخ العريق ومحط صراع بين القوى الأوروبية، إذ ظلت تتأرجح بين نفوذ آل الهابسبرغ وآل البوربون الإسبان. وفي الفترة المعاصرة لابن عثمان كانت تعرف بمملكة الصقليتين ويحكمها الملك فرديناند ابن كارلوس الثالث ملك إسبانيا.

(24) يجيل ابن عثمان هنا على مؤلفه " البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدر الكافر " الذي ألفه عن سفارته إلى جزيرة مالطة للتفاوض حول افتكاك الأسرى، وفيه خاض في تاريخ صقلية بتفصيل. حقيقته مليكة الزاهدي وتقدمت به لنيل د.د.ع في التاريخ بكلية الآداب بالرباط سنة 1995-94.



وصف حفلة لأهل صقلية على شرف البعثة

ولأهلها بشاشة وطلاقة وانبساط، فقد فرحوا بنا فرحا كثيرا، وطلبوا منا النزول إلى بلادهم واستدعونا لذلك مرارا، فأبينا عليهم لكوننا إنما دخلنا إلى مرساهم بقصد حمل الماء على جناح سفر مستوفدين، فلما رأوا امتناعنا جاءوا ذات ليلة إلى المركب بقضيتهم وقضيتهم، وأصبحوا معهم المغنين بألحانهم وقريضهم نساء ورجالا، مظهرين حسن رداء وجمالا، واعتد لذلك رئيس المركب بما يناسب مقتضى عوائدهم، / 11 / فكسى السفينة وظللها، وعلق بها من منارات البلور للشمع ما زينها وجملها، حتى خرجت السفينة عن شكل السفائن، وصارت في حساب مقاعد المدائن، وبعد أن غربت الشمس أتى أهل البلد ومعهم النساء الضامات⁽²⁵⁾ وهذا اللقب على كونهن من الأكابر من العلامات، ونصبت للقوم كراسي قعدوا عليها ومتكئات استندوا إليها، وصعد أهل الغنا فوق مرتبة، وأخذوا في استعمال ألحانهم مرددين كل شكوى في الصبابة ومعتبة، ثم طيف⁽²⁶⁾ عليهم بكؤوس من الخلاوي معقودة بالثلج بقصد إبراد اللهيف، لأن الفصل كان فصل مصيف، ثم شرعوا في الرقص رجالا ونساء من غير تأخير ولا إنسا، لأن ذلك عندهم من العوائد وما لا ينخرم من القواعد، وباتوا بليلة ذات مراح لا يعبأون بمن غدا أو راح، من كل فتانة الطرف كثيرة الدلال والظرف، مهرة مدللة للصبابة على حرف، ودرة عن اللمس مصونة بيضاء مكنونة، فلا ترى أعجب من ليلتنا بظباء القفار فوق أمواج البحار.

ولما حمل رئيس المركب الماء من سرقوزة سافرنا منها في رابع شهر رمضان الأعظم، وأنعم الله تعالى علينا ببركة هذا الشهر المبارك بريح غربي موافق لنا، فقطعنا به مفاوز ذات مدى شاسع، لا تقطع إلا بعون من الله ذي الفضل الواسع، فدخلنا جزر بر الترك⁽²⁷⁾ وتحرك علينا ريح غير موافق،

(25) تعريب لكلمة Las Damas اللاتينية والتي تعني كما يورد ابن عثمان نساء علية القوم.

(26) نهاية البتر في النص في نسخة (ب).

(27) يقصد الجزر المتناثرة بكثافة في بحر إيجه.

إلا أننا بقينا نساعفه باستعمال السير أمامه يمينا وشمالا، ونحن في ضمن ذلك نقطع بعض المفازة إلى أن قربنا إلى بغاز القسطنطينية⁽²⁸⁾، / 12 / ولفظة بغاز بلغة الترك معناها الحلق، وهو أي البغاز مضيق تقارب فيه البران⁽²⁹⁾، ومن هذه الحيثية يسمى باسم الحلق لضيقه، وبنوا في جانبه أبراجا نصبوا عليها مدافع تقطع كورة إحدى الجهتين إلى الأخرى، بحيث لا يتمكن أحد من الجواز إلا بالإذن والإجازة.



مظاهر الجفاء بين أعضاء السفارة المغربية

وفي هذه النواحي توفي مولى لنا، وكان البر بعيدا فألقيناه في البحر رحمة الله عليه، وقد عزاني بمصابه جميع رفقاتنا حتى النصارى أهل السفينة، إلا رجل واحد يقال له ابن يحيى⁽³⁰⁾ فقد أهمل ذلك وآلني، فرثيت المولى المذكور بقصيدة وذكرت جفاء هذا الرجل، وشغله الذي ذكرت حقيقة وذلك له سنة وطريقة، وذلك أنه كان يلعب اللعب المعروف عند العامة بالضامة⁽³¹⁾ مع بعض رفقاته، واشترطوا أن من يقع عليه الغلب والهزيمة، فالضراط في حقه واجب أو عزيمة، والخطاب في آخر القصيدة لبعض أصحابنا وهي هذه:

هلا رأيت الدهر وما يفري	أودى بمولى لي أبي الخير ⁽³²⁾
مولى يقيك بنفسه حذب	بوفائه أربى على الحر
تفدي موالى الدهر مهجته	تفديه أنفسها على نزر

(28) يقصد مضيق البوسفور الذي أطلق عليه الأتراك العثمانيون "قرادتر بغازي" وتعني "مضيق الثور"، ويربط بين بحر مرمرة والبحر الأسود، وعلى ضفتيه توجد مدينة إسطنبول.

(29) يقصد بالطبع شبه جزيرتي البلقان والأناضول اللتين لا يفصلهما إلا مضيقا البوسفور والدردنيل.

(30) هو شيخ الركب النبوي أبو محمد عبد الكريم بن يحيى الذي كان بينه وبين ابن عثمان جفاء حاد طوال هذه السفارة كما يشير إلى ذلك في غير محل من المخطوط، مما كانت له انعكاسات سلبية على السفارة.

(31) أصل التسمية من الإسبانية Las Damas وهي لعبة ورق.

(32) اسم العبد المتوفى وهو اسم شائع لدى الزوج المغاربة.

يجزيك مشهده وربتما أغناك في الحضر وفي السفر

متسارع فيما يناط به بقضائه كالسيف ذي الأثر

قالوا وقد سجي وألقي في
هلا دفنتم جسمه قلنا
فجع الزمان بفقده أتري
لهمني على صوان أسرار
عظم المصاب به فعزاني
13 / وأجانب وأشائب عدد
أهل السفين جميعهم حزنا
إلا ابن يحيى لم يخي ولو
يأليت شعري ما يكون له
أم ذاك منه تكبر فلقد
أم رغبة عن سنة بهرت
أم لم يكن في شرعة موسى
أم ذاك منه شماتة قبحت
قالوا جميعا ما أقام بلا
قد بات في شغل وفي شغل
مترادفا لا يحسبن له
يدعو البراز فيبرزن له
صخابة رعادة الأصوا
أفنى الرئيس ما لديه من
أفنى البخور في السحور إذا
لا سينما جيرانه فلقد
لم ينفع الإثم كحلهم
[رجل أعشى العيّن كان... وفي

لجج مسن اليم بلا قبر
العنبر الشحري من البحر
إيقاءه يوما على دخر
لهمني لإلف واصل بر
من لا دراني بل ومن يدري
من خامل أو نابيه القدر
رقت لحالي عصابة الكفر
بسلامه متعمدا هجري
عذر على إتيان ذا النكر
ورد النكير على ذوي الكبر
للمصطفى كالأنجم الزهر
متعارفا لنالق البحر
لوم الشماتة شائع الذكر
سبب تخلفه على عذر
سرد المضراط لمطلع الفجر
إلا المصوت منه ذا الهدر
قرن بعاجزة كما القصر
ت كأنها مجانق الشر
الطيب لمركبه لذا المر
كثر الفساء مع جشا الصدر
صارت محاجرهم بلا سفر
فليجرن لكاشف الضر
.. أم اتفاقي بحسن التوقيير⁽³³⁾

(33) كتب هذا البيت في النسختين وهو غير واضح.

وإذا شككت فجددن نظرا
إني أخاف على أبي حفص⁽³⁵⁾

واربأ بنفسك أن تجاورها

/ 14 / إلا تفر فاحتسب بصرا

يا أيها الفرد الذي يرجى

صن هاتك النفس التي كرمت

عن هذه الأوخام إن لنهسا

واجعل لبابك دونه غلقا

رد السفينة شرطه قسرا

يشكى أذاه الدبر أسفها

في السيد العربي⁽³⁴⁾ ترى خبري

فاهرب بعينيك تاليا شكري

من خنفسا أم الفسا واسر

هذي النصيحة لا تكن غري

للخيل والخطية السمر

فهي التي نعتد للدهر

في النفس وخز موثر الضر

فإذا تكلم من ورا ستر

عن قصدها من حيث لا تجري

عم الرفاق لسامع الأمر

رجع

ومن العادة في ذلك أن المركب إذا أراد الدخول يخرج مدفعا إعلاما به

ويتمادى في مسيره، فيخرجون عليه من تلك الأبراج مدافع كثيرة بالكور،

لكنهم يباعدون عنها لئلا تصيبه، لكنها عادة عندهم فيها إظهار للقوة. ثم إن

البحر يخرج من ذلك المكان كأنه أسرع ما يكون من الأودية⁽³⁶⁾، بحيث يرد

المراكب القهقرا (كذ) ولا تقدر على العبور إلا بريح قوي يقاوم سرعة الماء،

لأنهم قدروا للمراكب في سيرها بجري الماء فقط من غير ربح إذا كانت

خارجة ثلاثة أميال في الساعة، ومن أجل ذلك تنحصر المراكب هناك أياما.

(34) لم تتمكن من معرفة هذا الشخص، إذ لم يكن أحد من أعضاء السفارة يحمل هذا الاسم.

(35) يقصد أبا حفص عمر الوزريق أو لوزريق كما جاء الاسم عند الزباني (الترجمة، ص. 86؛

البستان الطريف، ص. 455) و الناصري (الاستقصا، ج. 8، ص. 57) وهو كاتب السلطان

سيدي محمد ومراق ابن عثمان في السفارة. وقد وقع اضطراب في اسم هذا الشخص عند

ابن زيدان في الإتحاف، إذ ورد تارة "أبو حفص الوزير عمر" (ج. 3، ص. 178) وتارة

"محمد الوزريق" (نفسه، ص. 227 و ص. 301)

(36) يشير ابن عثمان هنا إلى ظاهرة بحرية تميز مضيق البوسفور -ولا تزال إلى يومنا هذا- وهي

جريان تيار مائي شبه حلو على سطح البحر يتجه من البحر الأسود نحو بحر مرمرة، وفي

الأعماق ينقلب التيار متخذا الوجهة المعاكسة، وكان التيار السطحي بسبب مشاكل عويصة

للملاحة كما يورد السفير..

الوصول الى إستانبول ومراسيم الاستقبال

لكننا أنعم الله تعالى علينا فعبرنا من يومنا، ثم تمادينا على المسير فوصلنا حضرة القسطنطينية العظمى رابع شوال⁽³⁷⁾، فأرسلنا بمرسأها فورد أهل البلد في فلوكة⁽³⁸⁾ سائلين عن الخبر كما هي العادة، /15/ فعرفوا فرجعوا، فبعثوا بالخبر إلى السلطان نصره الله، فأمرهم أن يهينوا دارا من دوره القريبة منه، وبعث إلينا أكرمه الله ونحن في المركب على سبيل الإهداء والإكرام أواني كثيرة من الزجاج، مملوءة بأنواع الحلاوي والأشربة والتحف الكاملة الظرف، سماحة بالهدية والظرف، مع الفواكه الموجودة في الوقت من إجاص وتفتح وعنب ودلاح وغير ذلك.

ومن الغد أتى أعيان الدولة بفلائك متعددت فركبناها وتوجهنا قاصدين المدينة، فلما وصلنا وجدنا بساحل المرسى عدة خيول مسومة مسرجة بسرج مذهبة، فركبنا وتقدم أمامنا أهل البلد والأعيان إلى أن وصلنا الدار المعينة للنزول، فصعدنا إلى فوقها لأن سكناهم إنما يكون بالفوقي من الدار، فوجدنا دارا غاية في الكبر ذات مقاعد وقبب كثيرة، للجميع طيقتان مطبقات بالزاج (كذا) مشرفة على البحر والمدينة في منظر عجيب، وتكلفوا لفرشها على عاداتهم بمقاعد الحرير في جميع قبب الدار، ثم ترادفت أعيان الدولة في بعث الهدايا على سبيل الإكرام.

استقبال الوزير للسفارة وتسليم رسائل السلطان

وأقمنا خمسة أيام بعد يوم نزولنا واستدعانا الوزير⁽³⁹⁾ إلى ملاقاته، لأن

(37) يوافق تاريخ وصول السفارة إلى ميناء إستانبول 31 يوليوز 1786 كما ضبطته المصادر النصية الأوربية، أنظر بنحادة، المرجع السابق، ص. 302، هامش 40.

(38) لفظة مستعارة من الإسبانية faluca ذات الأصل العربي (الفلك)، وتطلق على مركب صغير وخفيف ذي شراع أو مجاذف، ولا تزال الكلمة مستعملة عند المغاربة للدلالة على هذا النوع من المراكب.

(39) يقصد الصدر الأعظم الذي كان الممثل المطلق للسلطان العثماني والمفوض له بتسيير شؤون الدولة، حيث يكتني السلطان بالتصديق والختم، وكان الصدر الأعظم الذي استقبل ابن عثمان وأعضاء سفارته هو يوسف باشا خوجا الذي تولى الصدارة بين يناير 1786 ويونيو 1789.

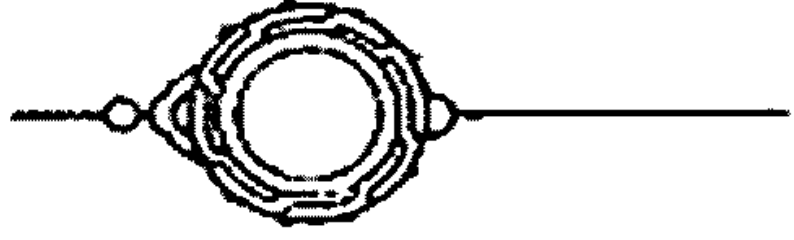
من عادتهم أن السفير إذا قدم عليهم أول ما يتلاقى بعد الاستراحة مع الوزير، وهذه عادة الأعاجم كلها؛ فبعث إلينا عدة من الخيل مسرجة بسرج الذهب وأتى معهم جماعة من الأعيان، فتأهبنا وركبنا وتقدمت خيلهم أمامنا ورجالهم حافون بنا، ومررنا بسكك المدينة، وكل من مررنا به يقف مكانه إلى أن وصلنا دار الوزير المعدة لجلوسه، فصعدنا /16/ إلى فوقها فوجدناها ملثا (كذا) بالأعيان والخدمة، وتجاوزنا قبا ينفذ بعضها إلى بعض، إلى أن وصلنا القبة التي فيها الوزير، فقام إجلالا لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين حتى تهاديننا معه السلام، وقعدنا معه واستفهمنا عن حال السفر والتعب وما يناسب المقام، ثم أوتي بالقهوة فشربنا وتلك عندهم عادة لازمة، ثم بعدها طيف علينا بكثوس من البلور فيها شراب حلو، ثم أتوا بعده بالطيب والبخور، ومهما ناولونا شيئا من الأشياء المذكورة إلا جعلوا فوق ثيابنا مناديل من الحرير منمق، وبعد الجميع أوتي بقفاطين تسمى عندهم الأكراك من أرفع ثيابهم، فالبسونا إياها ورجعنا إلى مجالسنا، ثم أتوا بقفاطين آخرين لأصحابنا فكسوهم إياها، ثم نهضنا للانصراف بل دعينا إليه، فقمنا وقام الوزير وودعنا فساروا بنا إلى خليفته ويسمونه الكاهية⁽⁴⁰⁾، فدخلنا إليه فلقانا وفرح بنا وقعدنا معه، وفعل من الإكرام مثل ما فعل الوزير من القهوة وما بعدها، وتحدث معنا بما يقتضيه المقام والحال، ثم توجهوا بنا أيضا إلى الدفتردار⁽⁴¹⁾، وهو الذي على يديه أموال السلطان والدخل والخرج، فدخلنا إلى مقعده فقام إجلالا وأبدى بشاشة، وأجلسنا معه وفعل من الإكرام مثل ما فعل من قبله مثلاً بمثل، وتفاوضنا في حديث مناسب ثم انصرفنا عنهم إلى دار نزولنا.

ولما دخلنا على الوزير أعطيناه المكاتب التي أصحابنا سيدنا ومولانا أمير المؤمنين إلى السلطان، وتلك هي العادة عندهم، لأن المكاتب تدفع أولا إلى

(40) سماه الزباني "الكاهي باي" واعتبره ضمن ثلاثة هم أعيان الدولة، البستان الظريف، ص. 468.

(41) من كبار موظفي الباب العالي، باعتباره القيم على مداخل ومصاريف الدولة.

الوزير قبل ملاقة السلطان، حتى ينقلوهم من العربية إلى لغتهم ويفهمون /
17/ المراد وما أعملت إليه الرحلة، ليكون السلطان على بصيرة فيما يأتي،
وعاداتهم قريبة من عادة النصارى في هذه القوانين العجمية.



استقبال السلطان للسفارة المغربية

ثم بقينا إلى السابع والعشرين من شهر تاريج، فبعث إلينا الوزير قبل
ذلك بنحو يومين، وأعلمنا بالملاقة مع السلطان في يوم كذا. فلما كانت ليلة
السابع والعشرين، أتى جماعة من الناس خيلا ورجالة إلى دار نزولنا في آخر
الليل وقت السحر، وأذنونا بالتوجه إلى السلطان فتأهبنا، ولما طلع الفجر
قدموا لنا خيلا بقصد ركوبنا مكلفة السروج، فركبنا وتقدمت خيلهم أمامنا
وحفت بنا رجالتهم، فانتبهوا بنا إلى مسجد فدخلنا إليه وصلينا به صلاة
الفجر، ثم ركبنا على الهيئة الأولى وتوجهوا بنا إلى عمر قبالة دار الوزير
وأوقفونا صفًا، وعند طلوع الشمس خرج الوزير في موكب عظيم من
الرجالة بعد أن تقدمته شرذمة من الخيل، ولما مر بنا وضع يده على صدره
إشارة للسلام فرددنا عليه بمثل ذلك، ثم اقتفينا أثره حتى وصلنا باب دار
السلطان فنزلنا، فأما الوزير فدخل إلى موضعه، ونحن أقعدونا على مساطب
هينوها لذلك بقصد الاستراحة، وربما يكون القصد التوسيع على الوزير
حتى يصلح من شأنه، ثم دعينا بعد ذلك فتوجهوا بنا إلى قبة مفروشة بأنواع
الدجاج لها مقاعد ومساطب دائرة بها⁽⁴²⁾.

وبعد أن قعدنا هنيئة خرج الوزير، فقعد في صدر القبة في موضع
معين له، فسلم بالإشارة ورددنا عليه بمثل ذلك، أشار فأشاروا، وجلس
عن يساره بعيدا منه قاضي العسكر⁽⁴³⁾، وقد رأينا في / 18 / الجدار المستند

(42) وقع اضطراب في هذه الجملة في متن النسختين إذ كتبت ' بأنواع الدجاج ' في آخرها،
وقد وقع تصحيحها في هامش النسخة المعتمدة (i).

(43) عين مراد الأول أول قاضي عسكر سنة 1363، ثم خلق محمد الثاني منصبا ثانيا وقسم
نثوذها إلى دائرتين، الأناضول وروم إيلي على رأس كل واحدة قاضي عسكر.

عليه الوزير فوق رأسه بنحو القامة، شباكاً من الحديد ضيق الثقب، قيل إن السلطان يشرف منه على القبة التي فيها الوزير، وينظر جميع ما يكون فيها.

ولما أخذ الوزير مجلسه، وقف بباب القبة رجلان بيد كل واحد عصي من الصفر⁽⁴⁴⁾ قيل إنهما بمنزلة صاحب المشور ببلدنا ويسمونه شاوش باش⁽⁴⁵⁾، ثم أتى أناس آخرون على رؤوسهم قلانس طوال بيض مثل السلة الصغيرة، وبأيديهم أوراق متعددة، وأخذ يقرؤها رجلان أحدهما عن يمين الوزير والآخر عن يساره، والوزير يجيب ويوقع على كل كتاب جوابه، قيل إن تلك الرقاع فيها عرض أحوال الناس وشكاياتهم. ثم سمعنا صوتاً خارجاً عن القبة، فقيل إنه ينادي من له شكاية فليأت، وجميع ذلك بمرءى من السلطان.

وقد كان بإزائنا رجل ذو هيئة، قدموا له عدة مكاتب ودواتا (كذا)، وجعل يضع عليها شكل علامة السلطان فهو صاحب العلامة عندهم⁽⁴⁶⁾، وفي خلل ذلك كانت تأتي براوات من عند السلطان إلى الوزير محتومة، فيقوم من مجلسه ويقبضها ممن أتى بها ويقوم جميع من في المجلس إجلالاً لأمر السلطان، وكنا نفعل ذلك من جملتهم والكل بمرأى من السلطان ومنسمع⁽⁴⁷⁾.

ولما فرغ من فصل قضايا الرقاع، وأداها حقها من التأمل والاستماع، أحضر الطعام، فوضع كرسي أمام الوزير وجعلت عليه سفرة، ووضع

= وكان هذا المنصب من المناصب الحساسة في الدولة العثمانية إلى غاية منتصف القرن 16، نظراً لكون من يشغله عضواً في الديوان الهمايوني ولصلاحيته في تعيين القضاة والمدرسين في المدارس والمساجد. وقد تراجعت أهمية المنصب بعد استئثار "مفتي إستانبول" بصلاحيات كثيرة E.I., 4-392.

(44) يقصد النحاس.

(45) "جاويش باشي" وهو رئيس الجاوشات المسؤول عن البروتوكول والنظام خلال انعقاد الديوان واحتفالات القصر.

(46) يقصد به حامل خاتم السلطان.

(47) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

كرسي أمام صاحب العلامة وعليه سفرة، ثم وضعت لنا كراسي دائرة بسفرة الوزير واستدعونا إليها، ثم أخذوا في وضع أواني الطعام إناء إثر إناء، فنصيب من كل إناء أكلة ويرفع، ويوضع إناء آخر /19/ وهكذا، حتى أتوا على آخر الطعام، ثم أتوا بأشربة حلوة فأصبنا منها، ثم قمنا إلى موضع جلوسنا، فطافوا علينا بأباريق الماء والصابون لغسل الأيدي، ثم بالطيب ثم بالبخور، ثم توجهوا بنا إلى موضع آخر وتركنا الوزير مكانه، فأدخلونا قبة ثم أحضروا الخلع فلبسناها، وخلعوا على جميع من حضر على مراتبهم، ثم خرجنا من هنالك إلى مكان آخر فتعدنا به هنيئة.

مراسيم لقاء السلطان

وجميع هذه الأماكن التي نتقلب فيها وما بينها من الفضاء، كله معمور بالناس على هيئات شتى وأشكال غريبة، ثم استدعونا للدخول على السلطان، فدخلنا على باب بين صفوف من الخلائق لا تحصى كثرة، ووجدنا هنالك أقواما معينين للدخول معنا على السلطان، فأعسك بثوب كل أحد منا رجلان منهم، أحدهما عن اليمين والآخر عن اليسار، ثم دخلنا على باب آخر فوجدنا قبة مفروشة وجماعة من حجاب السلطان واقفين بها، ومنها دخلنا إلى قبة فوجدنا السلطان جالسا على مرتبة، والوزير قائم عن يمينه وفي حزام السلطان خنجر، فتكلم الوزير بكلام بالتركية كأنه يعلم السلطان بالوفد ومن هم ومن أين أتوا، عادة كأنه لا علم له وإلا فقد كان معلوما قبل ذلك.

ثم قربت إليه هدية سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أيده الله ونصره، فتقبضها رجل مسن ودفعها بيد الوزير، والوزير يدفعها للسلطان، ووقفنا أمامه مقدارا قليلا، وخرجنا من عنده على الهيئة الأولى، وركبنا الخيل وأوقفونا بإزاء الباب حتى مر بنا أرباب الدولة على مراتبهم، كل واحد في موكبه في ترتيب عجيب، وبأثرهم خرج الوزير، /20/ وبعده توجهنا إلى دار نزولنا.

وهذا الملقى على هذه الكيفية والاحتفال والعجلة، لم يتفق لأحد كما أخبرنا بذلك أهل الديوان، وإنما ملاقة الوفد عندهم يرصدون بها الأعياد، أو عرض العسكر لقبض الراتب، وهذا الجمع على هذه الصورة يسمونه

الديوان، يجعل ذلك إذا أراد السلطان أن يتلاقى مع أحد.

واسم هذا السلطان عبد الحميد نصره الله تعالى وأيده، ومهد ملكه وشيده، ابن السلطان أحمد⁽⁴⁸⁾ وهو الثامن والعشرون من ملوكهم من السلطان محمد الفاتح⁽⁴⁹⁾، وصفته أبيض مشوب بحمرة، ضرير العينين أقنى الأنف، كبير اللحية يخضب بالسواد، عمره قيل ست وستون سنة، والمدار كله في هذه الدولة على الوزير، وأما السلطان فلا يباشر شيئاً من الأمور.

وأما سبب الإمساك الذين يمسكون الداخل على السلطان كما ذكر أعلاه، فهو ما رواه صاحب كتاب أخبار الدول وآثار الأول، في أخبار السلطان مراد الغازي⁽⁵⁰⁾ بن السلطان أورخان⁽⁵¹⁾، ابن السلطان

(48) أحمد الثالث (1703-1730)، هو السلطان أحمد بن السلطان محمد الرابع، تولى بعد اثورة التي أطاحت بأخيه مصطفى الثاني نتيجة انتشار الفساد في الدولة والتدثر في أوساط الجيش. كان مقتنعا بضرورة إدخال إصلاحات وتجديد المؤسسات. دخل في حرب مع روسيا سنة 1711 لاسترداد مواقع منحت للروس بمقتضى معاهدة كارلوفجه، وفي سنة 1713 تم التوقيع على معاهدة أدنة التي حافظت على السيادة التركية على البحر الأسود. كما دخل السلطان في حرب مع البندقية وألمانيا (1715-1718) انتهت بمعاهدة باساروفجه التي خسر العثمانيون بموجبها أراضي شاسعة في المجر والبلقان. انتهى عهد السلطان أحمد بثورة ياترونا سنة 1730 أرغمته على التنازل عن السلطة لابن أخيه محمود. (أوزتونا 593).

(49) محمد الفاتح (1451-1481)، هو محمد الثاني بن السلطان مراد الثاني، تميز عهده بفتح إستانبول بعد أن وجه كل إمكانيات دولته لحسم الموقف مع البيزنطيين، مما جعله يولي عناية خاصة لمسألة السيطرة على البوسفور، فبنى قلعة "بوغاز كسن حصاري" سنة 1452، ثم قام باستعدادات حثيثة في زمن قياسي تمكن بفضلها من فتح القسطنطينية، واضعاً بذلك حداً لمرحلة تاريخية بأسرها ومدشناً عالماً جديداً احتلت فيه الإمبراطورية العثمانية مكانة متميزة. (أوزتونا 131)

(50) مراد بن السلطان أورخان، تولى الحكم سنة 1362 ومد نفوذ الدولة إلى مناطق مهمة من البلقان، مما استحق معه القاب "سلطان الغزاة والمجاهدين" و"ليث الإسلام" و"غياث الدنيا والدين"، حيث خاض 38 حرباً عنيفة مع ملوك الصرب المجر ورومانيا ودعا البابا أوربانوس الخامس إلى حملة صليبية ضده. وفي 20 يونيو سنة 1389 التقى السلطان مراد وابناه على رأس جيوشهم مع حلف الصرب والبوسنة والمجر وبولونيا ورومانيا وبلغاريا في منطقة كوسوفا، وأسفرت الحرب عن إبادة قوات التحالف ودخول منطقة البلقان تحت الحكم التركي لمدة 500 سنة. وخلال تفقد السلطان مساحة الحرب وجه له أمير صربي جريح طعنة توفي على إثرها، ولازال مكان اغتياله مزاراً لمسلمي البلقان. (أوزتونا 98).

(51) أورخان (1288م-1359)، أكبر أبناء الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، تولى الحكم سنة 1326هـ/1326م وأولى اهتمامه لتوطيد دعائم السلطة العثمانية في آسيا الصغرى وتأسيس الجيش

عثمان⁽⁵²⁾ جدهم الأعلى الذي ينتسبون إليه، ونص كلامه:

وفي سنة إحدى وتسعين وسبعمائة⁽⁵³⁾ خرج السلطان إلى قتال رئيس الكفرة ابن لازر⁽⁵⁴⁾، فاتفق ملاقاته بعسكر الكفرة بموضع يقال له قوسراق ببلاد روم إيلي⁽⁵⁵⁾، فالتحم بين الفريقين القتال وضرب السيوف والمكاحل ورشق النبال، إلى أن هبت ريح النصر من طرف المسلمين، وانقلب الكفار على أدبارهم صاغرين، ثم إنه لما انهزم الكفار، أقبل من أمرائهم أمير يقال له ميلوش بن قوبيل مع خيله ورجله مظهرا الطاعة، فلما هم بتقبيل يد السلطان ضربه بخنجر / 21 / كان في كفه، فمن ذلك سن العثمانية عند قدوم الوافد وتقبيل يد السلطان، أن يمسكه واحد من ثوبه من جهة اليمين والآخر من ناحية الشمال، احترازا من ذلك وبقي فيهم ذلك إلى الآن.

موجز تاريخ الدولة العثمانية

ولابأس أن نورد أول منشأ هذه الملوك، الذين نظم أخبارهم زينة للدنيا وسلوك، فمن تاريخ القرمان في كتابه أخبار الدول وآثار الأول ما نصه:

الباب السابع والأربعون في دولة بني عثمان أبقاهم الله تعالى إلى آخر الدوران، وهم من أعظم سلاطين الدنيا أبهة وجلالة، وأشدهم قوة وآثارا،

إذ في عهده أسست فرق الإنكشارية، ثم اشتغل بمد نفوذه إلى أوروبا حيث ثبت قدمه في تراقيا ومقدونيا واضعا بذلك دعائم الإمبراطورية العثمانية ومن ثم يعتبر مؤسسها. كما وضع كثيرا من النظم الإدارية والمالية وبنى المساجد والمدارس والتكايا وحبس عليها الأوقاف، إذ في عهده بلغ نظام الدراويش ذروة مجده، ويظهر أن الطريقة البكتاشية ظهرت في هذا العهد. (دائرة المعارف 3-126)

(52) عثمان بك الغازي بن أرطغرل، مؤسس السلالة والدولة العثمانية التركية، خلف أباه في اعتلاء إمارة المقاطعة الحدودية التابعة إسميا للسلطان السلجوقي. ذاع صيته وعظم نفوذه بعد الفتوحات التي تمكن منها وخاصة قره جه حصار التي جعلها قاعدة له، مما جعل السلطان علاء الدين كيكايد الثالث السلجوقي يرسل له سنة 1300 علامات السلطنة. (أوزنونا، 89).

(53) سنط التاريخ من (أ) وورد في (ب).

(54) لازار، حاكم صربيا الذي تزعم الحلف المسيحي الأوربي ضد الزحف الإسلامي التركي في البلقان في عهد السلطان مراد.

(55) الاسم الذي أطلقه العثمانيون على الولايات الأوربية لدولتهم وخصوصا البلقان.

وأول من ملك منهم في ممالك الروم الأمير عثمان الغازي، ابن الأمير أرطغرل⁽⁵⁶⁾ بن سليمان شاه، وله نسب يتصل إلى يافت بن نوح عليه السلام، وهو الجد الثاني والأربعون لسلطاننا الأعظم محمد خان، لازالت أعلام خلافته مرفوعة وألوية سلطنته منصوبة. ولما كانت أسماؤهم بلغة الترك القديمة لم نذكرها لعسر ضبطها، وهي مشهورة في التواريخ التركية مذكورة. وكان سليمان شاه المذكور سلطانا في بلاد ماهان ونواحي بلخ⁽⁵⁷⁾، فلما ظهر جنكزخان وخرب بلاد بلخ، وأخرج منها السلطان علاء الدين خوارزم شاه، وتفرقت أهلها في سنة إحدى عشرة وستمائة، ترك تلك البلاد [في]⁽⁵⁸⁾ من تركها من الملوك وقصد بلاد الروم، وكان قد سمع بدولة السلاجقة بالروم وعظم شوكتهم وكثرة غزوهم إلى الكفار، وتبعه في ذلك خلق كثير، فلما وصلوا إلى أرزنجان⁽⁵⁹⁾ تقاتلوا مع الكفار وغنموا منهم شيئا كثيرا، ثم قصدوا صوب جلب من ناحية ألبستان⁽⁶⁰⁾، / 22 / فوصلوا إلى

(56) أرطغرل بك (حوالي 1191-1281م)، الشخصية الأولى التي تتوفر عنها معلومات تاريخية من الأسرة التي سميت فيما بعد "عثمان أوغلو"، إذ هو والد عثمان غازي جد العثمانيين. ينتمي لقبيلة قايي إحدى قبائل الأوغز التركية، وكان أجداده "بكات" أو أمراء هذه العشيرة واعتنقوا المذهب السني الحنفي، اكتسب لقب غازي نتيجة غزواته المستمرة ضد البيزنطيين. (أوزتونا 83).

(57) مدينة مشهورة بخراسان ومن أجل مدنها وأكثرها خيرا، تزود منتجاتها البلاد كلها بل تصل إلى خوارزم، وهي قريبة من نهر جيحون الذي يعرف بنهر بلخ. افتتحها الأحنف بن قيس أيام عثمان بن عفان، وانجبت عددا كبيرا من العلماء والفقهاء والسيوخ الأعلام. (معجم البلدان 1. 479).

(58) لم يرد هذا الحرف في الأصل نكتنا نعتقد أن المعنى لا يستقيم بدونه.

(59) بلدة كثيرة الخيرات والأهل في شرق الأناضول، تقع على كارا سو الرافد الشمالي لنهرات وسط سهل خصب تحيط به الجبال، وكانت منذ القدم ملتقى لطرق القوافل. وكان غالب أهلها الأرمن حسب إفادة ابن بطوطة عندما مر بها وإن كان فيها أتراك مسلمون أيضا. تعاقبت على حكم أرزنجان قوى سياسية طوال تاريخها من سلاجقة ومغول وعثمانيين، حيث ضمت نهائيا إلى الإمبراطورية العثمانية سنة 1514 على يد السلطان سليم الأول خلال حملته على الشاه إسماعيل الصفوي، لتصبح عاصمة لواء تابع لإيالة أرضروم. تعرضت أرزنجان للزلازل التي دمرتها مرارا مما ينسر اندثار آثارها القديمة. (معجم البلدان 1. 150؛ 2) 729. E. I.

(60) مدينة جنوب شرق الأناضول تقع على رافد لنهر جيحان وسط سهل البستان الغني بالمياه والذي تطل عليه جبال طوروس، وهي عاصمة قضاء بولاية مرعش. كانت من الثغور الهامة

نهر الفرات أمام قلعة جعفر⁽⁶¹⁾ ولم يعلموا المعبر، فعبروا النهر فغلب عليهم الماء ففرق سليمان شاه، فأخرجوه ودفنوه عند قلعة جعفر وقبره اليوم هناك يزار ويتبرك به.

وكان مع سليمان شاه المذكور أولاده الثلاثة وهم: سنقورزنكي وكورطوغدي وأرطغرل، فلما وصلوا إلى موضع يقال له توقات⁽⁶²⁾ رجع سنقورزنكي وكورطوغدي ابني سليمان شاه المذكور إلى بلاد العجم، وتخلف أرطغرل جد الملوك العثمانية مع أبنائه الثلاثة قدر وصاروبني وعثمان، ومكث في ذلك الموضع يجاهد الكفار، ثم أرسل ابنه صاروبني إلى صاحب قونية⁽⁶³⁾ وسوار السلطان علاء الدين كيقبار السلجوقي⁽⁶⁴⁾، ليستأذنه في الدخول إلى بلاده و يطلب منه موضعاً ينزل به، فعين له جبال طومالخ وجبال أرمنك⁽⁶⁵⁾

خلال الحروب بين العرب والبيزنطيين، وسقطت في يد الصليبيين بين سنتي 1097 و 1105 لتنتقل من سيادة إلى أخرى مدة طويلة خلال الصراعات والحروب التي عرفتھا المنطقة بين الإمارات السلجوقية والتركمانية والمغولية، إلى أن ضمها سليم الأول للسيادة العثمانية سنة 710. (E., I., 2)

(61) الأصح جعفر، ولا زال المكان الذي دفن فيه سليمان شاه يعرف إلى اليوم بـ "ترك مزاری" أي "قبر التركي". (صلاح ضبيح، "العلاقات العثمانية البيزنطية"، مجلة الاجتهاد، بيروت، عدد 41-42، 1999، ص. 177).

(62) بياض مكان الاسم في (أ) وردت في (ب).

(63) مدينة على الطريق بين عمورية وأنطاكية تبعد عن اللاذقية بيوم، تقع في مفترق الطرق وكانت عاصمة لملوك الروم، دارت بها معارك بينهم وبين المسلمين ومن ثم خربت مراراً، لتشهد انبعاثها على يد الملك السلجوقي مسعود الأول (512-550هـ/1118-1155م) الذي اتخذها عاصمة له ولخلفائه، وتدل الآثار التي خلفوها على نمو المدينة وازدهارها. (الروض 251؛ E., I., 5-484)

(64) الصحيح "كيقباد" وهو علاء الدين كيقباد الأول، أشهر سلاطين سلاجقة الروم، تولى الحكم سنة 618هـ/1221م ونجح في جعل دولته تتبوأ مكانة مهمة بين القوى المعاصرة له، إذ وسع رقعتها في جبال طوروس الكيليكية وعلى ضفاف البحر الأسود والفرات الأوسط. عاصر الصراعات السياسية والفبلية التي تزامنت مع تحركات المغول وضغوطهم وخرج منها مستفيداً بضم كثير من المناطق، كما اصطدم بالأيوبيين. توفي سنة 634هـ/1237م وظل يحظى بصيت ذائع 4. (E., I., 850)

(65) إسم بلدة جنوب الأناضول في القسم الغربي من جبال طوروس، ولا ندري إن كان الاسم يطلق في التقديم على الجبال كلها كما ورد عند ابن عثمان 2. (E., I., 727)

وما بينهما موضعاً للسكن، فأقبل أرطغرل مع أربعمئة جركاه من قومه، فتوطنوا في فرجة طاع⁽⁶⁶⁾. وفي سنة خمس وثمانين وستمائة، نازل السلطان علاء الدين بعساكر كثيرة ومعه الأمير أرطغرل قلعة كوتاهية⁽⁶⁷⁾ وهي يومئذ بيد الكفار، فقوض أمر القلعة إلى الأمير أرطغرل، فاجتهد حتى فتحها عنوة وغنم من الأموال شيئاً كثيراً، فازداد عند السلطان قرباً ومنزلة، ولم يزل الأمير أرطغرل بعد هذا يقاتل ويجاهد في سبيل الله عز وجل حتى توفي في سنة سبع وثمانين وستمائة.

فلما سمع السلطان وفاته تأسف عليه، وعين مكانه ولده عثمان بيك بن الأمير أرطغرل، وكان تفرس في الغزو في سبيل الله منذ نشأ، /23/ مولده سنة ست وخمسين وستمائة، فلما رأى السلطان علاء الدين اجتهاده في الجهاد، وعلم نجابته في فتح تلك البلاد، أكرمه وأمده بأنواع الإعانة والإمداد، وأرسل إليه الراية السلطانية والخلع السنية والطبل، فلما ضرب الطبل بين يدي عثمان بيك، نهض قائماً على قدميه إعظاما للسلطان علاء الدين، فما زال كذلك حتى فرغوا، فمن ذلك اليوم سن العساكر العثمانية القيام على أرجلهم عند ضرب طبل السلطنة في الأسفار والأعياد.

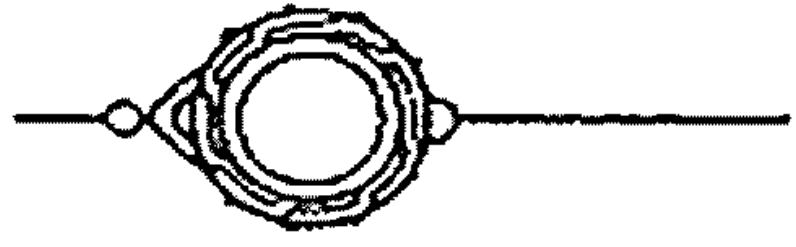
وكان يحب العلماء والصلحاء، وكان كثير التردد إلى الشيخ العارف أردبالي القرماني وربما يبيت في زاويته، فرأى ليلة في منامه أن قمراً خرج من حضن الشيخ فدخل في حضنه، وعند ذلك نبتت من سرته شجرة عظيمة سدت أغصانها الآفاق، وتحتها جبال راسيات ذات أنهار وعيون والناس ينتفعون من تلك المياه، فلما استيقظ الأمير عثمان قص رؤياه على الشيخ، فقال له الشيخ لك البشارة بمنزل السلطنة، وسيعلو أمرك وينتفع الناس بك وبأولادك، وإني زوجتك ابنتي هذه، فقبلها عثمان وتزوجها فولد

(66) والأصح 'داغ' التي تعني 'جبل' بالتركية.

(67) مدينة شمال غرب الأناضول مبنية على سفح تلة 'عجم داغ' تعلوها قلعة محصنة، كانت من المدن الكبيرة في العهد البيزنطي وفتحها السلاجقة سنة 472هـ/1080م. خلال العهد العثماني كانت كوتاهية عاصمة 'لسنجن أناضولو'، اشتهرت بصناعة الخزف والزراعي وتضم معالم عمرانية مهمة تتميز بسقوفها القرمزية (E.I.I.5.. (543.

له منها أولاد من جملتهم السلطان أورخان.

ثم إن السلطان علاء الدين عظم بلاؤه من التتار وقد شاخ وكبرت سنه، وعجز عن الحركة والنهوض فاشتغل بنفسه عن غيره، فتسلطن عثمان الغازي في البلاد التي افتتحها، وخطب له فيها بالسلطنة ختنه الشيخ أردبالي مولانا طورستان الفقيه، في مدينة قره حصار⁽⁶⁸⁾ يوم الجمعة سنة تسع وتسعين وستمائة، وهي أول خطبة وقعت في الدولة العثمانية / 24 / باسم الأمير عثمان الغازي، وقيل بل أجاز له في ذلك السلطان علاء الدين وهو مجاز من الخلفاء العباسيين.



ذكر القسطنطينية العظمى التي فاقت حواضر الدنيا ترتيباً ونظماً

إن قلت بلد اتكالا على ما لها من التخصيص في القلب والخلد، فقد أضعت حقها ويبقى الاحتمال في أن يكون هناك ما هو فوقها، وإن قلت مدينة واقتصرت، فلا منعت دخول غيرها ولا حصرت، وإن قلت إقليم فقد يشتمل على عمران وخراب وبحران وسراب، والحق أعلا (كذا) وتأدية الحقوق من إفسارها أولى، وما رأيت ما يؤدي وصفها ومعناها، وما اشتمل عليه أقصاها وأدناها، إلا ما أجابني به بعض أخبار النصارى الذين بها مستوطنون، وبحضرتها من القديم قاطنون، حيث قلت له ما أعظم هذه المدينة فقال: "لا يقال إنها مدينة، هذه الدنيا"، والحق قال، إنما هي الدنيا حقيقة، ففيها من الأمور الدنيوية ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فلا يمكن أن تسأل عن شيء غريب إلا تجد منه سوقاً.

(68) قره حصار أو قارا حصار ومعناه القلعة السوداء، إسم لأماكن وبلدات عديدة غالبها ببلاد الروم تشترك في تأسيسها في أماكن منيعة ذات صخور بركانية داكنة، منها قارا حصار على يوم من أنطاكية وأخرى قرب قيسارية، أما المعنية في النص فتعرف اليوم بكاراكاسير، وهي بلدة في ناحية إسكي شهير منحها السلطان علاء الدين كيتباد لأرطغرل وأتباعه ليستقروا بها كما جاء في المخطوط، واهتم العثمانيون الأوائل بتعميرها. (معجم البلدان 4: 315؛ E., 1., 4)

فهي محشر الأمم ومحط الرحال وبحر العمران، وغاية القصاد والمورد العذب للوراد، لا يوقف في وصفها على حد ولا يتناهى في مآثرها ومحاسنها على عد، فلها المساجد التي بهرت وبالتدريس وطلاب العلم ازدهرت، التي في بديع شكلها وحسنها ورونقها لا تضاهى، / 25 / ولها الأسواق العائرة بالأشياء الغامرة التي لا تتناهى، فالأولى أن نقتصر في الخبر على كلام النصراني الخبر .

إلا أن بردها عاصف وقرها لا يصفه واصف، لا يرده دثار ولا موقد نار، فهي إناء للثلج المصبوب، فتنبو عن المضاجع من قرها الجنوب، وكثيرا ما يقع في ديارها وأسواقها حريق للنار والهوب، لأن بيوتها من الخشب المجلوب، ولله من قال وناهيك بها حسنة تعد من الذنوب. وسبب انتقالهم إلى الخشب عن البناء بالحجارة، وإن كان قريبا بعضه من بعض في العمل والإجارة، كثرة ما يقع بأرضهم من الزلازل التي لا تبقي ولا تذر، وانتقال من موت لآخر واجب في الشرع ومقرر، فهي على ما هي به من الخيرات موصوفة جنة بالمكاره مخوفة.

وكفاهها شرفا وفخرا، ما حازته دون غيرها قنية وذخرا، قبر أبي أيوب الأنصاري⁽⁶⁹⁾ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكونها موطن جهاد وقراع للعدو وجلاد، منها تجهز الجيوش والكتائب وتشحن السفن والمراكب، وتفرق الجرايات والإعانة والرواتب، جعل الله لها من حفظه وكلاءته لزيما يرافقها وأجرى القدر بما يوافقها. وقبر أبي أيوب خارج عن المدينة بربطها⁽⁷⁰⁾ وعليه عمارة كثيرة، وقد توجهنا إلى زيارته مرارا فنركب البحر

(69) خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة أبو أيوب الأنصاري (ت. 52هـ / 672م)، صحابي وحامل لواء النبي، شهيد العقبة وبدرا وأحدا والخندق وسائر المشاهد. كان مشجعاً محباً للجهاد والغزو، عاش إلى أيام بني أمية. سكن المدينة ثم رحل إلى الشام ولما غزا يزيد القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية صحبه أبو أيوب غازيا، ومرض فأوصى أن يوغل به في أرض العدو ولما توفي دفن بالقرب من القسطنطينية. (ابن سعد 3 . 49؛ الإصابة 1 . 404؛ الزركلي 2 . 295؛ دائرة المعارف 1 . 309؛ شذرات الذهب 1 . 57).

(70) الأصح ربضها.

في زورق ونتوجه إليه، لأن المسير في البر بعيد جدا من أجل كبر هذه الحاضرة وعظمتها، فدخلنا مدفنه المبارك فإذا قبة حافلة، مشتملة على ذخائر من الأواني الفضية والمنارات والخسك⁽⁷¹⁾ العظام لوقد الشمع وما أشبه ذلك،/26/ وزرنا قبره المبارك وتبركنا به رضي الله عنه ونفعنا به ولله الحمد، وبإزائه مسجد تقام فيه الجمعة.

وهذه المدينة مأسسة⁽⁷²⁾ عند مجتمع البحرين الرومي⁽⁷³⁾ مع البحر الأكحل⁽⁷⁴⁾ الذي يسمونه بلغة الترك قاردنز، وقد انعطف البحر معها فانعطفت معه العمارة متصلا بعضها ببعض، وفي العدو الأخرى الشرقية وهي الغلاطة⁽⁷⁵⁾ مثل ما بالقسطنطينية من العمارة، واستمرت كذلك إلى أن دخلت مع مجاز البحر الأكحل⁽⁷⁶⁾، وهو ضيق كثيرا تقطعه كورة المدفع، وعليه قلع كثيرة محصنة بالمدافع مقابل بعضها ببعض من الجانبين، والديار والأسواق عامرة إلى أن انتهى ذلك البغاز .

وقد مررت ذات يوم لرؤية ذلك، فركبت زورقا وسرت قريبا من الشاطئ نحو من ثلاث ساعات، كلها عمارة ديار وأسواق وغلبني البحر ورجعت، لأن ذلك المجرى ضيق كثيرا والماء خارج من البحر الأكحل إلى البحر الشامي كأنه السيل، لا يقف له شيء لشدة جريه، فقد كنا في بعض المواضع منه لا يقدر الملاحون على السير فيه بالمجادف، فنكتري أناسا في البر معتدين لذلك فيجذبون زورقنا بالأحبال⁽⁷⁷⁾ حتى يجوزونا ذلك الموضع، وقد فعلنا ذلك في مواضع متعددة. وكذلك السفن الكبار لا يقدر على المجاز منه إلا على هذا

(71) الشمعدان.

(72) الأصح مؤسسة كما في (ب).

(73) البحر المتوسط.

(74) لاندري سبب اعتماده هذا التعت أحيانا، وأخرى وصفه بالأسود.

(75) غلاطة، تشكل القسم الآسيوي من مدينة إستانبول إلى جانب أسكدار، وتقع قبالة ميناء القسطنطينية في مدخل البوسفور.

(76) مضيق البوسفور.

(77) يقصد الحبال.

الوجه، فتراهم يطول مكثهم حيث يريدون الدخول إلى هذا البحر، وأما الخروج منه إلى البحر الشامي فهو سهل لكثرة جري الماء.

والسلطان نصره الله له داران، أحدهما في العدو التي فيها إسطنبول ويسكنها في فصل الشتاء، والأخرى / 27 / في العدو الأخرى في مقابلتها ويسكنها في فصل الصيف. وهذه الحاضرة بما أضيف إليها على البحر كالأثافي، فالقسطنطينية وقبالتها الغلاطة شرقا والأسكدار⁽⁷⁸⁾ قبة.

وأما ما بها من الخيرات تفصيلا فشيء لا تفي به عبارة، أما الفواكه والخضر الصيفية والخريفية فلا تنقطع أبدا، فالتفاح والكمثري⁽⁷⁹⁾ والبطيخ والدلاح والعنب موجود فيها السنة كلها حتى تظهر الفاكهة الجديدة، وأما اللحوم ففي وقت البرد والشتاء والثلج يكون اللحم فيها أسمن ما يكون، وفيها الغنم الشعبية ذوات الذيول. ومن أغرب الغرائب أن الأسعار لا تتبدل فيها دائما، فالخبز والدقيق واللحم بسعر لا يزيد ولا ينقص على كثرة ما بها من الأمم، وأغرب من ذلك أن الجميع مجلوب إليها في البحر. ولو ترى مرساها وكثرة من يغشاها وما بها من ازدحام الوارد والعمارة، لعلمت مقدار هذه الإمارة، وأما الفلاثك التي يعبر الناس فيها من ناحية إلى أخرى، فقد سألت ذات يوم بعض الملاحين كنا راكبين في زورقهم عن عدد الفلاثك فقال: لا أدري، إلا أنهم حسبوهم (كذا) في زمن السلطان مصطفى⁽⁸⁰⁾

(78) أسكدار أو أسكودار، أقدم وأكبر حي بإستانبول في جزنها الآسيوي، وكلمة أسكودار التركية تعني "محطة البريد"، وبحكم موقعها ظلت أسكدار قاعدة عسكرية تنطلق منها كل الحملات العسكرية نحو أطراف الإمبراطورية في آسيا. وقد أصبحت أسكدار جزءا من العاصمة العثمانية ومقرا أساسيا لطائفة الدراويش والتكايا، مما جعل منها مركزا هاما لحياة النصوص، كما توجد به العديد من المساجد المشهورة في إستانبول. (دائرة المعارف 2 146)

(79) الإجاص.

(80) مصطفى الثالث (1129-1187هـ/ 1717-1773)، السلطان السادس والعشرون في سلسلة السلاطين العثمانيين وابن السلطان أحمد الثالث، اعتلى العرش سنة 1757 ونعمت الدولة في بداية عهده بالسلام الذي أعقب إبرام معاهدة بلغراد سنة 1739. وبعد وفاة الصدر الأعظم راغب باشا سنة 1763 واستشار مصطفى الثالث بزمام الحكم، تعاقب على الصدارة الأعظم مجموعة من الوزراء منهم محسن زاده محمد باشا الذي أعلنت في ولايته الحرب على روسيا ومن ثم بداية المتاعب مع هذه الدولة في الثرم وأوريا الوسطى، حيث توالى النكبات على

رحمة الله عليه، فوجدوهم نحو ثمانين ألفا وتعددت الروايات بمثل ذلك. فبهذا الاعتبار يظهر لك مقدار هذه المدينة العظيمة المقدار، فإن التفتت إلى من دخل إليها أو خرج فحدث ولا حرج، فالسفن ترد عليها كأنها القوافل، جالبة لمتاع الدنيا حوامل، ولكل إقليم مرسى معينة لا ترسى (كذا) مراكبه إلا بها لتكون معزولة⁽⁸¹⁾ من أجل الكثرة / 28 / عند طلابها. وأما أسواق ثياب الحرير والملف والذهب والفضة والأحجار والسلاح فشيء لا يكيف، أما السوق الذي يسمى بالمغرب بالقيصرية إذا افترق الإنسان عن صاحبه، فلا يمكن أن يجده إلا أن يتلاقى به على غير ميعاد لكبره، وكثرة انعطافاته والازدحام وآفاته.

ومن حضارة هذه المدينة وحسن ترتيبها أن سوق كل نوع من السلع والحرف منعزل عن غيره، ولا يتعاطون (كذا) أهله إلا تلك الحرفة، حتى أن ما ينقى به صمغ الأذان له سوق معلوم لا يصنع أصحابه إلا ذلك، وليقس على ذلك وحتى الحشرات لها سوق معلوم يتوقف عليها أهل الطب.

وأما مساحة أرض القسطنطينية خاصة، فقد مررت بوسطها من باب إلى آخر بقصد الاختبار، فقطعتها على مسيرة ساعتين بسير الراكب المتوسط، وقد درت بسورها من جهة البر من البحر إلى البحر في مسيرة ساعة وربع، وما يلي البر منها إلا قليل نحو الربع، وثلاثة أرباعها بالتقريب موالية للبحر، ويدل على ذلك قطع مساحتها طولاً في مسيرة ساعتين لأنه ثلث الدائرة، لأنه إذا كان مساحة ربع منها ساعة وربع فيكون في جميع أرباعها خمس ساعات وهذا بالتقريب، وثلث ذلك ساعتان إلا ثلث، ونحن سرنا ساعتين فيحتمل أن يكون في ناحية البحر أكثر من ثلاثة أرباع.

الدولة منذئذ واضطربت أحوالها بفعل التكاثر الروسي والتأمر مع القوى في الولايات مثل علي باي المملوكي في مصر، مما يفسر رغبة السلطان مصطفى سنة 1773 في تزعم قوائمه شخصياً لحرب روسيا، لكن مرضه حال دون ذلك حيث توفي في أوج الاستنفار في 9 شوال 1187 الموافق لـ 24 دجنبر 1773 وخلفه أخوه عبد الحميد 7 (E., I., 709).

(81) 'معروفة' في (ب).

ومع كبرها فلها ثلاثة أسوار ومن ورائها الحفير، ولها من الأبواب لناحية البر سبعة، وقبالة كل باب قنطرة مضروبة على الحفير، ولها من الأبواب لناحية البحر أربعة وعشرون، /29/ ومن المراسي أربعة وعشرون خارج كل باب مرسى، وهذا من غير العدو التي فيها الغلاطة وأسكدار، وأرضها قليلة الماء فجعل أجناتها تسقى بالدواليب والقرب.

ومن كتاب القرماني وإن كان فيه تكرار مع ما ذكرنا، وهي أي القسطنطينية كانت دار ملك للكُريق⁽⁸²⁾ ويسمون الروم وسلطانهم يلقب لنبلطور⁽⁸³⁾، فأما اليوم فهي دار ملك آل عثمان أبقاهم الله إلى آخر الزمان، وبانيها هو قسطنطين بن سوروبوس صاحب رومية، والبحر يحيط بها يعني القسطنطينية من جوانبها الثلاث، والجانب الغربي متصل بالبر، ولها ثلاثة أسوار في غاية الحصانة ومن ورائهم الحفير، وبقرها قبر أبي أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أخذه معه يزيد بن معاوية لغزو بلاد الروم للبركة، فتوفي في بر القسطنطينية فدفن هنالك واتخذوا له مشهدا، فقال- يعني صاحب الروم-: ما أقل عقل هذا الصبي دفن صاحبه هاهنا، ما تفكر في أنه إذا رجع لبلاده نبشناه ورميناه، فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فقال: ما رأيت أحق من هذا، ما تفكر في أنه إذا فعل ذلك ما نترك قبرا من قبور النصاري في بلادنا إلا نبشناه ولا كنيسة إلا خربناها، فلما سمع ذلك صاحب الروم تركه على حاله.

إيراد خبر فتح القسطنطينية

ولنذكر الآن سبب فتح المدينة ومن فتحت على يده، وتاريخ ذلك وما وقع في ذلك من الكرامات فنقول: ذكر القرماني في تاريخه في "أخبار الدول وآثار الأول" عند ذكر ملوك آل عثمان: وفي رابع المحرم سنة خمس وخمسين وثمانمائة يوم الأربعاء /30/ توفي السلطان مراد خان، وكان ملكا

(82) كتب هذا الاسم بكاف ذي ثلاث نقط وقاف بثلاث نقط كذلك لتطق G اللاتينية.

(83) يقصد الإمبراطور.

عالمًا عاقلًا عادلاً شجاعاً، وكان يرسل لأهل الحرمين الشريفين من خاصة ماله [في كل عام]⁽⁸⁴⁾ ثلاثة آلاف دينار ذهباً، معتنياً بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء، مهد الممالك وأمن المسالك، وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة وله من العمر تسع وأربعون سنة، وتولى مكانه ولده الملك المجاهد أبو المعالي محمد خان بن مراد خان، جلس على سرير الملك بعد وفاة أبيه بعهد منه إليه، وكان عمره إذ ذاك تسع عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام، وهو السلطان الضئيل الفاضل النبيل، أعظم الملوك جهاداً وأقواهم إقداماً واجتهاداً، وأكثرهم توكلًا على الله واعتماداً، وهو الذي أسس ملك بني عثمان وقنن لهم القوانين التي صارت كالطرف في أخبار الزمان، وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة، وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام، ومآثر ما تمحوها مذاهب السنين والأعوام.

ولما تسلطن توجه إلى قتال صاحب قرمان وصالحه فعاد إلى مقر ملكه، ثم لم يكن له هم إلا فتح المدينة الكبرى القسطنطينية العظمى، فشرع في مهماتها ومقدماتها، وهي من أعظم البلدان وأكثرها أهلاً وأمنعها حصناً، لأنها أحاط بها البحر من كل صوب إلا الطرف الغربي وهو طرف يسير، وقد حصنوها بثلاثة أسوار وعدة خنادق يجري فيها ماء البحر مع ما فيها من المكاحل والمدافع.

فأظهر السلطان ضلالة صاحب القسطنطينية / 31 / وذلك في سنة ست وخمسين وثمانمائة، ثم طلب من طرف بلاده أرضاً مقدار جلد ثور يهبها له، فاستقل⁽⁸⁵⁾ ذلك قسطنطين فقال سبحانه الله وما يفعل به فهو له، فأرسل السلطان المذكور شكر الله سعيه المبرور جماعة من البنائين والصناع، فاجتازوا الخليج الداخل من بحر بنطيس وهو البحر الأسود إلى بحر الروم، فقدوا جلد الثور قدًا دقيقًا، وبسطوه على الأرض على أضيق محل من فم الخليج،

(84) سفتت من (أ) ووردت في (ب).

(85) من القلة أي اعتبره قليلاً ولا ضير في إعطائه.

فبنوا على القدر الذي أحاط به ذلك الجلد سورا منيعا شامخا وحصنا رفيعا بادخا، فركب فيه المدافع الرعادية والمكاحل الشهابية، ثم بنا السلطان المجاهد في مقابلة ذلك الحصن في بر أنضول حصنا آخر وهو طرف بلاده، فشحنها بالآلات والمرامي الرعدية حتى ضبط فم الخليج، فلم يقدر يسلكه بعد شيء من مراكب البحر الأسود إلى القسطنطينية وإلى بحر الروم.

ثم أثنى عزمه إلى مدينة أدرنة⁽⁸⁶⁾ فأمر بإنشاء دار السعادة الجديدة فشرعوا في بنائها، ثم أمر بسبك المدافع الكبار والمكاحل لأجل فتح مدينة قسطنطينية فأكثرها منها، ثم لما تكاملت الآلات والأسباب المتعلقة بالقتال، نهض في أوائل جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة بعسكر كبير وجيش كثير، وعزم صارم ورأي حازم، في أسعد أوقات الحركات متوكلا على فائض الخيرات والبركات، فخيم على قسطنطينية ونازلها من طرف الشمال، وكانت له أربعمائة من الأغربة⁽⁸⁷⁾ قد أنشأها هو وأبوه قبل هذا التاريخ، فأرساها عند الحصن الذي هو على قدر جلد الثور /32/ الموسومة بتعركس، فأمر بتلك الأغربة فسحبت إلى البر بعد أن جعلت تحتها دواليب تجري عليها كالعجلة، وشحنها بالأبطال والرجال، ثم أمر بنشر قلعها فنشرت في ريح شديدة موافقة، فساروا في البر على هذه الهيئة حتى انصبوا إلى الخليج الواقع شمال البلد من طرف مدينة غلطة، فامتلا الخليج من تلك الأغربة، ثم قربوا بعضها من بعض وربطوها بالسلاسل، فصارت جسرا ممدودا

(86) أدرنة، عاصمة العثمانيين بعد بورصة. تعزى أهميتها التاريخية إلى موقعها الاستراتيجي على الطريق بين الأناضول والبلقان وتحكمها في الممر الطبيعي بين جبال رودوب وإستراتانجا. تسميها المصادر العثمانية بأسماء تشريفية مثل "دار النصر والمينة" و"دار السلطنة"، استولى عليها الأتراك العثمانيون سنة 763هـ/1362 في عهد مراد الأول وصارت القاعدة المتقدمة للفتوحات العثمانية في أوروبا، مما حمل خلفاءه على نقل العاصمة إليها وفيها وضعت خطط حصار القسطنطينية من طرف محمد الثاني "الفاتح" الذي اتخذها عاصمة حتى بعد فتح إسطنبول، ولذلك بنى فيها السلاطين قصورا ومساجد كبيرة واشتهرت بحملات الصيد والحفلات السلطانية التي كانت تقام فيها إلى أن تعرضت لحريق دشن مرحلة تدهورها سنة 1700-700.(E., 1., 2 - 700) ñÇÛ.

(87) مراكب بحرية.

ومعبرا لطيفا للمسلمين⁽⁸⁸⁾. وكان أهل البلد آمنين من هذه الجهة ولم يحصنوها، وإنما كان خوفهم من جهة البر والبحر غير هذا الموضع، فكانوا حصنوها وغفلوا عن هذه الجهة لأمر أراده الله تعالى.

والسبب في حمل هذه الأغربة في البر على هذه الكيفية، مع أن المعتاد في سير الأغربة هو البحر على ما حكى لنا بعض أخبار الروم، أن بلاد القسطنطينية كانت بيد الروم المعروفين الآن بالكريك، وبلاد غلاطة التي أمامها كانت بيد زنويج⁽⁸⁹⁾، ولما نزل السلطان محمد رحمة الله تعالى عليه على القسطنطينية من جهة البر، عمد النصاري إلى مجاز البحر الأسود وهو المسمى قاردنز، وهو أي المجاز ضيق، فجعلوا فيه سلاسل وربطوها في عدوتيه تمنع كل ما يأتي من المراكب [منه، وجعلوا سلاسل أخرى على بغاز حصار يعني المجاز الذي يدخل منه إلى القسطنطينية تمنع أيضا كل ما يأتي من المراكب]⁽⁹⁰⁾ من البحر الشامي. ولما تعذر سفر الأغربة في البحر وتوجهها إلى القسطنطينية بسبب السلاسل المذكورة، حملها السلطان في البر حتى أنزلها في الموضع المذكور الذي وقع منه الفتح، فشرع المسلمون حينئذ في القتال والحصار من جهة البر والبحر مدة أحد وخمسين يوما، حتى / 33 / أعياء (كذا) المسلمين أمرها.

وكان أهل البلد لما سمعوا بقصد المسلمين إليهم استمدوا من الفرنج⁽⁹¹⁾، فأمدوهم بجيش عظيم وعدد كثير ليتقوا به، وكان السلطان محمد خان أرسل وزيره أحمد باشا بن ولي الدين إلى خدمة الشيخ أوسق⁽⁹²⁾

(88) يورد هنا بعض تفاصيل مناورة عسكرية مذهلة قام بها الأتراك، إذ في ليلة 23 أبريل 1453 تم تسيير 67 قطعة صغيرة من الأسطول العثماني على البر لتفادي السلسلة الغليظة التي أغلق بها البسفور، وتمكنوا من مباغته البيزنطيين الذين لم يصدقوا وهم يرون الخليج يموج بقطع الأسطول التركي، وقد كتب المؤرخ البيزنطي والدبلوماسي الأمير دوكاس الذي التقى السلطان محمد الفاتح عن ذلك: "ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الثاني يحول الأرض إلى بحار وتعبير سننه فوق قمم الجبال بدلا من الأسواج" (أوزتونا 135)

(89) يقصد الجنويين الإيطاليين.

(90) وقع استدراك هذه الجملة في الطرة في (أ).

(91) ورد في طرة (أ): "المراد به جنس الفرنسيس خذله الله آمين".

يدعوهم للجهاد والحضور معه في فتح القسطنطينية فحضروا، وبشر الشيخ شمس الدين الوزير المذكور بالنصر فقال: ستفتح قسطنطينية إن شاء الله تعالى على يد المسلمين في هذا العام، وسيدخلونها من الموضع الفلاني في اليوم الفلاني من هذا العام وقت الضحوة الكبرى، وأنت تكون حينئذ واقف (كذا) عند السلطان محمد، فبشر الوزير السلطان بما أسره إياه الشيخ من خبر الفتح.

فلما صار ذلك الوقت الموعود به ولم تفتح القلعة، حصل للوزير خوف شديد من جهة السلطان، فذهب إلى الشيخ فمنعوه من الدخول لأنه أوصى جماعته أن لا يدخلوا عليه أحدا، فرفع الوزير أطناب الخيمة فنظر فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم، وفتح الله ببركة دعائه في ذلك الوقت الذي كان أشار به، وكانت دعوته تحرق سبع طباق. فلما دخل السلطان محمد المدينة المذكورة، نظر إلى جانبه فإذا وزيره ابن ولي الدين واقف عنده، فقال هذا ما أخبر به الشيخ، وقال ما فرحت بهذا الفتح وإنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زماني. ومن مناقب هذا الشيخ أنه كان طبيبا يداوي الأبدان، كما أنه طبيب يداوي الأرواح حتى يحكى أن الأعشاب كانت تناديه وتقول أنا أنفع من المرض الفلاني.

وكان فتح المدينة يوم الأربعاء العشرين من جمادى الأخيرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وكان عدد أيام محاصرته / 34 / إحدى وخمسين يوما، فغنم المسلمون من الأموال والأسباب والدواب ما لم يسمع بمثله في عصر

(92) يتصد بهذه الكلمة لقب الشيخ شمس الدين، ويسميه أوزتونا " آق شمس الدين " ويلقبه " مرشد الخاقان " أي السلطان محمد الفاتح، والذي شارك أتباعه الدراويش بنمالية في فتح القسطنطينية، إذ أورد هذا المؤرخ التركي أنه خلال العمليات العسكرية " كان رجال الدين والطرق يتجولون بين الصفوف يشجعون الثائلين وينزلون الأدعية وينشدون الأشعار والمنظومات الدينية ويرددون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على الجهاد والقتال في سبيل الله "، مضيفا و " كانت أصدااء تكبيرات الغزاة الدراويش في صفوف الجيش التركي التي يتجول بينها أستاذ الخاقان آق شمس الدين وملا كوراني، والدعاء الذي رددوه عقب صلاة الصبح والخطاب القصير المؤثر الذي ألقاه البادشاه... كان ذلك كله يؤتي ثمرته فينجد أمواجا متعاقبة على الأسوار البيزنطية... ". (أوزتونا 138).

من الأعصار، ولأن السلطان لما شاهد العبي (كذا) والفتور من العسكر في الحصار، أمر بأن ينادى أن الغنائم كلها لكم ويكفيني فتح المدينة، فلما بلغهم ذلك بذلوا جهدهم واجتهدوا حتى يسر الله لهم فتح المدينة. ثم شاع خبر الفتح في الآفاق فهابه ملوك العالم، فأرسل إليه صاحب مصر وصاحب العجم وصاحب المغرب بالمكاتب والرسائل يهنونه (كذا) بالفتح.

ولاشك أن هذا الفتح من أعظم الفتوحات الجليلة، وكم رام من الخلفاء والملوك فتح هذه المدينة، وصرفوا همهم وبذلوا أموالهم، وأفنوا أعمارهم وعساكرهم فلم ينالوه، وإنما جاء الله تعالى به لهذا السلطان الجليل والملك الجميل، لكونه أعلم الملوك وأعدلهم وأحسنهم سيرة، وأخلصهم نية وطوية، وضمن بعضهم هذا المعنى في تاريخ الفتح فقال:

رام أمر الفتح قوم أولون حازه بالنصر قوم آخرون

أوقع لفظة آخرون تاريخ فتح المدينة بعد حساب الحروف⁽⁹³⁾. وقيل في تاريخه أيضا: بلدة طيبة وهي كذلك في طيب الهوى⁽⁹⁴⁾ وعذوبة الماء، وهي من الإقليم الخامس بينها وبين مكة المشرفة ألف ميل وثلاثمائة وسبع وثمانون ميلا ونصف ميل.

ولما دخل السلطان المدينة سارع بالتوجه إلى كنيسة العظمى أياصوفيا⁽⁹⁵⁾، فدخلها وطهرها من خبائث الشرك، وصلى فيها ودعا الله

(93) يطابق حساب حروف "آخرون" 857، وهي السنة الهجرية الموافقة لـ 1453، سنة فتح القسطنطينية.

(94) الأصح الهواء.

(95) أياصوفيا، أكبر مسجد في القسطنطينية وأعظم كنيسة في الشرق قبل الفتح العثماني، تعزى شهرتها وأهميتها إلى كونها مثالا كاملا لتشييد القباب في تاريخ الفن المعماري. وتدل أحدث البحوث أن باني أياصوفيا على صورتها الأولى ليس قسطنطين الأكبر وإنما ابنه قسطنطينوس الثاني. وقد توالى الأحداث على هذه الكنيسة العظيمة، حيث دمرتها الزلازل والنييران عدة مرات، وأعاد بناءها الإمبراطور جوستنيان الذي أولاه عناية خاصة. وتدل مقاييس هذا البناء على عظمته. وقد زاد الأتراك المآذن الأربعة المحيطة بالبناء وسهروا على إصلاح ما أفدء الدهر. (دائرة المعارف 3: 171؛ E.I., 1-797)

تعالى وحده وأثنى عليه، وجعلها مسجدا جامعا للمسلمين وعين له أوقافا ورواتب.



بناء السلطان محمد الفاتح ضريح أبي أيوب الأنصاري

ثم إن السلطان محمد خان التمس من الشيخ شمس الدين أن يريه موضع /35/ قبر أبي أيوب الأنصاري، فقال الشيخ إني شاهدت في موضع نورا لعل قبره هناك، فجاء إليه وتوجه زمانا ثم قال: اجتمعت مع روحه فهنأني بهذا الفتح قال: شكر الله سعيكم الذي خلصتموني من ظلمة الكفر، فأخبر الشيخ بذلك السلطان فحضر بنفسه إلى هناك، فقال: ألتمس منك يا مولانا الشيخ أن تريني علامة أراها بعيني ويطمئن بذلك قلبي، فتوجه الشيخ ساعة ثم قال: احفروا هذا الموضع وهو من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين، يظهر لكم رخام عليه خط عبراني، فلما حفروه ظهر رخام عليه خط فقرأه من يعرفه وفسره، فإذا فيه قبر أبي أيوب الأنصاري، فتحير السلطان محمد خان وغلب عليه الحال حتى كاد أن يسقط لولا أن أمسكوه، ثم أمر ببناء القبر عليه وأمر ببناء الجامع والخجرات، والتمس من الشيخ شمس الدين أن يجلس في ذلك المكان مع توابعه فامتنع، واستأذن في الرجوع إلى وطنه قصبة كونبك، فأذن له السلطان تطيبا لقلبه.

وحيث جرا (كذا) الكلام إلى أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فقد تعين أن نذكر ترجمته على سبيل التبرك فنقول: ومن كتاب "الاستيعاب" لابن عبد البر⁽⁹⁶⁾ في التعريف بأبي أيوب فقال: خلد بن زيد بن كليب بن ثعلبة أبو أيوب الأنصاري النجاري، من بني غنم بن مالك بن النجار،

(96) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (368-463 هـ/978-1071م)، إمام عصره في الحديث ومؤرخ نسابة أديب بحاثة يقال له حافظ المغرب، ولد بقرطبة وولي قضاء لشبونة وشنترين وتوفي بشاطبة. من كتبه "الدرر في اختصار المغازي والسير" و "الاستيعاب" الذي جمع فيه أسماء الصحابة و "الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء". (الزركلي، 8: 240؛ ابن خلكان 7-66؛ المغرب في حلى المغرب 2: 407).

غلبت عليه كنية أمه هند بنت سعد بن عمر بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأكبر، شهد العقبة وبدرا وسائر المشاهد، وعليه نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في خروجه من بني عمرو بن عوف حين قدم المدينة مهاجرا من مكة، فلم يزل /36/ عنده حتى بنا مسجده في تلك السنة وبنا مساكنه، ثم انتقل صلى الله عليه وسلم إلى مسكنه، وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين مصعب بن عمير.

حدثنا سعيد بن نصر حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا ابن وضاح حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يونس بن محمد عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن أبي رهم السماعي عن أبي أيوب الأنصاري حديثه قال: نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتنا الأسفل وكنت في الغرفة، فأهريق ماء فقممت أنا وأم أيوب بقطيفة نتبع الماء شفقة أن يخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا مشفق، فقلت يا رسول الله إنه ليس ينبغي أن نكون فوقك، انتقل إلى الغرفة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بمتاعه أن ينقل، ومتاعه قليل وذكر تمام الحديث.

وكان أبو أيوب الأنصاري مع علي رضي الله عنه في حروبه كلها، ثم مات بالقسطنطينية من بلاد الروم في زمن معاوية، وكانت غزاته (كذا) تلك تحت راية يزيد وهو كان أميرهم يومئذ، وذلك سنة خمسين أو إحدى وخمسين من التاريخ، وقيل بل كانت سنة اثنين وخمسين وهو الأكثر في غزو يزيد القسطنطينية. حدثنا سعيد بن نصر حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا ابن وضاح حدثنا ابن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي ظبيان عن أشياخه عن أبي أيوب، أنه خرج غازيا في زمن معاوية فمرض، فلما ثقل قال لأصحابه: إذا أنا مت فاحملوني، فإذا صافقتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم ففعلوا، وذكر تمام الحديث.

وقبر /37/ أبي أيوب قرب سورها معلوم إلى اليوم معظم، يستسقون

به فيسقون، وقد ذكرنا طرفا من أخباره أيضا في كتاب كنيته ونصه: أبو أيوب الأنصاري وذكر اسمه ونسبه وقال: وتوفي بالقسطنطينية من أرض الروم سنة خمسين وقيل سنة إحدى وخمسين في خلافة معاوية تحت راية يزيد، وقيل إنه أمر بالخنيل فجعلت تقبل وتدبر على قبره حتى عفا أثر قبره، روى هذا عن مجاهد، وقد قيل إن الروم قالت للمسلمين في صبيحة دفنهم لأبي أيوب لقد كان لكم الليلة شأن، قالوا مات رجل من كبار أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم وأقدمهم إسلاما، وقد دفناه حيث رأيتم، والله لئن نبش لأضرب لكم بناقوس في أرض العرب ما كانت لنا مملكة.

وقال ابن الكلبي⁽⁹⁷⁾ وابن إسحاق⁽⁹⁸⁾ شهد أبو أيوب مع علي رضي الله عنه الجمل وصفين، وكان على مقدمته يوم النهروان، ولأبي أيوب عقب. وروي عن محمد بن سيرين أن أبا أيوب شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا، ثم لم يتخلف عن غزوة في كل عام إلى أن مات في أرض الروم. فلما ولي معاوية يزيد على الجيش إلى القسطنطينية جعل أبو أيوب يقول: وما علي أن أمر علينا شاب، فمرض في غزوته تلك فدخل عليه يزيد يعوده وقال له أوص، قال: إذا مت فكفنوني ثم مر الناس فليركبوا ثم يسيروا في أرض العدو حتى إذا لم يجدوا مساعا فادفنوني، قال ففعلوا ذلك. وكان أبو أيوب يقول: قال الله عز وجل انفروا خفافا وثقالا،

(97) أبو المنذر هشام بن السائب الكلبي (120-204هـ/737-819م)، المشهور بابن الكلبي، ولد بالكوفة حوالي سنة 120هـ وبها توفي سنة 204 أو 206هـ. هذا حذو أبيه في التطلع في علوم عصره المختلفة و صنف العديد من الكتب التي اعتمدها الكثيرون من تلامذته في تأليفهم دون الإحالة عليها، إلا أن بعضها وصل إلينا متكاملة مثل "جمهرة النسب" و "الأصنام" حيث أبان ابن الكلبي عن معارفه الواسعة بخصوص الأنساب والجاهلية (E.I. 4 - 516).

(98) أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن ياسر بن خيار (85-150هـ/704-767م)، من أكبر رواة السيرة النبوية، ولد بالمدينة وتوفي حسب معظم الروايات ببغداد ودفن بجانب قبر أبي حنيفة، سليل أسرة من رواة الأخبار والمغازي والحديث حيث برز وأصبح مرجعية أساسية في هذا العلم. سافر إلى مصر والعراق طلبا للعلم، كما أن خروجه من المدينة يعزى إلى مضايقات هشام بن عروة ومالك بن أنس. من مؤلفاته كتاب "السيرة" و "كتاب الخلفاء" وكتاب "السنن" (E.I. 3). (834)

فلا أجدني إلا خفيفا وثقيلا، وروى قرة بن خالد عن أبي يزيد المدني قال: كان أبو أيوب والمقداد بن الأسود يقولان: أمرنا أن ننفر على كل حال ويتأولان انفروا خفافا وثقالا.

/ 38 / عودة إلى القسطنطينية عند فتحها

ولما دخل المسلمون إلى قسطنطينية أرسل صاحب الغلاطة مفتاح قلعتها ففتحت، ودخلها المسلمون وتسارعوا إلى مسجدتها القديم الذي كان بناه مسلمة بن عبد الملك⁽⁹⁹⁾ وقت حصارها، وكان الكفار صيروه كنيسة لهم، وقد دخلنا إليه وصلينا فيه وتبركنا به. وفي هذه السنة بعث كثير من أهل الحصون والقلع والمدن بمفاتيح بلادهم حيث رأوا فتح القسطنطينية، وفي سنة ثمان وخمسين وثمانمائة أمر السلطان ببناء دار السعادة التي بقرب الجامع الذي أنشأه السلطان أبو يزيد خان⁽¹⁰⁰⁾، وهو أول دار أنشأها الملوك العثمانية في مدينة قسطنطينية، قلت: وقد مررت بهذه الدار ذات يوم فأخبرت أنها

(99) مسلمة بن الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي (ت. 121هـ/738م)، أحد كبار رجالات الجيش الأموي الذي اشتهر بحصاره لقسطنطينية سنة 98-99هـ/716-718م، أبعد عن الخلافة بسبب كون أمه أسيرة. انشغل مسلمة بتجريد الحملات العسكرية الأموية المشهورة بالصوائف ضد البيزنطيين في آسيا الصغرى، ففتح عمورية وطفوانة سنة 88هـ/707م. وفي سنة 91هـ/710م خلف محمد بن مروان كعامل على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وواصل الفتوح تجاه بحر قزوين. ثم عين سنة 99هـ/717م على رأس الجيوش المكلفة بحصار بيزنطة (القسطنطينية)، كما سار لقمع حركة الخوارج وثورة يزيد بن المهلب سنة 720م. وبعد إبعاده عن الساحة العسكرية في عهد يزيد الثاني عاد إلى مساهمته النشطة في الفتوحات فيما وراء النهر في عهد أخيه هشام بن عبد الملك ليقتضي أخريات أيامه في حران بشمال سوريا (E., I., 6-729).

(100) هو بايزيد الأول (1389-1402)، الابن الأكبر للسلطان مراد وولي عهده، اعتلى العرش وعمره 29 سنة. شارك في حملات أبيه العسكرية ونودي به سلطانا في ساحة الحرب على إثر استشهاد أبيه في كوسوفا. تمكن السلطان بايزيد من توحيد الإمارات التركية في الأناضول بعد ثورتها إبان انشغال السلطان مراد بالحرب في البلقان، كما ضمت أفلاق (رومانيا الجنوبية) في عهده وخضعت مورا لسيادته. وأمام تقدم القوات التركية في عهد بايزيد، حشدت أوروبا المسيحية قوات ضخمة ووقعت معركة نيقبولو سنة 1396 التي حنق فيها الأتراك انتصارا ساحقا. انتهت هذه الإنجازات بوقوع السلطان بايزيد في أسر قائد آخر من أكبر القادة في التاريخ وهو تيمور بك الكبير عقب معركة أنقرة التي جمعت الفتوتين سنة 1402، وتوفي بايزيد في الأسر سنة 1403. (أوزتونا 103).

عندهم اليوم معدة لتربية بنات الملوك منهم.

وفي سنة إحدى وستين وثمانمائة غزى (كذا) السلطان محمد خان بلاد مورة⁽¹⁰¹⁾ فافتتحها، واستولى عليها وصيرها دار إسلام، وأسكن فيها طائفة من العرب، ثم غلب عليهم الروم فتنصر جماعة منهم ورحل جماعة عنها، ثم عاد السلطان لما بلغه ذلك وافتتح نحو سبعين قلعة لم يدخلها مسلم قط، وبالجملية لم يبق في بلاد مورة حصن إلا فتحه.

ومن غرائب القسطنطينية مسجدها الأعظم العتيق المسمى أياصوفيا، وهذا الاسم وضعه عليها النصارى في القديم، سموها على اسم امرأة صالحة عندهم، وهي من بنيان الروم الذين كانوا بالقسطنطينية، بنتها أم قسطنطين وكانت عندهم بيعة من أعظم البيع، فطهرها الله تعالى من شركهم /39/ ورجسهم، وصيرها مسجدا جامعاً لإقامة دينه القويم ولتلاوة كلامه القديم.

صفة أياصوفيا التي بمدينة إصطنبول العظمى حرسها الله⁽¹⁰²⁾

شكل بنائه غريب غير معهود لا في مساجد المغرب ولا الأندلس، لأنه قبة واحدة في غاية الضخامة والارتفاع، والجميع من الرخام مشتمل على ما تحار فيه العقول من الصنائع والنقوش الرائقة والاختراعات الفائقة، تقصر

(101) مورة، الاسم التركي لشبه جزيرة البيلوبونيز التي تعتبر قلب بلاد اليونان القديم، خضعت للأتراك بعد حروب طويلة مع البيزنطيين سنة 1460م، ومنذ ذلك ظلت من السناجق المهمة في الدولة العثمانية وساهمت بشكل فعال في تطوراتها خلال أربعة قرون، إذ انتشر الإسلام فيها وخصوصاً في صفوف الألبان وغيرهم من القوميات الأخرى ولعب أبناؤهم فيما بعد أدواراً حساسة في الدولة، إذ صار بعضهم وزراء نافذين وضيابطاً كبار. وفي سنوات 1683-1688 تمكن قوات الحلف المقدس من السيطرة على العديد من تغور مورة ونكبت القوات العثمانية هزائم فيها أسفرت عن توقيع الباب العالي معاهدة كارلوفيتز 1699 متخلياً عن مورة للبندقية، وفي سنة 1715 استرجع الأتراك المنطقة إلى أن استقلت اليونان عن الإمبراطورية العثمانية سنة 1830. (E., I., 7-237 et suiv.)

عن وصفه العبارات والتقارير والإشارات، وبه خزائن الكتب الجامعة والأنوار اللامعة، فهو مأوى للأولياء وكناس الأصفياء الأتقياء.

طول القبة ثلاثمائة وخمسة وعشرون قدماً وعرضها مائة وثمانية وثلاثون قدماً، وغن يمين القبة ويسارها سقف على أعمدة عظام من الرخام، منحط عن أعلا القبة يصعد إليه ويشرف منه على المسجد. مساحة كل ناحية سبعة وخمسون قدماً وذلك من حساب المسجد معد للصلاة، وقد صعدنا إلى فوقي سقف المسجد، فوجدنا هنالك بيتاً في زاوية من زواياه كان متعبداً للكفار الذين كانوا هنالك، ولا زالت في حيطانه صورهم إلى الآن، وأمام البيت قبر أم قسطنطين بانية المسجد المذكور، وهو معروف عندهم إلى الآن. وخارج باب القبة بلاطان كبيران على قدر القبة هما من حساب المسجد أيضاً، مفصولا بينهما وبين القبة بجدار، مفتحة فيه أبواب للبلاطين المذكورين عرضهما خمسون قدماً، ومكتوب عن يمين المحراب وشماله بخط غليظ بالأبيض في لازوردية آية الكرسي، وعن يمين المحراب وشماله شمعتان كأنهما في الطول والغلظ أعمدة حقيقية، رأيت يازاء كل واحدة /40/ سلماً يصعد فيه إلى إيقادها بنحو سبع عشرة درجة، فيوقدان عند صلاة المغرب ويطفيان، ويوقدان أيضاً عند صلاة العشاء والصبح حتى يفرغ من الصلاة، وهكذا السنة كلها، ويوقدان في شهر رمضان حتى يصلي الناس التراويح، وعند رأس كل سنة يجعلون في رمضان شمعا آخر ويحملون ما بقي من الآخرين إلى دار السلطان بقصد التبرك. وهكذا مساجد القسطنطينية كلها يجعل لها مثل هذا الشمع على هذا النسق.

ومكتوب في وسط أعلى القبة [الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري...]⁽¹⁰³⁾، بخط غليظ بالسواد، وتحت ذلك منحدرًا إلى ناحية القبلة بقية الآيات إلى "أن ترفع"، ومكتوب في سائر زواياها اسم الجلالة بذوب

(102) ورد هذا العنوان بظرة ص. 39 من نسخة (أ).

(103) الآية 35 سورة النور.

الذهب بخط غليظ، واسم النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة والحسين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، كل اسم في زاوية وغير ذلك من الآيات القرآنية.

وبها من المصابيح عدد كثير، فالوقادون الذين يوقدون مصابيحها عشرة كل واحد يوقد ناحية، وصحنها مفروش بالرخام الأبيض، في وسطه بركة ماء عليها قبة من شبابيك الصخر دائرة بها أنابيب كثيرة، فمن أراد أن يتوضأ أو يشرب يفتح الأنبوب ويقضي غرضه ويغلقه، وقد دخلنا من الصحن المذكور إلى قبة مدفون فيها السلطان مراد أحد ملوكهم وزوجته وأولاده.

ومن أعظم المساجد بهذه الحاضرة مسجد السلطان أحمد والد السلطان عبد الحميد الموجود في وقتنا هذا، وهو بقرب أياصوفيا مبني كله بالرخام الأبيض الناصع، آية في / 41 / العظم والضخامة، مبني على شكل مسجد أياصوفيا المتقدم الذكر، قبة واحدة عظيمة⁽¹⁰⁴⁾ في وسطه وحواليها بلاطات، وقد رفعت هذه القبة على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض، سعة كل ربيع من أرباع كل عمود أربعة وعشرون قدما، والأعمدة المذكورة مستديرات الشكل من غير أركان مشرفات الصنعة، ومساحة عرض القبة فيما بين الأعمدة والأعمدة خارجة ثمانية وسبعون قدما، ومن فوق البلاطات التي حوالي القبة مقاعد مشرفات على المسجد، في غاية اللطافة وغرابة الشكل معدة للصلاة من حساب المسجد، وحيطان المسجد كلها مرصعة بالزليج النائق .

وأما منبرها فعجب وكله من الرخام الأبيض، ما شئت من توريق أنيق وترصيع نصيع، ومكتوب في زوايا القبة وفوق المحراب آيات قرآنية بذوب الذهب، فقد رسم فوق المحراب [كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا]⁽¹⁰⁵⁾، وهذه الآية مكتوبة في جميع محارب مساجد هذه المدينة،

(104) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(105) الآية 37 سورة آل عمران.

وتحتة [فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب]⁽¹⁰⁶⁾، ومن فوق الجميع قرب السقف [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة] إلى [ولا هم يحزنون]⁽¹⁰⁷⁾، ومكتوب في وسط القبة من أعلاها [إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا] الآية⁽¹⁰⁸⁾، وفي دائرة أسفلها [الله نور السماوات والأرض] الآية⁽¹⁰⁹⁾، ومكتوب في الأعمدة الأربعة المرفوعة عليها القبة، دائر بكل عمود مثل الحزام بذوب الذهب بخط غليظ في الأخضر، ففي العمودين اللذين يليان القبلة ففي الأيمن منهما ما نصه / 42 / قال تبارك وتعالى [إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين]⁽¹¹⁰⁾، وفي الأيسر ما نصه قال تبارك وتعالى: [الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى]⁽¹¹¹⁾، وفي العمودين اللذين في الجوف، ففي الأيمن ما نصه قال تبارك وتعالى: [لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين]⁽¹¹²⁾، وفي الأيسر [وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون]⁽¹¹³⁾. وفي العمودين الأخيرين المذكورين أنابيب ماء بغلقها ترسل عند الحاجة إليها لشرب أو وضوء، ومرسوم في زوايا المسجد آيات قرآنية مناسبة لحال المسجد، مثل قوله تعالى: [ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى]⁽¹¹⁴⁾،

(106) الآية 39 سورة آل عمران.

(107) الآية 277 سورة البقرة.

(108) الآية 41 سورة فاطر.

(109) الآية 35 سورة النور.

(110) الآية 18 سورة التوبة.

(111) الآية 2 سورة الرعد.

(112) الآية 108 سورة التوبة.

(113) الآية 186 سورة البقرة.

(114) الآية 22 سورة لقمان.

ومثل [قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام]⁽¹¹⁵⁾ وغير ذلك من الآي.

وقد جعلوا عن يمين المحراب وشماله أبوابا متعددة كبارا بشبابيك الحديد، ومن داخلها أبواب من الزجاج⁽¹¹⁶⁾ لإدخال الضوء ورد الريح والقر، ومن دونهم أبواب من جيد العود المرصع بالصدف. وقد أحاط بالمسجد سور آخر بينه وبين المسجد براح كبير من الجهات الأربع والمسجد في الوسط، جعلوا فيه من ناحية قبلة المسجد بستانا يرى من داخل المسجد من تلك الشبابيك المذكورة أكسبه منظرا حسنا، وفي أحد الأرباع المذكورة في جدار المسجد سقايات لها أنابيب بأغلاقها، قبالة كل أنبوب دكان من الحجر لأسباغ الوضوء، وحول الجميع مدارس يأوي إليها طلبة العلم، مئونتهم من أوقاف المسجد رحم الله بانيه.

وقد توجهنا لزيارة قبر السلطان أحمد باني المسجد المذكور وتربته بإزاء مسجده، وعلى ضريحه قبة دائرتها مقدار ما كتب فيه سورة الملك إلى قوله تعالى: [سبّحت وجوه الذين كفروا]⁽¹¹⁷⁾، وباقي السورة كتب بخط أرق من الخط الأول في ثلاث سطور أو أربع، رحمة الله تعالى عليه. ومن أعظم مساجد هذه الحاضرة "السليمانية"، وهو مسجد السلطان سليمان⁽¹¹⁸⁾ وهو على الشكل المذكور، وإن اختلفت صنعتها فيجمعهما كونهما من قبة واحدة وحواليه براح كما ذكر، وهو أكبر من مسجد السلطان أحمد.

(115) الآية 144 سورة البقرة.

(116) يقصد الزجاج.

(117) الآية 27 سورة الملك.

(118) سليمان القانوني بن السلطان سليم الأول (1520-1566)، من أعظم وأشهر سلاطين الدولة العثمانية، ففي عهده تمكنت دولة آل عثمان من نبوء مكانة عالمية متميزة وفرضت نفسها كواحدة من القوى الكبرى التي يحسب لها حسابها في البحر المتوسط وأوروبا، إذ دخل في صراع مرير مع "شارل كنت" إمبراطور إسبانيا وأنمسا حول السيادة في هاتين المنطقتين خرج منه القانوني منتصرا. كان رجل دولة حازم وداهية سياسيا وعسكريا إتسعت الإمبراطورية في عهده وأديرت إدارة محكمة. (أوزتونا 261 وما بعدها)

ومن ألطف مساجد القسطنطينية وأكثرها تألقا مسجد السلطان عثمان ويسمونه "العثمانية"، وإن كان صغير الجرم فهو غريب الشكل عديم المثل، صليبا فيه الجمعة مرارا، كله من الرخام كغيره وفيه عمل رائع وصنع فائق، فهو يثني على بانيه بلسان تناهيه، ما شئت من طيقان في أعلاه ووسطه مغلفات بصفائح الزجاج على ألوان، مكتوب فيها أسماء الله الحسنى وآيات من القرآن، ومكتوب عند انتهاء ارتفاع جدران القبلة وعند الأخذ في انعطاف البناء، لأجل استعمال القبلة كالحزام سورة الفتح من أولها إلى آخرها، بخط غليظ جدا بذوب الذهب في سواد، وانتهى آخر السورة عند الابتداء وهذا مقدار دائرتها.

ومن أبهى مساجدها مسجد علي باشا كان وزيرا على عهد السلطان محمود⁽¹¹⁹⁾، فهو قيد البصر وفدلكة الحسن والعمل كالعمل، وكذلك مسجد السلطان مصطفى رحمة الله تعالى عليه من هذا النمط، وإن كان أصغر من هذين المسجدين بقليل، وقد صليبا فيه رحمة الله على بانيه ودخلنا ضريحه وهو بقرب مسجده، فإذا تربة تحدث في القلب خشوعا وانكسارا، مكتوب على بابها كل نفس ذائقة الموت، وفوق الباب من داخل القبلة فاعتبروا /44/ يا أولي الأبصار، ومكتوب في دائرة القبلة [بسم الله الرحمن الرحيم وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا- إلى- قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم -إلى- إنه غفور رحيم وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا - إلى- خالد بن]⁽¹²⁰⁾، صدق الله العظيم سبحانه ربك رب العزة (عما يصفون)⁽¹²¹⁾ إلى آخره.

(119) محمود الأول (1730-1754)، هو الابن الأكبر لمصطفى الثاني ويلقب بـ "غازي"، إتمظ بعاقبة أبيه وعمه اللذين أطاحت بهما ثورتان فعمد إلى تغيير رؤساء الوزراء بصفة مستمرة، دخل بدوره في حرب مع روسيا وألمانيا انتهت بمعاهدة بلغراد سنة 1739 التي أثبتت على الوضع القائم في البحر الأسود وأثبتت أن الدولة العثمانية لا تزال دولة قوية. (أوزتونا 607)

(120) الآيات 49، 53، 71 و73 سورة الزمر.

(121) سقطت من (أ) ووردت في (ب).



الخزانات والمكتبات بإستانبول

وأما ما في هذه المدينة من خزائن الكتب المعتبرة، التي لا يوجد مثلها في سائر البلاد فشيء لا يفي به تقرير ولا يؤديه تعبير، كل مسجد له خزانة وهناك خزائن آخر من غير المساجد، ويظل الجميع مفتوحا والقيم حاضر، ومن أراد أن يطالع أو ينسخ يظل هنالك حتى يقضي غرضه ولا تخرج ورقة من هنالك.



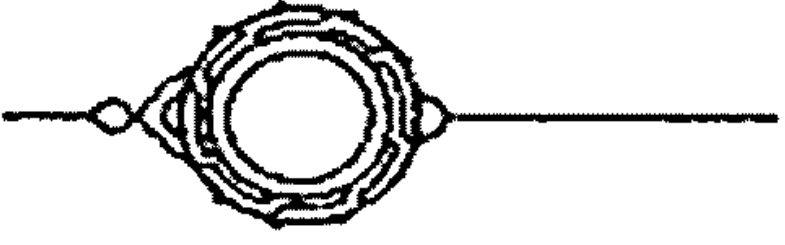
المساجد والحمامات

وعدد مساجد الخطبة بالقسطنطينية على ما أخبرني به بعض الناس، بعد البحث وعلى ألسنة الناس، عدد لا يقبله عقل: مائتا مسجد من غير مساجد الملوك وهم نحو العشرة، وفي الغلاطة وأسكدار وغير ذلك نحو الخمسين، وأخبرني بعضهم أن عدد الحمامات داخل سور إسطنبول خاصة مائة وسبعة وسبعون، وبأسكدار والغلاطة وقاسم باشا عشرون.

ومن أعظم مساجد القسطنطينية وأشهرها وأكبرها وأكثرها عمارة وقراءة ومجالس وطلبة ومدارس، مسجد السلطان محمد خان الفاتح نعني فاتح القسطنطينية رحمة الله عليه، شكل بنائه على مثال أياصوفيا وهو كله من الرخام الأبيض الفائق وفيه صنع رائق، وصحنه كذلك مفروش بالرخام دائرة به سقائف على أعمدة عظام من الرخام أيضا، مكتوب في أعلى جدار المسجد مما يلي الصحن حديث (ستفتح القسطنطينية ونعم الجيش جيشها ونعم الأمير أميرها).

/45/ لكن أياصوفيا أكبر من الجميع، إلا أن مسجد السلطان محمد أكثر مساجد القسطنطينية قراءة وطلبة، فقد كنت أتكلم ذات يوم مع بعض مدرسيها، فأخبرني أن عدد مدارس هذا المسجد ست عشرة مدرسة، وجميع ما بها من الطلبة يقبض المئونة والجراية اليومية أو الشهرية من أوقاف المسجد، الذي جعل له السلطان بانيه رحمة الله عليه وتقبل منه. فإذا دخلت إلى هذا المسجد فلا تكاد تسمع من جلبة أصوات المدرسين، فخلق المجالس متصل بعضها ببعض، وجل قراءاتهم علم المنطق والنحو والتصريف وعلم

المعاني والبيان⁽¹²²⁾ هذا الغالب وغيره نادر.



نظام التعليم والمراتب العلمية العثمانية

ومن طلبة هذا المسجد تخرج المدرسون فيه وفي غيره في سائر المملكة العثمانية، ويترقون بعد ذلك إلى مرتبة القضاء على المراتب التي أذكرها بعد إن شاء الله، فهو أول المراتب، ولهم في ذلك ترتيب وقانون عجيب رأيت أن أذكره.

وأبتدئ بأعلى مرتبة فأقول: أعلى المراتب العلمية رتبة المشيخة الإسلامية، ويسمى صاحبها بشيخ الإسلام وبمفتي السلطنة العلية، وليس له مدة معينة فإن شاء السلطان عزله في مدة قليلة وإن شاء أقره مدة كثيرة كالوزير الأعظم، وهو يشاركه في أمور عظيمة من أمور الدولة فلا بد من انضمام رأيه فيها، ويتوقف على إشارته جميع الخدمات العلمية في الممالك كالوعظ والتدريس ونحوها. والإشارة أن يكتب من كان شيخ الإسلام ويوقع في عرض حال طالب إحدى الخدمات المذكورات، تنفيذ ذلك له ولا بد للوزير الأعظم من أن ينفذها فلا ترد أصلا، ويتوقف على إشارته أيضا توجيه المناصب /46/ للموالي⁽¹²³⁾ التي أذكر بعد هذا إلى منصب قاضي عسكر، ويعطى من بيت المال له حين نصبه في كل شهر نحو سبعمائة وألفي قرش، ويعطى له أيضا بإشارته من الدولة العلية قضاء أو قضاءين بطريق "أربه لق"، المعنى يصرف مستفادها في علف دوابه ويبقى له ذلك منصوبا أو معزولا، وليس هذا بمنصب لكن يشبهه فيوليه من يختار وإن أراد عزله عزله، ويكون المولى نائبا عنه في ذلك القضاء فيجري الأحكام الشرعية فيه، وما يحصل من أجره الوثائق الشرعية يأخذ النائب منه خمسة ويدفع أربعة أخماس للمنوب عنه في كل شهر. وفي هذا الزمان يولى صاحب أربه لق إلى من يشاء مقطوعا محصوله في كل شهر بكذا، ومقدار

(122) كتب في هامش الصفحة من (أ): "جل فراءة علماء التسلطنية من الفنون العلمية".

(123) جمع غريب لمولى بضم الميم وفتح الواو وتشديد اللام، أي من يولى منصبا في القضاء.

ما يحصل لشيخ الإسلام مما يسمونه أربه لق زيادة على منصبه في كل شهر ألفا قرش أو أزيد منه إلى ثلاثة آلاف، فإذا مات شيخ الإسلام أو عزله السلطان فيتولى مشيخة الإسلام من يريد السلطان ممن هو دون هذه المرتبة وهي قضاء عسكر بروم أيلي.

رتبة قضاء عسكر بروم أيلي ومعناه قاضي القضاة فيها ويسمى صاحبها قاضي العسكر بروم أيلي، وفي يده تولية قضاء البلدان التي فيه على مراتبهم المعينة إلى من هو أقدم زمانا في كل مرتبة منها، وفي يده أيضا تولية بعض الخطط مثل الإمامة والخطابة والتأذين، وهو يقضي بنفسه بين العساكر بالشرع في المحل الذي فيه السلطان، ويقسم متخلف الموتى على الورثة على فرائض الله في روم أيلي. ويمكن سنة واحدة ثم يعزل، ويتولى مرتبته من هو أقدم زمانا ممن هو دون هذه المرتبة، /47/ فهي من المناصب المناوبة، فإذا عزل يعطى له أربه لق أيضا مقطوعه ألفا قرش اثنان أو أقل بقليل.

رتبة قضاء عسكر أناضولي وعمله مثل من فوقه في المرتبة، لكن عمله في ديار أناضول، ويتولى مرتبته إن مات أو عزل من هو أقدم زمانا ممن هو دون هذه المرتبة، فإذا عزل يعطى له أربه لق أقل مما فوقه وقد تقدم معنى أربه لق.

رتبة قضاء القسطنطينية، فيقضي بين أهل القسطنطينية ويقسم بين الورثة متخلف موتاهم لكن في البلد خاصة من غير العسكر، ويصل إليها من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة ويعطى له بعد عزله أربه لق أقل ممن فوقه.

رتبة قضاء الحرمين مكة والمدينة نورهما الله تعالى، فإذا عزل القاضي فيهما يعطى له أربه لق أقل ممن فوقه إلى خمسمائة قرش عن كل شهر، والمعزولون منها عددهم اليوم نحو العشرين، ويصل إليها من هو أقدم ممن هو دون هذه المرتبة، وهي رتبة قضاء البلدان الأربعة وهي أدرنة وبروسة⁽¹²⁴⁾ والشام ومصر، ويعطى للمعزول عنها أربه لق من ثلاثمائة إلى

(124) بروسة، عاصمة العثمانيين بين سنتي 1326 و 1402 خلال زحفهم على الممتلكات البيزنطية،

أربعمائة قرش، ويصل إليها من هو أقدم ممن هو دون هذه المرتبة، والمعزولون منها نحو ثمانية رجال.

رتبة قضاء المخرج وبلدانه ثمانية: القدس الشريف وحلب الشهباء ومدينة أبي أيوب الأنصاري التي بجوار القسطنطينية، ويكيشهرقنار وسنانيك وغلاطة وإزمير وأسكدار، فللمعزول عنها أربه لق من خمسين قرشا ومائة إلى ثلاثمائة قرش، والمعزولون عنها الآن نحو الأربعين /48/ رجلا، ويصل إليها من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة وهي رتبة المدارس السليمانية.

رتبة السليمانية فيها خمس مدارس بناها السلطان سليمان الغازي رحمه الله، ويصل إلى إحداها من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة، ولكل مدرس فيها نيف وخمسون قرشا في كل شهر من وقفه.

ودون هذه المدارس الخمس مدرستان بناهما السلطان محمود ويقال لكل منهما خامسة السليمانية، ووظيفتها مثل وظيفة السليمانية، ويصل إليها من هو أقدم ممن دونها وهي رتبة موصلة السليمانية، وفي هذه الرتبة نحو خمس وأربعون مدرسة، ووظيفة بعضها خمسة وأربعون قرشا إلى ثلاثين، ويصل إليها من هو أقدم ممن دونها وهي حركة التمشلي، وفيها مقدار خمسة وثلاثين مدرسة، ووظيفة بعضها في كل شهر نحو العشرين قرشا.

رتبة التمشلي وفي هذه الرتبة مقدار ثلاثين مدرسة، ووظيفة بعضها في كل شهر نحو الخمسة عشر قرشا.

رتبة الصحن وفيها ثمان مدارس فقط بناها الفاتح السلطان محمد خان رحمه الله، ووظيفة كل واحد لمدرستها في كل شهر نحو الثلاثين قرشا.

تقع في أقصى شمال غرب آسيا الصغرى وكانت من المراكز التجارية المزدهرة بحكم موقعها في سهل خصب وعلى طرق المواصلات الرابطة بين إسطنبول وسواحل بحر مرمرة والداخل، فكانت القوافل الحاملة لبضائع الشرق تفرغ حمولاتها بيروسة خلال قرون، كما ازدهر فيها إنتاج الحرير خلال القرن 16، لتعرف مكانتها الاقتصادية تراجعاً أمام منافسة إزمير خلال القرنين 17 و18، ولا زالت مركزاً لإنتاج الحرير بتركيا إلى اليوم، (E. I., 1- 1374)

رتبة موصلة الصحن وفي هذه الرتبة مقدار ثمانين مدرسة، لبعضها بقعة وللبعض إسم بلا بقعة، وفي بعضها وظيفة والبعض من غير وظيفة، وإن كانت ففي كل يوم أربعون درهما أو أقل.

رتبة حركة الداخل وفي هذه الرتبة مقدار ستين مدرسة، لبعضها بقعة وللبعضها إسم بلا بقعة، ومنها ما له وظيفة ومنها ما لا وظيفة له، وعلى فرض وجود الوظيفة فتكون من نحو العشرين درهما في كل يوم، لأنه لا يطلب في هذه المرتبة إلا الرتبة.

رتبة الداخل /49/ وفي هذه الرتبة مقدار خمسين مدرسة، ووظائفها ويقاعها مثل ما سبق. رتبة حركة الخارج مثل ما قبلها. رتبة الخارج مثل ما قبلها.

وقبل هذا لا يكون أحد من العلماء مدرسا إلا من كان فيهم ملازما، والملازم هو من اشتغل بالتدريس سبع سنين، فإذا وقع الامتحان يدخل فيه فإن امتاز عن أقرانه في حسن القراءة، يعطى بإشارة شيخ الإسلام من قبل السلطان ورقة يكتب فيها أنه أودن له في أن يدرس في المدرسة الفلانية، وتسمى تلك الورقة رءوسا، ولا يعقد مجلس الامتحان إلا عند انحلال مدارس عديدة من رتبة الخارج، وانحلالها بطريق أن يخرج أقدم مدرسي السليمانية بأحد المناصب الثمانية المذكورة قبل، ويتولى مدرسته التي خرج منها من هو أقدم زمانا ممن دونها وهكذا إلى رتبة الخارج، فتتحل حينئذ إحدى المدارس في رتبة الخارج، وتسمى هذه الحركات من الخارج إلى السليمانية سلسلة.

وطريق إن كان المرء ملازما، أن يدخل ممتازا عند الامتحان إلى حجرة من الحجرات التي هي ثمان عشرة حجرة، على الترتيب الذي اقتضاه الامتحان، وهذه الحجرات هي التي اشتملتها المدرسة التي بناها السلطان أبو يزيد بن الفاتح رحمه الله، واشترط تدريسها لشيخ الإسلام، ثم يخرج منها بالملازمة في كل ستة أشهر اثنان أقدمان في الترتيب المذكور، ويدخل في حجراتها اثنان آخران بعد الامتحان، وهكذا فالملازم من كان في يده ورقة

الملازمة الذي يكتبه (كذا) له قاضي عسكر روم إيلي، بأن صاحب هذه الورقة قبل للملازمة بإشارة شيخ الإسلام لكونه مستعدا للعلوم، وتسمى هذه الورقة ورقة الملازمة، / 50 / ولكون المرء ملازما طريق أخرى طويها ذكره خوفا من الملل، وما ذكر هو القانون القديم في الدولة العثمانية، وفي هذا الزمان لا يجري إلا في حق الغرباء وفي حق من لا شفيح له.

ثم المدرس يحتاج في كونه قاضيا بأحد مناصب المخرج إلى مرور مقدار ثلاثين سنة، وفي كونه قاضيا بعسكر روم إيلي إلى مقدار خمسين.

وقد حررت هذه المراتب العلمية من بعض الأفاضل من علماء الروم وأحد قضاتها، وفضله مشهور ومعلوم يقال له صدفي مصطفى، وقد كانت بيني وبينه معرفة واتصال، ترامى على معرفتنا من حسن أخلاقه ذات يوم ونحن بمسجد السلطان محمد، ودعاني إلى منزله ولم يجعل لنا فسحة في التخلف، وأحضر جمعا من الطلبة وأطعمة كثيرة، وزارني في منزلي بعد ذلك فتأكدت بيننا وبينه المعرفة، فمما خاطبته به ذات يوم وقد أصابني ألم فلم يأت لعيادتي لعدم علمه ما نصه:

يا واحد الناس في علم وفي شرف وتحفة ظهرت ما إن يعادلها وبحر علم طما فما تنقصه ومعدنا لنفيس الدر من أجل ذا مالي أراك تخلفت على علن وقد مضت مدة من قبل ذا ولكم أبقاكم الله لا تحصى مئاثركم فكان جوابه مجيئه بنفسه معذرا بعدم علمه .	وأفضل القوم في ذات وفي سلف شيء نفاستها أربت عن التحف الوراد كلا ولا اغتراف مغترف سميت يا ذا المعالي مصطفى صدفي عن وصل حب لكم بر بكم ووفي عافية الله وهو ذو ضنى متلف وذكركم دائما يرسم في الصحف
---	--

نظام الأمن في إستانبول

ومما يدل على ضخامة هذه الحاضرة أن حراسها المتفرقين في أسواقها / 51 / وأزقتها ليلا ونهارا، لثلا يتخاصم أحد مع أحد أو يظلمه أو يأخذ

متاعه، فلو ترى أصحاب الدكاكين ينزلون من دكاكينهم، وهي مشحونة بالسلع والأمتعة ولا يغلقونها ولا يضيع منها شيء، فأخبرت أن عدد الحراس المذكورين المعينين لهذه الخدمة أربعون ألفا مناوبة، نصفهم يقوم بهذا الوظيف (كذا) مدة والنصف الآخر مدة، مفرقين في الأسواق والأزقة في كل وجه وناحية فلا يكاد الإنسان يغيب عنهم، فإذا خلف الإنسان جماعة استقبل أخرى، وعليهم قواد كل قائد مكلف بحصة منهم، محدود له طرف من البلاد وله موضع يقعد به، بحيث إذا وقع في موضعه شيء فهو المؤاخذ به. ويطاف على الحراس المذكورين بكرة وعشية بطعامهم وشرابهم، ولهم راتب زائد لما لا بد لهم من ضرورياتهم، ومن أجل هذا فلا تجد في هذه المدينة على كبرها وعظمتها غوغا ولا جلبة أصوات، ومن أظهر شيئا من ذلك يقبضونه ويؤدب، ولو لم يكن هذا العسكر مفرقا على هذه الكيفية لأكل الناس بعضهم بعضا، لا سيما والبلاد مختلطة بجميع الاجناس.

مراسيم تفريق الراتب على العسكر

وما يدل على ضخامة هذه الدولة الرواتب التي تفرق على العساكر، فقد حضرنا ذات يوم على تفريق الراتب على العسكر، فرأينا ما يدل على عظم هذه الدولة وضخامتها، وذلك أن يوم التفريق اجتمع العسكر خارج باب دار السلطان بكرة، وأحضر المال في قبة يقعد بها الوزير تحت شباك يشرف منه السلطان بحيث لا يرى، وتأتي قواد العساكر على الترتيب بعضها يتلو بعضا ومع كل قائد جماعة من العسكر، / 52 / فيتقدم القائد ومعه الكاتب بزمَام أصحابه فيأخذ ما ينوب أصحابه عن ثلاثة أشهر، وذلك بمحضر الوزير والدفتردار، ومعناه صاحب دفتر مال السلطان وإحصائه، والسلطان يشرف على الجميع.

واستمر التفريق على هذه الكيفية، كل قائد يأخذ واجب أصحابه وتحمله الجماعة التي أتت معه في أكياس من الجلد، ويتوجه بذلك إلى موضعه ويتولى تفريق ذلك على أصحابه. وقد بقينا هنالك ننظر تفريقهم ونحصى ما خرج بمحضرنا، فكان جملة ذلك بعد تقدير سكتهم بالريال

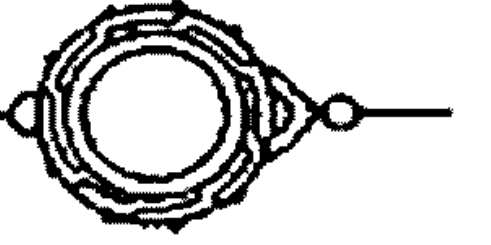
المعروف عندنا ستمائة ألف ريال كبير، وطال بنا المقام وتوجهنا من هنالك، وأخبرنا من تخلف من ورائنا أنه خرج من المال بعدنا مثل ما حضرنا عليه وزيادة، فيصير جملة الراتب عن كل ثلاثة أشهر ما يزيد على المليون، وينوب في السنة ما يقرب من خمسة ملايين⁽¹²⁵⁾، والمليون عشرة مائة ألف ريال، وهذا والله أمر عظيم، فالحمد لله الذي أرانا ما يسر المسلمين وينكي الكافرين في دولة من دول الإسلام صانها الله تعالى، وألبسها من جلالته جلالاته، وقهر بها جموع الكفرة وأذاقهم بسيوفهم قهرا ووبالا ونكالا، قاله تعالى يصونها من الخلل، ويباعد عنها أهل الرجس والنجس، والعذر والختل في القول والعمل، ويحفظ قدم سطوتها من كل زلل، بفضلها وطوله.

وعندهم من القواعد المقررة والقوانين المسطرة، أن يصنع السلطان طعاما يحضره يوم تفريق الراتب على العسكر، ويحضره قبالة المكان الذي يفرق فيه المال، والسلطان حينئذ من الرجا والخوف، لا يستقر فؤاده /53/ في جوف، لأن من عادتهم إذا حضر الراتب ليفرق على العسكر وذوي المناصب والمراتب، وأحضر الطعام كما سبق به الإلمام، فإن بادر العسكر لأكل ما تهيأ، ولم يظهروا انحرافا ولا ليا، فما أبرك ما أعطى وما هيا، وإن امتنع العسكر من الأكل جهارا، أيقن السلطان بالعزل نهارا وضافت عليه الدنيا سوارا، وبلغت الروح التراقي وأعجز ذلك الداء⁽¹²⁶⁾ الراقى، ولم يغن عنه حميم ولا نديم، كدابة وقد حلم الأديم، وينصبون من اتفقوا عليه قبل ذلك للخلافة، والعزل بعد الولاية من أعظم آفة، ويجعلون المعزول في موضع المولى في دار يسمونها القفص، يتجرع بالعزل كل غصص. فعند الخليفة يوم تفريق الراتب على العسكر كأنه يوم نكير ومنكر.

ويدل على ضخامة هذه الدولة دار ضرب سكتها، فقد دخلناها يوم تفريق الراتب المذكور لأنها بقرب دار السلطان فرأينا ما يسر، فمن آلات الطبع المسماة بالدولاب عشرون.

(125) يقصد ملايين.

(126) سفلت من (i) ووردت في (ب).



وصف زفاف أميرة عثمانية

ومن ضخامة هذه المملكة أن السلطان أيده الله زوج ابنت أخيه السلطان مصطفى رحمه الله من أحد كبراء دولته، وحضرنا هناك يوم زفافها، فاجتمع الناس على طبقاتهم ووجوه الدولة على مراتبهم بباب دار السلطان وكان يوما مشهودا، وأنشأ الناس في الشوارع المتسعة والأسواق مراتب ومقاعد من الخشب، عن يمين المار وشماله بقصد أن يقعد الناس عليها لرؤية زفاف ابنة السلطان. فامتلات تلك المقاعد كلها على طبقاتها بكراء معتبر، فقد أخبرني بعض أصحابنا أن امرأة اكرت مقعدا من المقاعد المذكورة بأربعين دينارا. وامتلات حتى الدكاكين والخوانيت / 54 / والأسطحة من باب دار السلطان إلى دار زوجها، فكان الناس يتسابقون لكراء المواضع في تلك المقاعد حتى امتلات وامتلا الفضاء.

ولما قرب الزوال خرجت أولا من باب دار السلطان الخيل راكبة عليها فرسانها متتابعين على أربعة صفوف، وبعد أن نفذت الخيل تبعهم العسكر الرجال أفواجا أفواجا، على مراتبهم وطبقاتهم واختلاف هيئاتهم، ثم تلاهم المعلمون وأهل الصنائع والحرف في هيئة عجيبة، وأهل كل صنعة حاملون معهم آلات حرفتهم ليميزوا بها، وقد اتخذوها من الفضة أو الذهب، كل معلم يجعل آله في حزامه، وإنما اتخذوها من النقد ليشهدوا بها المشاهد مثل هذا اليوم بقصد الزينة، لأن هذا أمر مقرر لديهم مشهور ومعلوم ومذكور، ثم تلاهم أعيان الدولة على الانفراد، كل واحد في موكب عظيم من خدمته وأتباعه وحفدته وأشياعه، الأول فالأول على الترتيب، ثم أتى في آخر القوم الوزير الأعظم وشيخ الإسلام في موكب عظيم من الرجال حافين بهم، وبعدهما أقفاص من الذهب مملوءة يواقيت وأحجارا نفيسة من شوار ابنة السلطان، وبيئر ذلك عبد الدار راكبا على فرسه حاملا للمصحف الكريم بقصد التبرك يقدمه أمام العروس، وبعده الكدش⁽¹²⁷⁾ الذي فيه العروس

(127) العربية، والكلمة تحريف للفظة الإسبانية coche التي لا تزال تنطق بالدارجة المغربية

الكوتشي، وجمعها في الكتابات التقليدية أكداش.

مرصع بالذهب في غاية الزينة، تجذبه ستة من الخيل أمامه اثنان من عبيد الدار، أحدهما حامل خرجا⁽¹²⁸⁾ أمامه على فرسه، يحملوا (كذا) دنانير ينثرها على من يمر به يمينا وشمالا، وخلف الكدش اثنان من عبيد الدار أيضا.

وتلا كدش العروس ما يزيد على السبعين كدشا، قيل إنها حامله للجواري التي أعطى السلطان ابنة أخيه / 55 / بقصد خدمتها، في كل كدش عدة منهن. ولما انتهت الأكداش في سيرها متتالين، ردفتهم جماعة من أهل الطبول والمزامير وما شاكل ذلك راكبين على خيولهم، واستمر ذلك الجمع الغفير إلى أن وصلوا العروس إلى بيتها، وأقعدوها مجلوة فوق تحتها. وقد أخبرت أنهم قدروا أواني الفضة التي أعطى السلطان ابنة أخيه من جملة جهازها بسبعة وثلاثين قنطارا بالوزن المغربي الآن، ومن الحسك الذهبية خمسون، وأما الفرش والستور والبسط وغير ذلك فلا نطيل به وليقس على ما قبله.

وصف الاحتفالات بعيد المولد النبوي

وقد حضرنا في هذه المدينة في الموسم النبوي ولهم اعتناء به، إلا أنهم ربما يتجاوزون يوم الموسم لغرض للإمام في ذلك، فيجعلون الموسم في غير محله كما وقع ونحن هناك، فقد كانت ليلة الموسم ليلة الثلاثاء فتجاوزوها إلى ليلة الأربعاء، فأوقدوا جميع منارات القسطنطينية، وفي صبيحة يوم الأربعاء الثالث عشر من ربيع النبوي، اجتمع الناس بمسجد السلطان أحمد وتوجهنا في جملة الناس مغسلين وصلينا به الصبح، ثم جعل فراش ملاصق للمحراب وعن يمينه وشماله، لكن الفراش الذي بباب المحراب أعلى جرما، ثم أتت فقهاء البلد وعلماءها وأخذوا مجالسهم.

والعادة أن يكتب الوزير إلى الفقهاء والأعيان يستدعيهم إلى حضور الموسم، ثم أتى صهر السلطان على ابنة أخيه فقعد على الفراش، ثم أتى

(128) اخرج بضم الخاء وسكون الراء، وعاء يوضع على ظهر الدابة، وهو جوالق ذو أونين، لحمل

المواد الدقيقة مثل الحبوب والرمل وغيرها. (لسان العرب، 2 - 252)

شيخ الإسلام فقعد أمام المحراب في المرتبة العليا بعد أن قام له جميع الناس، ثم أتى الوزير الأعظم فقام له شيخ الإسلام وجميع الناس، فقعد حذاء شيخ الإسلام في المرتبة العليا، وقعد جميع أرباب الدولة وأعيانها على

مراتبهم عن يمين الوزير، وشيخ الإسلام / 56 / والقضاة الكبار عن يساره وبقية الفقهاء أمامه.

وبعد ذلك أتى السلطان فقعد بموضع معين له عال، وبه يصلي الجمعة يصعد إليه من خارج المسجد، فيشرف على المحراب وبه شباك محيط به بحيث يرى الناس هو وقبيله من حيث لا يرونهم، وفتح منه طاق ثم أغلق إشارة للسلام على الحاضرين، فقام جميع من في المسجد إجلالا له (سوى رجل من رفقاءنا لم يقم من قلة أدبه، فكدر الناس وعكر عليهم وحصل له مقت)⁽¹²⁹⁾، ثم صعد رجل على كرسي وأخذ في مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم بلغة الترك⁽¹³⁰⁾، ثم نزل فخلع عليه خلعة ودفع بيده كيس، ثم صعد ذلك الكرسي رجل آخر فقرأ مثل الأول ثم نزل، فخلعت عليه خلعة ودفع له كيس، ثم صعد آخر ففعل وفعل معه مثل ما تقدم، ثم تناوب ثلاثة رجال آخرون كرسيا آخر لعلهم أصغر مرتبة ممن تقدم، ففعلوا مثل الأولين وأعطوا من الخلع والأكياس مثل ذلك.

وفي خلل هذا المديح طيف بالطيب والبخور في المسجد بعد أن وضعوا ذلك أمام الوزير وشيخ الإسلام، ثم أوتي بموائد كثيرة فيها أنواع الحلويات والأشربة على ألوان مختلفة، ووضعت أمام الوزير والفقهاء وأكابر الدولة وأعيانها، ثم فرق على القوم تمر ورد من المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام بقصد التبرك.

(129) وردت هذه الجملة في الطرة من (أ) استدراكا ونصحيجا. ويحمل ابن عثمان هذا التصرف مسئولية جفاء رجال الدولة العثمانيين وإهمالهم للسفارة وأعضائها كما تنصل في الدراسة.

(130) كانت تنلى "المولديات" في قصر السلطان احتفاء بالمولد النبوي الشريف، وهي القصائد التي تمدح النبي (ص) من أشهرها في تركيا العثمانية مولدية سليمان شلبي المتوفى سنة 825هـ / 1427م، والتي لاتزال تقرأ في المساجد التركية (E. I., 6 - 886-888).

ثم إن العادة عندهم أن الحجاج حين يقفلون من الحج ويصلون إلى الشام، يقدمون بين أيديهم سفيرا بالإعلام للسلطان بأحوال الموسم وأحوال الركب وما وقع فيه، وحيث يرد السفير فالغالب عليه أنه يرد على القسطنطينية قبل العيد بأيام، فيقيم بداره إلى أن يكون يوم الموسم المذكور، فيلبس ثياب السفر ويتوجه إلى المسجد الذي يقع فيه الموسم / 57 / كأنه قدم حينئذ.

ومن العادة أيضا عندهم أن الذين يقرأون المديح، حين يصلون في المديح إلى ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم، مثل قول البوصيري رضي الله عنه "ليلة المولد الذي كان للدين سرور بيومه وازدهاء"، يقوم السلطان والناس جميعا إجلالا له صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك القيام يدخلون عليه⁽¹³¹⁾ سفير الركب النبوي بالمكاتب، فيؤديها إليه ويخلع عليه خلعة ويجزل أعطيته وينصرف، وبعلة دخول هذا السفير في ذلك القيام هو أن السلطان لا بد أن يقوم لأخذ البراوات المشتملة على أخبار الحرمين الشريفين والركب، ولعله يتلكى (كذا) أن يقوم للسفير أو يقوم قياما ثانيا، فيرصدون به قيامه لمولد النبي عليه الصلاة والسلام ويدخلونه عليه فيه ليكون قياما واحدا.

مواقف ابن عثمان من بعض الممارسات وانتقاداته ومؤاخذاته

وبعد أن فرغ الناس وتطيبوا، وأكلوا وشربوا وطربوا كسروا الأواني جميعا، بعد أن أراقوا من دمها نجيعا، لكن استنكرت عليهم تكسير الأواني وعدم التفاتهم إلى ضيوفهم، فإنهم لم يدعواهم إلى شيء مما تناولوه ولا بعثوا به إليهم، مع رؤيتهم إياهم وحضرهم معهم في مسجد واحد، وإنما كانوا يكرمون أنفسهم جبر الله حالنا وحالهم وجعل في ما يرتضيه قصدهم وأمانهم.

فإن السلطان منحجب عن العامة قاطبة، ورجال دولته منهمكون في

(131) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

الدنيا الكاذبة، فاعتكفوا على هوى النفس المتبع وابتلوا بشدة الطمع، مع الرضى على النفس، ورؤية تفضيل جنسهم على كل جنس، والتنافس في كثرة الأتباع، والشمخ بالأنف فلا يسلمون إلا إشارة بمد الباع.

/58/ فبينهم وبين هذا الجنس العربي تباين كلي وتنافر قولي وفعلي، لا يجنحون إليهم بحال وألفتهم إياهم كادت أن تكون من المحال، أنقذهم الله تعالى من هذه البلوى وسلك بنا⁽¹³²⁾ وبهم مسلك التقوى، لكن أوغر صدورهم قلة أدب رقيقنا وعدم قيامه للسلطان ولمولد النبي صلى الله عليه وسلم.

وصف متنزهات إستانبول

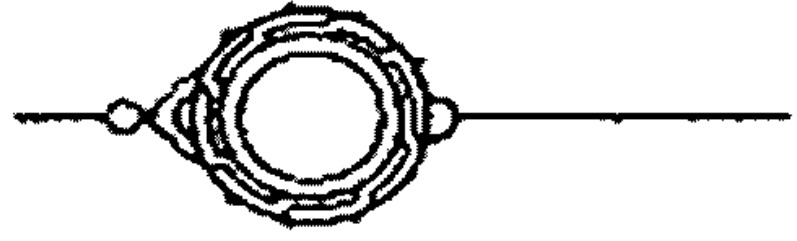
ومن ألطف متنزهات القسطنطينية موضع يقال له كاغيد خانه، مسمى باسم قرية هنالك بينها وبين الموضع المذكور نحو مسيرة نصف ساعة، فهي أمامه على ربوة كان يصنع فيها الكاغيد في ماضي الزمان، فسمي باسم ذلك المكان، وخانه عندهم بمعنى الدار كأنه يقال دار الكاغيد، إضافة مقلوبة وهكذا سائر اللغة التركية يقدمون المضاف على المضاف إليه والموصوف على صفته.

ثم إن السلطان أحمد أبا السلطان عبد الحميد الموجود الآن، أتى بوادي كان مارا بناحية أخرى، وحفر له مجرى إلى البحر من ناحية أبي أيوب الأنصاري، وصرفه إليه وجعل عليه مقاعد من الرخام على أشكال، وأخوص متعددة من الرخام أيضا على متن الوادي من إحدى العدوتين إلى الأخرى كالجسر يعبر عليها، وهي تجري بالماء مقبوض بعضها في بعض بصفائح الحديد، وفي إحدى ناحيتي الوادي مجال كبير دائرة به الخشب مغروزة في الأرض، وفي داخله مهريس لإخراج البنب⁽¹³³⁾ بقصد تعلم الرماية والتدريب والمران.

(132) سقطت من (i) ووردت في (ب).

(133) القنابل.

وكثيرا ما يتوجه السلطان إلى التنزه والتفرج هنالك وكذا سائر الناس على شاطئ الوادي، فله منظر عجيب حافته مبنيتان بالبناء، وهو في غاية الاستقامة وحواليه أشجار، فيجتمع هنالك في زمن الربيع والمصيف خلق كثير، يركبون في الفلائك الصغار ويطلعون مع الوادي إلى الموضع / 59 / المذكور، حتى النساء والصبيان فالرجال في ناحية والنساء في ناحية.



ظهور رجل يدعي أنه مقدمة المهدي وخوض ابن عثمان طويلا في الموضوع

وقد ظهر رجل يقال له منصور⁽¹³⁴⁾ وخبره شائع في هذه البلاد ومذكور، وذلك في سنة مائتين وألف، وهو من قرية من قرى جاجان قوبيا من داغستان في العجم، يقال لأهله لازكي وبلادهم قريب من بحر خرز⁽¹³⁵⁾، وعليه جمع من الناس ويزعم أنه ينتظر رجلا آخر، فيرى الناس أنه مقدمة المهدي المنتظر في آخر الزمان ويروا (كذا) أنه الموعود به في الحديث.

فمن "مشكاة المصابيح" للبغوي في باب أشراف الساعة، وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حراث، على مقدمته رجل يقال له منصور، يوطن أو يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وجب على كل مؤمن نصره أو قال إجابته، رواه أبو داود⁽¹³⁶⁾.

(134) ينصد الإمام منصور أوشيرما من الشيشان الذي تزعم حركة ضد روسيا، وتمكن سنة 1785 من تكييد جيوش الإمبراطورة كاترين الثانية هزيمة مهينة، وقد أُلقي عليه القبض سنة 1791 ومات في السجن سنة 1794. واللافت أن أخبار هذه الحركة بلغت إستانبول ووجدت صدى لها باعتبارها حلقة في سلسلة الحركات الإسلامية التي تاهضت ترددي الأوضاع، (أنظر: إبراهيم درويش، جهود الإصلاح والتحديث في آسيا الوسطى، جريدة القدس العربي، عدد 3771، 28 يونيو/حزيران 2001، ص. 13).

(135) الاسم الذي أطلقه الجغرافيون العرب على بحر قزوين.

(136) أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني (202-275هـ/817-889م)، إمام أهل الحديث في زمانه ناسك صالح، أصله من سجستان ورحل رحلة طويلة لجمع أحاديث النبي حتى نزل البصرة وبها توفي. جمع كتاب "السنن" وضمنه 4800 حديثا وعرضه على شيخه ابن حنبل واستحسنه. (الزركلي 3-122؛ دائرة المعارف 1-338؛ ابن خلكان 2-404)

ولا بأس أن نورد ما يتعلق بألفاظ الحديث الشريف، فمن "شرح المشكاة" لعلّ القاري⁽¹³⁷⁾ عليه رحمة الباري، قوله عليه السلام يخرج رجل أي صالح، وقوله من وراء النهر أي مما وراءه من البلدان كبخارى وسمرقند ونحوهما، وقوله يقال له الحارث اسم له، وقوله حراث بتشديد الراء صفة له أي زراع، وقوله على مقدمته أي مقدمة جيشه رجل يقال له منصور إسم له أو صفة، وقيل المراد به أبو منصور الماتريدي، وهو إمام جليل مشهور وعليه مدار أصول الحنفية في العقائد الحنفية.

لكن إيراد هذا الحديث في هذا الباب غير ملائم له، ومع هذا لا يمنع الاحتمال والله أعلم بالحال، مع أن عنوان الباب أشرط الساعة / 60 / وهو الأعم من المهدي وغيره. ونقل عن خواجه عبيد الله السمرقندي النقشبندي أنه قال: المنصور هو الخضر (كذا)، ومثل هذا لم يصدر عنه إلا بنقل أو كشف حال. وقوله يوطن أي يقرر ويثبت الأمر، وأصل التوطن جعل الوطن لأحد، وقوله أو يمكن شك من الراوي، ومنه قوله تعالى الذين إن مكنتهم في الأرض الآية⁽¹³⁸⁾، أو هي بمعنى الواو أي يهيئ الأسباب بأمواله وخزائنه وسلاحه، ويمكن أمر الخلافة ويقويها ويساعدها بعسكره، وقوله لآل محمد أي لذريته، أو الآل مقحمة والمعنى لمحمد المهدي، وقوله كما مكنت قريش أي كتمكنتهم، وقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد من آمن منهم، ودخل في التمكن أبو طالب أيضا⁽¹³⁹⁾ وإن لم يؤمن عند أهل السنة، وقال الطيبي قوله يمكن لآل محمد أي في الأرض، كقوله تعالى: [مكنهم في الأرض ما لم نمكن لكم]⁽¹⁴⁰⁾، أي جعل له في الأرض مكانا، وأما مكنته في الأرض فأثبتته فيها، فمعناه جعلهم في الأرض ذوي

(137) الملا علي بن محمد نور الدين البهروزي القاري (ت. 1014هـ / 1606م) فقيه من صدور العلم في عصره، ولد في هراة وسكن مكة وتوفي بها. من كتبه "شرح مشكاة المصابيح" و"سيرة الشيخ عبد القادر الجيلاني". (الزركلي 5 - 12).

(138) الآية 41 سورة الحج.

(139) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(140) الآية 6 سورة الأنعام.

بسطة في الأموال أو نصرة على الأعداء، وأراد بقوله كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قريش آخر أمرها، فإن قريش وإن أخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم أولاً من مكة لكن بقاياهم وأولادهم أسلموا، ومكنوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حياته وبعد مماته انتهى.

ولا يخفى أن المراد في الآية غير التمكن في الحديث، مع أن المراد من تمكين المشبه تمكينه في أول أمره، فلا يحسن حمل المشبه على آخر أمره، ثم قوله أخرجوا ليس على ظاهره الموهم لإهانتهم صلى الله عليه وسلم، ولذا قيل بكفر من أطلق هذا القول، وتأويله أنهم تسبوا في خروجه بالهجرة إلى مكان أنصاره بالمدينة المعطرة، فقوله / 61 / تعالى: [وكائن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك]⁽¹⁴¹⁾، على حذف مضاف وإجراء أحكامه على المضاف إليه، والإخراج باعتبار التسبب على ما صرح به البيضاوي⁽¹⁴²⁾ وغيره.

وقوله وجب على كل مؤمن نصره أي نصر الحارث وهو الظاهر، أو نصر المنصور وهو الأبلغ، على أهل بلادهما ومن يمران به وجوب نصرهما، أو نصر من ذكر منهما أو نصر المهدي بقرينة المقام، أو لكونهما من أنصار المهدي، وقوله أو إجابته شك من الراوي والمعنى قبول دعوته والقيام بنصرته، وقوله رواه أبو داود أي في باب المهدي بناء على المعنى المتبادر، أو لما قام عنده من الدليل الظاهر قال السيد وفيه انقطاع.

ولما جرا الكلام على خبر المهدي فنورد بعض أحاديث تتعلق بخبره، فمن مشكاة المصابيح وعن أم سلمة⁽¹⁴³⁾ عن النبي صلى الله عليه وسلم

(141) الآية 13 سورة محمد.

(142) عبد الله بن عمر البيضاوي (ت. 685 أو 691 هـ / 1282 أو 1291 م)، أحد مفسري القرآن وابن قاضي قضاة فارس في عهد الأتابك أبي بكر سعيد (613-658 هـ / 1226-1260 م)، ولي القضاء في شيراز ثم استقر في تبريز حيث توفي، له تصانيف أهمها "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" الذي يعتبر أحسن التفاسير عند السنة، و"منهاج الوصول إلى علم الأصول" و"طوالع الأنوار من مطالع الأنظار". (دائرة المعارف 4. 417).

(143) أم سلمة، هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، من أزواج النبي تزوجها سنة 4 هـ (الإصابة 4. 407) وورد خطأ في المخطوط أنها بنت سنيان.

قال: يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه، ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب⁽¹⁴⁴⁾، فيبعث إليهم جيشاً فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب، ويعمل في الناس بسنة نبهم ويلقي الإسلام بجرانه في الأرض، فيلبث سبع سنين ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون، رواه أبو داود.

وعن أبي سعيد قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاء يصيب هذه الأمة، حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم، فيبعث الله رجلاً من عثري وأهل / 62 / بيتي، فيملأ به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدع السماء من قطرهما شيئاً إلا صبته مدراراً، ولا تدع الأرض من نباتها شيئاً إلا أخرجته حتى يتمنى الأحياء الأموات، يعيش في ذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين. رواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح.

ذكر ما يتعلق بالفاظ الحديثين، فمن شرح المشكاة لعلّ القاري عليه رحمة الباري: فقوله صلى الله عليه وسلم يكون أي يقع، وقوله اختلاف أي فيما بين أهل الحل والعقد، وقوله عند موت خليفة أي حكمية وهي الحكومة السلطانية بالغلبة التسلطية، وقوله فيخرج رجل من أهل المدينة، أي كراهية لأخذ منصب الإمارة أو خوفاً من الفتنة الواقعة فيها، وهي المدينة المعطرة أو المدينة التي فيها الخليفة، وقوله هارباً إلى مكة لأنه يأمن كل من التجأ إليها أو معبد كل من سكن فيها .

قال الطيبي: وهو المهدي بدليل إيراد أبي داود هذا الحديث في باب المهدي، وقوله فيأتيه ناس من أهل مكة، أي بعد ظهور أمره ومعرفة نور قدره، وقوله فيخرجونه أي من بيته، وقوله وهو كاره أي إما بلية الإمارة

(144) يقصد قبيلة كلب العربية المشهورة.

أو خشية الفتنة والجملة حالية معترضة، وقوله فيبايعونه بين الركن أي الركن الأسعد وهو الحجر الأسود، وقوله والمقام أي مقام إبراهيم عليه السلام ويقع بين زمزم أيضا، وهذا المثلث هو المسمى بالخطيم من الزمن القديم، وسمي به لأن من حلف فيه وحنث أو خالف العهد ونقض، حطم أي كسر رقبته وقطع حجته / 63/ وأهلك دولته، وقوله عليه السلام ويبعث إليه بصيغة المجهول أي يرسل إلى حربه وقتاله، مع أنه من أولاد سيد الأنام وأقام في بلاد الله الحرام، وقوله بعث من الشام جيش من أهل الشامة والملازمة، وقوله فيخسف بهم أي كرامة للإمام، وقوله بالبيداء بفتح الموحدة وسكون التحتية، وقوله بين مكة والمدينة لعل تقديم مكة لفضيلتها وتقدمها، قال النوريشتي هي أرض ملساء بين الحرمين، وفي الحديث يخسف بالبيداء بين المسجدين وليست البيداء التي أمام ذي الحليفة وهي شرف في الأرض.

قلت ولا بدع أن تكون هي إياها مع أنه المتبادر منها، (ولعل الشيخ ظفر بنقل صريح أو بنى على أن طريق أهل الشام من قديم الأيام ليس على المدينة)⁽¹⁴⁵⁾، ولهذا جعل ميقاتهم الجحفة لكنهم عدلوا عن طريقهم المشهورة، ومالوا إلى دخول المدينة المطهرة لمصالح دينية ومنافع دنيوية، وأما إذا كان غرضهم محاربة المهدي، فمن المعلوم أنهم لا يطولون على أنفسهم المسافة، بل يريدون المسابقة والمصارعة إلى المحاربة. وقوله فإذا رأى الناس ذلك، أي ما ذكر من خرق العادة وما جعل للمهدي من العلامة، وقوله أتاه أبدال الشام أي ونعم البديل من الكرام عن اللثام، وفي النهاية أبدال الشام هم الأولياء والعباد، الواحد بدل كجمل أو بدل كحمل، سموا بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد بدل بآخر .

قال الجوهري⁽¹⁴⁶⁾ الأبدال قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا

(145) سقطت هذه الجملة من (أ) ووردت في (ب).

(146) الحسن بن علي بن محمد الجوهري (362-454هـ/ 972-1062م)، محدث قيل عنه انتهى إليه علو الرواية في الدنيا، شيرازي الأصل بغدادى الإقامة والوفاة، أُملى مجالس كثيرة. (الزركلي 2-202؛ شذرات الذهب 3-292).

مات واحد بدل الله مكانه بآخر، قال ابن دريد واحده بديل، قلت ويؤيده أنه يقال لهم بدلاء أيضا، فيكون نظير شريف وشرفاء وأشراف، ثم قيل إنهم سموأ أبدالاً لأنهم قد يرتحلون إلى مكان، ويقيمون في مكانهم الأول شبحاً / 64/ أو شبيهاً بشبحهم الأصلي بدلاً عنه. وفي القاموس الأبدال قوم بهم يقيم الله عز وجل الأرض، وهم سبعون أربعون بالشام وثلاثون في غيرها انتهى.

والظاهر أن المراد بالشام جيته (كذا) وما يليه عما وراءه، لا بخصوص دمشق الشام والله أعلم بالمرام، ثم يحتمل أنهم سموأ أبدالاً لأنهم أبدلوا الأخلاق الدنية بالشمائل المرضية، أو لأنهم ممن بدل الله سيئاتهم حسنات. وقال القطب الحقاني الشيخ عبد القادر الجيلاني⁽¹⁴⁷⁾ إنما سموأ أبدالاً لأنهم فنوا عن إرادتهم، فبدلت بإرادة الحق عز وجل، فيريدون بإرادة الحق أبدال الوفاة، فذنوب هؤلاء السادات أن يشركوا إرادة الحق بإرادتهم، على وجه السهو والنسيان وغلبة الحال والدهشة، فيدركهم الله تعالى برحمته باليقظة والتذكرة، فيرجعون عن ذلك ويستغفرون الله تعالى. أقول ولعل العارف ابن الفارض⁽¹⁴⁸⁾ أشار إلى هذا المعنى في قوله:

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهوا حكمت بردي
فإن حسنة الأبرار سيئة المقربين، وقد علم كل أناس مشربهم من ماء معين والله المعين.

(147) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني (471-561هـ / 1078-1166م)، مؤسس الطريقة القادرية ومن كبار المتصوفة والزهاد، ولد في جيلان وراء طبرستان وانتقل إلى بغداد شاباً سنة 488هـ، فالتصق بشيوخ العلم والتصوف وبرع في أساليب الوعظ وثنقه واشتهر، تصدر للتدريس والإفتاء ببغداد سنة 528هـ وتوفي بها. له كتب منها "الفتح الرباني" و "فتوح الغيب" و "الفيوضات الربانية". (الزركلي 47-4؛ شذرات الذهب 4-198؛ ابن الأثير 11-121).

(148) عمر بن علي شرف الدين أبو الفاسم المصري السعدي ابن الفارض (576-632هـ / 1181-1235م)، شاعر متصوف شهير، أصله من حماة وولد بالقاهرة، درس الفقه الشافعي والسنة ثم انهمك في التصوف، حيث قضى سنوات من الخلوة على نلال المتطم قرب القاهرة، مما أكسبه تبجيلاً من طرف العامة إلى أن توفي بالقاهرة حيث لا يزال قبره مزاراً. اشتهر بديوانه الأصيل الذي يمتاز بشعره الموسيقي ذي المسحة الصوفية وبحكمه (E., I., 3-786).

وقوله عليه السلام وعصائب أهل العراق أي خيارهم، من قوله عصابة القوم خيارهم، ولعله من قوله تعالى: [ونحن عصابة]⁽¹⁴⁹⁾، أو طوائفهم، فإن العصابة تأتي بمعنى الجماعة يتعصب بعضهم لبعض، ويشد بعضهم ظهر بعض ويعضده، وفي النهاية العصاب جمع عصابة، وهي الجماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها، ومنه حديث علي رضي الله عنه الأبدال بالشام والنجباء بمصر والعصائب / 65/ بالعراق، أراد أن التجمع للحروب يكون بالعراق، وقيل أراد جماعة من الزهاد سماهم بالعصائب لأنه قرنهم بالأبدال والنجباء. ذكر أبو نعيم الأصبهاني⁽¹⁵⁰⁾ في حلية الأولياء بإسناده عن ابن عمر⁽¹⁵¹⁾ رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيار أمتي في كل قرن خمسمائة، والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله عز وجل من الخمسمائة مكانه وأدخل في الأربعين)، وكأنهم قالوا يارسول الله دلنا على أعمالهم، قال: (يعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويتواسون فيما آتاهم الله عز وجل). وبإسناده أيضا عن عبد الله⁽¹⁵²⁾ قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله عز وجل في الخلق سبعة، وساق الحديث إلى قوله فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع

(149) الآيتين 8 و 14 سورة يوسف.

(150) أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الأصفهاني (336-430هـ / 948-1038م)، محدث وفقه شافعي ولد وتوفي بأصفهان، اشتهر بكتابه الضخم "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" وله أيضا "تاريخ أصفهان". (دائرة المعارف 1-412).

(151) عبد الله بن عمر بن الخطاب (10ق.هـ - 73هـ / 613-692م)، صحابي من أعز بيوتات قريش في الجاهلية، كان جريئا جعيرا، نشأ في الإسلام وهاجر إلى المدينة مع أبيه وشهد فتح مكة وفيها ولد ومات. أفتى الناس في الإسلام 60 سنة ورفض الخلافة بعد مقتل عثمان. غزا إفريقية مرتين (34هـ) وله 2630 حديثا (الزركلي 4-108؛ ابن خلكان 3-28؛ ابن سعد 4-105).

(152) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (ت. 32هـ / 653م)، صحابي من أوضع طبقات أهل مكة ومن السابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن، كان صاحب سر الرسول ورفيقه في حله وترحاله وغزواته، ولي بعد وفاة الرسول بيت مال الكوفة ثم قدم المدينة في خلافة عثمان وتوفي بها. كان محدثا وحنيفا في القرآن، له 848 حديثا. (الزركلي 4-137؛ دائرة المعارف 1-275).

البلاء. قيل لعبد الله بن مسعود وكيف بهم يحيي ويميت، قال لأنهم يسألون الله عز وجل إكثار الأمم فيكثرون، ويدعون على الجبابرة فيقصصون، ويستسقون فيسقون ويسألون فتنبت لهم الأرض، ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء انتهى.

والمعنى أن الأبدال والعصائب يأتون المهدي فيبايعونه، وقوله عليه السلام ثم ينشأ أي يظهر، وقوله رجل من قريش هذا هو القوي الذي يخالف المهدي، وقوله أخواله كلب هي قبيلة فتكون أمه كلبية، وفيه إشارة خفية وبشارة جلية، وتفاؤل بغلبة ذرية خير البرية. قال التوريشتي يريد أن أم القرشي تكون كلبية، فينازع المهدي في أمره ويستعين عليه بأخواله من بني كلب، وقوله فيبعث أي الكلبي، قوله إليهم أي إلى المبايعين للمهدي، /66/ قوله بعثا أي جيشا، قوله فيظهرون عليهم أي فيغلب المبايعون على البعث الذي بعثه الكلبي، قوله وذلك أي البعث، قوله بعث كلب أي جيش كلب باعته هو نفس الكلبي، قوله ويعمل أي المهدي، قوله في الناس بسنة نبهم أي بشريعته، قوله ويلقي بضم أوله أي يرمي ويرخي، قوله الإسلام أي المشبه بالبعير المنقاد للأوامر، قوله بجرائه بكسر الجيم فراء فنون وهو مقدم عنقه أي بكماله، ففيه مجاز التعبير عن الكل بالجزء، كإطلاق الرقبة على المملوك، وفي النهاية الجران باطن العنق، ومنه الحديث أن ناقته صلى الله عليه وسلم وضعت جرائها، وحديث عائشة⁽¹⁵³⁾ رضي الله عنها حتى ضرب الحق بجرائه، أي قر الإسلام واستقر قراره واستقام. كما أن البعير إذا برك واستراح مد عنقه على الأرض، ضرب الجران مثلا للإسلام إذا استقر قراره، فلم تكن فتنة وجرت أحكامه على السنة والاستقامة والعدل، قوله عليه السلام فيلبث بفتح الباء الموحدة أي المهدي

(153) عائشة بنت أبي بكر الصديق (9ق.هـ-58هـ/613-678م) أم المؤمنين، من أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب، تزوجها النبي سنة 2 هـ وكانت أحب النساء إليه وأكثرهن رواية للحديث عنه، ولها خطب ومواقف وكانت من أشد الناقمين على عثمان وموقفها معروف في وقعة الجمل. توفيت بالمدينة وروى عنها 2210 حديثا. (الزركلي 3-240؛ ابن سعد 8-46؛ الطبري 3-67؛ ابن خلكان 3-16).

بعد ظهوره، قوله سبع سنين ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون رواه أبو داوود، قال الحافظ السيوطي⁽¹⁵⁴⁾ في تعليقه على أبي داوود: ولم يرد في الكتب الستة بدل الأبدال إلا في هذا الحديث عند أبي داوود، وقد أخرجه الحاكم وصححه، وقال الشيخ زكرياء في رسالته المشتملة على تعريف غالب ألفاظ الصوفية، القطب ويقال له الغوث، هو الواحد الذي هو⁽¹⁵⁵⁾ محل نظر الله تعالى من العالم في كل زمان، أي نظرا خاصا يترتب عليه إفاضة الفيض واستفاضته، فهو الواسطة في ذلك بين الله تعالى / 67 / وبين عباده، فيقسم الفيض المعنوي على أهل بلاده بحسب تقديره ومراده، ثم قال الأوتاد أربعة، منازلهم على منازل الأركان من العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، مقام كل واحد منهم مقام تلك الجبهة.

قلت: فهم الأقطاب في الأقطار يأخذون الفيض من قطب الأقطاب المسمى بالغوث الأعظم، فهم بمنزلة الوزراء تحت حكم الوزير الأعظم، فإذا مات القطب الأفخم أبدل من هذه الأربعة أحد بدله غالبا، ثم قال الأبدال قوم صالحون لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحد منهم أبدل مكانه آخر وهم سبعة. قلت الإبدال اللغوي صادق على رجال الغيب جميعا، وقد سبق للبدل معنى آخر فالأولى حمله عليه، ولعلمهم خصوا بذلك لكثرتهم ولحصول كثرة البدل فيهم لغلبتهم، فإنهم أربعون على ما في الحديث السابق، أو

(154) أبو الفضل عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي الحنفي الشافعي (849-911هـ/1445-1505م)، سليل أسرة فارسية ذات شأن استقرت بمصر حيث ولد السيوطي بالقاهرة. وبعد إتمام دراسته تولى منصب الأستاذية الذي كان يشغله أبوه بتوصية من شيخه البلقيني. وينفرد هذا العالم بعزارة وتنوع تأليفه بحيث خلف تراثا لاغنى عنه في الدراسات الإسلامية، ومن بين كتبه "كتاب الدر المنثور في التفسير المأثور" و "أبواب التنزيل في أسباب النزول" المعروف بتفسير الجلالين لكون الكتاب بذاه شيخه جلال الدين المحلي، و "جامع المسانيد" أو "جامع الجوامع" في الحديث واختصره في "الجامع الصغير في الحديث البشير النذير". كما ألّف في التاريخ كتابا هي "بدائع الزهور في وقائع الدهور" و "تاريخ الخلفاء" و "حسن المحاصرة في تاريخ مصر والقاهرة"، وله كذلك مقامات ورسائل في علوم اللغة والنحو. (دائرة المعارف 13-27).

(155) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

سبعون على ما ذكره صاحب القاموس، فقوله وهم سبعة وهم، ثم قال النقباء هم الذين استخرجوا خبايا النفوس وهم ثلاثمائة.

أقول: لعله أخذ هذا المعنى من النقب بمعنى الثقب، وإلا ظهر أن النقباء جمع نقيب وهو شاهد القوم وضمينهم وعريفهم على ما في القاموس، ومنه قوله تعالى: [وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً]⁽¹⁵⁶⁾، أي شاهداً من كل سبط ينقب عن أحوال قومه ويفتش عنها، أو كفيلاً يكفل عليهم بالوفاء بما أمروا به وعاهدوا عليه على ما في البيضاوي، والظاهر أنهم خمسمائة على ما سبق في الحديث. ثم قال النقباء هم المشتغلون بحمل أثقال الخلق وهم أربعون، أقول كأنه أخذ هذا المعنى من اللغة، / 68/ ففي القاموس ناقة نجيب ونجيبة وجمعه نجائب، والأنسب ما ذكر فيه أيضاً من أن النجيب الكريم، والجمع نجباء والمنتخب المختار، ونجائب القرآن أفضله.

هذا وقد أخرج ابن عساكر⁽¹⁵⁷⁾ عن ابن مسعود مرفوعاً أن لله تعالى ثلاثمائة نفس قلوبهم على قلب آدم عليه السلام، وأربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام، وله سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام، وله خمسة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام، وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكايل عليه السلام، وله واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام، كلما مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وكلما مات واحد من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وكلما مات من الخمسة واحد أبدل الله مكانه من السبعة، وكلما مات واحد من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وكلما مات واحد من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وكلما مات واحد من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة، بهم يدفع الله هم هذه الأمة

(156) الآية 12 سورة المائدة.

(157) علي بن الحسن بن هبة الله ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي (499-571هـ/1105-1176م)، المؤرخ الحافظ الرحالة. كان محدث الشام في وقته ورفيق السمعاني صاحب الأنساب في رحلاته، مولده ووفاته بدمشق، له "تاريخ دمشق الكبير" جمع فيه تراجم الرجال ذوي الصلة بدمشق، و"الإشراف على معرفة الأطراف" و"تاريخ المزة" و"معجم الصحابة". (الزركلي 4-237؛ ابن خلكان 3-309؛ دائرة المعارف 1-237).

انتهى؛ وأرجو من الله تعالى من حسن فضله وكرمه أنه إذا وقع انحلال من هذه المناصب العلية، يجعلني منصوباً على طريق البدلية ولو من مرتبة العامة إلى أدنى مرتبة الخاصة، ويتم علي هذه النعمة مع الزيادة إلى حسن الخاتمة.

ثم في الحديث دلالة على ما ذكرنا من الاحتمال، أن يكون الإبدال لا يكون إلا من خواص الأبدال، بل يعم الرجال من أرباب الأحوال، وفيه تنبيه نبيه على أنه لم يذكر أن أحداً يكون على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لم يخلق الله عز وجل في عالمي الخلق والأمر أشرف ولا أطف من قلبه الأكرم صلى الله عليه / 69/ وسلم، وفيه أيضاً ما يشعر بظاهره تفضيل خواص الملك على خواص البشر، وكذا تفضيل إسرافيل وميكائيل على جبريل، والجمهور على خلاف ذلك والله اعلم.

هذا وقد قال العارف الصمداني الشيخ علاء الدين السمناني⁽¹⁵⁸⁾ في العروة الوثقى، أن بلالاً⁽¹⁵⁹⁾ من بدلاء السبعة كما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال هو من السبعة وسيدهم؛ أقول: لا بد من ثبوت هذا عن ثقة وسندهم. قال: وكان القطب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم عم أويس القرني عصام، فحري أن يقول إني لأجد نفس الرحمان من قبل

(158) الأصح علاء الدولة ركن الدين أبو المكارم أحمد بن شرف الدين محمد بن أحمد البيهناكي السمناني (659-736 هـ / 1261-1336)، متصوف شهير سليل أسرة ذات جاء ونفوذ حيث كان أبوه عاملاً على العراق وعمه وزيراً، اختار لنفسه طريق التصوف وسافر لملازمة الشيخ نور الدين عبد الرحمان الكاسرقي الإسفرائيني ببغداد، لكن مضايقات السلطة حالت بينه وبين شيخه، فلهجاً السمناني إلى سمنان بخراسان، ثم عاد إلى بغداد بعد حجه. كان السمناني سنيا داعياً للصبر على تحمل القمع الشعبي في عهده، معادياً لأبن عربي الذي أفرد كتابات لمهاجمة تياره الصوفي ونعنيته وحدة الوجود، تميز تصوفه بأذكار ذات إيقاعات خاصة، وحارب التسول ودعا إلى التمسك بحرارة الأرض، أهم كتاباته "العروة لأهل الخلوة" و"صفوة العروة" (E., I., 1-357).

(159) بلال بن رباح الحبشي (ت. 20 هـ / 641 م)، مؤذن رسول الله وخازنه على بيت المال، من مولدي السراة وأحد السابقين إلى الإسلام، شهد المشاهد كلها مع الرسول ولما توفي صلى الله عليه وسلم لم يؤذن بلال بعده إلا حين قدم عمر إلى الشام حيث استتر بلال، توفي في دمشق وهو ابن بضع و ستين سنة، روى له البخاري ومسلم 44 حديثاً. (ابن خلكان 3-70؛ الإصابة 1-169؛ شذرات الذهب 1 - 31؛ الزركلي 2-73).

اليمن، وهو مظهر خاص للتجلي الرحماني، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم مظهرا خاصا للتجلي الإلهي المخصوص باسم الذات وهو الله. قلت: هذا يفيد مؤيدا إلى ما سبق من أن أحدا لم يشاركه صلى الله عليه وسلم في مقامه الأعظم، لكن في كون القطبية لعصام، وهو غير معروف في أنه من الصحابة أو التابعين بخلاف أويس⁽¹⁶⁰⁾ فإنه مشهور، وقد ورد في حقه أنه سيد التابعين، إشكالا عظيما، فإنه كيف تكون له القطبية الكبرى مع وجود الخلفاء الأربعة وسائر فضلاء الصحابة، الذين هم أفضل الناس بعد الأنبياء بالإجماع، وأيضا فقد قال اليافعي رحمه الله وقد سترت أحوال القطب وهو الغوث عن العامة والخاصة غيرة من الحق عليه، لكني أقول الظاهر أن هذا غالبي لثبوت القطبية للسيد عبد القادر الجيلاني⁽¹⁶¹⁾ فلا نزاع.

ثم اعلم أن كثيرا من الناس ادعى أنه المهدي، فمنهم من أراد المعنى اللغوي ولا إشكال، ومنهم من ادعى باطلا وزورا، واجتمع عليه جمع من الأوباش وأراد الفساد في البلاد، فقتل واستراح / 70 / منه العباد، ومنهم من رأى واقعة الحال، فحملها شيخه على الآفاق، وكان حقه أن يحملها على الأنفس لئلا يحصل الاختلال، وهو رئيس النوريخشية أحد مشايخ الكبروية، وقد ظهر في البلاد الهندية جماعة تسمى المهديوية، ولهم رياضات عملية وكشوفات سفلية وجهالات ظاهرية، ومن جعلتها أنهم يعتقدون أن المهدي الموعود هو شيخهم، الذي ظهر ومات ودفن في بعض بلاد خراسان⁽¹⁶²⁾، وليس يظهر غيره مهدي في الوجود، ومن ضلالتهم أنهم يعتقدون أن من لم

(160) هناك اضطراب في اسم هذا الشخص، فقد ورد في الإصابة أن اسمه أوس بن أوس الثقفي، وهو الصحابي الذي روى له أصحاب السنن الأربعة أحاديث صحيحة، ويشير ابن حجر إلى أن بعضهم ذهب إلى أن أوس بن أبي أوس (أو أويس) هو نفسه، في حين يعتبره البعض شخصا ثانيا هو أوس بن حذيفة بن ربيعة الذي روى له بدوره أبو داود والنسائي وتوفي سنة 59هـ، أما الاسم كما ورد في المخطوط أويس فلم نثقف عليه. (الإصابة 1: 92 و 94 و 137: الاستيعاب 1- 51)

(161) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(162) خراسان، قطر معروف وإقليم شاسع أول حدوده بما يلي العراق قصبة جوبين وآخر حدوده بما يلي الهند طخارستان وسجستان وكرمان، تضم بلدانا شهيرة مثل نيسابور وهراة ومرو

يكن على هذه العقيدة فهو كافر، وقد جمع شيخنا العارف بالله الولي الشيخ علي التقي، رسالة جامعة في علامات المهدي منتخبة من رسائل السيوطي، واستفتى من علماء عصره الموجودين بمكة من المذاهب الأربعة، وقد أفتوا بوجوب قتلهم على من يقدر عليهم من ولات (كذا) الأمر.

وكذا معتقد الطائفة الشيعية من الإمامية، أن المهدي الموعود هو محمد بن حسن العسكري، وأنه لم يمت بل هو مختف عن أعين الناس من العوام والأعيان، وأنه إمام الزمان وأنه سيظهر في وقته ويحكم في دولته، وهو مردود عند أهل السنة والجماعة، والأدلة مستوفاة في الكتب الكلامية، وقد صرح في العروة الوثقى بأن محمد بن الحسن العسكري إذا اختفى دخل في دائرة الأبدال أولاً، وبقي فيهم حتى لم يبق منهم أحد فصار سيد الأبدال، ثم دخل في دائرة الأبطال يعني دائرة الأربعين وبقي فيهم حتى لم يبق منهم أحد فصار سيد الأبطال، ثم دخل في دائرة السياح وهم السبعة وبقي فيهم حتى لم يبق منهم أحد فصار سيد السياح، ثم دخل في دائرة الأوتاد وهم الخمسة / 71 / وبقي فيهم حتى لم يبق منهم أحد فصار سيد الأوتاد، ثم دخل في دائرة الأفذاذ وهم الثلاثة وبقي فيهم حتى لم يبق منهم أحد فصار سيد الأفذاذ، ثم جلس على الأريكة القطبية بعد أن توفى الله إليه علي بن الحسن البغدادي القطب، ودفن ببغداد في الشرقيين بروح وريحان، وبقي في المرتبة القطبية تسع عشرة سنة، ثم توفاه الله إليه بروح وريحان انتهى.

وقد نقل مولانا عبد الرحمان الجامي⁽¹⁶³⁾ قدس الله سره السامي هذا عنه في بعض كتبه، واعتمد عليه في اعتقاده، لكن لا يخفى أن الشيخ علاء

وبلخ، لخص ذلك بعضهم بقوله " الدنيا خراسان ". فتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحا وأبلى أهلها البلاء الحسن في نشر الدين والذود عنه، كما لعبوا أدواراً رائدة في التاريخ العربي الاسلامي في مجالات السياسة والعلوم. (معجم البلدان 2-350؛ الروض 214)

(163) عبد الرحمان بن أحمد بن محمد الجامي (817-898هـ/1414-1492م)، منسرفاضل من جام (ما وراء النهر)، انتقل إلى هراة وتفقه وصحب مشايخ الصوفية، وطاف البلاد وعاد إلى هراة حيث توفي، له " تفسير القرآن " و " شرح نصوص الحكم لابن عربي ". (كشف الظنون 1372؛ الزركلي 3-296).

الدولة ظهر بعد محمد بن الحسن العسكري بزمان كثير، ولم يسند هذا القول إلى من كان في ذلك الوقت، والظاهر أنه يدعي هذا عن طريق الكشف، وكذا لا يمكن من غيره أيضا إلا كذلك، ولا يخفى أن مبنى الاعتقاد لا يكون إلا على الأدلة اليقينية، ومثل هذا المعنى الذي أساسه على ذلك المبنى لا يصلح أن يكون من الأدلة الظنية، ولذا لم يعتبر أحد من الفقهاء جواز العمل في الفروع الفقهية بما يظهر للصوفية في الأمور الكشفية، أو من الحالات المنامية ولو كانت منسوبة إلى الحضرة النبوية عليه أفضل الصلاة وأكمل التحية.

لكن الأحاديث الواردة في أحوال المهدي ما جمعه السيوطي وغيره ترد على الشيعة في اعتقاداتهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة، بل جعلوا تمام إيمانهم وبناء إسلامهم وأركان أحكامهم، بأن محمد بن الحسن العسكري هو الخي القائم المنتظر وهو المهدي الموعود، على لسان صاحب المقام المحمود والخوض المورود. وقد ورد بل صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يوطيء / 72 / أي يوافق اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي)، فتعسف بعض الشيعة فقالوا إن هذا تحريف، والصواب اسم أبيه اسم ابني بالنون يعني الحسين، وأن المراد بأبيه جده الحسين والمراد باسمه كنيته، فإن كنية الحسين أبو عبد الله، فمعناه أن كنية جده الحسين يوافق اسم والد النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لاعتقادهم أنه محمد بن الحسن العسكري وهو باطل من وجوه، أما الأول فلهذه التعسفات، والثاني فلأن محمد بن الحسن العسكري هذا مات وأخذ عنه عمه جعفر ميراث أبيه الحسن، والثالث فلأن المهدي يبايع وهو ابن أربعين سنة أو أقل، ولو كان هو ل زاد على سبعمائة سنة، والرابع فلأن مولد المهدي في المدينة بخلافه، والخامس فلأن رواية ابن المناوي عن علي عنه عليه السلام يجيء بالمهدي محمد بن عبد الله، بل وكثير من الأحاديث صريحة في رد ما قالوه ووجهوه.

تنبيه للشيخ عبد الوهاب الشعراني⁽¹⁶⁴⁾ في كتابه "اليواقيت والجواهر"،

(164) عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي - نسبة إلى محمد بن الحنفية - الشعراني (898-973هـ /

1493-1565م)، من علماء المتصوفين، ولد في قلفشندة بمصر ونشأ بساقية أبي شعرة وإليها

أنه مشى على هذا القول ونسبه للمفتوحات المكية، وليس فيه ذلك بل فيه خلاف ذلك، وهو أن المهدي من أولاد الحسن ولا شك أن العسكري من أولاد الحسين، والظاهر أن هذا مدسوس على الشعراني، ويؤيده أنه في حياته لم يحرر الكتاب المذكور، وأنه قال فيه لا أحل لأحد يروي عني هذا الكتاب حتى يعرضه على علماء المسلمين ويحرروا [ما فيه]⁽¹⁶⁵⁾، ومما دس عليه أيضا في طبقاته، أنه قال في ترجمة الحسين بن علي أن العقب منه فقط، لا من أخيه الحسن وهو أيضا من دسائس الرافضة.

وقوله عن أبي سعيد قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاء أي عظيمًا، قوله يصيب هذه الأمة حتى لا يجد الرجل ملجأ أي ملاذا يلجأ إليه أي يعود / 73 / ويلوذ به، قوله من الظلم أي بلاء ناشئا من الظلم العام، قوله فيبعث الله رجلا، أي كاملا عادلا عالما عاملا وهو المهدي، قوله عليه السلام من عثرتي أي أقاربي، قوله وأهل بيتي أي من أخصهم، قوله فيملا أي الله به أي بسبب وجود ذلك الرجل، قوله الأرض أي جميعها وفي نسخة ضعيفة تملأ بالتأنيث مجهولا فالأرض مرفوع، قوله قسطا وعدلا تميز من النسبة، قوله كما ملئت أي بغيره قوله ظلما وجورا، يرضى عنه ساكن السماء أي جنسه من الملائكة وأرواح الأنبياء عليهم السلام، قوله وساكن الأرض أي من المؤمنين أو حتى الدواب في البر والخيتان في البحر، والجملة استئناف بيان، قوله لا تدع السماء أي لا تترك في زمانه، قوله من قطرها شيئا أي من أقطار الأمطار، قوله إلا صبته أي كبته، قوله مدرارا في الفائق المدرار الكثير الدر، ومفعال مما يستوي فيه المذكور والمؤنث، كقولهم امرأة معطار ومطفال، وهو منصوب على الحال من السماء أي من فاعل صبته، وقوله ولاتدع الأرض من نباتها أي من أنواع نباتاتها

نسبته، توفي بالقاهرة. له تصانيف منها "الأجوبة المرضية عن أئمة الفتناء والصوفية" و"إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين" و"الجواهر والدرر الكبرى" و"اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر". (الزركلي 4-180؛ الشذرات 8-372).

(165) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

وأصنافها، قوله شيئا إلا أخرجته أي أنبتته وأظهرته، قوله حتى يتمنى الأحياء بفتح الهمزة جمع الحى مرفوع، وأخطأ من كسر الهمزة ونصبه، قوله الأموات بالنصب ومن عكس الترتيب لم يصب؛ قال التوريشني الأحياء رفع بالفاعلية، وفي الكلام حذف أي يتمنون حياة الأموات أو كونهم أحياء، وإنما يتمنون ذلك ليروا ما هم فيه من الخير والأمن⁽¹⁶⁶⁾ ويشاركوهم فيه، ومن زعم فيه الأحياء بالنصب من باب الأفعال وفاعل التمني الأموات فقد أحوال، قوله /74/ يعيش أي المهدي، قوله في ذلك أي فيما ذكر من البذل وأنواع الخير، قوله سبع سنين وهو مجزوم به في أكثر الروايات، قوله أو ثمان سنين شك من الراوي، وكذا قوله أو تسع سنين (رواه الحاكم في مستدركه)⁽¹⁶⁷⁾ وقال صحيح، لكن نقل الجزري⁽¹⁶⁸⁾ أن الذهبي⁽¹⁶⁹⁾ قال إسناده مظلم.

ولما جمع بنا جواد القلم إلى خبر المهدي المنتظر، فلنورد بعض ما يتعلق بخبره ومقدماته فنقول: ذكر الحافظ السيوطي في تأليفه "العرف الوردي في

(166) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(167) وردت هذه الجملة في متن النص مسبوقة بـ "رواه ترك هنا بياضا بالأصل وألحق به".

(168) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد الدين أبي إسحاق إبراهيم الجزري الدمشقي (658-739هـ/1260-1338م)، ولد بدمشق وبها تلقى تعليمه على نخبة من العلماء، اشتهر بمؤلفه التاريخي "التاريخ المسمى بحوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه" المعروف اختصارا بتاريخ الجزري، صنّفه على طريقة تاريخ الإسلام للذهبي. ويعتبر هذا الكتاب كنزا ثميناً لو حفظت كل أجزائه. توفي الجزري بواسط (535-2 E., I., 2).

(169) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان بن قيمار بن عبد الله الذهبي التركماني النصارفي الدمشقي الشافعي (673-748هـ/1274-1348م)، مؤرخ وفقيه شافعي ولد وتوفي بدمشق، إهتم بدراسة الحديث والسنة في دمشق والقاهرة ومكة وحلب على كبار علماء وقته الذين ترجم لهم في معجمه، ومنهم يوسف المزي وابن دقيق العيد وأبي محمد الدمياطي. وبعد إجازته انتقل إلى التدريس في مدرسة أم الصالح بدمشق وذاع صيته حتى لقب بمحدث العصر وخاتم الحفاظ. تخرج على يديه تلاميذ نجباء منهم عبد الوهاب السبكي صاحب "طبقات الشافعية الكبرى"، وترك مؤلفات نالت نجاحا كبيرا في الشرق والمغرب، أهمها كتاب "تاريخ الإسلام" و"طبقات المشاهير والأعلام" و"تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال" و"المشرك في أسماء الرجال" (E., I., 2-221).

أخبار المهدي " عند ذكر الفتن المتصلة بخروجه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ويقول كل رجل منهم لعلّي أكون أنا الذي أنجو)، رواه مسلم.

وعنه أيضا : (يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا)، متفق عليه. ومن مشكاة المصابيح وعن ثوبان⁽¹⁷⁰⁾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فأتوها فإن فيها خليفة الله المهدي)، رواه أحمد والبيهقي في دلائل النبوة. ومن العرف الوردية، وأخرج نعيم بن حماد في كتاب الفتن بسند صحيح على شرط مسلم، عن علي قال الفتن أربعة، فتنة السراء وفتنة الضراء وفتنة كذا وفتنة معدن الذهب، ثم يخرج رجل من عشرة النبي صلى الله عليه وسلم يصلح الله على يده أمرهم.

وقد ألف العلماء تأليف عديدة في أخبار المهدي، والبرهان في علامة /75/ المهدي آخر الزمان، فمن أراد بسط الكلام على ذلك فليراجعها، وإنما جئنا بهذه القطعة مما يتعلق به في هذا المحل، حيث جرى ذكر منصور المتقدم الذكر الذي وقعت الإشارة إليه بأنه من مقدمات المهدي، وذلك في أول سنة من المائة الثالث عشرة .

ومن المقرر في كتب الحديث وكما نقله الإمام الحافظ السيوطي في تأليفه "الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف"، وها أنا أجلب كلامه بعينه لترتب عليه ما بعده، ونصه: فأقول أولا: الذي دلت عليه هذه الآثار أن مدة هذه الأمة تزيد على ألف سنة ولا تبلغ الزيادة عليها خمسمائة سنة،

(170) أبو عبد الله ثوبان بن بجدد (ت. 54هـ/ 674 م)، مولى رسول الله، أصله من أهل السراة (بين مكة واليمن)، اشتراه النبي ثم أعنته فلم يزل يخدمه إلى أن مات، فخرج ثوبان إلى الشام ونزل الرملة بفلسطين، ثم انتقل إلى حمص وأقام فيها إلى أن مات. له 128 حديثا. (الاستيعاب 1-210؛ الزركلي 2-102).

وذلك أنه ورد من طرق أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث في آخر الألف السادسة، وورد أن الدجال يخرج على رأس مائة وينزل عيسى عليه السلام فيقتله، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة، وأن الناس يمكثون بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة، وأن بين النفختين أربعين سنة، فهذه مائتا سنة لا بد منها، والباقي الآن من الألف مائة سنة وستان، وإلى الآن لم تطلع الشمس من مغربها ولا خرج الدجال الذي خروجه قبل طلوع الشمس، ولا ظهر المهدي الذي ظهوره قبل الدجال بسبع سنين، ولا وقعت الأشراف التي قبل ظهور المهدي، ولا بقي يمكن خروج الدجال عن قريب، لأنه إنما يخرج عند رأس مائة، وقبله مقدمات تكون في سنين كثيرة، فأقل ما يكون أن يجوز خروجه على رأس الألف إن لم يتأخر إلى مائة بعدها، فكيف يتوهم أحد أن الساعة تقوم قبل تمام الألف، هذا شيء غير ممكن، بل إن اتفق خروج الدجال على رأس الألف، وهو الذي أبداه بعض العلماء احتمالا، مكثت الدنيا بعده أكثر من مائتي سنة / 76 / المائتان المشار إليهما، والباقي ما بين خروج الدجال وطلوع الشمس من مغربها، وإن تأخر الدجال ولا يدري كم هو عن رأس الألف إلى مائة أخرى، كانت المدة أكثر، ولا يمكن أن تكون المدة ألفا وخسمائة سنة أصلا.

وها أنا أذكر الأحاديث والآثار التي اعتمدت عليها في ذلك، فمنها عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [من قضى حاجة لمسلم في الله كتب الله له عمر الدنيا سبعة آلاف سنة صيام نهاره وقيام ليله]، وقال في آخر التأليف المذكور، ثم بعد انتهائي في التصنيف إلى هنا، رأيت في كتب العلل للإمام أحمد بن حنبل قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن منبه، حدثنا عبد الصمد أنه سمع وهبا يقول: قد خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة وستمائة سنة، إني لأعرف كل زمان منها ما كان فيه من الملوك والأنبياء، وهذا يدل على أن مدة هذه الأمة تزيد على الألف بنحو أربعمائة سنة تقريبا انتهى.

وأقول: قد تقرر أنه لا بد من مائتي سنة بين نزول عيسى وقيام

الساعة، وأن الدجال يخرج عند رأس مائة، وأن المهدي يظهر قبل الدجال بسبع سنين، وقبل المهدي علامات تقع في سنين، فعلى ما دلت عليه الآثار لم يبق للمهدي ظهور في أول هذه المائة، وأن منصور المذكور ليس بالمنصور الذي من مقدماته، وإلى الآن لم يظهر السفياي الذي قبل المهدي، ولا وقع الخسوف بجيش السفياي بالبيداء، ولا حسر الفرات عن جبل الذهب، ولم تقبل الرايات السود من خراسان، ولا وقع الخسوف في رمضان مرتين، وهذه علامات كلها قبل ظهور المهدي، ولا بد لها من مدة زمان، ومكث المهدي سبع / 77 / سنين ثم ظهور الدجال عند رأس مائة.

فالذي تدل عليه الآثار ويؤخذ منها أن المهدي إنما يظهر في آخر المائة، ثم المائتا سنة بعد نزول عيسى لا بد منها، فيترجح والله أعلم أن لا يكون للمهدي ظهور في هذه المائة، إلا أن يكون في آخرها ليكون ظهور الدجال عند رأس مائة، ويبقى حينئذ قول الإمام الخافظ السيوطي ولا يمكن أن تكون المدة ألفا وخسمائة أصلا مشكلا، وأما على مقتضى حديث وهب المصرح بأنه بقي من الدنيا أربع عشرة مائة سنة، فقد بقي مائتا سنة وهي التي لا بد منها بعد نزول عيسى عليه السلام، وتبقى مدة الدجال والمهدي والعلامات قبله، اللهم إلا أن تقع في هذا الوقت متتابعة كما ورد في الحديث كنظم عقد تتابع، ويكون المراد برأس مائة الذي يخرج عندها الدجال أوائلها وهو صادق بما قابل نصفها وآخرها، وتكمل المائتان اللتان بعد نزول عيسى بعد هاتين المائتين، ولا يخرج ذلك عن كون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، فتكون العبرة بالمائة والألف ما قارب الشيء له حكمه، وإلا فانظر ما تجيب به عن حديث وهب وغيره، والعلم عند الله تعالى، [يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يحليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون]⁽¹⁷¹⁾.

وقد نظم شروط الساعة الشيخ عيسى الشافعي رحمه الله تعالى ورضي

(171) الآية 187 سورة الأعراف.

عنه في منظومة وهي هذه:

وبعده فهذه بفستك
تفزع الخلق من الأقطار
يليهما المهدي بالأمان
والأعور الدجال بالبهتان
لقتل ذا الدجال يستبيح
سائرة طالبة مشرقها
من الصفا برؤية عجيبة
ثمة ياجوج وماجوج عقل
لهدم كعبة من غير مين
للمؤمنين قلت بانشرح
من الصدور وانتفى الأمان
تسوقنا لمحشر بعد الوهن
قد قاله ائمة بلا امتري
قد قاله عيسى الفقير الداني
والصفوي قلت أما وأبا
محمد المبعوث بالبرهان
ما غردت بلابل الاشجار

أول أشراط خروج التترك
فالهذه الصيحة بانتشار
78 / والهاشمي بعد السفيناني
وبعدهم فيخرج القحطاني
وبعده فينزل المسيح
ثم طلوع الشمس من مغربها
ثم خروج الدابة الغربية
يعقبها الدخان فيما قد نقل
والخبشي ذو السويقتين
فذاك ريح قابض الأرواح
وبعده فيرفع القرآن
ثم خروج الناس من قعر عدن
وتلوها النغخ ثلاثة ترى
دلالة الثلاث بالقرآن
الأزهري الشافعي مذهبا
ثم صلاة الله للعدنان
وآله وصحبه الأخيار

وذكر سيدي أحمد المقرئ⁽¹⁷²⁾ في تأليفه "نفح الطيب"، عندما استطرد
ذكر الشيخ العالم العامل الزاهد الورع سيدي محمد بن عباد ما نصه: وذكر
الشيخ الفقيه الخطيب القاضي الحاج الرحال أبو سعيد بن أبي سعيد
السلوي، أنه /79/ رأى في حائط جامع القرويين أبياتا مكتوبة بفحم بخط

(172) أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت. 1041هـ / 1631م)، استقر مدة طويلة بمدينة
فاس، حيث تولى الإمامة والخطابة بجامع القرويين، وأقام مجالس العلم والتدريس وصنف
عدة كتب أشهرها "نفح الطيب" و"روضة الآس" و"أزهار الرياض". وخلال فترة
الاضطراب التي تلت وفاة المنصور رحل إلى المشرق ونزل دمشق ثم القاهرة حيث توفي.
(الإفراني، صفوة من انتشر، ص.ص. 72-74؛ المنوني، المصادر العربية، ج. 1، ص. 145).

الشيخ أبي عبد الله بن عباد وهي :

أيتها النفس إليه اذهبي فحبه المشهور من مذهبي
مفضض الشغل له نقطة من عنبري خذه المذهب
أيأسني التوبة من حبه طلوعه شمساً من المغرب

قال الشيخ أبو سعيد فاستشكلت هذه الأبيات، لما اشتملت عليه من التغزل وذكر الخال والحد والشغل، ومقام الشيخ ابن عباد يحل عن الاشتغال بمثل هذا، فلقيت يوماً أبا القاسم الصيرفي فذاكرته بالقصة ووجه الإشكال فيها، فقال لي مقامك عندي أعلى من أن تستشكل مثل هذا، هذه أوصاف ولي الله القائم بأمر الله المهدي، فشكرته على ذلك انتهى.

قلت: رأيت بخط الوائشريسي⁽¹⁷³⁾ على هذه الحكاية ما نصه: قلت في صحة هذه الحكاية عن الشيخ نظر لما اشتملت عليه من التغزل، وقدر الشيخ وورعه أعلى من هذا، فهذان إشكالان والله أعلم انتهى.

قلت: هنا إشكال ثالث، فإنه أشار في الأبيات إلى أن المهدي يظهر في المغرب، والذي دلت عليه الآثار المتقدمة أن ظهوره بالشرق، وأنه يولد بالمدينة وأنه يبايع بين الركن والمقام والله أعلم. لكن في التذكرة للقرطبي⁽¹⁷⁴⁾ أن مولده ببلد بالمغرب، وأنه يأتي من هناك ويجوز على البحر، فإن صحت هذه الرواية فلا إشكال ويكون المراد بطلوعه ولادته.

(173) أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الوائشريسي، فقيه عالم حافظ مفتي، أصله من تلمسان حيث كان مفتياً، ثم انتقل إلى مدينة فاس سنة 874هـ حيث استقر فأفاد واستفاد إلى أن توفي بها سنة 914هـ. له تأليف عديدة منها تعليق على فرعي ابن الحاجب وشرح وثائق الفشتالي وكتاب القواعد في الفقه، لكن أشهر كتاب للوائشريسي هو "المعيار المعرب عن فتاوي أفريقية والمغرب" الذي لا يخفى أهميته الفقهية والتاريخية. (جذوة الاقتباس، 1-156).

(174) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي (ت. 671هـ / 1272م)، عالم مالكي مشهور بتفسيره للقرآن، ولد بقرطبة وسافر طلباً لتعلم حيث جاب المشرق واستقر بمنية الخصيب بمصر حيث توفي ودفن، يصفه الذهبي بأنه بحر من العلوم الشيء الذي تؤكد مؤلفاته العديدة ومنها: "الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآيات الفرقان" و "التذكار في أفضال الأذكار" و "التذكرة بأمور الآخرة". (E., I., 5-516)

فإن قيل على أي مذهب من المذاهب الأربعة يجري الأحكام المهدي ونبي الله عيسى بعده نقول: قال⁽¹⁷⁵⁾ في "كتاب الإشاعة / 80 / لأشراط الساعة"، تأليف العلامة الشيخ محمد بن عبد الرسول بن عبد السيد العلوي الحسيني الموسوي الشهرزوري البرزنجي المدني ما نصه: تنبيه، وقع لبعض جهلة الحنفية أنه ادعى أن كلا من عيسى والمهدي يقلدان مذهب الإمام أبي حنيفة، وذكره بعض مشايخ أهل الطريقة بالهند في تصنيف له بالفارسية وشاع في تلك الديار، وكان بعض من يتسم بالعلم من الحنفية ويتصدر للتدريس يشهر هذا القول، ويفتخر به ويقرره في مجلس درسه بالروضة المشرفة، فذكر لي ذلك فأنكرته عليه⁽¹⁷⁶⁾ وجهلت قائله وناقله ومقرره، فلما بلغه إنكاري نسبني إلى التنقيص في حق الإمام أبي حنيفة وحاشاه من ذلك، ولو سمعه الإمام أبو حنيفة لأفتى بتعزيزه أو تكفير قائله، ثم بعد مدة وقفت للشيخ علي القاري الهروي نزيل مكة المشرفة رحمه الله، على تأليف سماه "المشروب الورد في مذهب المهدي"، نقل فيه هذا القول فرد عليه ردا شنيعا وجهله، فأرسلت بالكتاب لمجلس درسه فقرأ عليه وافتضح بين تلامذته، ولتنقل كلام الشيخ علي هذا مختصرا، قال رحمه الله تعالى: ولقد عارضني في هذه القصة-يعني مسألة التقليد المذكورة- من هو عار من الفضيلة بالكلية، وأبرز نقلا مما كتب في قفا الدفاتر، يقطع ببطلانه حتى ذوو العقل القاصر، ومع هذا فهو منقول من كتاب مجهول، وقد صرح الإمام ابن الهمام بعدم جواز النقل من غير الكتب المتداولة، سوى العلوم الفرعية والأصلية، ثم إن ركافة ألفاظه ومبانيه تدل على بطلان معانيه.

وها أنا أذكره بلفظه لتحيط به / 81 / علما حيث قال: ولم يخش ما⁽¹⁷⁷⁾ عليه من الوبال وغضب الملك المتعال، أن الله قد خض أبا حنيفة بالشريعة والكرامة، ومن كراماته أن الخضر عليه السلام كان يجيء إليه كل يوم وقت

(175) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(176) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(177) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

الصباح، ويتعلم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين، فلما توفي أبو حنيفة نادى الخضر إلهي أذن لأبي حنيفة يعلمني من القبر حتى أعلم شرع محمد صلى الله عليه وسلم على الكمال، فنودي أن اذهب إلى قبره وتعلم منه، فتعلم منه ما شاء الله⁽¹⁷⁸⁾ إلى خمس وعشرين سنة أخرى حتى أتم الدلائل والأقاويل.

ثم بعد مدة ظهر في مدينة مما وراء النهر شاب يقال له أبو القاسم القشيري، وكان يخدم أمه ويحترمها، ثم إنه أراد أن يرحل في طلب العلم، فبعثته أمه ولم تسمح نفسها به وبقيت تبكي، فرجع إليها من الطريق، فأمر الله تعالى الخضر أن يعلم القشيري ما تعلم من أبي حنيفة حيث أَرْضَى أمه، وصار الخضر يتردد إليه ثلاث سنين فعلمه العلوم التي تعلم من أبي حنيفة، حتى صنف ألف كتاب وصار صاحب كرامات. وكان له تلميذ كبير لا يفارقه، فجعل الشيخ ألف كتاب مصنفاته في صندوق وقال له: اذهب وارم هذا الصندوق في جيحون، فذهب ولم يفعل ضنا بالكتب، فرجع إليه فرده ثلاث مرات فرمى الصندوق، فخرجت من الماء يد فأخذت الصندوق ورجع متحيرا في السر في ذلك، فقال له الشيخ: السر في ذلك أنه إذا قربت القيامة وخرج الدجال ونزل عيسى عليه السلام ببیت المقدس، فيضع الإنجيل بجانبه ويقول أين الكتاب المحمدي، فقد أمرني الله أن نحكم به ولا أحكم بالإنجيل، فيطلبونه فلا يجدونه ولا شيئا من كتب الشرع المحمدي، فيتحير عيسى ويقول إلهي بما أحكم بين عبادك، فينزل /82/ جبريل ويقول أمرك الله أن تذهب إلى نهر جيحون وتنادي يا أمين صندوق أبي القاسم القشيري، سلم إلي الصندوق وأنا عيسى بن مريم وقد قتلت الدجال، فينشق الماء ويخرج الصندوق فيجد فيه ختمه وألف كتاب، نقل من كتاب "أنيس الجليس" انتهى.

قال الشيخ علي: ولا يخفى هذا مع ركاكته ولحنه، أنه كلام بعض الملحدين الساعين في فساد الدين. إن حاصله أن الخضر الذي قال الله فيه:

(178) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

{فوجدنا عبدا من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما} (179)، وقد تعلم منه موسى عليه السلام من جملة تلامذة أبي حنيفة، ثم عيسى وهو من أولي العزم يأخذ أحكام الإسلام من تلامذة أبي حنيفة، وما أسرع فهم التلميذ حيث أخذ عن الخضر في ثلاث سنين ما تعلمه الخضر من أبي حنيفة حيا وميتا في ثلاثين سنة، وأعجب منه أن أبا القاسم القشيري ليس معدودا في طبقات الحنفية، ثم العجب من الخضر أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتعلم منه الإسلام ولا من علماء أصحابه الكرام، ورضي بجهله بالشرعية حتى تعلم مسائلها في أواخر عمره من أبي حنيفة؛ قال: فهذا مما لا يخفى بطلانه على العقول السخيفة، حتى أن علماء المذاهب أخذوا هذه المقالة على وجه السخرية، وجعلوها دليلا على قلة عقل الطائفة الحنفية، حيث لم يعلموا أن أحدا منهم لم يرض بهذه القضية بالكلية، ثم لو تعرضت لما في منقوله من الخطأ في مبانيه ومعانيه، الدالة على نقصان معقوله، لصار كتابا مستقلا، إلا أني أعرضت عنه صفحا لقول الله تعالى: [خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین] (180)، فبطل قول القائل بل وكفر فيما أظهر، لا سيما فيما أبرز بالنسبة إلى نبي الله عيسى المجمع على نبوته سابقا / 83 / ولاحقا، فمن قال سلب نبوته فقد كفر حقا كما صرح به الإمام السيوطي، فإن النبي لا يذهب عنه وصف النبوة ولا بعد موته، وأما الحديث لا وحي بعدي فباطل لا أصل له، نعم ورد (لا نبي بعدي) ومعناه عند العلماء أنه لا يحدث بعدي نبي بشرع ينسخ شرعه، وقد صرح الإمام السبكي في تصنيف له أن عيسى عليه السلام يحكم بشرية نبينا بالقرآن والسنة، وحينئذ يرجح أنه أخذ السنة من النبي صلى الله عليه وسلم بطريق المشافهة من غير واسطة، أو بطريق الوحي والإلهام، وأن الذي ينزل بالوحي جبريل لأنه الموكل بالكتب والوحي إلى الأنبياء، وأما ما اشتهر على السنة العامة أن جبريل لا ينزل إلى الأرض بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فلا أصل

(179) الآية 65 سورة الكهف.

(180) الآية 199 سورة الأعراف.

له، فقد ورد في غير ما حديث نزوله إلى الأرض، كحضوره موت من يموت على طهارة، ونزوله ليلة القدر ومنعه الدجال من الدخول إلى المدينة ومكة إلى غير ذلك، ثم وقفت على سؤال رفع إلى شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، هل ينزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان حافظاً للقرآن العظيم ولسنة نبينا الكريم، أو يتلقى الكتاب والسنة عن علماء ذلك الزمان، فأجاب لم ينقل في ذلك شيء صريح، والذي يليق بمقام عيسى عليه السلام أنه يتلقى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيحكم في أمته كما تلقاه عنه لأنه في الحقيقة خليفة عنه، انتهى ما أردنا نقله من كلام العلامة الشيخ علي القاري الحنفي، عامله الله بلطفه الخفي، وهو في غاية النفاسة.

ثم رد أيضا قول القائل أن المهدي يقلد أبا حنيفة بالأدلة الشافعية، لكنه قرر أنه مجتهد مطلق، وهو بخلاف ما مر / 84 / عن الشيخ محي الدين في الفتوحات، أن المهدي لا يعلم القياس ليحكم به وإنما يعلمه ليتجنبه، فما يحكم المهدي إلا بما يلقي إليه الملك من عند الله الذي بعثه الله إليه يسدده، وذلك هو الشرع الحنيفي المحمدي الذي لو كان محمد صلى الله عليه وسلم حيا، ورفعت إليه تلك النازلة لم يحكم فيها إلا بحكم المهدي، فيعلم ذلك هو الشرع المحمدي، فيحرم عليه القياس مع وجود النصوص التي منحه الله إياها، ولذا قال صلى الله عليه وسلم في صفته يثقلو أثري لا يخطئ، فعرفنا أنه متبع لا مشرع، انتهى كلام الفتوحات.

فعلى هذا المهدي ليس بمجتهد، لأن للمجتهد أن يحكم بالقياس وهو يحرم عليه الحكم بالقياس، ولأن المجتهد يخطئ ويصيب وهو لا يخطئ قط، فإنه معصوم في أحكامه بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له، وهذا مبني على عدم جواز الاجتهاد في حق الأنبياء وهو التحقيق وبالله التوفيق.

ثم نقول: إن كلام القائل المذكور باطل وزور واقتراء من وجود كثيرة، منها ما أشار إليه الشيخ علي القاري، ومنها أن أبا القاسم القشيري من الفقهاء الشافعية، ومشايخه في الفقه والكلام والتصوف معلومة، كما تنطق به رسالته المتداولة شرقا وغربا، ومنها أنه لا يعرف له من التأليف غير الرسالة وكتب

آخر معدودة ألف ورقة، فضلا عن ألف كتاب، ومنها أن في زمن المهدي النازل عيسى في أيامه، الفقهاء في سائر المذاهب باقية، وأنهم أكبر أعداء المهدي لذهاب جاحهم، والقرآن باق إذ ذاك لم يرفع، ومنها كيف يجوز أن يتحير عيسى ويعطل أحكام المسلمين إلى أن يذهب إلى نهر جيحون ويخرج الكتب، وكم من حدود /85/ وخصومات ووقائع تقع في تلك المدة، ومنها أن جبريل إذا نزل عليه وأمره بأن يذهب إلى جيحون بنزوله عليه بالوحي، ما المانع من أن يعلمه شرع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يحوجه إلى كتاب أبي القاسم، ومنها أن الخضر المعلم لأبي القاسم حي عند نزول عيسى، فإنه الذي يقتله الدجال ثم يحييه الله، أفلا يعلم عيسى كما علم أبا القاسم القشيري حتى يكون بين عيسى وبين أبي حنيفة واسطة واحد، ومنها أن المسلمين في الصلاة حين نزول عيسى وأنه يقول للمهدي تقدم فإنها لك أقيمت، فإن لم يكن القرآن باقيا والمذاهب باقية فكيف يصلون، ومنها أن الخضر إما أن يكون مأمورا بتعلم شرع النبي صلى الله عليه وسلم أو لا، فإن كان مأمورا فما تركه التعليم إلى زمن أبي حنيفة إلى بعد موته في سنة خمسين ومائة، إذ الأصح أنه نبي، وإن لم يكن مأمورا بذلك وإنما هو زيادة تحصيل الكمال، فلم لا يأخذه من النبي صلى الله عليه وسلم غضا طريا، وإن كان لم يعلم أنه كمال إلا بعد موت أبي حنيفة، فقد جوز الجهل بالكمال على الأنبياء، ومنها أن عيسى عليه السلام معصوم مطلقا والمهدي معصوم في الأحكام، وأبو حنيفة مجتهد قد يصيب وقد يخطئ، ولذا خالفه أصحابه في أكثر من ثلث قوله، فكيف يقلد من لا يخطئ قط من يخطئ ويصيب، ومنها أن مذهب أبي حنيفة أن يقبل الجزية من الكفار ويخرج الزكاة، ويبقى الصليب واخترير في أيديهم وأن لا يجمع بين الصلاتين، وعيسى عليه السلام لا يخرج الزكاة ولا يقبل الجزية، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويجمع بين الصلاتين.

فإن كانت هذه الأحكام في كتاب أبي القاسم القشيري فقد خالف أبا حنيفة، فيلزم أن يكون /86/ مجتهدا مطلقا، وحينئذ يكون الفضل له لأبي حنيفة، وإن لم تكن في كتبه يلزم أن يكون عيسى لم يعمل بما في

مذهب أبي حنيفة. ثم إن هؤلاء الجهمية لفرط تعصبهم وعنادهم، ليس مطمح نظرهم إلا تفضيل أبي حنيفة ولو بما لا أصل له، ولو بما يؤدي إلى الكفر، وليس عندهم علم بما في فضائل الجمة التي ألفت فيها الكتب، فيرضون بالأكاذيب والافتراءات التي لا يرضاها الله ورسوله ولا أبو حنيفة نفسه، ولو سمعها أبو حنيفة لأفتى بكفر قائلها، وفي فضائل أبي حنيفة المقررة كفاية لمحبيه (كذا)، ولا يحتاج في إثبات فضله إلى الأكاذيب والأقاويل المفترات (كذا) المؤدية إلى تنقيص الأنبياء، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

غريبة

أخبرني بعض المغاربة لقبيته بالقسطنطينية وكان يتردد إلينا، قال إنه توجه إلى الحج فبدا له في المقام بمكة، فتأهل بها واستوطنها وكان إماما في المقام المالكي، وكان يأتي إليه رجل من أهل الخير درويش وبيده عكازة، قال: فصارت بيني وبينه معرفة واتصال، وربما أصبحبه معي إلى منزلي وأحضره ما تيسر من الطعام، ففرط مني ذات يوم أن قلت له اعطني هذه العكازة فامتنع، فأعدت عليه الكلام في شأنها مرة أخرى وألححت عليه، فقال لي لا تليق بك فإنك إن أخذتها لا تستقر بدار ولا تطمئن بقرار، قال: فقلت له اعطني إياها ولا عليك فقال: خذها، قال: فما تمكنت من يدي العكازة إلا بخروجي من داري وتوجهي إلى جدة، ولم يبق لي تفكير في أولاد ولا في عيال، بل أنسيتهم كأن لم يكونوا أصلا، ثم ركب البحر وتوجهت إلى اليمن وصرت (كذا) إلى صنعاء ثم إلى عدن ثم إلى الشحر / 87 / حتى وصلت البصرة، فزرت قبر الحسن البصري⁽¹⁸¹⁾ ثم قبر سيدي محمد

(181) أبو سعيد بن الحسن بن أبي الحسن البصري (21-110هـ/642-728م)، من الخطباء التابعين المشهورين في العهد الأموي، ولد بالمدينة ورحل إلى البصرة بعد معركة صفين، شارك وهو شاب في فتح إيران واستقر بالبصرة إلى أن توفي بها. اشتهر بورعه وتقرأه ويخطبه الوعظية التي تبرز براعته الأدبية وملكاته الخطابية، والتي هاجم فيها التهاافت على منافع الدنيا، كما عرف بنقده للحكام ولأولي الأمر وخاصة الحجاج بن يوسف الثقفي، غير أنه مع ذلك كان ضد استعمال العنف والخروج على الحكام (E., 1., 3-254).

الرفاعي⁽¹⁸²⁾ رضي الله تعالى عنهما. فلما كنت بضريحه تعرض لي كلب أسود، وجعل يرحب بي ويتراعى علي من غير معرفة به، ففطرط مني أن ضربته بتلك العكازة فكان آخر عهدي بالتمييز، وغبت فما أفقت إلا وأنا بجبل، وإذا الرجل صاحب العكازة أقبل علي والعكازة بيده، وردها إلي ولطمني لكمة شديدة وقال: ألححت علينا في العكازة حتى أعطيناك إياها، ثم إنك ضربتنا ورميتها وضيعتها.

قال: فاستيقظت وأفقت من إغمائي، فالتفت فإذا حولي عدة أسد فنظرت إلى الرجل فلم أجده، فأرعدت فرائسي (كذا) من تلك الأسد وانحدرت من الجبل أعدوا هاربا حتى غبت عن الأسد ووصلت بركة ماء، فتزعت من نباتها ما سترت به عورتي لأنني وجدتني لما أفقت عريانا، فبينما أنا كذلك إذ أتى نسوة من الحي يستقين الماء، فرأينني فهربن فزعات إلى حلتهم وأخبروهم الخبر، فجاء رجال وذهبوا بي معهم إلى خيامهم وأعطوني ما سترت به عورتي وحلقوا شعر رأسي، وأحلق بي جميع أهل تلك العشيرة وجعلوا يلتمسون مني الدعاء ويعتقدون صلاحني، وجعلوا يتحدثون فيقول بعضهم: هذا الذي رأيناه راكبا على الأسد اليوم الفلاني الذي كنا نصطاد في الموضع الفلاني، وطلبوا مني أن نقيم عندهم ويجعلون لي زاوية لكونهم لا يشكون في صلاحني، فأبيت عليهم وسألتهم عن اسم هذا الجبل فقالوا هو جبل جيلان⁽¹⁸³⁾، فقلت لهم كم بيتنا وبين بغداد فقالوا نحو اثني عشر يوما، فقلت لهم إن أردتم أن تفعلوا معنا إحسانا فوجهوني إلى بغداد، فوجهوا معي من أوصلني إليه.

فلما دخلته جعل الناس يقولون / 88 / هذا الرجل الذي كان هنا عاما أولا يمشي عريانا، وقال: ثم تلاقيت مع بعض أهل المغرب ممن استوطن

(182) يقصد أحمد بن علي الرفاعي الحسيني (ت. 578هـ / 1182م)، مولده ووفاته بالعراق وهو مؤسس الطريقة الصوفية الرفاعية التي انتشرت تعاليمها وكثر أتباعها، وكان الرفاعي زاهدا ورعا. (الرزكلي 1-169).

(183) جيلان، أي أرض الجبل وهي بلاد في فارس جنوبي بحر قزوين، أهم مدنها رشت، وتتميز بكثرة المستنقعات وتعرف مناطقها الجبلية باسم الديلم. (دائرة المعارف 7-222).

بغداد فانتسب بعضنا إلى بعض، فسألته عما سمعت الناس يقولون، فقال: هو ما سمعته، دخلت بغداد وكنت تمشي عريانا والصبيان يتبعونك ويضربونك بالحجارة، وأقمت هنا على هذه الحالة نحو شهرين وغبت، قال: فأقمت ببغداد أياما ثم توجهت إلى الكوفة، فجعل الناس يريني بعضهم إلى بعض ويقولون هذا المسكين الذي كان هنا يمشي عريانا، ثم إلى المشهد الذي فيه مدفن الإمام علي، ثم سرت إلى البصرة فدخلت إلى ضريح سيدي محمد الرفاعي فألقيت تلك العكازة على قبره، وعنده كنت ضربت الكلب فوق لي ما وقع، فلما ألقيت العكازة تاب إلي عقلي وتذكرت حينئذ أهلي وأولادي، ومن قبل لم يخطر لي أحد ببال وجعلت أبكي وأنتحب، فركبت البحر ورجعت إلى اليمن ثم إلى جدة ثم إلى مكة، فدخلت على أهلي وقد يئسوا مني فهنأني الناس بالسلامة، فحسبت مدة غيبتني فوجدتها عشرين شهرا.

رجع إلى خبر هذه الحاضرة القاهرة

فمن عظمها أن الأسواق التي تعمر في سائر البلاد يوما في الجمعة، مثل الخميس مثلا أو الأحد، عامرة فيها على سائر الأيام، كل يوم في ناحية من نواحيها، وتعمر أمام المساجد لأن لكل مسجد من مساجد هذه الحاضرة براح كبير متسع، دائر بالمسجد من جهاته الأربع والمسجد بوسطه منعزل، وفي هذا البراح يعمر السوق، معلوم عند أهل البادية والحاضرة محل عمارته في كل يوم / 89 / فيقصده الناس.

ومن عوائد هذه المملكة الميمونة أنه إذا ازداد عند السلطان مولود، ينادي المنادي بالمدينة جميعها ويعلم بازدياده وباسمه ويسأل له الدعاء، وقد ازداد عند هذا السلطان ونحن عنده، وذلك في سابع صفر من سنة إحدى ومائتين وألف، ابنة وسماها صالحة سلطان، وأصبح المنادي ينادي كما ذكر.

الاستعداد للحرب ضد روسيا

وفي هذه السنة أنشأ السلطان عبد الحميد نصره الله وأيده الحرب بين

عدو الدين الموسكوا⁽¹⁸⁴⁾، بسبب تمرده وطلبه بلدا من بلاد المسلمين أراد أن يملكها، وقد سافرنا من عندهم وهو أيده الله مشغول في التأهب والاستعداد، وسد الثغور وبعث العساكر برا وبحرا لقتال العدو الكافر، نسأل الله تعالى أن يرزقه النصر والظفر على من تولى وكفر، بجاء سيد البشر، وقد قلت في ذلك قصيدة رأيت أن نثبتها، وقد بلغهم خبرها فسروا بذلك وهي هذه:

كتائب النصر قد أتت لكم تنصر
لعلها فرصة أتى بها القدر
لدولة صيتها في الأرض قاطبة
قد طال ما طاعنت وضاربت في العدا
لا غرو إن لهم في الدفع سابقة
والله أكرم أن أولى الجميل فلا
فكم فتوح ترادفت على نسق
90 / / خلائف من بني عثمان من لم يدن
فقد أطاعهم حتى الوعول لها
خلفهم باطش عبد الحميد الرضى
توجه الله من جلاله عندما
إن الجهاد لهم سيما تميزهم
فسيفه صاحب للفتح ثم كذا
هيا له الله من جند السما عسكرا
يا أيها السيد الكاهية الذ بدا
قل للوزير أدام الله دولته
لا عدم الملك من علياكم أبدا
فكن على ثقة فالله ناصركم

تزف أعلامها راياتها تنشر
أمكن منهم أعدا الله فلتشكر
فالبحر يعزى لها والبدو والحضر
وملكوا الأرض والطفغة قد قهروا
عن دين أحمد ما أربحه متجر
يقطعه منة فالفضل لا يحصر
لذي الملوك التي فخارها أشهر
بطاعة لهم عرفانه نكر
في قنن للربى شواهد وكر
ملكه الله ما دارت به الأبحر
لم يأذن الشرع فيه إنه منكر
عن الملوك فلا جبن ولا خور
عزمه والنصر إلفان إذا ينفر
فجيشه في الوغا جيشان إذ يذكر
في عصرنا زينة تغبطه الأعصر
ميسرا أمره يجري به القدر
وزارة سعادتها تبدو له غرر
ومن يكن ناصرا لله ينتصر

(184) يقصد الإمبراطورية الروسية التي دخلت في حروب طاحنة مع الدولة العثمانية خلال القرن

نعم ويمنحكم رقاب شردمة
إيه وتخلي ديار الكفر أجمعها
دان لك الدهر بالله العظيم فما
فعن قريب ترى مسكوف⁽¹⁸⁵⁾ يرفل
عنهم بمغن فتिला اذ تحيط بهم
مقلدين سيوفا غير نابية
معتقلين رماحا طعنها في الوغا
91 / رجومها حرقت شياطن الكفر قد
والخيل تنحط كالعقبان مسرعة
عصائب الطير في الجو لها عسكر
كأنما الحرب نادتها وقد صنعت
جوارح أيقنت أن العدا جيف
والسيف بددهم والسبي قيدهم
ورحتم بعزیز النصر خولكم
دمتم فدامت لهذا الدين بهجته
لِيَهْنِكَ الْفَأَلُ إِن الْفَأَلُ قَدْ حَبَه
صلى عليه إله العرش ما سجعت
جبر الله حالنا وحالهم وبلغهم
مرادهم وآمالهم بجاه النبي وآله.

أهل الضلالة إذ أنعمه كفر
فالفتح يقدمكم والنصر والظفر
تشاء من ذا الوری إلیه یبتدر
في قيد الحديد ولا حصن ولا وزر
عساكر فتكها في الحرب لا ينكر
عن الضريبة لا تبقي ولا تذر
سلكى ومخلوجة شهب لها شرر
ولت هرابا على أدبارها تدحر
فرسانها ألقت لحم العدا تجزر
يتلو عساكركم جيش العدا تخزر
وليمة الجفلى فهي لها تنظر
لها فأبرزت المخلب والمنسر
وكلهم بلباس الذل مُدَثَّر
إياه رب العلى وحظكم أوفر
معززين له وسعيكم يشكر
رسولنا المصطفى وذاك مشتهر
ورق وما عطرت أسحارها الزهر
جبر الله حالنا وحالهم وبلغهم
من هذه الوجهة الجهادية من الفتح

ولأهل هذه المدينة اعتناء كبير برجب وشعبان فيعظمونهما تعظيما كبيرا،
ويتصدقون على الفقراء والمساكين وتسرج منارات المدينة كلها والمساجد و
يحتفل الناس بذلك احتفالا كبيرا، وكذلك ليلة السابع والعشرين منه.

مراسيم توديع ابن عثمان ورفاقه واستعداداته لمغادرة إستانبول

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين منه استدعانا الوزير الأعظم بقصد

(185) يقصد الروس.

الملاقاة والوداع، وبعث خيولهم على الهيئة الأولى فتوجهنا إليه، فلما دخلنا عليه قام إجلالا وهذا القيام لمن يستحقه عادة عند الأعاجم كلها. فقعنا معه على أريكة وأتى بالقهوة / 92 / والأشربة والطيب والبخور كما هي عادتهم، وذكر ما هم مشغولون به من أمور الحرب وأخذ الأهبة للعدو الكافر المسكوف والنمسة⁽¹⁸⁶⁾ فقد تظافر هذان الجنسان اللعينان على المسلمين فآله تعالى يخذلهم، وسأل الدعاء لهم بالإعانة والنصر عند مواجهة ضريح المصطفى صلى الله عليه وسلم والبيت الشريف، اللهم انصرهم نصرا مؤزرا وافتح لهم كل مقفل وسهل عليهم كل أمر معسر، فإنك قلت وقولك الحق ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم.

ثم أحضر خلعا على مقتضى عوائدهم فأخلع علينا وعلى جميع الحاضرين من أصحابنا ثم تودعنا من عنده فدخلنا على خليفته ففعل مثل ما فعل الوزير مثلا بمثل ما عدا الخلع، ثم إلى أحد أعيان الدولة يقال له الرئيس أفندي ففعل مثل ذلك، ثم خرجنا من عند الجميع.

وقد كان السلطان مهد الله له الأوطان قد عين الخيام والبهائم لحمل أثاثنا وأثقالنا والمحامل لركوبنا وجميع الأسباب أدام الله معرفته وجعل دولته بحراسة الله محفوفة، والكل من بركة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين مرسلنا وسيدنا، فإنما فعل معنا ذلك مراعاة لأجله واعتبارا لإحسانه أيده الله معهم بقوله وفعله، فالجميع بوجوده منوط إذ لولا الواسطة كما قيل لذهب المتوسط، فالحق أجلى والاعتراف بالنعم أولى أدام الله فخره وخلد بالجميل ذكره.

بداية الرحلة إلى الحجاز مع ركب الحج العثماني

ثم رأيت أن ترسم مقدار مساحة المراحل التي نسيرها ونصف ما تيسر لنا وصفه من الأرض والبلاد. ثم تأهبنا للسفر وقد كنا متأهبين وقطعنا البحر

(186) إشارة إلى تكالب القوى الأوروبية على الدولة العثمانية حيث تحالفت الإمبراطوريتان الروسية و النمساوية لمواجهة الأتراك وانتزاع ممتلكاتهم الأوروبية.

إلى البر الآخر المتصل بأرض الشام / 93 / ومصر ومكة وغيرها يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب، فبتنا هنالك خارج مدينة أسكدار بمكان معين لنزول الركب النبوي وأقمنا به يوم السبت، ويوم الأحد استعملنا المسير معقدين على من العسير عليه يسير، فنزلنا بموضع على ساحل البحر الشامي قبالة قرية يقال لها قرطل (187) على أربع ساعات من أسكدار المتقدمة بالسير المتوسط، ومن الغد رحلنا من هذه القرية إلى قرية يقال لها كبزة (2) (188) فوصلناها على خمس ساعات ونزلنا بظاهرها، وقد اتفق أن ضرب أحد رفقائنا رجلا فتغير الناس نعني الترك وقالوا لا ينزل الركب بعد هذه المدينة التي وقع فيها ما ذكر، تعدى شؤمه حسبي الله حتى على هذه البقعة كفانا الله إياه.

وسافرنا من الغد فسرنا ساعتين ثم اعترضنا خليج من البحر الشامي عرضه تسعة أميال فعبرناه في الزوارق من موضع هنالك معلوم يقال له "دیل سقال سي" بلغة الترك، وهم يقدمون المضاف على المضاف إليه كأنهم يقولون سقالة الديل، والسقالة بلغتهم البناء على البحر وهذا الموضع كذلك فيه بناء. وطول هذا الخليج إلى حيث انتهى في بلد أزمست ستون ميلا من سقالة الديل، ولما عبرنا سرنا نصف ساعة ونزلنا بقرب قرية يقال لها خارسك كوی [3] فكان مسيرنا في هذا اليوم ساعتين ونصف.

وفي تسمية هذا الخليج بالديل مناسبة كأنه ديل (كذا) للبحر الشامي، فمن أراد أن لا يقطعه فليمر معه إلى انتهائه مسيرة ثلاثة أيام، ومن أراد أن يقطعه من الموضع المذكور يعبره في الزوارق كما ذكرنا، فيرتكب الناس العبور في الزوارق تقريبا لهم للمسافة. / 94 / وقد انتهى البحر الشامي بانتهاء هذا الخليج لأن للبحر الشامي خليجان، أحدهما لناحية المشرق وهو هذا والآخر لناحية الشمال وهو خليج القسطنطينية، ومنه ينفذ للبحر الأسود

(187) كتبت أرقام على أسماء الأماكن التي كان يقف فيها الركب في (أ)، وسوف نميزها بوضعها

بين معقوفين.

المسمى في الوقت بقاردنز بلغة الترك، وقد انتهى أيضا في أطراف الكرج ونواحيهم وطوله من القسطنطينية نحو ألف ميل.

ومن الغد رحلنا من الموضع المذكور فسرنا بين جبال يتخللها وادي يقال له نهر كاور كو (4) بلغة الترك، ومعناه نهر قرية الكفار لأن معنى كاور⁽¹⁸⁹⁾ الكفار وكو القرية فهي إضافة مقلوبة على مقتضى لغتهم، وتمادينا على المسير بين هذه الجبال والوادي المذكور يعترضنا في دورانه بينها، فقد عبرناه نحو اثنتي عشرة مرة إلى أن وصلنا إلى القرية المذكورة وأهلها كلهم نصارى تحت رعاية السلطان عبد الحميد نصره الله، وهي قرية كبيرة فيها مياه كثيرة بل هذه البلاد التي مررنا بها كلها كذلك، وعلى هذه القرية بساتين كثيرة وجلها شجر التوت الذي يعلف بورقه دود الحرير، فتجاوزنا القرية المذكورة بنحو ربع ساعة ونزلنا بموضع منفسح انفساحا ما لأن ما حوالي القرية أماكن وعرة لا يمكن نزول الركب فيها، وكان مسيرنا في هذا اليوم خمس ساعات. ومن الغد سافرنا منها فوصلنا بلدة قديمة يقال لها جتزنك على ست ساعات فنزلنا بظاهرها ويقال لها مدينة الرخام (5)، ولها سور من أضخم الأسوار وأمنعها وأعظمها حجارة إلا أنه فيه خراب كثير وتهدم في عدة مواضع، وهي مأسسة (كذا) على بحيرة ماء تصب فيها أنهار ولا منفذ لها لكونها أحاطت بها جبال، فقد سرنا في بعض نواحيها / 95 / أكثر من ثلاث ساعات، وبهذه المدينة وخم⁽¹⁹⁰⁾ كثير مشهورة بذلك لا ينفك عنها وأهلها صفر الوجوه.

ومن الغد سافرنا منها⁽¹⁹¹⁾ فنزلنا على قرية يقال لها لفك (6) وصلناها على خمس ساعات بالسير الخثيث، وهي قرية كبيرة مستندة إلى جبل مؤسسة على وادي يقال له وادي لفك، يشق انفساحا من الأرض اكتنفه جبال

(188) وردت هذه الكلمة بكاف مكسورة فوقها ثلاث نقط وباء مسكونة وزاي مفتوحة.

(189) كتبت "كاور" بكاف معجم بثلاث نقط لتتعلق G اللاتينية.

(190) تعفن نلهواء يسبب الأمراض.

(191) سئطت من (i) ووردت في (ب).

استوعبه سقيا لغرسه وأكثر شجره التوت المتخذ للحريز.

ومن الغد سافرنا فسرنا أربع ساعات ونزلنا على قرية يقال لها خان الوزير (7)، سميت باسم خان بناء فيها بعض الوزراء يقال له سنان باشا، وهو خان عظيم بناء بقصد أن ينزل به ركب الحجاج زمن الشتاء والثلج والوحل جزاه الله خيرا، وهي قرية متوسطة فيها خطبة واحدة، مؤسسة على وادي لفك المتقدم وهي كثيرة الأجناد والبساتين والأشجار وأكثره شجر التوت، وهذه البلاد التي مررنا بها في هذا اليوم جبال، فطريقنا فيها صعود وانحدار إلى أن وصلنا الدار، وكذلك البلاد التي مررنا بها من القسطنطينية إلى هنا ليست بسهولة ولا وعرة فهي بين ذلك، وماؤها كثير وأثرها كبير وظلها من كثرة الأغصان ظليل ونسيمها عليل، ولا تمر بساقية فضلا عن وادي إلا على قنطرة مضروبة ولا بمكان ذي وحل إلا على جسر بحجارة مرصفة منصوبة جزاهم الله خيرا.

ومن الغد رحلنا فسلطنا بلادا مثل ما تقدم في الصعود والهبوط إلى أن وصلنا إلى مدينة يقال لها السكوت (8)، كبيرة فيها نحو أربع خطب وصلناها على سبع ساعات، وهي أيضا كثيرة الأجنة⁽¹⁹²⁾ والبساتين وأكثره التوت. ومن الغد سافرنا فنزلنا بظاهر مدينة يقال لها إسك شاهر⁽¹⁹³⁾ (9) على عشر ساعات، وهي مدينة عامرة / 96 / إلى الكبر أميل فيها إحدى عشرة خطبة، إلا أنها ليست بكاملة الحضرية هي إلى البادية أقرب، فبتنا بظاهرها تلك الليلة وأقمنا بها يومين لأن هذه المسافة التي بين القسطنطينية والشام يقيم الركب فيها بقصد الاستراحة وإراحة الدواب والخدمة في خمسة مواضع، وهذه البلدة هي أول أماكن المقام، ويأتي جميع الخدمة من سقائين وطباخين وفراشين وأصحاب المحامل ودواب الحمل وغير ذلك يطلبون من

(192) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(193) أسكشهير أو أف شهير بكسر الشين ومعناها المدينة البيضاء، قصبة قضاء في ولاية قونية غرب الأناضول، تقع في سفح جبل "سلطان داغ" على نهر "بورسقي"، اشتهرت منذ القدم بميونها المعدنية الحارة وبكونها محطة وملتقى لنطرق، ولذلك كان ركب الحج يمر بها. (دائرة المعارف 2-474؛ 2، 1، 733. E.)

مخدومهم إكراما زيادة على الأجرة المعلومة، وصار ذلك عادة لازمة كالشرط ويسمون ذلك البقشيش بلغتهم، وبها حمام مبني على ماء يخرج من الأرض في غاية الحرارة وجعلوا له حوضا كبيرا عمقه أقل من القامة، فهو مثل المغطس يصب فيه ذلك الماء ويخرج منه، وهو ملآن دائما والناس يغتسلون على حاشيته ومن أراد أن ينزل إليه ينزل، وماء هذا الحمام كثير مثل النهر الصغير وله خدام مثل الحمامات بمازروهم وأرديتهم، فمن دخل وأخذ الميزر أو خدمه أحد من أهل الحمام يعطي كراء الميزر وأجرة الخديم مثل الدلاك، ومن خدم نفسه وأتى بميزره معه فلا يلزمه شيء لأن الماء سخن بقدرة الله تعالى فلم يتسبب أحد فيه، ويسمونه حمام القدرة وقد دخلت إليه واغتسلت فيه ولم أستطع أن أطيل اللبث فيه لحرارته.

وهذه المدينة وحوزها شديدة البرد فقد سلكناها والشمس في برج الجوزاء ولاقينا بها من البرد ما يقل وجوده عندنا حتى في الليالي، ونباتها من أجل ذلك ضعيف وزرعها في هذا الفصل لم يستو على ساق. ثم رحلنا من هذه المدينة قرب الغروب وسرنا الليل تسع ساعات ونزلنا / 97 / بعد طلوع الفجر على قرية يقال لها سيدي الغازي (10)، سميت باسم رجل من الصالحين مدفون بها واسمه جعفر ولقبه البطل الغازي، وهو مدفون في قلعة مشرفة على القرية وهي أي القلعة من بنيان الروم، وقد زرنا ضريحه وتبركنا بتربته. وأخبرت أن الذي بنى ضريحه علاء الدين السلجوقي ولم أقف على من عرف به تعريفا شافيا.

وهذه القرية مؤسسة على ربوة من الأرض أسفلها نهر عذب وعليه كان نزولنا، وهي أيضا شديدة البرد مثل البلاد المتقدمة. ومن الغد سافرنا منها في بلاد غابة أكثر شجرها لرز⁽¹⁹⁴⁾ (كذا) المعلوم، فنزلنا على قرية يقال لها خصرم باشا على ثمان ساعات. ومن الغد سافرنا أيضا في غابة أكثر شجرها الأرز، فنزلنا على قرية يقال لها بياض كوي، المعنى المدشر الأبيض على خمس ساعات، وقد وجدناها خالية من أهلها وكذلك القرية التي قبلها لأن

(194) بقصد الأرز.

أهلها يرحلون في طلب الكلاً لماشيتهم لأن بلادهم باردة، فربيعها متأخر ويبعدون بالماشية عن زروعهم، فهم أهل بادية حتى يأتونها زمن الحصاد .

ومن الغد سافرنا منها ثمان ساعات فنزلنا على قرية يقال لها بلودم بعد أن مررنا بوسطها وجاوزناها بنحو ساعة ونزلنا، بينها وبين قرية أخرى يقال لها تاي بتاء مشوبة بشين، بموضع فيه قنطرة مضروبة على منخفض من الأرض تجتمع فيه المياه، فيكون فيه وحل كثير فضربت عليه هذه القنطرة وأضافوها إلى القرية فقالوا بلودم كبرسي، واسم القنطرة الكبير⁽¹⁹⁵⁾. وقد كلت طول هذه القنطرة بالخطا (كذا) فوجدت فيها ستمائة وخمسين خطوة متوسطة وأقواسها / 98 / نحو الستين، وقد وجدت بوسطها رخاما مكتوب فيه: أمر بعمارة هذه القنطرة السلطان سليمان بن سليم خان خلد الله⁽¹⁹⁶⁾ ملكه إلى آخر الزمان، فيفهم من كلامه أن السلطان سليمان لم ينشأها (كذا) من أول مرة وإنما جددتها وأصلحها فقط على مقتضى أعرافهم في هذه العبارة، فإنهم يقولون فلان عمر داره إذا جددتها أو أعادها بعد خرابها.

ومن الغد سافرنا في بلاد منفسحة وفجاج مفرحة ومياه مطردة وطيور مغردة وأزهار على أنواع متعددة، ما رأيت أكثر من هذه الأرض مياهها عذبة مسامتين لجبل عن يميننا انبجست بالماء المعين عيونه وتتابع هديره وأنيبه، قد استوعب ذلك السهل سقيا وكساه من حله السندسية رعياء، وعذب منه الهوى (كذا) وطاف في جوانبه النهر وعلى سوق أشجاره صله إلتوى، فنزلنا على مدينة يقال لها أخ شهير⁽¹⁹⁷⁾ وصلناها على اثني عشرة ساعة بالسير المتوسط ونزلنا بخارجها، ويقول أهل البلد إن هذا البلد هي بلد جحا المعلوم صاحب الحكايات وأرونا قبة بخارجها يزعمون أنه مدفون بها، وفي

(195) وردت مشكولة في النص بكاف مضمومة وباء مسكونة وراء مكسورة.

(196) سنطت من (أ) ووردت في (ب).

(197) يبدو أن ابن عثمان قد وقع له خلط، إذ أن أخ شهير - وليس أخ شهير - وإسكشهير بطلقان على نفس المدينة كما سبق.

هذه القبة أيضا المنسوبة إليه مضحكة، فقد جعل لها باب وثيق وقفل، والقبة لا سور لها وإنما جعلوا لها خشبا مركزا في الأرض، والظاهر أن جحا هذا مثل أبي زيد السروجي والحارث بن همام وأبي الفتح الإسكندري وعيسى بن هشام فجميعهم مجهول العين لا يعرف ونكرة لا تتعرف.

وقبل الوصول إلى هذه المدينة مررنا ببلد أخرى كثيرة المياه كثيرة البساتين يقال لها سقلي، ومن الغد سافرنا فنزلنا / 99 / بظاهر قرية يقال لها إلغين وصلناها على تسع ساعات، وبعد منتصف الليل سافرنا منها فنزلنا على قرية يقال لها اللاذق⁽¹⁹⁸⁾ على تسع ساعات، وتصنع بهذه القرية الزرابي الكثيرة، فكان أهلها يظلمون بالركب نساء ورجالا يعرضونها للبيع. ورحلنا منها ليلا وهكذا سافر ركب الحجاج في زمن المصيف، ونزلنا على عشر ساعات بظاهر بلد يقال لها قنية⁽¹⁹⁹⁾، وهي بلدة كبيرة فيها خطب عديدة وقد صلينا بها الجمعة بمسجد خارج سورها بإزاء ولي هنالك يقال له ملا هنكار⁽²⁰⁰⁾، ولما فرغنا من الصلاة دخلنا ضريحه فإذا ضريح منور فيه تربة الشيخ وبعض ذريته، وفي جانبه مجال مفروش بالخشب اجتمع في جوانبه أناس كثيرون ينتظرون الشيخ وهو من ذرية هذا الولي القائم في الوقت بأمور الزاوية، فأتى بهيئة وسكينة ووقار وقعد بمقعد معين له وصعد رجل من فوق مرتبة وجعل يقرأ آيات من القرآن ويفسرها بلغة الترك، وذكر شيئا من التوحيد والوعظ وأخذ في ذلك مدة، ثم شرعوا في استعمال الحضرة

(198) اسم عدد من القرى والمدن بالأناضول، والمتصورة هنا هي اللاذق الواقعة شمال قونية على الطريق المؤدي إلى قاراحصار وإسكيشير، اشتهرت كما يورد ابن عثمان بصناعاتها النسيجية (الزرابي والأغطية) وكانت عاصمة لمقاطعة إدارية إلى غاية بداية القرن (593-5 E.I.)،

(199) قونية: مدينة على الطريق بين عمورية وإنطاكية، تبعد عن اللاذقية بيوم وتقع في مفترق الطرق، كانت عاصمة للملك الروم ودارت بها معارك بينهم وبين المسلمين ومن ثم خربت مرارا، لتشهد انبعاثها على يد الملك السلجوقي مسعود الأول (512-550 هـ / 1118-1155 م) الذي اتخذها عاصمة له وخلفائه، وتدل الآثار التي خلفوها على نمو المدينة وازدهارها. (الروض 484؛ E.I. 5-251)

(200) ملا خنكار أو مولانا خنكار، لقب شيخ طريقة الدراويش المولويين وصار يطلق على الأولياء عموما.

فأخذوا في نقر دفوف ورنه مزامير جماعة منعزلون في ناحية، ثم قام الشيخ وجماعة من الفقراء وجعلوا يطوفون في ذلك المجال، ومهما سامتوا قبر الشيخ إلا أومئوا له برءوسهم بسكينة ووقار، ثم دخل الفقراء الميدان وجعلوا يدورون وتركناهم على ذلك وانصرفنا لقرب وقت سفرنا، لأن السفر في هذه الطريق ليلا كما قدمنا، وقد رأينا هذه الجماعة وحضرتهم لما كنا بالقسطنطينية ويسموننا حضرة مولانا، وقد أخبرونا أنه إذا ولي سلطان جديد يتوجه أحد من ذرية هذا / 100 / الشيخ وهو الذي يكون معنا في الوقت حتى يبايع السلطان⁽²⁰¹⁾ ويأخذ عليه العهد في أن يسير في المسلمين بالعدل، وبعد ذلك يقلده السيف علامة على تمام البيعة والانقياد إلى حكمه وأمره ونهيه، وبعده يبايعه الأعيان والناس.

وأقمنا بهذه المدينة يومين وهي المدينة الثانية التي يقيم بها الحجاج بين القسطنطينية والشام، وبعد صلاة المغرب سافرنا فنزلنا على قرية خالية يقال لها إسماعيل على إحدى عشرة ساعة، وهذه البلاد التي مررنا بها من قبل مدينة قنية كلها صحراء ذات انفساح وفجاج، كثيرة الغبار والرياح والعجاج قليلة النبات، نباتها نبات بلد الصحراء تنبت الشيخ والحرمل وما أشبه ذلك، فقلنا⁽²⁰²⁾ بها وقرب المغرب سافرنا في بلاد مثل البلاد المتقدمة فنزلنا بعد طلوع الشمس على قرية يقال لها قربنار⁽²⁰³⁾، وهي قرية كبيرة إلا أنها في صحراء شديدة الرياح والعجاج لم يستقر لنا بها مقام ولا استراحة ولا منام، وقيل أنها على هذه الحالة في غالب الأوقات، وقد وصلناها على تسع ساعات ونصف، وبهذه القرية تصنع الأجرية جمع جورب التي تجعل في الأرجل من الصوف ومنها تجلب للبلاد، ومن أجل ذلك قيل لها والله أعلم قربنار، لأن الجراب والقراب⁽²⁰⁴⁾ لفظة واحدة زيدت فيه النون والراء كما

(201) كتب في طرة ص. 103 من (ب) ما يلي: 'بل له وكيل في أبي أيوب الأنصاري ينوب عنه في ذلك، إذ لا يمكن أن يبتى أمر الخلافة معطلا حتى يأتي الشيخ من هذه البلاد والمسافة بعيدة'.

(202) من القيلولة.

(203) وردت بثاف مضومة ذات ثلاثة نقط وراء مفتوحة وباء مسكونة.

(204) وردت بثاف ذات ثلاثة نقط.

تزداد بعض الحروف في بعض النسب، وبها خان كبير يسع الآلاف معد لنزول الحجاج إذا صادفوا فصل الشتاء والثلج لأن هذه البلاد كثيرة البرد، وفي هذه البلاد التي مررنا بها خانات كثيرة لأجل ما ذكر.

وعند الاصفرار سافرنا من هذه القرية في أرض / 101 / مثل الأرض المتقدمة غبارا وعجاجا ونباتا إلى أن طلعت الشمس علينا بقرب قرية يقال لها أركله وصلناها على إحدى عشرة ساعة، وهي قرية كبيرة ذات بساتين وأرواض وأزهار وجداول وأنهار وأغصان وأطيار، فلو ترى الجداول بين الخيام تدور كأنها صل مدعور، ويسمونها نعي القرية بلسان الترك كتك شام بناء مشوبة بشين، المعنى الشام الصغير لكثرة مياهها وأنهارها

وأغصانها وأشجارها. ثم رحلنا منها قرب المغرب وسرنا الليل كله في أرض صحراء ونزلنا بعد الفجر على ماء يقال له وادي قشلة وصلناه على تسع ساعات، وبهذا الموضع خان عظيم يسع الآلاف وبه مسجد بداخله فيه منبر الخطبة وبخارجه مسجد آخر ولم يكمل بناؤه، وهو مؤسس بقرب ضيعة بني بقصد نزول الحجاج إذا صادفوا وقت الشتاء والطين والثلج، وهو في غاية الضخامة محكم البناء بالحجارة العظيمة المنحوتة وثيق أبواب الغلق، رحم الله بانيه وأثابه وأكرم مثابه، ويسمى بلغة الترك ألن قشلة والقشلة بلغتهم هي الموضع الذي ينزل به العسكر، وقد رأيت منها بالقسطنطينية عدة مواضع يسمونها القشلات تنزلها العساكر إذا قدمت بسبب حركة الجهاد أو نحو ذلك، ولكل عسكر قشلة معينة وهي مشتملة على ديار كثيرة وبيوت عديدة كأنها مدينة، وبها حمامات ومسجد الخطبة وسقايات الماء المتعددة وديار الوضوء والأشجار مغروسة أمام بيوت كل جماعة، فكل جماعة تدخل موضعها المعلوم لها، وبالأبواب علامات كل فريق / 102 / يتبع علامته، وبها النقوش الفاتقة وزليج البديع والعمل الرفيع، والأبواب المصبغة والأرض المفروشة والطرق المستقيمة، وبيوتها لها الشبابيك مطلة على ما وراءه (كذا) فالنظر فيها فرجة ونزهة، ولكل قشلة أوقاف معتبرة من ملوكهم رحمهم الله تعالى يصرف من استفادها على أصحابها، هذا معنى القشلة.

ولما كان هذا الخان العظيم في الغاية وفوق النهاية ناسب أن يلحق بالقشلات فسموه بلغة الترك ألن قشلة، المعنى ولد القشلة لأن معنى ألن ولد. وهذه البلاد كثيرة البرد فقد سلكنها في آخر مايه⁽²⁰⁵⁾ وزرعها لم يستو على ساق وبعضه لم يستر الأرض نباته. ومن الغد سافرنا منها في أول النهار في أرض سهلة وآخره وعمر، فانتبهنا إلى عقبة يقال لها الصندوقي نزلنا فيها من المحامل وركبنا الخيل لصعوبتها، ولما انحدرنا منها نزلنا بموضع بين جبال مشرف على وادي قطعناه قبل العقبة خمس مرات على ست ساعات، ويقال لهذا الموضع شفت خان معناه خانان اثنان سمي باسم خانين هنالك مؤسسين على حاشية الوادي، وهذه البلاد كثيرة البرد كثيرة الرعود، فقد تكلم علينا بعد أن نزلنا ونزلت صاعقة والعياذ بالله فذهبت برجل ودفناه مكانه، ولم يقع بجسده جرح ولا كسر وإنما مات من شدة صوت الصيحة والله أعلم.

ومن الغد رحلنا منها وسرنا في أرض متشعبة وطرق متعبة في شعبة مستطيلة بين جبال والوادي مار بوسط الشعبة، وربما تدنو الجبال بعضها من بعض حتى لا يبقى إلا مجرى الوادي، فتفتح الطريق / 103 / في حاشية الجبل بالمعاول والآلات، فظلنا بقية يومنا في هذه البلاد الوعرة ذات الحجارة الكثيرة المنتشرة، بل ربما كنت أنزل عن الفرس في بعض الأماكن لصعوبتها، وأما المحامل فقد تركناها لما في ركوبها من المخاطرة إذا مر الإنسان في طريق محفور في حاشية الجبل والواد أسفله، مع توالي صب البرد والأمطار وإرسال السماء حلبها المدرار إلى أن وصلنا إلى موضع يقال له أوابل وهو موضع خال ليس به إلا دكاكين، إذا نزل الركب في ذلك المكان تأتي أهل القرية القريبة منه بالميرة يبيعونها بها وقد وصلناه على ثمان ساعات.

ومن الغد سافرنا في بلاد مثل البلاد المتقدمة أو أصعب حجارة وضيقا وصعوبة بين جبلين والوادي بينهما، فتارة نمر بوسط الوادي وتارة بإحدى العدوتين حيثما أمكن فتح الطريق في الجبل، لأن هذه الطريق كلها مأخوذة

(205) يعني شهر ماي.

من الجبل مفتوحة بالآلة، ومع ذلك فهي مرصفة بالحجارة مبني جانبها الذي من ناحية الوادي خشية أن يذهب بها السيل، هكذا سفر هذا اليوم إلى آخر النهار، وبمسافة هذا اليوم عدة فنادق (كذا) يأوي إليها المسافرون والحجاج إذا عاقهم المطر والثلج، فوصلنا أرضا يقال لها الشايط بعد أن خرجنا من تلك الشعاب، فنزلنا حذاء فنادق ومسجد على ثمان ساعات. ومن الغد رحلنا فمشينا ثمان ساعات ونزلنا بظاهر مدينة متوسطة إلى الكبر أميل يقال لها أدنة⁽²⁰⁶⁾ بها تسع خطب على حافة واديهما المسمى جيحون⁽²⁰⁷⁾، وقد عبرناه في هذا اليوم مرتين وليس هو بجيحون أحد الأنهار المعلومة لأن ذلك في أرض العجم. / 104 / وهذه المدينة معدة للإقامة من المواضع الخمس التي يقيم فيها الركب من القسطنطينية إلى الشام فأقمنا بها يوما، وبهذه المدينة أثر يدل على أنها كانت من أعظم المدن إلا أنه بها اليوم خراب، ومن بديع آثارها القنطرة المضروبة ببابها على نهرها في غاية الضخامة وعظم الحجارة الهائلة في بنائها وفرشها، فعدد أقواسها ستة عشر قوسا في غاية الكبر، وبين كل قوسين منفذ للماء آخر معين على إخراجه لأن الوادي يأتي بسيل كثير زمن الشتاء.

ومن غريب ما رأيت بهذا الوادي بيوت كبار مسقفة كلها من الخشب

(206) أدنة: مدينة تقع بين جنوب الأناضول وشمال الشام على نهر جيحان (أو صبحان) في الطرف الشمالي لسهل كلكيلية بينها وبين كل من طرسوس والمصيصة اثنا عشر ميلا، ونظرا لموقعها فقد كانت محط نزاع بين الإمبراطوريات الأناضولية والسورية منذ القدم، فانتقلت من حكم لآخر وتعرضت للتدمير إلى أن أعاد بناءها هارون الرشيد وأتمها الأمين لتصبح من أهم ثغور الشام، فشهدت وقائع الحروب ضد بيزنطة، كما سقطت في أيدي الصليبيين، وفي سنة 1516 أخضعها سليم الأول في حملته على مصر لتنضم لتصبح عاصمة لإيالة عثمانية، لعبت طوال تاريخها دورا تجاريا مهما نافست فيه طرسوس المجاورة. (الروض 20؛ 187. E., I., 1)

(207) وهو ليس النهر المعروف حاليا بأموداريا في تركستان الروسية، بل يقصد "جبحان" وهو الاسم العربي لبيراموس، النهر الشرقي من النهرين المخترقين لسهول كليكية الذي ينبع شمال شرق ألبستان من الجبال التي تفصله عن حوض توخما صو رافد الفرات، ويسر على المصيصة حيث يعبره طريق أدنة بواسطة قنطرة قديمة مبنية بالحجارة. يصب في البحر المتوسط. (دائرة المعارف 204-7؛ 187. E., I., 2)

على متن الوادي مربوطة بسلاسل في القنطرة، وفي داخلها أرحية تطحن القمح لأهل البلد تدور بدواليب مربوطة فيها يديرها الماء، يعبر لبعضها بفلك صغير وإلى بعضها بجسر من الخشب، فإذا كثر الماء في وقت الأمطار وخشي عليها أن يذهب بها السيل ترخى سلاسلها ويؤتى بها إلى شاطئ الوادي حيث تقل سورة الماء وقوة جريه.

ثم رحلنا بالليل من أجل الحر وسرنا ست ساعات ونزلنا على قريتين يقال لهما مصيص⁽²⁰⁸⁾، مؤسستين على وادي وهو فاصل بينهما وعليه أرحية من الخشب كما تقدم، وهذه البلاد كثيرة القطن فلاهلها اعتناء به كثير وظلنا مقيمين على شاطئ الوادي، وبالليل رحلنا منها فسرنا سبع ساعات ونزلنا بأرض يقال لها قرطقراط فيها قلعة وخان لتزول الركب، وهذه الأرض طيبة كثيرة الخصب والكأ .

الوضع الأمني في المناطق الجبلية الكردية

وقد تلقانا عند القنطرة المذكورة رجل تائر /105/ في شرذمة من خيله قيل إنه تائر في هذه البلاد وله شيء معين يقبضه من الركب كل سنة، ويمر معه حتى يخرج من بلاده مسيرة يومين، وأكرمه كبير الركب وخلعوا عليه خلعا متعددات وأخذ من الركب ما شاء من الخيام وما أشبه ذلك، وقد كان قبل يأخذ ذلك غصبا والآن كذلك غصب ولكنه بوجه آخر، وركب هو في قومه وسار أمامنا أول الليل وسار الركب في آخره وتمادينا على المسير إلى أن وصلنا قلعته التي هو مستوطن بها على عشر ساعات، وهي على ساحل البحر الشامي عند انتهاء طوله وعرضه، لأننا لما سافرنا من

(208) الأصح المصبصة، مدينة بالشام قرب إنطاكية وأذنة تبعد عن البحر المتوسط باثني عشر ميلا، بنيت عدة مرات بعد خراب لحقها بسبب الحروب بين العرب المسلمين والبيزنطيين و لذلك تسمى المعمورة، وكانت طيلة هذه الحروب قاعدة متقدمة ترابط بها طوابع أنطاكية. تقع على الضفة اليمنى لنهر جيحان وعليه قنطرة من حجر تربط بينها وبين كفر بابا التي تشكل قسمها الثاني، مما يفسر اعتبارها مدينتين من طرف الجغرافيين والرحالة القدامى. لها بساتين وزروع اشتهرت بالفراء الذي كان يصدر إلى كل الاقطار. (الروضى 554؛ معجم البلدان 5-144؛ E.).

بعد ما قطعنا الخليج المسمى بالذيل المتقدم الذكر كان مسيرنا في الأرض التي انقطع بها البحر الشامي، فتركناه عن يميننا ونحن مسامتون لعرضه، وكان بعيدا عنا وصوبنا فيما بين الجنوب وعين المشرق زمن الاعتدال، ولما درنا معه إلى هذه القلعة صارت وجهتنا إلى عين الجنوب بسبب تمام عرضه.

وقلعة هذا اللص مبنية على قرية يقال لها بياض⁽²⁰⁹⁾، كثيرة البساتين والمياه إلا أنها مهدامة خربة، بعث السلطان العثماني نصره الله العسكر في البر والبحر إلى هذا المحارب فأعياهم وهرب إلى جبال قريبة من جبل يقال له كاور طاغي⁽²¹⁰⁾ المعنى جبل الكفار، وهو الآن مختلط بمثل فهدموا بلاده وحيث رجع العسكر رجع هو هذا دأبه، فلما رأى السلطان عضال دأبه جعله وزيرا على تلك النواحي مثل الوزراء المتفرقين عنده لضبط البلاد، وبعث له الآلة والخلعة مع أمير الركب الذي توجهنا في رفقة، فلم يخرج / 106 / عن عمله الذي كان يعمل في الركب من القبض من الحجاج، لكن كان يقبض ذلك قبل اليوم على طريق الغصب والقمهر وعد الأحمال جهارا، واليوم صار يقبضه على وجه الخفارة، يزعم أنه يأتي بخيله حتى يجيز الركب من اللصوص وليس إلا هو بهذا الأمر معروف ومخصوص.

فظلنا في هذا اليوم نمر بجماعات من أصحابه متفرقين في البلاد، ولكل جماعة علم فيهننون الناس بالسلامة ويقولون لهم هاتوا حق السلامة فيعطونهم، فظاهره سؤال لكن بالعدة والأسال. وبالليل رحلنا منها فسرنا

(209) وقع خطأ من الناسخ بإضافة نقطة على الصاد لأن القرية المقصودة هي "بياس" -بتشديد الباء-. وهي قرية ساحلية على خليج إسوس عند سفح جبل اللكام، تعتبر عطة على الطريق بين المصيصة والإسكندرونة وتتبع ولاية أذنة. (دائرة المعارف 4 358).

(210) الأصح كاور داغ: إسم الجزء الشمالي من سلسلة جبال ألما داغ الممتدة في أقصى شمال الشام والمعروفة منذ القدم باسم أمانوس أو جبل اللكام عند الجغرافيين العرب، والتي تشكل الجزء الجنوبي الغربي لجبال طوروس، تطل بأجرافها على البحر المتوسط ويفصل وادي نهر العاصي وسيل العمق ذي المستنقعات جبال ألما داغ عن سلسلة جبال لبنان. وتنفصل ألما داغ بين الشام وكبليكية، حيث لا توجد إلا ممرات جبلية ضيقة أسلكها بحر "بيلان" الذي يعتبر طريق المواصلات الوحيد المطروق منذ القدم بين آسيا الصغرى والشام. (دائرة المعارف 2 594؛ E., 1004-1005 (Idem, 5-816

بقيته وطرفا من النهار، ومررنا في طريقنا على قرية يقال لها سكندرونة⁽²¹¹⁾ مؤسسة على طرف البحر الشامي من ناحية أرض الشام، وهي قرية في منتهاه وبها بعض تجار النصارى ويقال لها مرسى حلب⁽²¹²⁾ لأنها أقرب المراسي إليها، وكان نزولنا على قرية كبيرة عامرة وبها خان كبير يقال لها بيلان⁽²¹³⁾ على ثمان ساعات.

لكن أهل هذه الجبال التي مررنا بها لم تنلهم الأحكام، فقد تعرضوا للركب يأخذون منه على وجه الطلب لكن بالعدة والعصية والغلب، وربما يمدون اليد في بعض البهائم الحاملة حتى يستنقذها أصحابها بما يريدون. وهذه القرية مبنية بين جبال وعرة ذات أنهار وعيون ثرة، وطرقاتها في غاية الصعوبة، وقد رحلنا من منزلنا الذي نزلناه بقربها بعد صلاة المغرب ومررنا بها بالليل وما سلكناه إلا بالمشاعل العديدة على خطر، وربما سقط بعض الإبل من بعض جرفاتها فما أمكن استنقاذها، وتمادينا على المسير الليل كله وضحوه النهار بعده فوصلنا مدينة إنطاكية⁽²¹⁴⁾ المشهورة / 107 / على اثنتي

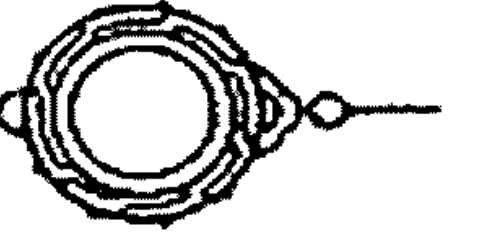
(211) إسكندرونة: مدينة على ساحل البحر المتوسط الشرقي، كانت تابعة لجند قنشرين وتعاقب العرب والبيزنطيون على السيطرة عليها خلال الحروب بينهم. وبعد اضمحلالها نمت كميناء لمدينة حلب التي عرفت ازدهارا اقتصاديا. ضمت المدينة وإقليمها سنة 1939 إلى تركيا، (E., I., 143. 4).

(212) حلب، من أشهر وأقدم مدن الشام، تعود أهميتها إلى موقعها المنحكم في ملتقى الطرق التجارية منذ القدم، فتحها خالد بن الوليد سنة 16هـ وكانت عاصمة لإمارات عديدة وحاضرة ولاية حلب العثمانية، وقد أبدع ابن جبير في تلخيص ذلك حيث يقول: "بلدة قدرها خطير وذكرها في كل زمان بطير، خطابها من الملوك كثير وعملها من النفوس أثير، فكم حاجت من كفاح رسلت عليها من بيض الصفاح". من أهم معالمها القلعة والمسجد الجامع أو مسجد زكريا الذي بني على عهد سليمان بن عبد الملك الأموي والمدرسة الخلاوية. (دائرة المعارف 8-22؛ رحلة ابن جبير 177).

(213) بيلان، يطلق الاسم على بحر إستراتيجي يشق جبال أمانوس على الطريق بين أنطاكية والأسكندرون، توجد في طرفه السوري بلدة بفراس التي دمرت وربما تكون هي المقصودة عند ابن عثمان (E., I., 1-937).

(214) إنطاكية، مدينة في شمالي سورية وسط سهل خصب في الحوض الأدنى لنهر العاصي، بناها أنطيوخس وجدد بناءها سلوقوس الأول سنة 300 ق.م وسماها على اسم ولده أنطوخوس. كانت من أكبر مدن الإمبراطورية الرومانية، ثم تعرضت للتخريب على يد الفرس سنة

عشرة ساعة فنزلنا بظاهرها، وهي مدينة كبيرة فيها نحو الخمس عشرة خطبة، وأرضها أرض حراثة وفلاحة، وهي مؤسسة في بسيط مستندة على جبل وحولها بساتين ووادي عذب يقال له العاصي⁽²¹⁵⁾، وقد جرى لسان العامة في خرافة يحكونها أنه من النيل ولا أصل لذلك، فإن منبعه قريب من بعلبك⁽²¹⁶⁾. ولهذه المدينة سور عظيم يحيط بالمدينة وبعض البساتين وبالجبل مصعدا في قنته ومصوبا في شعابه، يستبعد الإنسان أن يكون ذلك من عمل الإنس وهو من بنيان الروم الذين كانوا بها قبل الاسلام، فلم تغن عنهم حصونهم من الله شيئا، إلا أنه اليوم به تهدم في عدة مواضع قيل ببعض الزلازل والأحداث وطول الزمان.



وصف خراب المدن وأسبابه وانتقادات ابن عثمان لولاة وعمال الجور

إلا أنها اليوم ليست بالحال الذي يناسب ذكرها وشهرتها، وإن كانت فيها حضرية فقد غيرها الزمان فهي اليوم ضعيفة جدا، إلا أن بناءها يدل على ضخامتها فكله مبني بالحجارة المنحوتة، وأزقتها وأسواقها كلها مرصفة

538م، فتحها العرب سنة 17هـ/638م واستردها البيزنطيون سنة 355هـ/966م لتعود للنفوذ الاسلامي سنة 477هـ/1084م، ثم سيطر عليها الصليبيون مدة 170 سنة إلى أن استردها السلطان بيبرس سنة 666هـ/1268م. اشتهرت في القديم بكونها مركزا أساسيا للتجارة بين الشرق والغرب، كما تعرف بصناعة الحرير. يصفها الحميري بقوله: "وهي مدينة حسنة الموضع كريمة البقعة ليس بعد دمشق أنزه منها... وهي إحدى عجائب العالم... والنصارى يدعونها مدينة الله ومدينة الملك وأم الملائكة لأنها أول بلد أظهر فيه دين النصرانية". (دائرة المعارف 3-62؛ معجم البلدان 1-266؛ الروض 38).

(215) العاصي إسم نهر حماة وحصن بالشام ويعرف بالميماس، منبعه من بحيرة قدس ويصب في المتوسط قرب أنطاكية، وهو نهر عظيم عليه جسور ونواعير كثيرة تخرج الماء إلى ضفافه. (الروض 405؛ معجم البلدان 4-67).

(216) بعلبك، مدينة قديمة أطلق عليها الروم هليوبوليس تشتهر بأطلالها الرومانية وخاصة معبد باخوس الذي نذهب الأسطورة العربية إلى أنه قصر سليمان الذي أمهره لبليس. ضمت إلى الدولة الإسلامية سنة 16هـ/637م وظلت تابعة إداريا لدمشق، كما كانت عاصمة للأمراء السلاجقة والبيهيين. (دائرة المعارف 3-700).

بالحجارة، وقد تكلمت في ذلك مع بعض أهلها فقال لي غيرها توالي القحط والوباء وقد وجدنا بقيته، فقد وصلناها في فصل المصيف والزرع في سنبله قائم في فداديته لم يحصد لقلة الناس فقد أبادهم الوباء، ودخلت إلى حمام من حماماتها لأستحم فأخبرني صاحب الكيس أنهم كانوا في هذا الحمام ستين رجلا كلهم أصحاب كيس، ولم يبق منهم إلا رجلان وليقس على ما لم يقل، وزادهم عمال الجور فقد أخبرت عن أحد الوزراء مر بهم فنزل على رجل من كبار البلد، فأضافه نحوا من أربعين يوما وهو يصرف عليه وعلى أتباعه وحشمه / 108 / نحو مائة ريال رومي كل يوم، وبعد ذلك نهب ماله كله وقتله،

ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاق الذي لاقي مجير أم عامر وهكذا هي أحوال عمال هذه الدولة يأكلون اللحم ويمتشون العظم جبر الله حال المسلمين.

ويكفي هذه المدينة فخرا وشرفا وبركة مدفن الرجل الصالح حبيب النجار⁽²¹⁷⁾ نفعا الله تعالى ببركاته، وقد توجهنا إلى زيارة قبره وهو بوسط البلد، فدخلنا ضريحه فأنحدرنا إلى تربته بنحو ست مدارج، فوجدنا في ذلك المكان قبرين أخبرني القيم أن القبر الأيمن لحبيب النجار والقبر الأيسر لشمعون الصفا صاحب نبي الله عيسى عليه السلام أحد الخواريين، وأرانا فوق قبر حبيب ثوبا ضيقا مستديرا على هيئة قم الجب قال، لما قتل أهل إنطاكية شمعون الصفا أحد المرسلين إليهم من قبل عيسى عليه السلام وقتلوا حبيبيا حيث جاء من أقصى المدينة يسعى وقال يا قوم اتبعوا المرسلين، رموهما معا في هذا الجب فحفر الناس من جانب الجب ووسعوه من داخل

(217) حبيب النجار ولي إنطاكية، سمي العرب باسمه جبل سلببوس لأن به قبر يعتقد أنه قبره ويزار كثيرا، وقصة هذا الولي وردت في سورة يس (الآية 12 وما بعدها) وتدل على أصله النصراني، إذ هو الذي دعا قومه إلى اتباع الرسل بحبي ويونس وشمعون فقاموا بقتله، ويذهب المفسرون إلى أنه كان نجارا يصنع الأصنام ثم آمن لما رأى معجزات الرسل. (دائرة المعارف 7-290).

وجعلوا ضريحهما به، وأغلقوا فم البئر وبقي شكله تذكرة وصاروا ينحدرون
إلى تربتهما بمدارج، فمتعنا الله تعالى بزيارتها والله الحمد.

وأقمنا بهذه المدينة يوم وصولنا إليها واليوم الذي بعده إلى المغرب، لأنها
من المواضع الخمس التي يقيم الركب فيها للاستراحة كما ذكرنا، وبعد
صلاة المغرب سافرنا منها إحدى عشرة ساعة ونزلنا بأرض يقال لها الزنبق
على وادي العاصي المذكور، وحوالي هذه الأرض قرى ومدامر وأجنات
كثيرة، فكان / 109 / أهلها يأتون إلى الركب بالخير الموجودة في الوقت
بمقصد البيع، ومن الليل سافرنا ست ساعات فنزلنا على بلدة يقال لها جسر
الشجر⁽²¹⁸⁾ مؤسسة على وادي العاصي المتقدم، وعليه جسر محكم فأضيف
إليها وسميت باسمه، وهي بلدة عامرة متوسطة فيها أربع خطب ولها
بساتين كثيرة وزيتون كثير، فظللنا مقيمين بها وبالعشية سافرنا فسرنا عشر
ساعات ونزلنا عند طلوع الشمس على قلعة المضيق على وادي العاصي
أيضا، وهي أي القلعة مؤسسة فوق كدية مقطوعة لم يتصل بها شيء أقرب
شبهها بأكدير⁽²¹⁹⁾ المسمى بحصن المنكب من أرض المغرب، إلا أنه أعلى منها
وتحتها في وسط الكدية قلعة أخرى وتحت الجميع في السهل خان عظيم
للحجاج والمسافرين، ولأهلها إباء وامتناع فقد وجدناهم ممتنعين من قبول

(218) جسر الشجر بتشديد الشين وضمها، قرية بسوريا الشمالية سميت باسم جسر مقام على نهر
العاصي في نقطة استراتيجية كانت منذ القدم عقدة المواصلات بمنطقة جبلية وعرة، حيث
تنتهي الطرق العابرة لجبال أمانوس بالذهاب إلى المناطق السورية الساحلية أو السهوب الجنوبية
الشرقية، وكانت البلدة محطة لتوقف الحجاج حيث خان ومسجد ذي عمارة عثمانية. وبالقرب
من موقع الجسر الذي نسبت إليه البلدة توجد قلعة الشجر التي بناها الإفرنج للدفاع عن إمارة
إنطاكية ولا تزال آثارها قائمة. ولعل انهيار القلعة وتراجع أهميتها الإستراتيجية وتنظيم ركب
الحج العثماني هو ما ينسر انتعاش جسر الشجر حيث استقر السكان بجوار الجسر وازدهر
سوق أسبوعي بالبلدة (E., I., 2-570).

(219) وردت بكاف ذات ثلاث نقط لتتق GA والأصح أكادير وهي كلمة أمازيغية تعني القرية
المحصنة المنيعة التي تضم مخازن للحبوب والغلات لأفراد القبيلة الذين يلجأون إليها في
أوقات الخطر، ويطلق لفظ أكادير على هذا البناء في منطقة سوس، في حين يطلق عليه لفظ
'إيغرم' في جهات أخرى من المغرب، وحصن المنكب إسم مدينة أكادير الحالية في موقعها
الجبل قبل الزلزال.

عامل بعثه السلطان إليهم ومنعوه من الدخول إليهم لا خروجا عن الطاعة وإنما هو فرارا من العامل لجوره هكذا يقولون.

وأخبرني بعض شيوخ سكانها أن فاتح هذه القلعة دامت أبو الهول البطل المشهور في كتب السير، وظلنا مقيمين بها وعند الاصفرار رحلنا منها فسرنا عشر ساعات ونزلنا عند طلوع الشمس على مدينة حماة⁽²²⁰⁾، وهي مدينة كبيرة فيها خمس وعشرون مسجدا للخطبة ولها بساتين وأجنات كثيرة، وهي مؤسسة أيضا على نهر العاصي المتقدم يشقها وعليه دواليب كثيرة لاستخراج الماء منه في غاية الكبر، علو الواحدة نحو الخمسين قدما، ويزرع بها القطن الكثير وينسج على أشكال وألوان، والعاصي هو اسم النهر الذي تقدم ذكره، قال في القاموس والعاصي نهر حماة / 110 / واسمه الميامين والمقلوب لقب به لعصيانه فإنه لا يسقي إلا بالدواليب والنواعير بخلاف غالب الأنهار، وفي هذا المعنى قال الشيخ البركة سيدي عبد الغني النابلسي⁽²²¹⁾:

يا حسن نهر به تزهو حماة وقد جرى به الماء في لين وتحديد
والناس يدعونه العاصي هناك وقد أطاع قهرا على حكم المقادير

(220) حماة، مدينة عربية من أشهر مدن الشام، يحيط بها سور محكم وبظاهر السور ربض كبير جدا يسمى السوق الأسفل، فيه أسواق كثيرة وحمامات وجامع مفرد مشرف على نهر العاصي، عليه نواعير كثيرة تستقي الماء لري بساتينها وتزويد المدينة بالماء. وفي طرف المدينة قلعة عجيبة في حصنها وإتقان عمارتها. (معجم البلدان 2-300؛ دائرة المعارف 8-69؛ الروض 199).

(221) عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي (1050-1143هـ / 1641-1731م)، متصوف شاعر عالم بالدين والأدب مكث في التصنيف، ولد ونشأ في دمشق عاصمة العلم والأدب في عهده، ورحل إلى بغداد ثم عاد إلى سورية فنقل في فلسطين ولبنان والحجاز ومصر إلى أن استقر بدمشق وتوفي بها، انضم منذ شبابه إلى أوساط الصوفية وانتسب للطريقة القادرية والنقشبندية ونهل من كتابات ابن العربي وابن سبعين وعفيف الدين التلمساني، تميز في تأليفه بالجمع بين تيارى التصوف المغربي الأندلسي والتصوف الفارسي الأناضولي، له مؤلفات كثيرة تناهز المائتين تتوزع بين التصوف والشعر وأدب الرحلة، منها "ديوان الدواوين" و "الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية" و "حلة المذهب الإبريز في الرحلة إلى بعلبك وبقاع العزيز" و "الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز". (الزركلي 4-32؛ سلك الدرر 3-30؛ الجبرتي 1 - 232؛ E. I., 1 - 62)

عصا فلم يسق أرضاً من حدائقهم إلا بحيلة وسواس النواعير
وما أحسن قول القاضي علاء الدين بن غانم في مدح حماة المحروسة:

حماة في بهجتها جنة وهي من الغم لنا جنة
لا تيأسوا من رحمة الله قد أبصرتكم العاصي في الجنة
ولا بن حجة⁽²²²⁾ محاجيا في نواعيره:

حماة إن جزت بها أنسخ هناك الراحلة
وقل لهم محاجيا ما مثل رام قافلة
ولما حططنا الرحال بظاهرها خرج أهل المدينة بجميع الأشياء للبيع
والفواكه الموجودة في الوقت ولا سيما المشماش الحموي منسوب إليها فإنه
في الغاية صادق الحلاوة، وكذا الأردية والإزر التي يحرم الناس فيها فمن
هذه المدينة تشتري، فاشترينا منها كما فعل الناس.

وبها مدفن بشر الحافي⁽²²³⁾ المشهور، وقبره خارج المدينة في شرفها على
ما يزعم أهل البلد، عليه قبة صغيرة ملبسة بالطين في مقبرة، فتوجهنا إلى
زيارته وتبركنا بتربته نفعا الله تعالى به. ومن رسالة القشيري ومنهم أبو نصر
وهو بشر بن الحارث الحافي وأصله من مرو، سكن بغداد ومات بها وهو
ابن اخت / 111 / علي بن خشرم. مات سنة سبع وعشرين ومائتين وكان
كبير الشأن، وكان سبب توبته أنه أصاب في الطريق كاغيدا⁽²²⁴⁾ مكتوبا عيه

(222) أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراي (نسبة إلى حرفة عقد الأزار التي زاولها في صباه)، تقي الدين ابن حجة (767-837 هـ / 1366-1433 م)، إمام أهل الأدب في عصره ولد في حماة وبلغ ذروة مجده الأدبي عندما شغل منصب "منشي" ديوان القاهرة. مصنفاته كثيرة منها "خزانة الأدب وغاية الأرب" و "فهوة الإنشاء" جمع فيه ما أنشأه من النقايد السلطانية والناشير عن الملوك الذين عمل في دواوينهم. قبره معروف في حماة. (الزركلي 2-67؛ دائرة المعارف 1-135؛ كشف الظنون 1366).

(223) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن المروزي أبو نصر المعروف بالحافي (150-227 هـ / 767-841 م)، من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين ومن ثقات رجال الحديث، أسلم على يد علي بن أبي طالب. أصله من مرو، سكن بغداد وتوفي بها. (الزركلي 2-54؛ وفيات الأعيان 1-274؛ ابن عساكر 3-228).

(224) يقصد ورقة.

اسم الله وطئته الأقدام فأخذه واشترى بدرهم كان معه غالية وطيب بها الكاغيد وجعله في شق حائط، فرأى فيما يرى النائم كأن قائلاً قال له يا بشر طيبت اسمي لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة. سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول مر بشر ببعض الناس فقالوا هذا الرجل لا ينام الليل ولا يفطر إلا في كل ثلاثة أيام مرة، فبكى فقبل له في ذلك فقال إني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة ولا أني صمت يوماً ثم لم أفطر من ليلته، ولكن الله سبحانه يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه وكرماً.

وزرنا أيضاً هذه المدينة زاوية للسادة القادرية معمورة بالأدعية والأذكار وكمال الأناشيد في بث المواجيد وحسن الأسرار، مظلة على نهر العاصي أخذة بمجامع القلوب وأطراف النواصي لكل من شاهدها من الداني والقاصي، وبإزائها قبر الشيخ الكامل العالم العامل السيد عبد الرزاق من ذرية الشيخ الجليل الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني، وليس هذا الشيخ عبد الرزاق ولد الشيخ لصلبه وإنما هو من ذريته كان من أهل المائة الحادي عشرة ومات في آخرها.

وبهذه المدينة عقب للشيخ سيدي عبد القادر قائمون بأمور زاويتهم، وأول من استوطن حماة منهم وذلك في سنة أربع وثمانين وسبعمائة السيد شرف الدين يحيى الملقب بسيف الدين، فاستوطن حماة وكانت وفاته ببغداد، وهو شرف الدين يحيى بن شهاب الدين أحمد بن شمس الدين محمد بن السيد عبد الرزاق أبي بكر بن شيخ / 112 / المشايخ ذي القدم الراسخ، البازي الشهب والطرار المذهب القطب الرباني والفرد الصمداني السيد يحيى الدين أبي صالح عبد القادر الكيلاني، بكسر الكاف ويقال بالجيم. قال الشيخ علي الشبراملي المصري⁽²²⁵⁾ في حواشيه على المواهب اللدنية للشهاب القسطلاني ما نصه: عبد القادر الكيلاني بكسر الكاف ويقال بالجيم المكسورة

(225) علي بن علي الشبراملي أبو الضياء نور الدين (927-1087هـ/1588-1676م)، فقيه شافعي مصري من شبرامنس بالغربية، تعلم ودرس بالأزهر، من كتبه "حاشية على الشرائع". (الزركلي 4/314؛ رحلة العياشي 1-145).

أيضا، قال في الأنساب الجبلي و الجيلاني بالكسر نسبة إلى جيل، ويقال لها جيل وجيلان وكيلان بلاد متفرقة وراء طبرستان.

وأقمنا بهذه المدينة اليوم الذي وصلناها فيه واليوم الذي بعده وهي آخر المواضع التي يقيم فيها الركب فيما بين القسطنطينية والشام، وفي العشية رحلنا منها فسرنا بقية النهار والليل وفي نصف الليل عبرنا وادي العاصي على جسر، وعن يسار الجسر كدية من ورائها قرية قيل إن أبا يزيد البسطامي طيفور مدفون بها، فهممت أن نصعد لزيارته فلم يمكنني من أجل أن الركب لم ينزل في ذلك الموضع فأتوجه ولم يمكنني التوجه إليه وحدي في الليل والتخلف عن الركب، فصرفنا النية إلى وجهته وزرناه فنعنا الله تعالى ببركاته، واسم هذه القرية رستن⁽²²⁶⁾ بفتح الراء وسكون السين المهملة بعدها تاء مثناة فوقية مفتوحة ونون، قال في "القاموس" رستن كجعفر بلدة بين حماة وحمص⁽²²⁷⁾ انتهى .

والبسطامي بفتح الباء الموحدة وقيل بكسرها نسبة إلى بلد بطريق نيسابور، ذكره الأسيوطي في لب اللباب، واسمه طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي أحد مشايخ الصوفية وكان جده مجوسيا فأسلم، وكان لأبي يزيد أخوان صالحان عابدان وهو أجلهم. قال ابن خلكان⁽²²⁸⁾: وله /

(226) رستن، أو الرستن، بليدة قديمة على نهر اليماس المشهور بالعاصي، وهي بين حماة وحمص في منتصف الطريق بها آثار باقية تدل على جلالتها، نعتها ابن جبير بالمدينة وذكر أن بها آثارا عظيمة منها "جسر كبير معنود من الحجارة" على نهر العاصي، كما نقل عن الروم أن بها أموالا مكنوزة وأن الخليفة عمر بن الخطاب خربها. (معجم البلدان 3-43؛ رحلة ابن جبير 181).

(227) حمص، مدينة ذات تاريخ عريق في سهل العاصي الكبير وسط سوريا بين دمشق وحلب، لعبت أدوارا تجارية كبيرة لموقعها في ملتقى الطرق الكبرى ولخصب تربتها ووفرة مياهها، يورد الحميري في وصفها أن "المسافرين يتصدونها بالأمعة والبضائع من كل فن؛ وأسواقها قائمة وخصبها تام... وفي نسايتهم جمال وحسن بشرة..."، فتحت سنة 16هـ على يد خالد بن الوليد، وكانت تابعة خلال عهود طويلة لإمارات حلب كبنّي حمدان والأيوبيين. يوجد فيها ضريح صلاح الدين ومقام كعب الأحبار ومشهد لأبي الدرداء وأبي ذر. (دائرة المعارف 8-105؛ معجم البلدان 2-302؛ الروض 198؛ 3) E., I., 409.

(228) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الأربلي (607-681 هـ/ 1211-1281م)، المؤرخ الحجة والأديب صاحب "وفيات الأعيان" وهو أشهر كتب التراجم ومن

113/ مقامات ومجاهدات مشهورة وكرامات ظاهرة، توفي سنة إحدى وستين ومائتين. وقد ذكر أبو نعيم ترجمته: وفي دمشق الشام في نواحي المرج القبلي قبر على تل عال في داخل بيت بالقرب من قرية تسمى ترحت مشهور في تلك النواحي أن هذا القبر قبر أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه. وذكر الشيخ علي بن أبي بكر الهروي⁽²²⁹⁾ في كتابه "الزيارات" أن في مدينة بسطام قبر الشيخ أبي يزيد البسطامي انتهى.

قال الشيخ القدوة عبد الغني النابلسي في كتابه "الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز": وأبو يزيد البسطامي رضي الله عنه أحد مشايخ الطريقة النقشبندية أصحاب الهمم العالية والأخلاق العالية الرضية، والمكارم السنية والخضرات المحمدية والوراثة الأحمدية، وقد اتصل إلينا مدد هذه الطريقة والعهد الوثيق برضاع لبنان هذه الحقيقة من طريق الباطن ومن طريق الظاهر إلى أن قال عن الشيخ بهاء الدين نقشبند⁽²³⁰⁾ بواسطة بينه وبينه رضي الله عنه الذي سميت هذه الطريقة بالنقشبندية نسبة إليه، ومعنى

أحسنها ضبطاً وإحكاماً. ولد في أربل بالقرب من الموصل، انتقل إلى مصر وأقام فيها مدة ونولى نيابة قضائها، وسافر إلى دمشق فولاه الملك الظاهر قضاء الشام مدة عشر سنين عزل بعدها، فعاد إلى مصر ثم رد إلى قضاء الشام. ولي التدريس في كثير من مدارس دمشق وتوفي بها ودفن بسنح جبل قاسيون. (وفيات الأعيان 2- 420؛ الزركلي 1- 220؛ دائرة المعارف- 157).

(229) الشيخ تقي الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الموصل (ت. 611هـ / 1215م)، رحالة زاهد مؤرخ أصله من هراة ومولده بالموصل، "طاف البلاد وأكثر من الزيارات وكاد يطبق الأرض بالدوران"، كان محط رعاية الملك الأيوبي الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب حيث بنى له مدرسة وبها دفن، كما رافق صلاح الدين في حملاته العسكرية مما مكنه من تأليف كتاب "التذكرة الهروية في الخيل الحربية"، ولعب دوراً كبيراً في إعطاء زخم للتصوف وفيه ألف كتابه "الإشارات إلى معرفة الزيارات". (ابن خلكان 3- 346؛ الزركلي 4- 266؛ E., I., 3- 182).

(230) بهاء الدين نقشبند، شيخ طريقة صوفية معروفة باسمه، أصله من بخارى مثل جل الشيوخ المكونين لسلسلة من أخذ عنهم، والتي تنتهي عند أبي بكر الصديق وبه تسمى النقشبندية بالبكرية، ويعرف عبد الغني النابلسي النقشبندية "بالطريقة المحروسة والحقيقة المأنوسة" القائمة على "إثبات نقش التوحيد في لوح القلب وإدامة استحضاره بحيث لا ينفك عنه... وهي طريقة السر الذي وقر في صدره (أبي بكر الصديق)". (الحقيقة والمجاز 45).

نقشبنده ربط النقش باللغة الفارسية، يعني إثبات نقش التوحيد في لوح القلب وتحقيق القلب به وإدامة استحضاره بحيث لا ينفك عنه، ثم رفع الآخذين والمأخوذ منهم إلى أن وصل أبا يزيد البسطامي وهو عن الإمام جعفر الصادق⁽²³¹⁾ وهو عن الإمام القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق⁽²³²⁾، وأخذ أيضا عن الإمام محمد الباقر⁽²³³⁾. فله طريقان أما طريق الإمام القاسم فإنه أخذ عن سلمان الفارسي⁽²³⁴⁾ رضي الله عنه، وسلمان أخذ عن أبي بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو

(231) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، أبو عبد الله الملقب بالصادق (80-148هـ/699-765م)، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان من أجلاء التابعين وذا منزلة رفيعة في العلم أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك. له أخبار مع الخلفاء العباسيين وكان جريئا عليهم صداقا بالحق، له رسائل مجموعة في كتاب ورد ذكرها في كشف الظنون، مولده ووفاته بالمدينة. (ابن خلكان 1-327؛ الزركلي 2-126).

(232) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت. 101 أو 102هـ/)، أمه ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس. من سادات التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، روى عن جماعة من الصحابة وروى عنه جماعة من كبار التابعين. توفي بقدبد بين مكة والمدينة وعمره 70 أو 72 سنة. (ابن خلكان 4-59؛ ابن سعد 5-187). وأبوه محمد بن أبي بكر الصديق (10-38هـ/632-658م) ابن أول خليفة راشد، ولد عام حجة الوداع ونشأ في كنف وحجر علي بن أبي طالب بعد وفاة أبي بكر. لعب دورا هاما في أحداث الفتنة الكبرى، حيث أعلن معارضته لعثمان بمصر عندما رفض هو ومحمد بن أبي حذيفة التحرك تحت راية الوالي عبد الله بن سعد بن أبي سرح ونشر قائمة بتجاوزات الخليفة، وقدم دعمه المباشر لثوار مصر خلال حصار منزل عثمان بالمدينة. ساند عليا بن أبي طالب وحضر معه وقعة الجمل و ساق أخته عائشة أسيرة إلى البصرة. ولاء علي على مصر بعد الجمل (36هـ/656م)، إلا أن معاوية وعمرو بن العاص ما لبثا أن سيطرا على مصر حيث قتل محمد بن أبي بكر على يد معاوية بن حديج وأحرقت جثته بعد لفها في جلد حمار (394-7. I., E.).

(233) محمد بن علي زين العابدين بن الحسين، أبو جعفر الباقر (57-114هـ/676-732م)، خامس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان ناسكا عابدا عالما كبيرا، وقيل له الباقر لأنه تبخر في العلم أي توسع فيه، ولد بالحميمة ودفن بالبقيع. (الزركلي 6-270؛ ابن خلكان 3-174؛ يعقوبي 3-60).

(234) سلمان الفارسي (ت. 36هـ/656م)، صحابي كان يسمي نفسه سلمان الإسلام أصله من مجوس أصبهان، عمر طويلا وكان عبدا اشتراه رجل جاء به إلى المدينة حيث علم سلمان بخبر الإسلام، فلزم النبي وافتدى نفسه بعمال وأسلم. كان صحيح الرأي عالما بالشرائع، وهو الذي دل المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب، جعل أميرا على المدائن إلى أن توفي، له 60 حديثا. (الزركلي 3/111-112؛ ابن سعد 4-56؛ تهذيب ابن عساكر 6-188).

رأس سلسلة النقشبندية وبه تسمى هذه / 114 / الطريقة بالبكرية لنسبتها إلى أبي بكر رضي الله عنه، وهي طريقة السر الذي وقر في صدره رضي الله عنه بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له بذلك في قوله "لم يفضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكنه بشيء وقر في القلب"، وفي رواية "لسر وقر في صدره"، أي سكن فيه وثبت من التوقار وهو الحلم والرزانة، كذا في "نهاية" ابن الأثير⁽²³⁵⁾. وأبو بكر رضي الله عنه أخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم أخذ عن جبريل وجبريل عن الله تعالى.

وأما طريق الإمام محمد الباقر فإنه أخذ عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين⁽²³⁶⁾ وهو أخذ عن أبيه الإمام الحسين وهو أخذ عن أبيه الإمام الثالث الغالب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه وعن بقية الصحابة أجمعين، ومنه تفرعت طرائق الصوفية كلها لأنه باب مدينة العلم كما يشير إليه حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله "أنا مدينة العلم وعلي بابها"، والإمام علي أخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن رب العزة جل جلاله وعظم نواله، وانظر بقية الكلام على ما يتعلق بهذا المعنى في مواضعه.

وعند طلوع الشمس أشرفنا على مدينة حمص المشهورة ذات الأخبار الماثورة، قال ياقوت الحموي⁽²³⁷⁾ في "المشترك" حمص موضعان، الأول

(235) علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، أبو الحسن ابن الأثير (555-630 هـ / 1160-)، المؤرخ الإمام ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر وسكن الموصل وبها توفي، تجول في البلدان وسمع من شيوخها، كان إماماً في حفظ الحديث والتواريخ وخبيراً بأنسب العرب وأخبارهم، صنف في التاريخ كتاباً كبيراً سماه "الكامل" وله كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة"، ويمتاز ابن الأثير بشدة التثبت فيما ينقل كما قد يتخذ المصادر التي اعتمدها. (الزركلي 4-331؛ ابن خلكان 3-348؛ دائرة المعارف الإسلامية 1-83).

(236) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بزين العابدين (38-94 هـ / 658-712 م)، رابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ومن سادات التابعين مولده ووفاته بالمدينة، وفضائله ومناقبه أكثر من أن تحصر. (الزركلي 4-277؛ ابن خلكان 3-266؛ ابن سعد 5-156).

(237) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (574-626 هـ / 1178-1229 م)، مؤرخ ثقة من أئمة الجغرافيين والعلماء باللغة والأدب، أصله من الروم أسر وهو صغير فاشتراه تاجر

حصص مدينة مشهورة بالشام بين حماة ودمشق، قديمة بناها حمص بن الهرمز بن عمليق فيما زعموا، الثاني اسم لمدينة إشبيلية بالأندلس، كان بنو مروان الذين ملكوا الأندلس بعد نزول دولتهم عن المشرق لمحبتهم للشام سمووا عدة بلاد بالأندلس بأسماء بلدان الشام انتهى⁽²³⁸⁾.

/ 115 / قال بعض أهل الأندلس مديلا بيتين لبعضهم في معلقة:

معلقة حبيت يا تينها من أجلك الأفلاك يأتينها
هي طبيبي عنك في علتي ما لطبيبي عن حياتي نها
فديله بقوله:

وحمص لا تنس لها تينها واذكر مع الستين زياتينها
ومراده بحمص إشبيلية.

وصف مدينة حمص، عمرانها وعاداتها وحررها

وكانت، نعتي حمص الشام، فيما تقدم من الزمان مخوفة بالمياه الجارية في السواقي والغدران فكأنها جزيرة في بحر أو قلادة في نجر، والآن قد حال حالها ول بعضهم:

جزيرة حمص كعبة الحسن أصبحت يطوف بها دان ويسعى لها قاصي
لها حلة من نبتها سندسية تعلق في أذيال أستارها العاصي
فنزلنا على واديه المسمى بالعاصي ومنبعه قريب من بعلبك بنحو اثني عشرة ساعة، ولما أن حططنا الرحال ما قدمنا شيئا على التوجه إلى زيارة من

بغدادى اسمه عسكر بن إبراهيم الحموي ورباه وعلمه وشغله في تجارته ثم اعتقه. عاش من نسخ الكتب ورحل إلى خراسان هاربا من نقمة أهل دمشق المتعصبين للإمام علي، وصادف مقامه بخوارزم زحف التتار سنة 616هـ فقتل راجعا إلى الشام حيث توفي فقيرا بحلب، أشهر كتبه "معجم البلدان" وله أيضا "معجم الأدباء" و "البدء والمآل". (الزركلي 8-131؛ ابن خلكان 6-127).

(238) تشير كلمة انتهى إلى نهاية الاقتباس، لكن ابن عثمان يتركنا نعتقد باقتباسه من ياقوت الحموي بينما هو نفل عن عبد الغني النابلسي كما سبق التنويه بذلك، انظر الحقيقة والمجاز، ص. 31.

فيها من المشاهير الأعلام ساداتنا الصحابة الكرام على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، فبدأنا بتربة المجاهد الضرغام صاحب الفتوحات والمغازي العظام، سيف الله أبي سليمان خالد بن الوليد وقبره خارج المدينة بالقرب منها في ريبض وعليه قبة حافلة، فتبركنا بزيارته ومشاهدة تربته ومعه ولده عبد الرحمان بن خالد. وقد وجدت بمقام سيدنا خالد رضي الله تعالى عنه قصيدة من نظم بعض العارفين رأيت أن نرسمها تبركا بالقائل / 116 / والمقول فيه، من أحب شيئا أكثر من ذكره وسيأتي التعريف به بعد هذا إن شاء الله، ونص ما ألقيت بورقة:

الحمد لله هذه القصيدة الفريدة من نظم الإمام الهمام الكامل الأسد الضرغام، العارف بالله تعالى شيخ الأنام وبركة أهل الشام الشيخ عبد الغني بن إسماعيل الشهير بابن النابلسي نفعنا الله به والمسلمين، يمدح صاحب هذه الحضرة الشريفة والمرتبة العلية الحنيفة الضحاي الكبير والإمام الشهير خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه بطلب بعض الصلحاء الأشراف وهو السيد محمد من أهل تلك النواحي والأطراف، وذلك يوم السبت المبارك السادس والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة إحدى ومائة وألف وهي قوله:

بسم الله الرحمن الرحيم،

إن حمصا بخالد بن الوليد	هي حصن لشيخها والوليد
قرشي من كعب بن لؤي	نسل قوم ذوي مكارم صيد
نسل مخزوم بن يقظة كانت	أمه من ذوات أصل مجيد
أخت ميمونة ⁽²³⁹⁾ الشريفة قدرا	زوجة المصطفى الرسول الوحيد
شاهد منه قد تلاه لدينا	نسب مثل عقد در ⁽²⁴⁰⁾ نضيد
كان يمتن بالوفا يوم عيد	ويخلف الوعيد يوم الوعيد
جبل من هدى تشمشع نورا	فاهتدى من له رءى من بعيد

(239) أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية، زوجة النبي من بني هلال بن عامر تزوجها سنة 7هـ في عمرة القضاء. (الإصابة 4 - 397؛ الحقيقة والمجاز 38).

(240) سقطت من النسختين ووردت في الحقيقة والمجاز، مصدر سابق.

هو سيف الله الذي ما انتضاه
لقب خصه الرسول به يو
/ 117 / و فرى من جاجم ورقاب
كان يدعى فيستجيب سريعا
فكان الذي دعاه إليها
أسد كان من أسود المغازي
ما تلوى في كفه الرمح إلا
وعجيب سيف به صال سيف
صارم كيفما توجه أفرى
لابس في الوغا ثياب الموالي
وهو في الجود والمكارم بحر
المصطفى النبي إلى أن⁽²⁴²⁾
طالباً نصره ببيض سيفوف
مظهرا دينه المتين بقمم
خاض في الله كل غمرة حرب
وجلاها بعزمه في وجوه
كان في الحرب ذا افتخار وعجب
حيث حص به تفوح كمسك
راح منها العاصي بمشرب صدق
/ 118 / ولديها أبو الوليد مقيم
رابض كالهزبر بالقرب منها
درك في ضمانه لبنيتها

الله إلا أزال رأس العنيد
م غزى مؤتة⁽²⁴¹⁾ بجهد جهيد
ذلك اليوم فهو يوم الحصيد
لحروب العدا بعزم شديد
قد دعاه لقصعة من ثريد
كاسرا كل ضيغم صنديد
عوضته الرؤوس جيذا بجيد
وهو في غمده وفي التجريد
مطلق الخد في ذوي التقيد
لقنال المجردين العبيد
ما على بر برد من مزيد
نال في صدقه مقام الشهيد
مالها في الحروب من تسويد
منه يوم الهياج شهم جليد
كهفها دونه الردى بالوصيد
من صحاب تفوق أوجه عيد
قصد أمر من الأمور رشيد
فتنفوه البلاد بالتحמיד
سيره خالص من التنكيد
للذي يشتكي وللمستفيد
خوف ذي لبدة من السغي سيد
من عدو عاث عليهم مريد

(241) مؤتة، قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، بها كانت تطيع السيوف المشهورة بانسرفية. بعث إليها الرسول الجيش سنة 8هـ والتقى بجيش هرقل المعسكر بقرية مشارف بالقرب من البلقاء، فانهز المسلمون إلى قرية مؤتة حيث دارت المعركة عندها وسقط فيها عدد كبير من قادة المسلمين، منهم زيد بن حارثة وجعفر الطائر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وحزن الرسول حزنا شديدا عليهم. (معجم البلدان 5-219؛ الروض 566).

(242) 'صحب المصطفى' في 'الحقيقة والمجاز' للناقلي.

يا سقنى الله عهد خالد فيها
غزوات مع الرسول أتاها
شهد الفتح فتح مكة حتى
وأتى يفتفى جموع حنين
وسلوا خيبر الخبيرة عنه
حيث وافى ذوى الضلال بعزم
قوم سوء أبوا هداية حق
أخذتهم سيوف أحمد هلا
فاتهم فالهدى طهارة ماء
كان ركننا في الجاهلية صلدا
مائة قال من حروب دخلنا
ثم مني لم يبق موضع شبر
وعلى مفرشي أموت فلا نأمت عيون الجبان والرعديد

كان ركن الهدى على التخليد
باشتداد يوم الجلال حميد
فاز بالحظ والمقام الفريد
فرمى شملهن بالتبديد
يوم ما عن سهامه من محيد
في هوى المصطفى قوي عتيد
فأتوا بالضلال والتشديد
نظروا كم مجدل أو طريد
فكفاهم تيمم بالصعيد
فحماء الإسلام بالتشديد
بين جمع من الكماة عديد
سالما من آثار ضرب الحديد
وعلى مفرشي أموت فلا نأمت عيون الجبان والرعديد

ثم من بعد ذاك مالي رجاء
كم له في بني حنيفة قتل
ورمى في الوغا مسيلمة الكذاب بالخزى والنكال الشديد

غير نطقي بكلمة التوحيد
يوم حرب اليمامة العبيد
ورمى في الوغا مسيلمة الكذاب بالخزى والنكال الشديد

119 / وعلاه الهمام بالسيف حتى
يا لوحشي الذي حاز فيه
وبدين الإله طهر منهم
ردة أشبهت إقالة بيع
وأبو بكر الخليفة لما
وغدا كاشفا لغمة دين
رضي الله عنه في كل وقت
وعلى الصاحب أجمعين وآل
سادة الناس ما لهم في المعالي
نصروا الدين دين أحمد ممن
قد وفى يا أبا سليمان قلبي

كان يوما كأنه يوم عيد
ضربة أورثته أنس السعيد
عصبة الشك فيه والترديد
أوجبته السيوف بالتهديد
لم بالحق كل شمل شرير
طبق عزم المبدى له والمعيد
وزمان على ممر الجديد
هم رجال الفخار والتمجيد
من مثيل أصحاب رأي سديد
شان بالذب عنه والتجديد
لك بالود تارك التفنيد

كنت قبل ما زرت قبرك يوما
وتمتعت من حماك بقرب
وأنا اليوم في دمشق غريب
فاشتياقي الكثير أوجب عندي
بعدت بينك الديار وبينتي
بعقود من النظام تسامت
أنا عبد الغني نابلسي
/ 120 / يرتجي من إلهه كل خير
ودوام النعيم في إنعام
وعلى أحمد النبي صلاتي
ما تشنت بين الرياض غصون

بضلوع وهت وقلب عميد
فمرادي مني كحبل الوريد
بين قومي لأجل ألف فقيد
سير مدحي إليك سير البريد
فانطوى نحوك انطواء البيد
فائقت على نظام لبيد
أصله قد أتى بهذا القصيد
بحصول القبول والتأييد
وطريف من المنا وتليد
وسلامي بفاية التأكيد
فوقها الطير ضج بالتغريد.

قال النووي⁽²⁴³⁾ في "تهذيب الأسماء واللغات": هو أبو سليمان وقيل أبو الوليد خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي المخزومي سيف الله، أمه لبابة الصغرى بنت الحارث أخت ميمونة أم المؤمنين، أسلم خالد بعد الحديبية⁽²⁴⁴⁾ وشهد غزوة مودة، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ سيف الله، وشهد خيبر وفتح مكة وحنينا، وكان من المشهورين بالشجاعة والشرف والرياسة. ثبت في صحيح البخاري عنه أنه قال:

"لقد اندق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما ثبت في يدي إلا صفحة يمانية"، وله الآثار العظيمة المشهورة في قتال الروم بالشام والفرس بالعراق واقتتح دمشق، وكان في قلنسوته شعر من شعر رسول الله صلى

(243) أبو زكرياء يحيى الدين يحيى بن شرف بن مري بن حسين الحزامي الحوراني التتوي (631-676 هـ / 1277-1233 م)، علامة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوا (من قرى حوران سورية) من كتبه "تهذيب الأسماء واللغات" و "خلاصة الأحكام من أمهات السنن وقواعد الإسلام" و "مختصر طبقات الشافعية". (الزركلي 8-149؛ طبقات الشافعية للسبكي 5-165).

(244) الحديبية، اسم بئر على مرحلة من مكة، دخلت التاريخ لإبرام صلح فيها بين الرسول وقريش سنة 6 هـ تحت الشجرة المذكورة في القرآن فيما عرف ببيعة الرضوان. (دائرة المعارف 7-327؛ الروض 190).

الله عليه وسلم، يستنصر به ويبركته فلا يزال منصورا. ولما حضرت خالد الوفاة قال: "لقد شهدت مائة زحف أو نحوها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وما أنا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء، ومالي من عمل أرجى من الله إلا لا إله إلا الله، فأنا متتوس بها". وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في سنة إحدى وعشرين، وكانت وفاته في حمص وقبره مشهور على نحو ميل من حمص، /121/ وقيل توفي بالمدينة قاله أبو زرعة الدمشقي عن دحيم، والصحيح الأول. وحزن عليه عمر والمسلمون حزنا شديدا انتهى كلام النووي.

ثم بعد زيارة خالد بن الوليد نفعا الله به، زرنا خارجا عنه بقبة أخرى قبر عبد الله بن عمر بن الخطاب الصحابي على حسب ما يزعمه أهل حمص، والمعتمد عليه ما قاله الصاغاني⁽²⁴⁵⁾ في "در السحابة في وفيات الصحابة" وعبارته: عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توفي بمكة ودفن بفتح وقيل بذي طوى⁽²⁴⁶⁾ انتهى، وفي "القاموس" ذو طوى مثلث الطاء يعني المهملة وينون موضع قرب مكة، وقال في المصباح ذو طوى وادي بقرب مكة على نحو فرسخ، ويعرف في وقتنا بالزاهر في طريق التنعيم، ويجوز صرفه أو منعه⁽²⁴⁷⁾ وضم الطاء أشهر من كسرهما، فمن نون جعله اسما للوادي ومن منعه جعله اسما للبقعة، مع العلمية أو منعه للعلمية مع تقدير العدل عن طاو انتهى.

(245) رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي الصاغاني (577-650هـ/1181-1252م)، أعلم أهل عصره في اللغة وكان فقيها محدثا، ولد في لاهور بالهند ونشأ بغزنة من بلاد السند، دخل بغداد ورحل إلى اليمن وتوفي ببغداد ودفن بمكة نلبية لوحيته، له كتب كثيرة منها "مجمع البحرين" و"العياب" و"در السحابة في مواضع وفيات الصحابة". (الزركلي 2-214).

(246) ذو طوى، موضع اختلف في ضبطه بدقة كما يشير إلى ذلك العبدري، وإن اتفق على وجوده على وادي بين ثنية الحصاص وثنية المقبرة المسماة كدى قرب مكة. (الروض 260؛ معجم البلدان 4-44؛ العبدري 167).

(247) يقصد أنه يمكن تصريف الاسم أو عدم تصريفه.

وقال النووي في "تهذيب الأسماء واللغات": توفي ابن عمر بمكة سنة ثلاث وسبعين بعد قتل ابن الزبير⁽²⁴⁸⁾ بثلاثة أشهر وقيل بستة. وقال يحيى بن بكير: توفي ابن عمر بمكة بعد الحج ودفن بالمحصب وبعض الناس يقول بفخ، وفخ بالخاء المعجمة موضع قرب مكة. وقال ابن عبد البر في "الاستيعاب": مات عبد الله بن عمر بمكة وكان أوصى أن لا يدفن في الحل، فلم يقدر على ذلك من أجل الحجاج بن يوسف، فدفن بذي طوى في مقبرة المهاجرين، وكان الحجاج قد أمر رجلا فسم زج رجمه، وزاحمه في الطريق ووضع الزج في ظهر قدمه، وذلك أن الحجاج خطب يوما وآخر الصلاة فقال ابن عمر: إن الشمس لا تنتظرك، فقال الحجاج لقد هممت /122/ أن أضرب الذي فيه عيناك، فقال إن تفعل فأنت سفيه مسلط، وقيل إنه أخفى ذلك عن الحجاج ولم يسمه، انظر تمامه.

ثم توجهنا إلى زيارة كعب الأخبار⁽²⁴⁹⁾ رضي الله عنه، ثم إلى جعفر الطيار أخي علي رضي الله عنهما وهما بمقبرة خارج المدينة عليهما قبة. وقال الهروي في زيارته إن في دمشق الشام قبلي مقبرة باب الصغير قبر كعب الأخبار، ثم قال بعد ذلك والصحيح أن كعب الأخبار، وذكر معه جملة من الصحابة والصحابيات، أنهم في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم. وقال ابن الحوراني⁽²⁵⁰⁾ في كتابه "الإشارات إلى أماكن الزيارات": وفي بلد حصص قبر

(248) عبد الله بن الزبير بن العوام (1هـ-73هـ / 622-692م)، أمه أسماء بنت أبي بكر بويح نه بمكة سنة 64 هـ كما بايعه أهل العراق منتزعا بذلك الحجاز والعراق من سلطة الأمويين مدة تسع سنين، ولما ولي عبد الملك بن مروان بعث إليه الحجاج بن يوسف الذي حاصره بمكة ثمانية أشهر انتهت بقتل ابن الزبير وجز رأسه وأرسل إلى دمشق. (ابن خلكان 3-71).

(249) كعب بن ماتع بن ذي حجن الحميري المشهور بكعب الأخبار (ت. 32هـ / 652م)، تابعي من كبار علماء اليهود في اليمن، أسلم زمن أبي بكر وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرا من أخبار الأمم الغابرة وأخذ هو الكتاب والسنة عنهم، كان من العلماء والرواة الثقات رغم اتهامه أحيانا بتسريب الإسرائيليات إلى الإسلام. ساند الخليفة عثمان وخرج إلى الشام فسكن حصص وتوفي بها عن سن 104 سنة. (الزركلي 5-228؛ ابن الأثير 2-9؛ الطبري 2-185؛ شذرات الذهب 1. 40؛ E. I., 4. 330).

(250) عثمان بن أحمد بن محمد بن رجب بن سويح بن سعيد السويدي الحوراني (ت. بعد 1117هـ / بعد 1705م)، واعظ في الجامع الأموي من أهل الشاغور في دمشق، له كتب منها "الإرشاد إلى طريق الرشاد" و"الإشارات إلى أماكن الزيارات". (الزركلي 4-203).

كعب الأحبار على الصحيح، وهو كعب بن ماتع بالثناة فوق التابعي، أسلم في خلافة أبي بكر وتوفي في خلافة عثمان، ومات بحمص ودفن بها، ويقال له كعب الأحبار لكثرة علمه ومناقبه وحكمه وأحواله.

قلت: ولم يضبط التاء المثناة فوق من اسم ماتع، هل هي بالفتح أو بالكسر، وفي القاموس الماتع الطويل الجيد، ووالد كعب إلى آخره فانظره، لكن مقتضاه الكسر على وزن فاعل، ويؤيده ما ذكره الفارابي⁽²⁵¹⁾ في "ديوان الأدب" في باب فاعل بكسر العين قال، ويقال جبل ماتع أي طويل وشراب ماتع إذا اشتدت حمرة، وماتع من أسماء الرجال فتعين أن يكون بكسر التاء لا بفتحها. وما وقع في كتاب الإصابة لابن حجر سهو من الناسخ، حيث قال كعب بن ماتع بفتح المثناة ويقال كعب الخبر.

وأما جعفر الطيار رضي الله عنه، فقد ذكر المناوي⁽²⁵²⁾ في "طبقاته" في ترجمته ما نصه: جعفر بن أبي طائب رضي الله عنه الطيار ذو الجناحين

(251) أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي التركي (ت. 339هـ / 950م)، الحكيم المشهور صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى وغيرهما من العلوم ومن أكبر فلاسفة المسلمين، استقر زمنًا ببغداد بينهم علوم المنطق والفلسفة على يد أساتذة المدرسة الفلسفية الأرسطية حتى برع فيها، ورحل إلى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان الذي قربه إليه وأصبح من خاصته. وكان زاهدًا في الدنيا منشغلًا بعلومه إلى أن توفي بدمشق وقد ناهز 80 سنة. عمل الفارابي على المصالحة بين الفلسفة والدين محاولًا تبليغ كيف يمكن للفلسفة أن تساهم في تقديم تفسيرات مقبولة للمسائل الهامة التي كانت تشغل المسلمين في زمانه. (ابن خلكان 5-153؛ 2)) E., I., 797

(252) الشيخ محمد المعروف بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين المناوي الخدادي (952-1031هـ / 1545-1621م)، عالم شافعي وصوفي مصري، أصل عائلته من حدادة بتونس استقرت بمدينة الخصب وسينما نسيه، ولد وتوفي بالقاهرة من عائلة علم ودين، فجدّه هو شيخ الإسلام يحيى المناوي الذي تتلمذ على يديه، كما أخذ على الصوفي الكبير عبد الوهاب الشعراني وأصبح مريدًا للطريقة الخلوتية والنقشبندية وغيرهما. اشتغل بالتدريس في المدرسة الصالحية وذاع صيته، توفي مسمومًا على الأرجح. ترك مؤلفات عديدة في الحديث والفقه والطب والفلسفة والتصوف وغيرها من الختول، من أهم كتبه "الكواكب الدرية في ترجمة السادات الصوفية" المعروف أيضًا بـ "طبقات المناوي الكبرى" و "الجامع الأزهر من حديث النبي الأنور" و "الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية". (كشف الظنون 7؛ 7) E., I., 565

والهجرتين⁽²⁵³⁾، الجواد / 123 / أبو الجواد، الأسد الصرغام الباسل المقدام السخي المطعام، خطيب العارفين مضيف المساكين، مهاجر الهجرتين مصلي القبلتين، البطل الشجاع الجواد الشعشاع فارق الخلق وامن الحق، وقد قيل التصوف الانفراد بالحق عن ملابسة الخلق، كان يحب المساكين ويقعد معهم ويحدثهم ويحدثونه، وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يسميه أبا المساكين، وقصته مع النجاشي في أول اجتماعه به وقراءته عليه سورة البقرة، وقوله إن عيسى عبد الله وغير ذلك معروف ومشهور، استشهد بمؤتة من أرض الشام مقبلاً غير مدبر، مجاهدا للروم في حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم سنة ثمان، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه رآه في الجنة يطير مع الملائكة انتهى.

والمناوي صاحب الطبقات بضم الميم قال في "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" مانصه: والمناوي بضم الميم نسبة إلى منية الخصيب بلد بصعيد مصر، وهو الشيخ محمد المعروف بعبد الرؤوف المناوي الحدادي المتوفى سنة 1535⁽²⁵⁴⁾ انتهى كلامه. وما ذكره من ضبط منية بضم الميم هو نص السيوطي في "لب الباب في تحرير الأنساب" ونصه: المناوي بالضم نسبة إلى منية بني خصيب بلد بصعيد مصر انتهى كلامه. ولم يضبطها المقرئ في⁽²⁵⁵⁾ في خطه وإنما قال: منية الخصيب هذه بلدة تنسب إلى

(253) يشير هنا إلى كون جعفر هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية وحصل على حماية النجاشي بعد تلاوة سور من القرآن تورد ذكر مريم العذراء وعيسى عليه السلام عندما وفد مبعوثو قريش يطالبون بطرد المهاجرين. ومكث جعفر وصحبه في المنفى إلى أن هاجر النبي إلى المدينة، فقدم عليه وهو بخير سنة 7 هـ (ابن سعد 4-24؛ معجم البلدان، مؤتة؛ E., I., 2-382).

(254) ورد التاريخ بالأرقام الهندية في (أ) بينما ترك بياض مكانه في (ب)، وهو غير مضبوط إذ توفي المناوي سنة 1031 هـ.

(255) المقرئ تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (766-845 هـ / 1364-1442 م)، مؤرخ مصري سليل أسرة علم وجاه، تلقى تعليمه على عدد كبير من أشهر علماء زمانه. اشتغل مثل أبيه بوظائف الحسبة والقضاء والتدريس بمصر ودمشق، وفي الشام قرر التفرغ لعلم التاريخ وعاد إلى مصر حيث توفي بالقاهرة في رمضان سنة 845 هـ خلف العديد من المؤلفات أشهرها "كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" المعروف اختصاراً بالخطط، والذي تناول فيه طبوغرافية الفسطاط والقاهرة والإسكندرية وتاريخ مصر عموماً،

الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل أمير المؤمنين هارون الرشيد، ثم قال ياقوت في كتاب "المشترك" : المنية ثلاثة وأربعون موضعاً وجميعها /124/ بمصر غير واحدة. والمقريري بفتح الميم نسبة إلى مقرير محلة ببلبك، وهو الشيخ أحمد بن علي المقريري المتوفى بمصر سنة 825⁽²⁵⁶⁾، كذا في كشف الظنون انتهى.

وقيل بهذه المقبرة قبر الإمام العادل عمر بن عبد العزيز نفعنا الله به وقيل في دير سمعان، قال في "المصباح المنير" قال الصنعاني: وقد سموا سمعان مثل عمران والعامّة تفتح السين ومنه دير سمعان انتهى.

وقال ياقوت في "المشترك" : دير سمعان أربعة مواضع، وسمعان هو شمعون الصفا من الخواريين وله ديرة كثيرة، والذي بلغنا منها هذه أحدها دير سمعان في غوطة دمشق، وفيه دفن عمر بن عبد العزيز في الصحيح من الأخبار ولا يعرف الآن، ودير سمعان من نواحي إنطاكية دير كبير كالمدينة فيما بلغني، ودير سمعان قرب المعرة يقال فيه قبر عمر بن عبد العزيز والأول أصح، ودير سمعان من نواحي حلب بين جبل عليم والجبل الأعلى، انتهى. قال في القاموس: دير سمعان بالكسر وهو موضع بحلب وموضع بحمص، به دفن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، انتهى. فعلى هذا يكون المذكور هنا من دير سمعان خمسة مواضع ويكون الذي رجحه صاحب المشترك أن عمر بن عبد العزيز مدفون في دير سمعان الذي في غوطة دمشق وعلى ما في القاموس بحمص.

ثم دخلنا المدينة لزيارة جماعة من الصحابة رضي الله عن جميعهم، منهم عكاشة بن محصن الصحابي، وهو عكاشة بن محصن بضم العين المهملة على حسب ضبط الفارابي في ديوان الأدب، وتخفيف الكاف وتشديد هاء وجهان

وكتاب "اتعاظ الخنفا" الذي ضمنه تاريخ الفاطميين وكتاب "السلوك لمعرفة الملوك" ويعرض لتاريخ الأيوبيين والماليك (E., I., 6-177).

(256) ورد التاريخ بالأرقام الهندية في (أ) وترك بياض مكانه في (ب) وهو خطأ، إذ توفي المقريري سنة 845هـ

مشهوران، ورواية الأكثرين بالتشديد كما ذكره النووي /125/ في "تهذيب الأسماء واللغات"، وهو ابن محصن بكسر الميم، استشهد في قتال المرتدين في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كذا ذكره النووي في التهذيب، وقال الصاغاني في "وفيات الصحابة": عكاشة بن محصن الأسدي استشهد ببزاحة. وفي "النهاية" لابن الأثير بزاحة بضم الباء الموحدة وتخفيف الزاي، موضع كانت به وقعة للمسلمين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه انتهى. والظاهر أن هذا الموضع المسمى ببزاحة في أراضي اليمامة، فعلى هذا يكون قبر عكاشة حيث استشهد لا في حمص ولا في غيرها من البلاد. واليمامة كما في القاموس دون المدينة في وسط الشرق عن مكة، على ست عشرة مرحلة من البصرة وعن الكوفة نحوها، انتهى. وفي "المصباح" واليمامة بلدة من العوالي وهي من بلاد بني حنيفة وبها تنبأ مسيلمة وهي من بلاد البحرين.

ثم زرنا عمرو بن أمية الضمري⁽²⁵⁷⁾ رضي الله عنه، وعليه قبة بوسط المدينة وقوسه معلق بها إلى الآن وكذا قلنسوته، ووضعتها على رأسي تبركا ويدعونه الآن بابا عمرو. وقال الشيخ البركة سيدي عبد الغني بن النابلسي في رحلته "الحقيقة والمجاز": ومررنا في الطريق على مقام شريف فيه قبر منيف، يقال له عند بعض الناس قبر بابا عمرو، ويزعمون أنه كان ساعي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر لنا بعض الناس أنه قبر عمرو بن عبسة الصحابي رضي الله عنه، قلت وليس في الصحابة من اسمه عمرو بن عبسة بالنون قبل الباء الموحدة، وإنما هو عمرو بن عبسة بالباء الموحدة بعد العين المهملة من غير نون.

قال النووي في "التهذيب": عمرو بن عبسة بعين مهملة /126/ ثم

(257) عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله الضمري (ت. نحو 55هـ/نحو 675م)، شجاع من الصحابة اشتهر في الجاهلية وشهد مع المشركين بذرا وأحدا ثم أسلم، عاش أيام الخلفاء الراشدين وشهد وقائع كثيرة، مات بالمدينة في خلافة معاوية، له 20 حديثا. (الطبري 3- 31؛ الزركلي 5- 73)

باء موحدة مفتوحتين، ثم سين مهمة على وزن عدسة، وهذا الضبط لا خلاف فيه بين أهل الحديث والأسماء والتواريخ، وبعضهم يزيد فيه نونا وهو غلط فاحش، أسلم قديما وسكن حمص وتوفي بها، وذكر الصغاني في "وفيات الصحابة" أنه توفي بمصر، وذكر ابن عبد البر في "الاستيعاب" عن عمرو بن عبسة أنه قال: ألقى في روعي أن عبادة الأوثان باطل فسمعني رجل وأنا أتكلم فقال: يا عمرو إن بمكة رجلا يقول كما تقول، قال: فانقلبت إلى مكة أول ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو مستخف، فقبل لي إنك لا تقدر عليه إلا بالليل حين يطوف بين يدي الكعبة، فما شعرت إلا بصوته يهلل، فقلت إليه فقلت: من أنت قال: نبي الله، قلت: وما نبي الله قال: رسول الله، قلت: وبم أرسلك الله قال: بأن نعبد الله لا نشرك به شيئا ونكسر الأوثان ونحقن الدماء، قلت: ومن معك على هذا قال: حر وعبد يعني أبا بكر وبلال، فقلت: أبسط يدك أبايعك، فبايعته⁽²⁵⁸⁾ على الإسلام، قال: فقد رأيتني وأنا رابع الإسلام، قال: فقلت أقيم معك يا رسول الله فقال: لا ولكن إلق بقومك فإذا سمعت بآتني قد خرجت فاتبعني، قال: فلحققت بقومي فمكثت وأنا ننتظر خبره حتى أتت رفقة من يثرب فسألتهم عن الخبر، فقالوا خرج محمد من مكة إلى المدينة، انتهى.

ومنهم سعد بن أبي وقاص⁽²⁵⁹⁾ الصحابي الكبير والإمام⁽²⁶⁰⁾ الشهير رضي الله عنه، والصحيح ما ذكره النووي في "التهذيب" قال في ترجمة سعد بن أبي وقاص: توفي بقصره بالعقيق على عشرة أميال أو سبعة من

(258) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(259) سعد بن أبي وقاص مالك بن أبيب بن عبد مناف (23ق.هـ-55هـ/ 600-675م)، الصحابي الأمير قانع العراق ومدائن كسرى وأحد السنة الذين عينهم عمر للخلافة وأحد المبشرين بالجنة، أسلم وهو ابن 17 سنة وشهد بدرا وافتتح القادسية ونزل أرض الكوفة حيث ظل واليا طوال عهد عمر، أقره عثمان زمنا ثم عزله ومات بالعقيق قرب المدينة وحمل إليها، له 271 حديثا. (الزركلي 3-87؛ تهذيب ابن عساكر 6-93).

(260) "الأمير" في (ب).

المدينة ودفن بالبقيع؛ وكان آدم اللون طوالاً ذا هامة، ولما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة له من الصوف فقال: كفنوني فيها فإني كنت لقيت المشركين فيها /127/ يوم بدر وهي علي، وإنما كنت أخبئها لهذا.

ثم زرنا قبر أبي موسى الأشعري⁽²⁶¹⁾ رضي الله عنه على حسب ما يقال أنه مدفون فيه، فقرأنا له الفاتحة ودعونا الله تعالى: [بما نرجو من الله قبوله]⁽²⁶²⁾، واسمه عبد الله بن قيس ولي يزيد وعدن للنبي صلى الله عليه وسلم، وولي الكوفة والبصرة لعمر رضي الله عنه، ولم يزل على البصرة إلى صدر خلافة عثمان رضي الله عنه وعاش إلى خلافة علي، ثم انقبض إلى مكة وقيل إنه توفي بداره بالكوفة بجانب المسجد سنة اثنتين وأربعين، وقيل سنة اثنتين وخمسين، كذا ذكره ابن عبد البر في "الاستيعاب"، فعلى هذا يكون قبره في مكة أو في الكوفة لا في حمص.

ثم زرنا قبر ثوبان رضي الله عنه ومعه في قبته وحشي الحبشي⁽²⁶³⁾، وثوبان بفتح الثاء المثناة وسكون الواو وفتح الباء الموحدة بعدها ألف ونون، هكذا ضبطه ابن ماكولا⁽²⁶⁴⁾ وغيره، وهو مولى رسول الله صلى الله عليه

(261) أبو موسى بن قيس الأشعري (حوالي 5 ق.هـ - 42هـ / 614 - 661م)، صحابي وقائد عسكري، غادر بلاده اليمن مع جمع من قومه والتحق بالرسول أثناء غزوة خيبر (سنة 628م)، شارك أيضاً في حنين وبعثه النبي سنة 10هـ / 631م مع معاذ بن جبل إلى اليمن لنشر الإسلام حيث كان والياً لأبي بكر هناك، وفي سنة 17هـ / 638م عينه عمر بن الخطاب عاملاً على البصرة خلفاً للمغيرة بن شعبة، ففتح خوزستان وساهم في فتح العراق وفارس حيث شارك في معركة نهاوند، عزله عثمان بعد تنامي الشكاوي ضده في البصرة، فطالب سكان الكوفة بتعيينه عليهم. وبعد مقتل عثمان بايع علياً باسم أهل الكوفة فظل في منصبه إلى أن عزل عقب النزاع بين علي وعائشة. كان أبو موسى يمثل علي في حادثة التحكيم في صفين سنة 37هـ / 657م، وبعدها اعتزل الحياة السياسية إلى حد لم يضبط الإخباريون تاريخ وفاته الذي يرجح أنه سنة 42هـ / 651م (E., I., 1، 716).

(262) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(263) وحشي بن حرب الحبشي (ت. نحو 25هـ / 645م)، صحابي من سودان مكة كان من أبطال الموال في الجاهلية وهو قاتل حمزة عم النبي يوم أحد، وفد على النبي مع وفد أهل الطائف وأسلم، شهد اليرموك وشارك في قتل مسيلمة، سكن حمص ومات بها في خلافة عثمان. (الزركلي 8-111؛ الإصابة 3 - 594).

(264) ابن ماكولا، الأمير سعد الملك علي بن هبة الله بن علي (421 - 475هـ / 1030 - 1082م)، أمير

وسلم، ابن بجدد بموحدة مضمومة ثم جيم ساكنة ثم دال مهملة مكررة الأولى مضمومة، ويقال ابن جحد الهاشمي من أهل السرات، موضع بين مكة واليمن وقيل إنه من حمير، أصابه سبي فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه، ولم يزل معه في الخضر والسفر، فلما توفي عليه السلام خرج إلى الشام ونزل حمصا وابتنا (كذا) دارا بها، وتوفي بها سنة خمس وأربعين وقيل أربع وخمسين، كذا في "التهذيب". ووحشي هو وحشي بن حرب مولى بني نوفل وهو قاتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وقصته معلومة. ثم خارج قبتها قبر سعيد بن زيد⁽²⁶⁵⁾، ويحكى أنه معه في تلك البقعة جماعة من الصحابة، فاغتنمنا زيارتهم ودعونا الله عندهم رضوان الله عليهم أجمعين، ثم زرنا /128/ دحية الكلبي⁽²⁶⁶⁾ الصحابي الجليل رضي الله عنه، الذي كان ينزل جبريل على صفته على حسب ما هو بين أهل تلك البلدة مشهور، والراجح أنه مدفون في دمشق الشام وفي قرية المزة⁽²⁶⁷⁾،

مؤرخ من العلماء الحفاظ الأدباء، أصله من جرباذقان نواحي أصفهان، ولد في عكبرا قرب بغداد وسافر إلى الشام ومصر والجزيرة وما وراء النهر، من كتبه "الكمال" وهو من أهم مصادر الأسماء والأعلام "وعليه اعتماد المحدثين وأرباب هذا الشأن"، و"الوزراء". قتله غلمانه الترك بجرجان. (الزركلي 5-30؛ كشف الظنون 1637؛ ابن خلكان 3-305).

(265) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أبو الأعور (22ق.هـ - 51هـ/600-671م)، صحابي هاجر إلى المدينة وشهد المشاهد كلها إلا بدرًا لغيابه في مهمة كلفه بها الرسول، وهو أحد العشرة المبشرين ومن ذوي الرأي والبسالة، شهد اليرموك وحصار دمشق وولاه أبو عبيدة دمشق، مولده بمكة ووفاته بالمدينة، له 48 حديثًا. (الزركلي 3-94؛ ابن سعد 3-289؛ تهذيب ابن عساكر 6-127).

(266) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي (ت. نحو 45 هـ/ نحو 665 م)، صحابي ثري يصفه الإخباريون بالجمال إلى حد أن نساء المدينة يخرجن بقضهن لرؤيته. حضر كثيرا من المواقع ومنها اليرموك لكنه اشتهر كدبلوماسي خبيرة التجارية وتنقله وعلاقاته، إذ بعثه الرسول إلى الفيصر هرقل يوس يدعو إلى الإسلام سنة 6 أو 7 هـ/ 627-628 م. ثم نزل دمشق وسكن المزة وعاش إلى خلافة معاوية. (الزركلي 2-337؛ ابن سعد 4-184؛ E., I., 2. (283).

(267) المزة بكسر الميم وتشديد الزاي، قرية كبيرة غناء وسط بساتين يرويها رافد لنهر البردي بينها وبين دمشق نصف فرسخ، وبها فيما قيل قبر دحية الكلبي صاحب الرسول. تعرف أيضا بمزة كلب لكون قبيلة كلب العربية استوطنتها خلال العهد الأموي. وقد زارها ابن بطوطة ووصفها بأنها من أكبر قرى غوطة دمشق. (معجم البلدان 5-122؛ E., I., 7. (213).

ويؤيده ما ذكره الشيخ العيني الحنفي⁽²⁶⁸⁾ في كتابه "عمدة القاري في شرح البخاري" قال: دحية بفتح الدال وكسرهما ابن خليفة بن قرة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزرج، بخاء معجمة مفتوحة ثم زاي ساكنة ثم جيم وهو العظيم، واسمه زيد بن مناة سمي بذلك لعظم بطنه، ثم ساق بقية نسبه إلى معد بن عدنان، ثم قال إنه كان من أجمل الصحابة وجهها، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورته. وذكر السهيلي⁽²⁶⁹⁾ عن ابن سلام⁽²⁷⁰⁾ قوله تعالى: [وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها]⁽²⁷¹⁾، قال: كان اللهو نظرهم إلى وجه دحية لجماله، وروى أنه كان إذا قدم من الشام لم تبق معصر إلا خرجت تنظر إليه، والمعصر التي بلغت سن الحيض. قال ابن سعيد أسلم قديما ولم يشهد بدرا وشهد المشاهد كلها، وبقي إلى خلافة معاوية وسكن المزة قرية بقرب دمشق، ومزة بكسر الميم

(268) أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بدر الدين العيني الحنفي (762هـ - 855 / 1361 - 1450)، ولد بعين طاب- قرية بين حلب وإنطاكية. في أسرة علم، سافر إلى دمشق والقدس والقاهرة ليستقر في هذه الأخيرة في خدمة السلاطين المماليك محتسبا ثم ناظرا للأجاس وأخيرا قاضي الحنفية الأعلى لمدة 12 سنة (829-840هـ)، كما كان مدرسا بالدرسة المؤيدية. كان العيني من الذين أثروا في الحياة الفكرية لزمانه، وكانت علاقاته سيئة مع اثنين من أكبر العلماء المعاصرين له، المقرئ الذي أزاحه عن الحسبة وشيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني الذي جادله بخصوص تعليقه على صحيح البخاري. خلف العيني مصنفات عديدة أهمها "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" و"المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية" و"عمدة القاري في شرح البخاري"، دفن بمدرسته العينية (814-1، I، E.).

(269) أبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب عبد الله بن أحمد السهيلي (508هـ - 581هـ / 1114-1185م)، حافظ عالم باللغة والسير ولد في قرية سهيل بمالقة، نبغ فأنصل خبره بصاحب مراكش فطلبه وأكرمه وأقام بصنف كتبه إلى أن توفي، من كتبه "الروض الأتف" في شرح سيرة الرسول، و"التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام". (ابن خلكان 3-143؛ الاستبصار 1-187؛ الزركلي 3-313).

(270) أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي (139-231هـ / 756-845م)، لغوي وعالم حديث من البصرة، اتصل بعلماء و أدباء كبار منهم الإصحعي وأبي زيد الأنصاري والمفضل الظبي والشاعر بشار، وأخذ الحديث عن بعض الرواة الثقة ليأخذ عنه ابن حنبل والسجستاني وغيرهما. له مؤلفات عديدة منها "بيوتات العرب" و"طبقات الشعراء" وهو أشهرها. (E., 3-952)

(271) الآية 11 سورة الجمعة.

وتشديد الزاي المعجمة، وليس في الصحابة من اسمه دحية سواء، انتهى كلام العيني رحمه الله.

ثم زرنا ترجمان القرآن عبد الله بن مسعود⁽²⁷²⁾ رضي الله عنه، وقال الصغاني في "وفيات الصحابة": عبد الله بن مسعود رضي الله عنه توفي بالمدينة ودفن بالبقيع. وقال النووي في "التهذيب": نزل بالكوفة في الجزيرة وتوفي بها سنة اثنتين وثلاثين، وقيل عاد إلى المدينة ودفن بالبقيع، وعلى هذا فليس هو مدفون في حمص ولا في غيرها، إنما هو بالكوفة / 129 / أو بالمدينة، واتفقوا على أنه توفي وهو ابن بضع وستين سنة. ومن "التهذيب" أيضا: هو عبد الله بن مسعود بن غافل بالغين المعجمة والفاء، ورفع نسبه إلى مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار الهذلي⁽²⁷³⁾ حليف بني زهرة الكوفي، وأمه أم عبد بنت عبدود بن سواء بن عبدود أيضا أسلمت وهاجرت، فهو صحابي ابن صحابية، أسلم قديما حين أسلم سعيد بن زيد قبل عمر بن الخطاب بزمان. جاء عنه قال لقد رأيتني سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا، كان كثير الولوج على رسول الله صلى الله عليه وسلم والاتصال به، ففي "صحيح مسلم" عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أذنك على أن ترفع الحجاب وتسمع سوادي حتى أنهاك، والسواد بكسر السين السوار، وكان يعرف بصاحب السواد والسواك والنعل.

ثم زرنا قبر دامس أبي الهول مولى كندة البطل المشهور، ثم زرنا عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق⁽²⁷⁴⁾ رضي الله عنهما، ويقولون إنه عبد الرحمان

(272) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (ت. 32هـ / 653م)، صحابي من أوضاع طبقات أهل مكة ومن السابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن، كان صاحب سر الرسول ورفيقه في حله ونرحاله وغزواته، ولي بعد وفاة الرسول بيت مال الكوفة ثم قدم المدينة في خلافة عثمان وتوفي بها. كان محدثا وحجة في القرآن، له 848 حديثا. (الزركلي 4-137؛ دائرة المعارف 1-275).

(273) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(274) عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق (ت. 53هـ / 673م)، صحابي ابن صحابي من أشجع قريش، حضر اليمامة وشهد غزو إفريقية كما حضر وقعة الجمل مع أخته عائشة ودخل مصر. خاطب معاوية حين أراد أخذ البيعة لابنه يزيد: "أهرقلية كلما طات قبصر كان قبصر مكانه؟"

بن عوف⁽²⁷⁵⁾، فسألت من له خبرة بالبلد قال إنه عبد الرحمان بن أبي بكر، وإنما يقولون له عبد الرحمان بن عوف خوفاً عليه من الروافض، (لأن تلك النواحي لا تخلو منهم)⁽²⁷⁶⁾ والصحيح أنه مدفون بمكة كما يأتي في زيارات دمشق. وقولهم عبد الرحمان بن عوف، الصحيح كما في التهذيب أنه توفي سنة اثنتين وثلاثين وهو ابن اثنتين وسبعين سنة وقيل ثمان وسبعين ودفن بالبقيع، وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو وقيل عبد الكعبة، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمان، فهو أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أهل الشورى، ومن مناقبه التي لا توجد لغيره من الناس / 130 / أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى وراءه في غزوة تبوك. فقوله لا يوجد لغيره من الناس احترازاً من صلاته عليه السلام خلف جبريل حين أعلمه بالمواقيت. وزرنا⁽²⁷⁷⁾ بخارج المدينة قبر عمرو بن معدي كرب الزبيدي⁽²⁷⁸⁾، ثم أعجلنا السفر فانقلبنا إلى الرحال، وإلا فلا يكفي الإنسان عمر في شفاء الغليل في زيارة هؤلاء السادات الكرام نفعا الله تعالى ببركاتهم أجمعين.

وبخارج المدينة عن يمين المار من ضريح خالد بن الوليد رضي الله عنه

لا تفعل والله أبداً، فبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم وردها وخرج إلى مكة حيث مات قبل أن تتم البيعة ليزيد. (ابن خلكان 3- 69؛ الزركلي 3- 311).

(275) عبد الرحمان بن عوف بن عبد عوف (44ق.هـ - 32هـ / 580 - 652م)، صحابي من المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم. ولد بعد عام الفيل بـ 10 سنوات وشهد بدرًا وأحداً والمشاهد كلها، وكان ذا ثروة كبيرة من التجارة توفي بالمدينة وله 65 حديثاً. (الزركلي 3- 321).

(276) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(277) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(278) عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي (ت. 21هـ / 642م)، فارس اليمن وصاحب الغارات المذكورة، وفد على المدينة سنة 9 هـ فأسلم وعاد، ولما توفي النبي ارتد عمرو ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام وشهد اليرموك حيث فقد عينه، وبعثه عمر إلى العراق فشهد القادسية. (ابن سعد 5- 383؛ البلاذري 328؛ الزركلي 5- 86).

إلى ضريح كعب الأحبار وجعفر الطيار رضي الله عنهما، منخفض من الأرض قريب من السور يقال له الكثيب الأحمر عندهم، الذي يقال إنه استشهد فيه ثلاثمائة رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأنا لهم الفاتحة ودعونا بما نرجو من الله قبوله، ومن أجل ذلك لا يمشي الناس هناك إلا حفاة (كذا). الحاصل هذه البلدة بقعة من بقاع الجنة، لكثرة ما اشتملت عليه من الصحابة والأولياء رضوان الله عليهم أجمعين .

ولهذه المدينة سور عظيم من أعظم الأسوار، وأزقتها وأسواقها كذلك كلها مرصفة بالحجارة من عمل الروم، إلا أن ديارها ليست بمرتفعة كثيرا، وجدرانها التي سقطت وأعيدت بالبناء لم تعد على شكل ما كانت عليه زمن الروم بالحجارة كما هو موجود في بعضها، وإنما يحدونها بالطين لا غير، ولها القلعة الحصينة التي لا تكاد تفتح إلا بتيسير من الله تعالى، ما رأيت مثل ذلك العجب، إلا أن سورها هد من جهات كثيرة، وقد كان لها سرب تحت الأرض ينزلون منه إلى المدينة ورأينا أثره. ويقال إن بها المصحف العثماني⁽²⁷⁹⁾ وإنما يخرج للناس / 131 / يوم الجمعة، ولم نصادف يوم الجمعة فنراه، ويحكى أن من عادة أهل حمص أنهم إذا احتاجوا إلى المطر يخرجون هذا المصحف ويستسقون به، ويدعون الله تعالى فيحصل لهم السقي وقد تكرر ذلك مرارا.

وينسج بهذه المدينة الحرير الكثير، فقد كان أهلها يجوسون خلال خيام الركب بثياب الحرير يبيعونها، وبها نصارى كثيرون من بقية أهلها الأقدمين تحت ذمة المسلمين، فقد

مغادرة حمص

وكان مقامنا بها اليوم الذي وصلنا فيه، وفي عشية هذا اليوم رحلنا منها والنفس غير مطاوعة، فسرنا الليل كله وعند الإسفار نزلنا على ضيعة يقال لها الحسية على ثمان ساعات، وبها خان كبير ينزله الحجاج

(279) نسبة إلى الخليفة عثمان بن عفان.

والمسافرون، وأرضها أرض صحراء لا نبات فيها إلا الحرمل وما أشبه، فظلنا مقيمين بظاهرها وبعد صلاة العصر سافرنا منها لكثرة عجاجها ورياحها وبها حجارة كثيرة، فسرنا بقية يومنا والليلة بعده، وفي الإسفار نزلنا على قرية يقال لها النبق⁽²⁸⁰⁾ على عشر ساعات، وبهذه القرية خان كبير أيضا وبها ماء عذب، يضرب به المثل عندهم في العذوبة مجلوب إليها تحت الأرض، فظللنا بها النهار وفي عشية سافرنا منها إلى طلوع الفجر، فنزلنا على قرية يقال لها القطيفة على ثمان ساعات، فأقمنا بها إلى أن صلينا المغرب، وسافرنا منها في أرض كثيرة الحجارة فوصلنا ظاهر دمشق الشام بعد طلوع الفجر على ثمان ساعات، فنزلنا فصلينا الصبح وبقينا إلى أن طلعت الشمس، جعل ذلك فسحة لعامل البلد وأهلها لكونهم يخرجون لملاقاة الركب النبوي.

استقبال دمشق للركب النبوي والحفاوة التي لقيها ابن عثمان

وتقدمنا إلى البلد فوجدنا أهلها جميعا خرجوا لملاقاة الركب بالفرح والإجلال، والطبول والمزامير والخيول في مهرجان عظيم، ولما دخلنا المدينة تلقانا أناس توجهوا بنا إلى الدار المعينة لنزولنا، أمثالاً لأمر السلطان الأعظم عبد الحميد خان أدام الله دولته وخلد سلطنته، فإذا دار من خيار ديارهم فيها مياه كثيرة في عدة مواضع، لكون أرض الشام من أكثر البلاد مياهها فإنه يشقها سبعة أنهار، وأجروا علينا من المؤن والعلوفات ما هو فوق الكفاية في إكرام عظيم، جزا (كذا) الله عنا هذا السلطان خيراً.

بدء المقام في دمشق بزيارة الأضرحة

وأول ما بدأنا به بعد حط الرحال أن توجهنا لزيارة قبر نبي الله يحيى بن زكرياء على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فمررنا بطريقنا إليه بضريح صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مرداس، فتبركنا

(280) بتألف ذات ثلاثة نقط.

بزيارته وبمشاهدة تربته نفعنا الله به، وتوجهنا من عنده إلى زيارة تربة رأس نبي الله يحيى، وضريحه داخل مسجد الأمويين أمام محراب الإمام مالك، لأن أئمة المذاهب الأربعة كلهم يصلون بهذا المسجد ولكل إمام محراب، لكن المذهب المالكي قليل أتباعه في هذا البلد والكثير هنالك شافعية وحنفية، فتبركنا به وزرنا قبره والحمد لله الذي سخر لنا هذا، وأما جسده فهو في جامع الدلة بجانب قرية يقال لها الزبداني، بينها وبين دمشق نحو ثمان ساعات، وتبركنا أيضا بمصحف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، طلبناه من القيم عليه فأخرجه لنا من خزائنه، وقبلنا الموضع الذي سقط عليه دمه رضي الله عنه ولا زال كما هو، / 133 / وقع على قوله تبارك وتعالى [ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] من قوله تعالى: [كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] في سورة البقرة (281).

وذكر الشيخ البركة سيدي عبد الغني بن النابلسي في رحلته * الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز ما نصه: وقد رأيت في مصر المحروسة في جامع عمرو بن العاص في مقصورة هناك مصحفا على صورة هذين المصحفين، يعني مصحف قلعة حصص ومصحف جامع الأمويين، عتيقا متقطع الأوراق يقال إنه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، كما سنذكره في محله إن شاء الله تعالى. وبلغنا أيضا أن في ثغر الإسكندرية المحروسة مصحفا يقال له مصحف الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه ولكننا لم نره. وذكر الشيخ العلامة علم الدين السخاوي الشافعي، في شرحه على القصيدة الرائية للإمام الشاطبي⁽²⁸²⁾ في علم الرسم العثماني قال: إن عثمان رضي الله عنه لما كتب تلك المصاحف سير منها مصحفا إلى الكوفة

(281) الآية 57.

(282) القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي (538-590هـ/ 1144-1194)، إمام القراء وصاحب قصيدة "حرز الأمان ووجه انتباهي" في القراءات، والتي أبدع فيها حتى صارت عمدة القراء، كان عالما بالحديث والتفسير واللغة والنحو، ولد بشاطبة (الأندلس) وتوفي بمصر. (ابن خلكان 3-71؛ فتح الطب 1-339؛ الزركلي 5-180).

ومصحفا إلى البصرة ومصحفا إلى الشام وأبقى في المدينة مصحفًا، قال وروي أنه سير أيضا إلى البحرين مصحفًا وإلى مكة مصحفًا وإلى اليمن مصحفًا فتكون الجملة سبعة مصاحف على هذا، والرواية في ذلك تختلف قيل إنه كتب خمس نسخ الأربعة الأولى ومصحف مكة، وأما مصحف البحرين ومصحف اليمن فلم يعلم لهما خبر.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: أرسل عثمان إلى كل جند من جنود المسلمين مصحفًا وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف الذي أرسل إليهم، ثم قال الشارح المذكور: فلما فرغ عثمان رضي الله عنه من أمر المصاحف حرق ما سواها. وقال الإمام /134/ مالك رضي الله عنه: مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه تغيّب، فلم نجد له خبرًا بين أشياخ الهدى الذين يقتدى بهم في الدين ويعمل بنقلهم وروايتهم. وقال ابن قتيبة⁽²⁸³⁾: كان مصحف عثمان الذي قتل وهو في حجره عند ابنه خالد، ثم صار مع أولاده وقد درجوا، قال: وقال لي بعض مشايخ أهل الشام أنه بطرسوس، وطرسوس هذه بلدة صغيرة على ساحل البحر قريبة من حصص، وقد خرب الآن غالب أماكنها وفيها قلعة غالبها خراب، فلعل هذا المصحف العثماني كان فيها، ثم لما خربت خيف عليه فنقل إلى قلعة حصص والله أعلم بحقيقته.

وزرنا بالمسجد أيضا موضعا يقولون إنه مقام نبي الله هود عليه السلام، مكتوب عليه هذا مقام هود عليه السلام ولعله تعبد في ذلك المكان، ويقال إنه قبر معاوية بن أبي سفيان.

تفسير جامع الأموية بدمشق الشام⁽²⁸⁴⁾

وهذا المسجد من أعظم مساجد الإسلام وأجلها وأجملها وأكثرها

(283) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (213-276هـ/828-889م)، من أئمة الأدب واللغة والنحو والمصنفين الكبار، ولد ببغداد وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور فنسب إليها ونوفي ببغداد. من كتبه "غريب الحديث" و"عيون الأخبار" و"أدب الكاتب". (ابن خلكان 3-42؛ دائرة المعارف 1-260؛ الزركلي 4-137).

(284) تكسير: مساحة عند المهندسين.

عمارة، وهو كبير، فطوله من الجدار الذي عن يمين المستقبل إلى جداره الذي عن يساره ستمائة قدم، وربما تنقص أو تزيد بقليل لاختلاف الأقدام، وعرضه من محرابه إلى جدار آخر المسجد ثلاثمائة وسبعة وثلاثون قدما، له ثلاث بلاطات عرض كل بلاط اثنان وخمسون قدما، وعرض الصحن مثل البلاطات ثلاثمائة وستة وخمسون قدما، وعرض بلاط آخر الصحن خمسة وعشرون قدما، وكله على أعمدة الرخام عالي السمك، وله من الأبواب أربعة رحم الله بانيه ومطهره من رجس الشرك والشك، ومنقذه من أيدي الكفرة المعتدين وأبقاه عامرا بالملة الحنفية إلى يوم الدين.

زيارة قبر محيي الدين بن عربي وإيراد قصيدة في مدحه

ثم شفّعنا هذه الزيارة بزيارة حضرة / 135 / الأستاذ الأفخم والركن الأعظم، والشيخ الأكبر والكبريت الأحمر، الشيخ محيي الدين بن العربي الحاتمي الأندلسي⁽²⁸⁵⁾ قدس الله تعالى سره، وهو مدفون بالصالحية ربض من أرباض دمشق في أصل جبل قاسيون، فمتعنا الله تعالى بزيارته ولله الحمد على ذلك.

وقد رأيت في ورقة ملصقة بأحد جدراته قصيدة في مدح الشيخ، من نظم الشيخ البركة العارف بالله تعالى صاحب العرفان والحقائق، وكاشف الحجب والأستار عن الغوامض والدقائق، الشيخ عبد الغني النابلسي المتقدم الذكر وسيأتي خبره، وقد رأيت أن نرسم هذه القصيدة تبركا بهذين الشيخين

(285) أبوبكر محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي (560-638 هـ / 1165-1240م) المشهور بمحيي الدين ابن عربي، فيلسوف متصوف من أئمة المتكلمين وفدوة الفائلين بوحدة الوجود، ولد في مرسية وانتقل إلى اشبيلية حيث درس الحديث والفقه ثم في سبتة، وزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز واستقر بدمشق حيث توفي. له مؤلفات عديدة منها "الفتوحات المكية" و"نصوص الحكم" و"مفاتيح الغيب" وغيرها. وقد أثارت آراء ومذهب ابن عربي اختلافا كبيرا في موقف المسلمين من عقيدته، فكثرت محبوه والمعجبون به كما كثر الناقمون عليه، ووصفت عقيدته بأعظم المتناقضات، إذ هو عند البعض قطب الله ووليه وعند البعض الآخر أكبر زنديق. (جذوة الاقتباس 175؛ نفع الطيب 1-404؛ الزركلي 6-281؛ دائرة المعارف 1-231).

الجليلين، المادح والمدوح رضي الله عنهما وهي هذه:

وعرجا على تلك المعالم من نجد
طفته دموع العين يزداد بالوقد⁽²⁸⁶⁾
علي وتوفي في الوعيد وبالوعد⁽²⁸⁷⁾
فقوما وقولا فيه بالشكر والحمد
ببهجة محي الدين في جنة الخلد
له في المعالي رتبة العلم الفرد
كريم السجايا جوده جل عن عد
ونال رضا المولى وحل درى السعد
وقصم العدا كالسيف جرد عن غمد
يموج فيلقي الدر بالزجر⁽²⁸⁸⁾ والمد
سواه لديه لا يعيد ولا يبد
وليس له في نفحها الند من ند
ومن زاغ كانت في بصيرته تردي
لدى غير أهل الجهل واسطة العقد
بريء من الشرك الخفي سالم العقد
وما حظهم منه سوى البعد والطرده
أعابوا عليه حين غابوا عن القصد
من الله فليكوا على ذلك الفقد
عن الأوليا يخفى فكيف أولوا الجحد
به في رياض العز يمشون والمجد
بكأس رحيق فيه سكر بلا حد
بالغناظ معشوق ألد من الشهد

خذا حيث هبت نسمة البان والرنند
وبثا غراما يا خليلسي كلما
عسى ربة الخيلان تخلف منة
وإن جنتما بالصالحية منزلا
وزورا ضريحا من أتاه فإنه
فتى بين أهل الله كان مقدما
هو العارف الطائي من نسل حاتم
حوى شرف التقوى وحاز سنا الهدى
تجرد بالعرفان عن قشرة السوى
/ 136 / فأصبح بحرا في الحقائق زاخرا
وفي كل علم كامل متحقق
خصوصا إمام⁽²⁸⁹⁾ القوم فهو إمامها
تصانيفه فيها الهدى لمن اهتدى
فكم جاء فيها للورى بعقيدة
ولا يفهم التوحيد إلا موحد
ومن أين للعميان رؤية نوره
بقطرة علم عندهم وهو بحرها
وقد أكثروا في القول إذ فقدوا الحيا
وفي كل عصر علم ختم ولاية
هنيئا لأهل الاعتقاد فإنهم
يطاف عليهم من سنا كلماته
فإن فيهموا هاموا وإلا تمتعوا

(286) " في الوقد " عند النابلسي، الخليفة والمجاز، ص. 16.

(287) " في الوعد " عند النابلسي.

(288) الصحيح الجزر كما يتضح من صيغة البيت، وقد وردت كذلك أصلا عند النابلسي.

(289) " علوم " عند النابلسي وهو الأصح.

ويا قبح حال المنكرين بخبثهم
ولا يعرف الفتیان غیر الغستا ولا
ومن عجب أن الكلاب تنابحت
ومن يقرب السم الزعاف حياته
سقى الله من قاسون قبراً كأنه
137 / يضم همما لم تزل بركاته
وبلغه عني إلهي تحية
واني ابن إسماعيل عبد الغني من
ولا زال رضوان من الله دائماً
مدا(كذا) الدهر ما ناح الحمام مفرداً
وما نسيمات الحي هبت فأذكرت
له الله عن عبد الغني مبلغ

وهل تقدر الجعلان تعبت بالورد
يبين ضياء الشمس للأعين الرمد
وما علمت أن النباح على الأسد
نزاع فلا يفتر فيها أولوا الرشد
من القرب شمساً أشرقت ومن البعد
على الشام في دفع البلية والجهد
مباركة تأتيه خالصة الود
بنابلسي الأصل مشتهر الجدد
على هيكل الأنوار في ذلك اللحد
فهيج من أهل الهوى لوعة الوجد
لذيذ خطاب الحب في سالف العهد
تحية صب طامع منه بالرد

وقد رأيت ديوان الشيخ عبد الغني فوقفت على قصيدته هذه، فوجدته
كتب على هذا البيت ما نصه: وكان موضع قولي "وبلغه عني إلهي تحية"
إلى آخر البيتين هذا البيت وهو "له عن عبد الغني مبلغ" إلى آخره، ثم
غيرناه إلى البيتين المذكورين. فاتفق أن بعض أصحابنا في ثاني ليلة رأى
روحانية الشيخ الأكبر قدس الله سره، ينشدني من فمه بيتين فحفظتهما ثم لما
أصبح كتبتهما وعرضهما علي وهما قوله:

أيا ربة الأحن ديري كئوسنا
وحيي أنا قد شغفنا بحبهم
على من له في الحب أوفر منصب
لهم منحة منا وود مقرب

التعريف بالشيخ عبد الغني النابلسي
وإيراد قصائد له في مدح ابن عربي

ثم توجهنا من تربة سيدي محبي الدين إلى ضريح الشيخ العارف بالله
تعالى سيدي عبد الغني النابلسي، وهو في الصالحية أيضاً مدفون فزرناه
وتبركنا به ولله الحمد، وعليه مقام شهير وزاوية مشهورة وله صيت كبير،
وهو / 138 / أعظم من ذلك كله رضي الله عنه تعالى ونفعنا بركاته، وله
جملة من ذريته من أهل العلم والخير والدين، والحياء والحشمة والسكينة

والسمت الحسن، والإعتكاف على قراءة العلم كثر الله في المسلمين أمثالهم، ومن يشابه أباه فما ظلم، وأكرمونا واستدعونا إلى منازلهم وأتونا بطعامهم لما عرفوا نسبتنا في هذا الجنس.

وهذا⁽²⁹⁰⁾ الشيخ كان من العلماء العاملين ومن أهل الطريقة العارفين، من أهل الظاهر والباطن مشارك في العلوم، مؤلف له تأليف كثيرة في فنون، فصيح بليغ ناظم ناثر في الأغراض كلها، وما إنا نورد بعض ما تيسر من نظمه في عدة فنون من العلوم، والأثر يدل على المسير خبر معلوم، ولنذكر نسبه ونشأته.

فأصل سلفه من جماعين بلد من عمل نابلس، وهي مدينة قريبة من بيت المقدس مقدار يوم بين دمشق الشام وبيت المقدس، ثم انتقل جدهم سعد الله وأخوه أبو عمر منها إلى دمشق، واستوطناها واستقروا بالصالحية منها مقر أمثالهم وأضرابهم من الصلحاء، كل جنس إلى جنسه يالف. وأما نسبه فنقول، قال بعض تلامذته لما كتب ترجمته في ديوانه المسمى بديوان الحقائق: شيخنا الأستاذ الكامل والعالم المحقق العامل، معدن الأنوار وزمزم الأسرار، سيدي ومولاي الشيخ عبد الغني بن إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن إبراهيم بن عبد الرحمان بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناي المقدسي النابلسي الدمشقي، متعه الله تعالى بالمقام العشقي، وأدام إسعافه / 139 / وإمداده ورحم الله تعالى آبائه وأمهاته وأجداده، انتهى من كتاب "ديوان الحقائق".

توفي رحمه الله تعالى سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف وله نيف وتسعون سنة، كان رحمه الله تعالى حنفي المذهب قادريا نقشبندي الطريقة، وله رضي الله عنه تأليف سماه "الرد المتين على متنقصي العارف محي الدين" وقد رأيته، وللشيخ المذكور في أول تأليفه المذكور قصيدة همزية وفي آخره قصيدة يائية رأيت أن أثبتهما، أما الهمزية فهي قوله:

(290) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

ظهر الحق ما عليه غطاء
 وتجلت على القلوب معان
 أيها القطب قد تشرف قطر
 وزهت خلق بكونك فيها
 لم أخصص بها مكانا ولكن
 ورأينا المنا وأشرق فسينا
 وتبدت كواكب الحق تزهر
 من فصوص يقول من قد رآه
 كلمات تجل عن كل فهم
 وإذا أنكرته قوم أجبننا
 والفتوحات يا لها من كتاب
 وهو يحوي حقائقا وعلوما
 140 / كمل الفقه بالذي فيه حتى
 ولقد جئنا بكل كتاب
 حيث أصبحت بالورثة عنهم
 وإذا أنكرت عليك أناس
 جهلتك العدا جهالة در
 وأعابت عليك والنور نور
 فسقى الله تربة لك ضمت
 أمد الدهر ما تجلت بروق
 وأما القصيدة الياية فهي قوله :

كان محي الدين يهدي كل حي
 ثم فسنا بسقيت أنفاسه
 نفحات لذويها انتشرت
 فإلموا يا رفاقي وقفوا
 واقبلوا نصحي وإن شئتم
 كُتِبَ النور لمن يبصرها

بك وازداد نائل وعطاء
 عجزت عن خطورها العقلاء
 لك فيه قسبر عليه بهاء
 فهي في الأرض روضة غناء
 سكن الصالحية الصلحاء
 منك محي الدين الهدى والضياء
 ولها كتبك العظام سماء
 ختمت بالمصنف الأولياء
 ليس فيه من الإله اعتداء
 لا ترى الشمس مقلة عمياء
 تتقوى بفهمه الضعفاء
 ولأهل السلوك فيه ارتقاء
 نقصت عن علومه الفقهاء
 من علوم جاءت بها الأنبياء
 في مقام تحفه اللئلاء
 فالنبيئون نالهم إيذاء
 قلبتها بكفها الأغبياء
 ماله من فم الحسود انطفاء
 صوب عفوله الرضا أنواء
 فانجلت عن وميضها الظلماء

لفريق من ذوي القرب وحي
 بعده يا طيب ذاك الشدي
 وانطوت تلك عن المزكوم طي
 عند هذا الباب كي يفتح كي
 دعوا كل عي ينجلي عنكم وغي
 وهي تروي كل صادي القلب ري

من كتاب الله والسنة قد
رام أن يطفئ قوم نورها
قطب أهل الله يابن العربي
/ 141 / كنت ختما لكبار الأوليا
ولقد حزت علوما شرفت
وترقيت مقامها عاليا
عصر كالفائت ما أشرفه
وإذا عنك عيون عميت
لا يرى المحرم إلا محرم
إن محي الدين أحيا الدين قل
زره واغتتم فضل قبر ضمه
وتوسل عند مولاه به
فالذي يقصده فاز وما
لم يزل رضوان ربي دائما

خرجت تحتال في أبي حلي
فأبى الله وما أبوا بشي
حاتمي المنتمى من نسل طي
جامعا إرث نبي من قصي
هي من داء المضللات دوي
لو يست عنه رجال الله لي
بك يا شمسها الأغيار في
قد عذرنا فيك الحاظ العمي
هو من جيران ذاك الخسي
والمسمى غالبا طبق السمي
وانتشق من نحوه طيب الشذي
كلما نابك خطب يا أخي
خاب من يلجأ إلى ذاك الحمي
عنه ما حن اشتياقا ذو الهوى
وقال رضي الله عنه وهو من نظمه في كتاب "السر المختبي في ضريح

ابن العربي" قدس الله سره:

إن محي الدين الإمام الهمام
أصبع من أصابع الحق مدت
مشكل كله علوما وذاتا
مثل ما الحق فيه ضلت أناس
وكذا المرسلون أجمع نور
فاعتبر يا أخا الإنارة وانصف
/ 142 / إنما قبره ترابك هذا
وله نفسك التي أنت فيها
وإذا صحت البصائر كانت
وإذا أظلمت فكل حياة

وهو بين الأصابع الإبهام
للبرايا فكان فيها الختام
وضريحها حارت فيه الأفهام
وأناس به اهتمدوا واستقاموا
عند قوم وعند قوم ظلام
وتأمل إن زادت الأوهام
وله فيك كيف كنت مقام
كفن والحنوط ذاك الكلام
كالمرايا يلوح فيها المرام
فهو موت بين الودا وسلام

وقال رحمه الله في كتابه "الرد المتين على منتقصي العارف محي الدين":

كلام الفصوص احرص عليه فإنه حقائق علم في البرية فاخر
وطبق كتاب الله والسنة التي عن المصطفى جاءت هدى للأواخر
فقم بهما في فهمه متأملا ولا تلتفت وارغم جميع المناخر
وقال رضي الله عنه في حق المذكور:

يا من يروم خواتم الحسنى له ليفوز في يوم القيامة بالخصوص
أنظر إلى هذا الكتاب محققا إن الخواتم لا تنم بلا فصوص
وقال أيضا رحمه الله ورضي عنه:

يا طالب التحقيق إن رمت العلا وقصدت أوج منازل التمكين
فعليك بالكتب المصنفة التي للعارف العربي محي الدين
وقال أيضا رضي الله عنه:

يقولون الأسامي في البرايا على طبق المسمى قد أتينا
لقد صدقوا فمحي الدين أحى لأهل الله دين المرسلينا
/143/ وكلام هذا السيد الجليل في زيارة الأنبياء والصالحين
ومقاماتهم، وفي أهل الحقائق والطرائق وعلاماتهم وأوصافهم وحالاتهم،
ليس له نظير ولا مثيل، فلا حصر ولا غاية ولا انتهاء ولا نهاية، فمن
نظمه رحمه الله في هذه الطريقة، فمن الباب الأول من كتابه "الديوان
الكبير والبدر المشرق المنير"، المسمى "بديوان الدواوين وريحان الرياحين في
تجليات الحق المبين على جميع أنواع الصيغ والتلاوين":

بسم الله الرحمن الرحيم والله بكل شيء عليم

الحمد لله المخترع الوجود من غير مثال سابق، ومفيض النعماء والجود
على عبده الطائع والأبق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المختار، وعلى
آله الأطهار وصحابته الأخيار ما تعاقب الليل والنهار، فيقول فلان وقد سبق
التعريف به: هذه نسيمات أنسية ونفحات قدسية، أثمرت بها رياض القلوب
ولمعت منها بوارق الحقائق من مطالع الغيوب، جمعتها لمن كان من أهل هذا
البيت، وقد وضع الله تعالى في سراج بصيرته من الهداية زيت، والحسد
في النفوس داء والجاهلون لأهل العلم أعداء، وبالله المستعان وعليه التكلان

وهو حسبي ونعم الوكيل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، لسان الجمع
المتزه عن التشبيه والتعطيل ، المبرء من كل تكييف وتمثيل :

أطوف على ذاتي بكاسات خرتي
وأنفخ مزماري وأصغي لصوته
وأنشق من روضي نسيم حقائق
/ 144 / وعندي إلى رؤيا جمالي نشوق
ويا لهف أحشائي على حسني الذي
أحن إلى ذاتي صباحا وفي المساء
وقد وعدتني اليوم نفسي بوصلها
وأرفع عن وجهي خماري مجردا
أبى الحب إلا أن أكون مولها
وشوق كثير واصطبار يمنع
واني لأرجو من حقيقتي اللقاء
فلا عجب إن بحث بالسر للورى
وقمت بمحبوبي على كل ناسك
وعندي انتظار كل يوم وليلة
وما أنا إلا من أحب وإن من
أردت ظهوري لي وما كنت خافيا
وقد كنت قدما في عمى ليس فوقه
وللقلم الأعلى تنزلت من يدي
وقد كنت عرشي واستويت عليه
ومنه إلى الكرسي تنزلت بل إلى
وطورت أملاكي فلي كنت عابدا
/ 145 / وعدت نجوما مشرقا على الورى
وطورت شمسا في طلوع نهاركم
وطورا هلالا تحسبون الشهور بي
وقد صرت أياما لكم ولياليا

وأستمع الألحان في حان حضرتي
وأضرب دفي حين ترقص قينتي
ويسرح طرفي في حدائق نشاتي
كثير وما عشقي لغير حقيقتي
فؤادي به صب ويا فطرط لوعتي
وغاية قصدي في العوالم رؤيتي
غدا فمتى مني تقوم قيامتي
ثيابي عن ذاتي وأهتك ستري
بقلب على طول النوى متفتت
وسقم وأشجان علي شديدة
وأطلب منها أن أفوز بنظرة
وعربدت في هذا الوجود بسكرة
وغبت عن الأكوان بل عن هويتني
إلى رؤيتني بل كل وقت وساعة
أحب أنا من غير شك وشبهة
فطورت في الأطوار من كل صورة
ولا تحته أيضا هواء برحمة
وللوح حتى للذوات الكثيرة
من قديم زماني في الوجود برحمتي
سماواتي السبع الطباق العلية
وطورت أفلاكي فطرت بقدرة
أزبد ضياء في ظلام الدجنة
وما الليل إلا من نتائج غيبتي
وأجلو عليكم ضوء شمس الظهيرة
ودهرا وساعات وكل دقيقة

وطورت شكل الجنان في الأرض
وقد كنت تكذيبا لرسلي منهم
وفي كل أطوار الشياطين بينكم
وطورت في شكل العناصر ثم في
ففي معدن طوراً وطوراً ظهرت
وكنت رياحاً من شمال ومن صبا
وكنت بحاراً زاخرات على المدا
وطورت أرضاً ثم صرت جبالها
وإني على ما كنت فيه ولم أزل
وما كثرة الأطوار مني غيرت
وهل أنت في تخيل ذاتك فاطنا
فيجلو عليك الفكر ما قد أردت من
وذاك كهذا غير أن الخيال مع
وماهي إلا أنت لا شيء ها هنا
146 / وإياك والتشبيه في كل موضع
وخذ كلما ألقى عليك منزها
وهذا الذي قد قلته كله أنا
ولما انقضت أطوار ذاتي بمقتضى
وتم التباس بالذي أنا مظهر
وسويت جسم الكل بي فهو قابل
جمعت من الأشياء طينة آدم
وخزتها حتى تناسق نشوها
ولما استتم الأمر واستكمل الذي
فني تلك من روحي نخت وقد سرت
فقلت سميعاً باصراً متكلماً
فلم يبد مني غير ماهو كائن
فكنت كماء لونه من إنائه
وأسجدت أملاكى بأمرى لمظهري

قبلكم وجئت لهم رسلاً لإبلاغ حجة
فصرت لهم أوفى هلاك ونقمة
ظهرت بوسواس لأصحاب شفتي
مواليدها في الأرض تلك الثلاثة
في نبات وحيوان لتتم حكمتي
أهب فأروي عن حديث الأجابة
تفيض فتبدي موجة بعد موجة
لإرسائها فوق البحار المحيطة
ولي رتبة التنزيه أرفع رتبة
صفاتي ولا ذاتي ولا قدر ذرتي
تغيرت عما كنت في كل مرة
زخاريف أشباح هنا مستحيلة
تخيله في الغير لا في الهوية
مواك فحقق سر تلك الحقيقة
توهمت فيه الغير وافطن للبستي
ولا تخش عارا إن فهمت إشارتي
ظهرت به لي قاصداً لنصيحة
صفاتي وأسماء العظام الجليلة
له من شخوص فصلتها إرادتي
لوحبي وتفصيلي استعد لجملة
ومنها إلى الكل الدقائق مدت
وسويتها حتى لنفحي استعدت
أردت من الإجمال في البشرية
نسائم أمري في رياض الطبيعة
مريداً عليماً ذا حياة وقدرة
لدي وبني مني على حكمتي
وكالشمس تبدو خضرة بالزجاجة
فكان سجودي لي وآدم قبلتي

ولما أبى إبليس عني تكبرا
من الملائ الأعلى له كنت مخرجا
وأسكنته في الأرض أظهر كامنا
وأظهرت في ذاك الملا فضل آدم
/147/ وأخرجت حوا منه فهي له كما
وعن بعض أشجار هناك نهيته
ولما اقتضى فعلي لما كنت عنه قد
أتيت بأقسام إلى موسوسسا
وذقت كما ذاق العدو تباعدي
وقد لاح عصياني علي وقد بدت
ومن بعد ذا أهبطت للأرض هيكلي
وسخرت لي كل الوجود تفضلا
وعرفت ما بيني وبينني كلاهما
فكأن نكاح الأمر في الخلق ظاهرا
وأظهرت من صلبتي جميع مظاهري
وأشهدتهم عني ألسنت بربكم
وأوهمتهم غيرا فأنكر بعضهم
وأول أطواري الكوامل أنسي
وطورت نوحا جاء ينذر قومه
وألفا سوى خمسين عاما لبثت في
وهم يعبدون الغير بل يعبدونني
ولما أبوا واستكبروا كافرين بي
/148/ وأرسلت طوفانا عليهم فأغرقوا
وطورت إدريسا فلي كنت رافعا
وطورت إبراهيم يدعوا إلي بي
وقد قال ذا ربي له كنت كوكبا
ولا فرق إلا بالأفول ألم تكن
كما قلت سموهم لقوم تعلقوا

ولم يأت لي من بعد أمري بسجدة
وآب بخسران وطررد ولعنة
به من شقا أصحاب قبضة يسرتي
وأنزلته أعلى مقام بجنة
هو الآن لي من حيث وضعي وصورة
ولي كان مني النهي عني لحكمتي
نهيت كمال الصورة الأدمية
وأوقعت نفسي في غرور وغفلة
وما الأكل إلا الفرق والجمع توبتي
طفقت بأوراق أخصف سوءتي
وكننت بها في العالمين خليفتي
على سورتي مني وأتممت منتني
على عرفات بعد طول التشتت
بنا في كلا الشخصين قبل التحية
بصورة ذر للعهد الوثيقة
فقالوا بلى طرا بنفس مطيعة
وأوفى بعهدي بعضهم مع لبستي
لآدم شئت كنت وهو عطيتني
وكننت له التكذيب منهم ببعثتي
جماعتهم أبغي بهم نشر دعوتي
ولا غير لكن وهمهم هو سترتي
دعوت عليهم واستجبت لدعوتي
ولم ينج إلا من معي في سفينة
مكانا عليا في أجل مكانتي
على قومه وأتيتهم أي حجتي
كذا قمرا أيضا وشمسا بوجهتي
إذا لا أحب الأفلين مثالتي
بما قيد الإمكان من مطلقتي

وجئت إلى النمرود أدعوه للهدى
وأضرم لي نارا وأرسلني بها
وقد كنت مني طالبا أنني أرى
فجاء جوابي لي بأربعة فخذ
ونادى بهم يأتين سعيًا وبعد ذا
وطورت إسماعيل لما بلغت مع
وناديت لما أسلما حين تله
وطورت إسحاق الغيور ولم تكن
وطورت يعقوبا بليت بيوسف
وفرقت ما بيني زمانا وبينه
وعيناي من حزني قد ابيضتا وقد
ويوسف قد طورت زاد ملاحه
149 / وبالثمن البخس اشتراي مشتر
وقد عشقت حسني زليخة والهوى
وطورت هودا كان يشهد قومه
ولوطا لقد طورت أيضا وصالحا
فزاغرا وعن أمري عتوا وتكبروا
وطورت موسى ضارب البحر بالعصا
وأنس نارا من جوانب طوره
فنال الهدى في شكل مقصده وقد
وقد حاز منه رؤية بسؤاله
وعيسى لقد طورت يبرئ أكمها
وأرسلت روعي طبق ما هو عادي
وأظهرت ما قد كان في الأب مضمرا
فضلوا وزاغوا من مثال ضربته
وقالوا بأني قد غدوت له أبا
وأين الوجودان اللذان تباينا
ومن بعد هذا جئت في طوركلما

فلم يمثل حتى ثوى بالبعوضة
فعادت بأمرى لي علي كجنة
لحق يقيني كيف إحياء ميت
من الطير واجعل في العلاكل قطعة
فكن عالما لا شيء إلا بقدرتي
أبي السعي ذبحي قد رأيت بنومتي
أصدمت حتى كان بالكبش فديتي
على غير تحريم الفواحش غيرتي
وأسلمني حبي له كل محنتي
ووا أسفا ناديت من طول فرقتي
مننت بجمع الشمل بعد تشتتي
بوجه سبا كل الوجوه المليحة
وفي الجب ألقني من الكيد إخوتي
أضر بها حتى قد هممت وهمت
على أنه عن شركهم ذو براءة
أتيت إلى قومي لإبلاغ دعوتي
وقد عثروا لما عصوني ناقتي
وقد شق حتى قومه فيه مرت
فراهم ليأت الأهل منها بجذوة
تجلى له من مظهر الاحذية
ولكنها الأطراد بالصعق دكت
وأبرص والأموات يحيي بدعوة
إلى الأم حتى كان مظهر نفختي
وبينت للأقوام سر الأمومة
لنهم علوم في الوجود دقيقة
وقد خص من دون الورى ببنوتي
وما عز خلاق كذل خليقة
مضى من رسول أو نبي لأمة

وأصبحت في شكل النبي محمد
فآذنتني الأقوام نفيا وحاولوا
/ 150 / وأظهرت دين الحق بعد خفائه
ونكست أصنام الضلال وفي الورى
وطورت أصحابا ومن هو تابع
ومن بعد ذا ما زلت أظهر دائما
وطورت أهوال القيامة والذي
وإياك من قول بأن تفهم الذي
فإني برئ من حلول رمت به
وما بانحلال واتحاد أدين في
وكل الذي أبديته لك ناظما
فإن كنت من أهل المعارف لم
وإن كنت مظموس البصيرة جامدا
فإنك معذور بقله فهم ما
فواظب على التنزيل دأبا عليه لا
ودع عنك تجسima ولاتك جاهلا

إلى الله أدعو الناس في أرض مكة
بأفواههم إطفاء نور النبوة
فأصبحت الكفار في سوء حالة
أزلت ظلام الظلم عن فرط سطوتي
لهم بالهدى مثل الكرام الأئمة
على أمد الأزمان في كل هيئة
يكون غدا في يوم عرض الخليقة
تدين به الكفار بين البرية
عقول تغذت بالظنون الخبيثة
حياتي وإن دانتهما شر أمة
فمن فوق أطوار العقول السليمة
تلم لأنه تلقاه بنفس تزكت
على ما ترى من صورة بعد صورة
أقول لضعف في قواك الكليلة
تكن من أناس بالتشبه ضلت
بأرصاف من أبداك في كل حالة

فهو رحمه الله في هذا الفن مفرد لا يشرك وغاية لا تدرك، وأما ما في
غير ذلك من فنون الشعر، من الغزل وذكر البساتين والأشجار والمياه
والأطياف، والتواريخ المضمنة في القريض فمدى طويل عريض، وفي
الأحاجي والألغاز فقد كاد أن يأتي فيها بالإعجاز، وفي الأمداح لا يعاب بمن
غذا أو راح، / 151 / فهو في الجميع بحر زاخر ليس له انتهاء ولا آخر.
فمن ذلك قوله رضي الله عنه: ومن جملة من جاريته في ميدان الآداب،
وراسلته مراسلة النساء في الخدائق عقب السحاب، الحسيب النسيب السيد
محمد الحسيني المعروف بالحصري، في ذي القعدة من شهر سنة سبعين
وألف فأرسلت إليه بقولي:

رشا أبان عن الشقيق بنفسجا
لحظاته هيئات ما أحد نجا

دب الحياء بخذه فتضرجا
وأماله سكر الدلال فعربدت

رخص البنان أغن أحور أوطف
 لم يكفه دمج العيون ملاحه
 وتفضضت وجناته وتذهبت
 يخال كالغصن الرطيب بمعطف
 ويظل يكسر مقلتيه تذلا
 ومعربد اللحظات أطلق حسنه
 صلت الحبين بدا كبدر زاهر
 قد ذاب قلبي في هواه صباة
 وفنى اضطباري في الهوى وتجلدي
 يا بها القمر الذي القمر الذي
 حتى م يلحاني عليك سفاهة
 جد بالوصال فإن لي بك مدخل
 152 / من لي بمن فضح البدور ملاحه
 فاضت مياه الحسن في أعطافه
 لجماله انتمت البدور كما انما
 حبر لو أن الدهر ينصف أهله
 رب الفضائل ما دعي للممة
 بحر ولكن لا يقر قراره
 فصحت بلاغته وقد بلغت فصا
 ورث المتأخر كابرا عن كابر
 في آل بيت لا يضام نزيلهم
 شم الأنوف ربيعة أحسابهم
 يا أيها الندب الذي فاق الورى
 ومن ارتقى هام السمماك نباهة
 مني إليك دجى حروف أظهرت
 روضات آداب زهت بسيوانع الأ
 تمشي الخواطر في ظليل ظلالها
 قلدها عقد المديح تحصنا

كالبدر أبهى من رأيت وأبهجا
 حتى تشريش بالبها وتتوجا
 والحسن دمج سالفه ودبجا
 لدن أرانا السمهري معوجا
 أين النجاة لعاشق أين النجاة
 فتقيدت بشهوده مقل الرجا
 يا صاحبي قفا هنا وتعرجا
 وبحسنه لكمين شوقي هيجا
 والدمع أمطر في الجفون وأثلجا
 من صدغه من صدغه ليل سجا
 من ليس يدري ما الهوى وتبهرجا
 لم يبق لي عن حسن وجهك مخرجا
 وبطرفه فتن الغزال الأدعجا
 والجسم أزيد فوق ردف موجا
 لمحمد المجد المؤئل والتسجا
 لتشعل العظما وفيه تترجا
 إلا جلا عنها الهموم وفرجا
 طود ولكن من يلوذ به نجا
 حته فلر قسا رآه تلتجلجا
 ما منسهم إلا جواد مرتجا
 في العالمين ولا يخيب له رجا
 سلكوا التعفف للشهامة منهجا
 بالعلم والعرفان حتى أبهجا
 ويلطف هاتيك السجايا قد سجا
 من حسن معناها الصباح الأبلجا
 لفاظ أعني نظمهن أولي الحجا
 فتطيب نشرا فائحا وتأرجا
 جيدا وصفت لها التغزل دملجا

فأنعم بها ياذا المكارم والتقى
وحماك مانوسا وجبك مقصدا
/ 153 / ما غرد القمري على أعواده
وقال رحمه الله :

لله حسن حديقة
قسد غردت أطيارها
بتنا بها متجربين موسدين بلا نكير
ما راع إلا نرجس
هاذاك يغمرز بالعيو
وقال رحمه الله تعالى :

وحديقة وافيتها متنزها
والأقحوان يظل يركع بالصبا
فجلست بينهما كأني سخرة
وقال رضي الله عنه :

صفق الجدول والغصن رقص
قم بنا ننهب لذات الصبا
قم زمان الورد بالخير أتى
يحرم القاعد عن نيل المنا
كم فتى مد شباك المزح في
يا سقى الله زمانا سالفنا
رقت الأوقات حتى انقطعت
/ 154 / حيث شيطان رقيبى ملنى
وحبيبى عاد من بعد السجفا
أه لو ترجع أوقات مضت
ومن نظمه ما كتبه إلى بعض المشائخ بدمشق الشام مهنتا له بعرس ابنه
ومؤرخا ذلك :

واسلم ودم كهف الأفاضل ملتجا
للواردين وظل جودك سرجسا
وسرى النسيم إلى الحدائق مدلجا

يومى بها يوم قصير
في غصن بانتها النظير
بتنا بها متجربين موسدين بلا نكير

فبها ومنشور كثير
ن وذا بأصبعه يشير
وقال رحمه الله تعالى :

ورءوس نرجسها طوارق حرك
فكأنما هو عابد متنسك
هاذاك يغمرز ذا وهذا يضحك
وقال رضي الله عنه :

والربى رق نسима وخلص
في خلال العيش فالدهر فرص
فزت يا من عمره باللهو خص
إن في الدهر مساعا وغصص
الروض فاصطاد سرورا وقنص
كم أخذنا فيه باللهو رخص
والهنا زاد بها حتى نقص
وعلى أعقابيه عني نكص
جمش الروح بوصل وقرص
نحوها طرف انتظاري قد شخص
ومن نظمه ما كتبه إلى بعض المشائخ بدمشق الشام مهنتا له بعرس ابنه
ومؤرخا ذلك :

مني الهناء إليك بل منك الهنا
يا صاحب القدر الرفيع ومن سما
أضحت تقول لي المسرة عندما
التاريخ بالعرس المبارك إلى آخره.

لي بالذي لك من إلهي رمته
عن كل ما حاولت فيه وقلته
أرخت بالعرس المبارك جئته

وقال رضي الله عنه في جواب أبيات متضمنة لغزا وردت عليه من
بعض الأفاضل:

عقود من العقيان رصعها الدر
أم الخود ما بين الترائب أقبلت
أم الروض يزهو الزهر فيه وعرفه
أم الراح يجلسوها علي مهفهف
بلى تلك أبيات بها الغير في بلا
تثنت بإسماعيل في حومة الثنا
فشطراسمه قل لفظ اسم مفسر
وشطر اسمه الثاني أعيل فإنه

أتت منك لي أم سحر بابل أم خر
فولي سناء الشمن وانكسف البدر
يزيد اعترافا حيث ينتشر النشر
بلحظ وعطف ضمنه البيض والسمر
أتني فمني فك معقودها البكر
وغنت إلى أن قيل غانية بكر
بلا شبهة فيما يشير به الشعر
بقولك هذا في الأنام لك الفخر⁽²⁹¹⁾

ويؤخذ منه العي وصف ذوي الهوى كذا ألف التعريف واللام يا حبر

155 / فهذا الذي عندي استبان عسى به
وزاد في جوابه هذا لغزا عرضه على السائل وهو هذا:

وأي رباعي تعالى مكانة
غدا ربعة صدغ الذي أنا مغرم
وربعاه في التنزيل أول سورة
أجبنني إلى ما قد قصدت أخا الحجا

به تضرب الأمثال يأها البحر
به ثم ماضي الفيء ربع له قدر
تبين ولا تخفى إذا تلي الذكر
فمعروف هذا اللغز ليس له نكر

ولم يذكر جوابا عنه وقد نسخ لي
أهل الشام، فعرضته على كل أديب
احتشام، فقلت ورأيت أن تذكره وهو:

جوابه، وفي المجلس جمع من أدباء
لعله يجيب، فأقروا بالعجز دون

(291) سقط هذا البيت من (أ) وورد في (ب).

فلبيك يا أصل المعارف والنهي
عقيلة أفكار جلوت قد ازدهت
فأرخت عليه كل أسود فاحم
فأبرزتها مجلوة لمنصة
إجابة مأمور إلى من له الأمر
بحليك لكن دون منظرها ستر
وفرع أتيت تحته القمر البدر
تتبه كما تبدي الحيا عادة بكر

الجواب: فاحم، فالألف هو مراده بقوله ربه صدغ الذي أنا مغرم
إلخ، لأن الشعراء يشبهون الصدغ والعدار بالآلف لقوامه، قال الشاعر:

خط على خد⁽²⁹²⁾ .مثل ما دببت على⁽²⁹³⁾ أرجل أنمل

والفاء هو المراد بقوله ماضي الفيء لأن ماضيه فاء، فهذان ربعان فاء
وآلف، والخاء والميم هو المراد بقوله وربعا في التنزيل أول سورة إلخ، فإذا
جمعت هذه الحروف صارت فاحم وصف للصدغ، وبرشح أن مراده ذاك
قوله صدغ الذي أنا مغرم إلخ، فإنه ينظر إليه بصرف خبر والله أعلم.

وقال رضي الله عنه في جواب مسألة فقهية رفعت إليه:

لقد شاقني نظم أتى منك سائل
فخذ يا كريم الأصل مني جوابه
سؤالك عن أكل التراب وحله
فقد صرحوا طرا بحرمة أكله
كما جاء بالإطلاق في ذرر وفي
وحرمة قالوا لقول نبينا
/ 156 / إذا ما أراد الله شرا بعبد
فبلى بأكل الطين مع نتف لحية
فيفهم منه أن حرمة أكله
ولم يكن التحريم من ضرر به
كأن عليه ذائب التبر سائل
تشبعه عني إليك الأصائل
وحرمة ماذا تقول الأفاضل
وإن كان فيه لا تضرر حاصل
طهورية بالطين عبر ناقل
عليه صلاة مع سلام يشاكل
أناه البلاء في خصلتين يعاجل
وهذا صريح في الذي يتداول
لنهي أتى فيه رونه الأفاضل
فيحرم في الحالين فلينه أكل

(292) كلمة غير واضحة كتبت استدراكا بخط عسير القراءة.

(293) كلمة غير واضحة.

قصيدة للنابلسي يصف فيها رحلته إلى القدس

وقال رحمه الله تعالى ورضي عنه مضمنا رحلته إلى بيت المقدس في

هذه القصيدة وهي:

وعننا قد أزال الهم
وبالتوفيق قد أنعم
على الدنيا بها نجت
وأدركنا الثواب الجم
ب أهل المسلك الأقوم
م سير المعرب المعجم
ر ذات المنظر الأفخم
لنا من جاءهم بخدم
وعندنا باسمه الأعظم
وحزننا أشرف المقدم
فينا ضاحك المسم
أهاجت شوق من يشتم

/ 157 / ومن ينظر إليها يبصر الدينار والدرهم

على تلك النواحي نم
لأثواب الربا نم
لنا بالغير لا نأتم
نزلنا مرجها الأنعم
من لبس ومن مطعم
ولما أن قصدنا السير لا نلوي ولا نسأم

وأهل البيت والمحرم
وسط الجامع الأقدم
بقوم شملهم ينظم
لأنواع الدعاء نلزم
م مع من عنده يرحم

بحمد الله من الهم
ومن زادنا فضلا
بدأنا رحلة كانت
وقد فزنا بما نهوى
مع الإخوان والأحبا
فسرنا من دمشق الشا
إلى القدس الشريف القد
وزرنا الأنبياء والأو
وبسم الله سافرنا
وجاوزنا على خير
وقد كان الربيع الغض
وأزهار السروابي قد

وعرف الطيب من بعد
وذر الغيث منظم
وقد سرنا على استقلا
مستى أرضنا أردناها
ومعنا ما له نحتاج

ولسلاصحاب ودعنا
وصلينا صلاة الصبح
مجاور دارنا الأموي
وزرنا الرأس من يحيى
وزرنا الوالد المرحو

وفي باب الصغير الكل زرناهم كما تعلم

وقد زرنا أرسلان السولي الكامل الضيفم

ومن في قبره ممن بهم ذاك الحمما مضمم

وزرنا الشيخ محيي الدين من قلبي به مغرم

وأقواما حوى قاسيون منهم جانباً أعظم

/ 158 / وخصمنا الذي ندري وعممنا قبورا ثم

وقمميني لقد زرنا وشيخنا معه توءم

وذاك الشيخ محمود السذي ذكرى له ألزم

وباقى من حواء السفوح من قاسون واستلزم

بقومي والجوى خيم

ومن أشياخنا المعظم

وممن ربي بهم أعلم

بها من جاءهم يغنم

وفيهما شملنا ملثم

نزلنا زادنا نطعم

على الخيل التي تلجم

من السبق لم تسلم

لقد بتنا بها نكرم

وكان الليل قد أظلم

عمود الخيمة المحكم

تجلى الصبح واستحكم

نما شوق لنا قد تم

لذيذا طعمه في الفم

م ساروا بالقبضا المرم

تسامى مدحه عن ذم

إلى أن جئت داريا

وزرنا من بداريا

وأمواتنا وأحياء

وبتننا بين أقوام

إلى أن سمعنا جثنا

وبالخان الذي فية

وبتننا ثم أصبحنا

نسير إلى قنيطرة

وجثنا خانها حتى

وجثنا جسر يعقوب

وفوق النهر حطينا

على ذلك الربيع الطلق

وقد بتنا به حتى

بجيب يوسف في قد

/ 159 / ومنه الماء أخرجنا

ونحو المنية الأقوا

بها بتنا على روض

وفيها بركة ولكن لها ماء هو الأوخس
وأصبحنا إلى وادي عيون تجارهم في هم
ووافيناه بعد العصر نلقى وجهه أقتم

وقالوا شيخه أضحي من الأعدا مرق الدم
فلم ننزل به حتى ذهبنا للفلان نضم
وفي ناعورة بتنا بأعلى ذلك المقسم
وأصبحنا إلى جنين ينموا شوقنا فاعلم

وقد جاءت تلاقينا مجاديب كموج اليم
وقد ضفنا وكيلا للـ شريف الحاكم الأحكم

وبتناها ثلاثا من ليال عيشها نغنم
وسرنا بعدها حتى أتينا يعبدنا ننضم
وضفنا مصلح السامي ويسموا من له يسم
وبتنا عنده والفجر بالأنوار قد أعلم

إلى أن برقة جئنا ومن أنجد بنا أتم
وفي نابلس حطت بنا الخيل التي تكرم
/ 160 / وفيها لم تزل تسموا وربي فضله عمم
على أغا نزلنا في حملاه ذلك الأكرم
وكننا عنده في حضرة أوقاتها تغنم

وبتنا خمسة الأيا م لم نحزن ولم نهتم
وحفتنا مسرات وشاهدنا بدور الستم
وسافرنا لجماعين ذات البرونق الأجسم
ديار بني قدامة أهل فضل كلهم أشهم
وجئنا عين ببيرو فتحنا جفنها المنضم
وأصبحنا وقد جئنا لأرض البيرة الأعظم
وأصبحنا على القدس الشريف الراضح الأقوم

وقد وافقت تلاقينا كرام نارهم تضرم

وحطينا بسلطانانية علياء تجلوا الغم

أهالي ذاك الميسم
وذاك المشهد الأضخم
ونورا للنفسي أفسح
لعماص يغفر المأثم
يحياكي ماؤها زمزم
وفزنا بابنه الأفهم
عليه من له عظم
لبي العالم الأعظم
بها بالقبر من مريم
ومن ربي له كلهم
بصحب جارههم يكرم
وهسو الداء والمرهم
وقد زرنا خليل الله إبراهيم

وجاءتنا كبار من
وجئنا الصخرة الغرا
وزرنا المسجد الأقصا
وكم من مسجد فيه
وردنا عين سلسوان
وداود النسيبي زرنسا
/ 161 / سليمان النبي صلى
وفوق الطور زرنسا العا
وجسمانية فزنا
وسرنا للنبي موسى
وبستنا ليلة فسيه
وقد سرنا إلى حبرون
وقد زرنا خليل الله إبراهيم

ويوسف ذا البها المفهم
له أهل لذي معلوم
مزيل لما أظلم
أهالي مسجدهم يهدم
ومن كفر البريك القبر لوط فيه لم يقدم

واسحاقا ويعقوبا
وكل في قبالبته
وأنوار شهدهاها
وفي باقين قد زرنا
ومن كفر البريك القبر لوط فيه لم يقدم

وإبراهيم بن أدهم
ومن يفهم ولا يفهم
تبركنا بهم نهم
لدا أضحي ببيت اللحم
وقد عدنا لبیت المقدس الباهي السننا الأغنىم

وغار الأنبياء فييه
وكم قطب وصديق
وكم شيوخ ومجدوب
وقد زرنا لعيسى مو

فراقا طعمه علقم
لنا في البيرة المقدم
بها الليل قد أعتنم

وودعنا إذ ذقنا
/ 162 / وسرنا بعد ذا يسمو
وجئنا سنسجلا بتنا

ونابلسا أتيناها لنا رزق بها يقسم
وقد بتنا ثلاثا من ليال ما بها نسرغم
وقد جئنا نباطية وأجلى أمرنا المبهم
وجئنا بها يومئذ كنا والأسى يهزم

ويوما ثالثا فيه لقينا السيد المكرم
شريفنا كاملا يحيى به الجود الذي يعدم
وودعناه حتى في عيون تجارهم نسمع
وبتنا ثم أصبحنا نرى بالمينة المغنم
وبالجيب السبهي حتى أتينا الجسر لا نندم
وبتنا فيه في خير قنيطرة بهما نلزم
لدى الخان الذي فيها وبتنا لا نرى مفرم
وجئنا سعسا وبعد هذا شوقنا هيم

إلى وادي دمشق الشا م ذات الجانِب الأسلم
وبتنا ثم أصبحنا نرى طفل السرى يظم
وأقبلنا على الإخوة ن منّا الشوق لا يكتم
فلاقونا بمرحيب وعندهم حالهم ترجم
163 / ووافينا لأهلينا وربي في العسلا كرم
وزاد الله إنعاما علينا لم يزل أدوم
ونلنا فضله أرخ برحلة قدسه الأكرم

وصلى الله مولانا على طسه وقد سلم
وكل الآل والأصحا ب من أوصافهم ترقم
مدا الأيام ما طسير بأعراب الغنا أعجم

تلخيص بعض ما جاء في كتاب النابلسي "الرد المتين"

وأما كتابه المسمى بـ "الرد المتين على متنقصي الشيخ محي الدين"،
فشيء بعيد عن الأوهام ولا تكاد تدركه إلا بالهام الأفهام، وقد رأيت أن
نذكر بعضا من مسأله المعترض بها، وما أجاب به الشيخ سيدي عبد الغني

نفعنا الله ببركاته فنقول، قال بعد خطبته في التأليف المذكور: وسميتها "الرد المتين على متنقضي العارف محي الدين"، ولا تظن بأنني متعصب له رضي الله عنه وإنما أنا متعصب للحق حيث كان، وقصدي الإصلاح بين الفريقين المنكرين والمعتقدين بحسب الإمكان، مع أني لست بجازم أن هذه الرسالة-يعني المعترض بها- لابن إمام الكاملية وإن نسبت إليه، وجميع ما فيها من مقالة كل عالم، إنما ردي لها على فرض صحة الإحالة عليه، وأسأل الله تعالى أن يحفظني من الخطأ والخطل، وأن يوفقني لسلوك جادة الإنصاف ويقيني الزلل، إنه على ما شاء قدير وبالإجابة جدير. وأحببت أن أصدر هذه الرسالة بأبيات من نظمي في مدح الشيخ رضي الله تعالى عنه ونفعنا ببركاته، / 164 / لتكون براءة استهلال فيما نحن بصددده أمدنا الله تعالى بمدده آمين، وقد تقدمت القصيدة الهمزية وهي "ظهر الحق ما عليه غطاء" إلى آخره، وهذا أوان الشروع في المقصود بعون الملك المعبود،

قال الطاعن: قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام لما سأله ابن دقيق العيد⁽²⁹⁴⁾ عن الشيخ رضي الله تعالى عنه: هو شيخ سوء كذاب، فأقول: نقل الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله في مقدمة كتابه "اليواقيت والجواهر" عن شيخ الإسلام المخزومي أنه قال: وأما إشاعة بعض المنكرين عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وعن شيخنا الشيخ سراج الدين البلقيني رحمهما الله تعالى أنهما أمرا بإحراق كتب الشيخ محي الدين فكذب وزور، ولو أنها أحرقت لم يبق بمصر والشام نسخة، ولا الآن كان أحد ينسخها بعد كلام هذين الشيخين وحاشاهما من ذلك، ولو أن ذلك كان لم

(294) نقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع التشيرى المعروف كأبيه وجده بابن دقيق العيد (625-702هـ / 1228-1302م)، قاض من أكابر العلماء بالأصول يصفه العبدري الذي لقبه بالقاهرة بـ "الشيخ الفقيه المحدث الأصولي المتفنن عالم الديار المصرية...صاحب المدرسة الكاملية، لقيت منه حبرا بحق له اللقاء وبحرا من علم لا تكدره الدلاء...فهو الآن فطب مصر وعلمها"، ولد بينبع ونشأ بقوص وتعلم في دمشق والأسكندرية والقاهرة. ولي قضاء الديار المصرية سنة 695هـ وتوفي بالقاهرة، له كتب منها "إحكام الأحكام" و "تحفة النبيب في شرح التفریب". (شذرات الذهب 6: 5؛ رحلة العبدري 138؛ الزركلي 6-283).

يخف لأنه من الأمور العظام التي تسير بها الركبان في الآفاق ويتعرض
لذكرها أصحاب التواريخ.

وقال المخزومي رحمه الله: وأما ما نقله بعضهم عن الشيخ عز الدين
بن عبد السلام أنه كان يقول ابن عربي زنديق فكذب وزور، فقد رويناه عن
شيخ الإسلام صلاح الدين العلائي⁽²⁹⁵⁾ صاحب القواعد، عن مشايخه عن
خادم الشيخ عز الدين بن عبد السلام قال: كنا في درس الشيخ عز الدين
في باب الردة فذكر القارئ لفظة الزنديق، فقال بعضهم هذه اللفظة عربية
أو أعجمية، فقال بعض العلماء هي فارسية معربة أصلها زادديق، وهو
الذي يضم الكفر ويظهر /165/ الإيمان، فقال شخص من الطلبة مثل
من، فقال شخص بجانب الشيخ عز الدين بن عبد السلام: مثل محي الدين
بن عربي، ولم ينطق الشيخ عز الدين بشيء.

قال الخادم: فلما قدمت له عشاءه وكان صائما سألته عن القطب من
هو، فقال: لا أدري القطب في زماننا هذا إلا الشيخ محي الدين بن عربي
وهو يتبسم، فأطرقت مليا متحيرا فقال ما لك، ذلك مجلس الفقهاء ما
وسعني فيه غير السكوت. قال المخزومي: فهذا الذي رويناه عن الشيخ عز
الدين بالسند الصحيح، انتهى.

فعلمنا أن ما ذكر لم يثبت عن الشيخ عز الدين أو كان قبل اعتقاده في
الشيخ رحمه الله تعالى، وعلى فرض عدم ذلك كله فنقول: هذا الطعن غير
صواب ولا مقبول من وجهين، أما أحدهما فلأنه ورد في الحديث كما نقله
الشيخ الأسيوطي رحمه الله تعالى في "الجامع الصغير" قال: قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: (شهادة المسلمين بعضهم على بعض جائزة ولا تجوز

(295) أبو سعيد صلاح الدين خليل بن كيكليدي بن عبد الله العلائي (694-761هـ / 1295-1359م)،
حدث فاضل ولد وتعلم في دمشق ورحل رحلة طويلة ثم أقام في القدس مدرسا في
الصلاحية سنة 731هـ وتوفي فيها. من كتبه "المجموع المذهب في قواعد المذهب" في فقه
الشافعية و "النفحات القدسية". (الزركلي 2-321؛ في خلال جزولة 1-55؛ فهرس
الفهارس 1-117؛ الدرر الكامنة 2-90).

شهادة العلماء بعضهم على بعض لأنهم حسد)، قال الشارح المناوي رحمه الله في شرحه الكبير: حسد بضم الحاء والتشديد بضبط المصنف أي هم أشد حسدا بعضهم لبعض، ولهذا قال ابن عباس⁽²⁹⁶⁾ رضي الله عنه إنهم يتغايرون تغاير التيوس في الزريبة. ومن هذا القبيل ما قيل عدو المرء من يعمل بعمله، انتهى. وهذا الكلام جار في جميع من سذكروا من الطاعنين.

وأما الثاني فلأن العلم على قسمين: علم الأقوال وعلم الأحوال، ويقال له علم الأذواق وهذا أخص من الأول، والأول يكتسب بالتعلم والتعليم والثاني لا يحصل إلا بالمنازلة والمتابعة، قال تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام / 166 / [هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنْ مِمَّا عَلِمْتُ رَشْدًا] الآية⁽²⁹⁷⁾. ولكل من العلمين اصطلاحات اصطلاح عليها أربابها (فيما بينهم)⁽²⁹⁸⁾، لا يفقهها على ما هي عليه إلا من كان من أهل ذلك العلم، بل نقول إن كان كل إمام من أهل علم الأحوال له اصطلاحات في كلامه وتصانيفه، لا يعلمها إلا من فتح عليه في مقامه ذلك، فليس لغيره وإن كان من علماء الأحوال أن يتصرف في فهمها إلا على الوجه الصحيح الموافق للكتاب والسنة، لأن الأصل معناه على ما صرح به الشيخ رضي الله تعالى عنه كما سيأتي، إن طريق أهل الله مبني على الكتاب والسنة، وكل ما عدا ذلك فهو جهل وليس بعلم، فمن وجد كلاما ظاهره الإشكال فعليه تأويله ورده إلى موافقة الكتاب والسنة، أو تسليمه لقائله على حسب ما اصطلاح عليه في شأنه ذلك، ولا يجوز له الخوض فيما لا يعلم. قال تعالى: [وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا]⁽²⁹⁹⁾، لا سيما والأصل في هذه الأمة العدالة، فلا يثبت غيرها في

(296) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (3ق.هـ-68هـ/619-687م)، حبر الأمة والصحابي الجليل، ولد بمكة ونشأ فيها في بدء عصر النبوة فلازم النبي وروى عنه الأحاديث الصحيحة. شهد مع علي الجمل وصفين وسكن الطائف ومات بها. (الزركلي 4: 95).

(297) الآية 66 سورة الكهف.

(298) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(299) الآية 36 سورة الإسراء.

أحد بمجرد احتمال في كلامه، ولا شك أن هؤلاء الطاعنين متأخرون عن الشيخ رضي الله عنه، فطعنهم إنما هو مستند إلى كلامه لا إلى رؤيته، إلا القليل ممن لا يعتد به لتعصبه.

وفي البحر الرائق شرح الكنز في كتاب الشهادات قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: يقتصر الحاكم على ظاهر العدالة في المسلم ولا يسأل حتى يطعن الخصم، لقوله عليه الصلاة والسلام (الناس عدول بعضهم على بعض إلا محدودا في قذف)، ومثل ذلك عن عمر رضي الله عنه. ولأن الظاهر هو / 167/ الأنزجار عما هو محرم في دينه وبالظاهر كفاية، إذ لا وصول إلى القطع انتهى. وقوله حتى يطعن الخصم، لا يصلح هؤلاء الطاعنون أخصاما للشيخ رضي الله عنه لعدم توجه حق لهم عليه دنيوي ولا أخروي.

وفي شرح "الجامع الصغير في الفقه" لمحمد بن الحسن⁽³⁰⁰⁾ من أئمة الحنفية، قال عمر رضي الله عنه المسلمون عدول بعضهم على بعض، وقال تعالى: [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس]⁽³⁰¹⁾ أي عدولا، فصارت العدالة ثابتة في الأصل لهذه الأمة، فوجب العمل بها حتى يثبت غيرها انتهى. وها هنا لم يثبت بأقوال هؤلاء الطاعنين شيء لأن في كلامه رضي الله تعالى عنه ما يناقض طعنهم فيه مما سنذكره، وإنما طعنهم فيه مستند إلى أفهامهم الفاسدة في عباراته على ما سنعتبر به إن شاء الله تعالى، وهذا الوجه جار في جميع من سنذكره من الطاعنين أيضا.

وذكر الشعراني رضي الله عنه في مقدمة كتابه "اليواقيت والجواهر"، عن الإمام مجد الدين الفيروزبادي مؤلف "القاموس"، أنه أطل في ذكر

(300) أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني الفقيه الحنفي (132-189هـ / 749-804م)، ولد بواسط ونشأ بالكوفة وطلب العلم حيث لقي جماعة من أعلام الأئمة منهم أبو حنيفة وصاحبه أبو يوسف الذي تفقه عليه. صنف الكتب الكثيرة منها "الجامع الكبير" و"الجامع الصغير"، جرت بينه وبين الإمام الشافعي مناظرات بين يدي هارون الرشيد ببغداد، ولم يزل ملازما للرشيد حتى خرج معه إلى الري حيث توفي محمد، وكان الرشيد يقول: "دفنت الفقه والعربية بالري". (ابن خلكان 4: 184؛ الشذرات 1-321).

(301) الآية 143 سورة البقرة.

مناقب الشيخ محيي الدين ثم قال: وبالحملة فما أنكر على الشيخ إلا بعض الفقهاء القح الذين لا حظ لهم في مشرب المحققين، وأما جمهور العلماء والصوفية فقد أقرّوا بأنه إمام أهل التحقيق والتوحيد، وأنه في العلوم الظاهرة فريد وحيد، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول: ما وقع الإنكار من بعضهم على الشيخ إلا رفقا بضعفاء الفقهاء، الذين ليس لهم نصيب تام من أحوال الفقراء، خوفا أن يفهموا من كلام الشيخ أمرا لا يوافق الشرع فيضلّوا، ولو أنهم / 168 / صحبوا الفقراء لعرفوا مصطلحهم وأمنوا من مخالفة الشريعة انتهى.

وذكر الشيخ الأسيوطي رحمه الله تعالى في رسالته "تنبيه الغبي بتبرئة ابن العربي": وقد كان بين الشيخ عز الدين بن عبد السلام وبين الشيخ محيي الدين بن عربي إخاء وصحبة، أخبرني الشيخ عبد العزيز بذلك لأن الشيخ عز الدين كان منكرا بظاهر الحكم، وحكى عن خادم الشيخ عز الدين أنه دخل مع الشيخ إلى الجامع بدمشق، فقال الخادم للشيخ عز الدين أنت وعدتني أنك تريني القطب، فقال له: ذلك القطب، وأشار إلى ابن عربي وهو جالس والحلقة عليه، فقال له: ياسيدي فأنت تقول فيه ما تقول، فقال: هو القطب فكرر عليه القول وهو يقول له ذلك.

وقال الطاعن المذكور: يقول بقدّم العالم، فأقول: مثال ذلك مثال أعجمي سمع أعرابيا يتكلم بالشهادتين فقال عنه إنه أخطأ حيث لم يفهم كلامه، وإنما مراد الشيخ رضي الله عنه بذلك، حيث صرح في مصنفاته، القدم في حضرة العلم الأزلي، ولا شك في صحة هذا الكلام ووجوب الإيمان به على جميع الأنام، والذي يرشدنا إلى هذا قول الشيخ رضي الله عنه في كتابه "إنشاء الجداول والدوائر في حق الإنسان الذي هو نسخة من نسخ الأكوان" وعبارته: الإنسان قديم محدث موجود معدوم، أما قولنا قديم فلأنه موجود في العلم القديم متصورا فيه أزلا، وهو من بعض مراتب الوجود المذكورة، وأما قولنا محدث فإن شكله وعينه لم تكن ثم كانت، فيخرج من هذا أن زيدا موجود في العلم موجود في الكلام معدوم / 169 / في العين أزلا مثلاً، فقد تصور اتصافه بالوجود والعدم أزلا انتهى.

ومراد به بمراتب الوجود المذكورة ما ذكره قبل ذلك، من قوله لكل شيء في الوجود أربع مراتب: الأولى وجود الشيء في عينه، الثانية وجوده في العلم، الثالثة وجوده في الألفاظ، الرابعة وجوده في الرقم، انتهى كلامه رضي الله عنه.

وجميع ما في مصنفاته من هذا المقام مخرج على مثل هذا الكلام، وقد صرح بحدوث العالم في كتابه "الفتوحات المكية" في الباب التاسع والستين حيث قال: العالم كله موجود عن عدم ووجوده مستفاد من موجد أوجده وهو الله تعالى، فمحال أن يكون العالم أزلي الوجود، لأن حقيقة الوجود أن يوجد ما لم يكن موصوفاً عند نفسه بالوجود وهو المعدوم، لا أنه يوجد ما كان موجوداً أزلاً فإن ذلك محال، فإذا العالم كله قائم بغيره لا بنفسه والسلام، انتهى. فانظر هذا التصريح الذي يرغم أنوف المعترضين ويترك عباراتهم المترخفة منبوذة بكل وصف مهين.

وقال الطاعن المذكور أيضاً: ولا يحرم فرجا، فأقول: يرد هذا شهادة الطاعن الآخر كما سيأتي، وهو تقي الدين الفاسي⁽³⁰²⁾ حيث قال: وأما من أثنى عليه فلفضله وزهده وإيثاره واجتهاده في العبادة، ونقل هذا أيضاً رضي الله تعالى عنه في سبب شرحه لترجمان الأشواق، أنه لما قدم حلب سمع من بعض الفقهاء أنه قال قول الشيخ في أول هذا الترجمان، أنه قصد بما فيه من الأبيات الغزلية علوماً وأسراراً وحقائق ليس بصحيح والله أعلم، وإنما فعله الشيخ تستراً حتى لا ينسب إليه لسان / 170 / الغزل مع ما هو عليه من الدين والصلاح.

فانظر إلى قول هذا الفقيه المعترض في حق الشيخ رضي الله عنه، مع

(302) محمد بن أحمد بن علي أبو الطيب تقي الدين الفاسي المكي الحسني (775-832 هـ / 1373-1429م) مؤرخ عالم بالأصول حافظ للحديث، أصله من فاس ومولده ووفاته بمكة، دخل اليمن والشام ومصر مراراً وولي قضاء المالكية بمكة مدة. قال المقرئ "كان بحر علم لم يخلف بالخجاز بعده مثله"، من كتبه "العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين" و"إرشاد الناسك إلى معرفة الناسك". (الزركلي 5-331).

ما هو عليه من الدين والصلاح تعلم أن الفضل ما شهدت به الأعداء، وواعجبا يجوز أن يقال فيه مثل هذه المقالة القبيحة التي لاتصدر من أدنى طالب متفقه. وكلامه رضي الله عنه في كتابه "الفتوحات المكية" في الباب الثاني ومائتين ما نصه: واعلم أن آداب الشريعة كلها ترجع إلى ما نذكره، وهو أن لا يتعدى العبد في الحكم موضعه، أي موضع الحكم في جوهر كان أو في عرض، أو في زمان أو في مكان، أو في وضع أو في إضافة، أو في حال أو في مقدار، أو في عدد أو في مؤثر أو في مؤثر فيه. فأما آدابها في الجوهر فهو أن يعلم العبد الشرع في ذلك فيجريه فيه بحسبه، وأما آداب العبد في الأعراض فهو ما يتعلق بأفعال المكلفين، من وجوب وحظر وإباحة ومكروه وندب، وأما آدابه في الزمان فلا يتعلق إلا بأفعال العبادات المرتبطة بالأوقات، فكل وقت له حكم في التكليف ومنه ما يضيق وقته ومنه ما يتسع، وأما آدابه في المكان كمواضع العبادات مثل بيوت الله تعالى، فيرفعها عن البيوت المنسوبة إلى الخلق ويذكر فيها اسمه، وأما آدابه في الموضوع فلا يسمى الشيء بغير اسمه، فيغير عليه حكم الشرع بتغير اسمه، فيحل ما كان محرما ويحرم ما كان محلا، كما في حديث (سيأتي على أمتي زمان يسمون فيه الخمر بغير اسمها)، أي فتحا لباب استحلالها بالاسم. وقد تظن لما ذكرناه الإمام مالك رضي الله عنه، فسئل عن خنزير البحر فقال: هو حرام، فقبل له / 171 / إنه من جملة سمك البحر، فقال: أنتم سميتموه خنزيرا فانسحب عليه حكم التحريم لأجل الاسم، كما سموا الخمر نبيذا أو تريدا واستحلوها بالاسم، وقالوا إنما حرم علينا ما كان اسمه خمرا.

وأما آداب الإضافة فهو مثل قول الخضر عليه السلام فأردت أن أعيبها، وقال فأردنا أن يبدلها ربهما خيرا وذلك للإشراك بين محمد وبذم، وقال فأراد ربك لتخصيص المحمودة فيه، وأما آداب الشيء الواحد يكتب ذما بالنسبة إلى جهة، ويكتب حمدا بالإضافة كحال السفر في الطاعة وحال السفر في المعصية، فيختلف الحكم بالحال، وأما الأدب في الأعداد فهو أن لايزيد في أفعال الطهارة على أعضاء الرضوء ولا ينقص، وكذلك القول في

أعداد الصلوات والزكوات ونحوها، وكذلك لا يزيد في الغسل على قدر الوضوء عن صاع، وأما آدابه في المؤثر فهو أن يضيف القتل مثلاً والغضب إلى فاعله ويقيم عليه الحد، وأما آدابه في المؤثر فيه كالمقتول قوداً هل بصفة ما قتل به أو بأمر آخر، وكالمغضوب إذا وجد في غير يد الذي باشر الغضب، فهذه أقسام آداب الشريعة كلها، انتهى كلامه رضي الله عنه.

وقد نقل هذه العبارة عنه الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه المسمى "بالكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر"، ونقلها أيضاً العلامة الشيخ عز الدين الخليلي مثنى المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، في كتابه "الحق الواجب الناطق بأن المخلوق ليس عين الخالق"، ثم قال: فانظر إلى إحاطة الشيخ بعلوم الشريعة المطهرة المنورة، واختصاره وجمعه لأدائها التي تكاد تخرج عن /172/ الحصر في كلمات يسيرة، تعرف أنه رحمه الله تعالى بحر زاخر لا يعلم له أول من آخر، وتعلم دقته وغوصه على المعاني البعيدة الغريبة، واستخراجه الفوائد والفرائد العجيبة، وكيف لا يكون كذلك وقد شهد له الأضداد بأنه بلغ رتبة الاجتهاد، والفضل ما شهدت به الأعداء، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم وفوق كل ذي علم عليم.

ومنها، أي من المسائل التي أنكرت عليه، ما قاله الطاعن ونصه: قال الشيخ بدر الدين بن جماعة⁽³⁰³⁾: وأما إنكاره، يعني ابن عربي، ما ورد في الكتاب والسنة من الوعيد فهو كافر به عند علماء التوحيد، فأقول: هذا الكلام لم يصح عن ابن جماعة، فقد صرح الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه

(303) بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة (639-733هـ / 1241-1333م)، فقيه شافعي لامع من عائلة موزعة بين مصر والشام، أصله من حماة. ترقى في مراتب العلم من خطيب المسجد الأقصى وقاضي القدس عندما انتفاء العبدري بالقدس في محرم سنة 689هـ/ يناير 1290 إلى أن صار قاضي قضاة مصر في القاهرة ودمشق المملوكيتين. ألف كتباً عديدة أهمها كتاب في الفقه الدستوري "تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام" وقد خلف ذرية تعاقبت على مناصب القضاء في القطرين خلال العهد المملوكي. (العبدري 230-231؛ E..)

"اليواقيت والجواهر" عن الشيخ سراج الدين المخزومي، أنه قال في كتابه الذي رد به على من رد على الشيخ، أنه قد شرح كتاب الفصوص جماعة من أعلام الشافعية وغيرهم، منهم الشيخ بدر الدين بن جماعة وأنه سئل عن الشيخ فقال: مالكم ولرجل قد أجمع الناس على جلالته انتهى. ولعل قوله السابق على فرض صحته، قاله قبل اطلاعه على مقام الشيخ رضي الله تعالى عنه، ومع ذلك فنقول: دعواه بأن الشيخ رضي الله تعالى عنه أنكر الوعيد الوارد في الكتاب والسنة باطلة لا أصل لها على ما ستعرف من كلامه رضي الله تعالى عنه، وأنا أذكر لك⁽³⁰⁴⁾ كلامه بحروفه ثم أبينه لك أوضح بيان وبالله أستعين.

قال رضي الله عنه في كتابه "الفتوحات المكية" في الباب العشرين وثلاثمائة: السكنى لأهل النار / 173 / في النار لا يخرجون منها، كما قال تعالى خالدين فيها يعني في النار، ولم يقل فيه ويريد العذاب، فلو قال عند ذكر العذاب خالدين فيه أشكل الأمر، فلما عاد الضمير على النار لم يلزم العذاب، فإن قال قائل وكذلك لا يلزم النعيم كما لا يلزم العذاب، قلنا وكذلك كنا نقول، ولكن قال الله تعالى في نعيم أهل الجنة إنه عطاء غير مجذوذ، أي عطاء غير مقطوع، وقال لامقطوعة ولا ممنوعة، لهذا قلنا باخلود في النعيم والدار، ولم يرد مثل هذا قط في عذاب أهل النار فلهذا لم يقل به.

فإن قلت فقد قال تعالى: [خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً]⁽³⁰⁵⁾، قلت إنما ذلك في موطن من مواطن الآخرة، والضمير على الوزر لا على العذاب، فإذا أقيم العبد في حمل الأثقال التي هي الأوزار يحملها كما قال تعالى: [وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون]⁽³⁰⁶⁾، فهو زمان مخصوص بقوله خالدين فيه، أي

(304) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(305) الآية 101 سورة طه.

(306) الآية 13 سورة العنكبوت.

في حمل الأوزار من الموضع الذي يحملونه من خروجهم من قبورهم إلى أن يصلوا إلى النار فيدخلونها، فهم خالدون فيه في تلك المدة لا يفتر عنهم⁽³⁰⁷⁾ ولا يأخذه من على ظهورهم غيرهم، ومن أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه، فأعاد الضمير على الوزر وجعل ليوم القيامة هذا الحمل، ويوم القيامة مدته من خروج الناس من قبورهم إلى أن ينزلوا منازلهم من الجنة أو النار، وينقضي ذلك اليوم فينقضي بانتقضائه جميع ما كان فيه، وما كان فيه الخلود في حمل الأوزار، فلما انقضى اليوم لم يبق للخلود ظرف يكون فيه، وانتقل الحكم إلى النار والجنان والعذاب والنعيم المختص بهما.

وما ورد في العذاب شيء / 174 / يدل على الخلود فيه كما ورد في الخلود في النار، ولكن العذاب لا بد منه في النار وقد غيب عنا الأجل في ذلك، وما نحن منه من جهة النصوص على يقين، إلا أن الظواهر تعطي الأجل في ذلك، ولكنها كمية مجهولة لم يرد بها نص، وأهل الكشف كلهم مع الظواهر على السواء، فهم قاطعون من حيث كشفهم فيسلم لهم إذ لا نص يعارضهم، ونبقى نحن مع قوله تعالى: [إن ربك فعال لما يريد]⁽³⁰⁸⁾ فأي شيء أراد فهو ذلك، لا يلزم أهل الإيمان أكثر من ذلك إلا أن يأتي نص بالتعيين متواتر يفيد العلم، فحينئذ يقطع به المؤمن وإلا فلا، فسبحان المسيح بكل لسان والمدلول عليه بكل برهان، انتهى كلامه رضي الله تعالى عنه.

فإن قلت قد ورد في القرآن قوله تعالى: [لا يخفف عنهم العذاب]⁽³⁰⁹⁾ وقوله: [لا يخفف عنهم من عذابها]⁽³¹⁰⁾، وقوله: [كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب]⁽³¹¹⁾، وكل ذلك قاض بتسرمد العذاب فكيف يقول بانقطاعه، قلت: مراد الشيخ رضي الله عنه بالعذاب

(307) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(308) الآية 107 سورة هود.

(309) الآيتان 86 و 162 من سورة البقرة والآية 88 من سورة آل عمران.

(310) الآية 36 سورة فاطر.

(311) الآية 56 سورة النساء.

المنقطع، الألم الذي يجده المعضب في نفسه عند مسيس النار، وعقاب الزبانية ولسع الحيات والعقارب له، لا مراده بالعذاب المنقطع صورة هذه الأشياء فإنه قائل بتسرمدها على الكفار كالخلود في النار، فإن قلت: لم لم يجر أن يكون المراد بالعذاب الوارد في القرآن، هو حصول الألم عند هذه الأشياء المذكورة لا هي مجردها، قلت: العذاب حيث ورد في النصوص فالمراد به صورة هذه الأشياء المذكورة المحسوسة، من مسيس النار وعقاب الزبانية ولسع الحيات والعقارب، ونحو ذلك مما جرت العادة /175/ أن الله تعالى يخلق الألم عنده، لا المراد به الألم نفسه، لأن الألم هو العذاب الذي يقول به المنكرون لحشر الأجساد القائلون بالمعاد الروحاني فقط، وهم الفلاسفة وقد كفروا بذلك، ولأن الله تعالى قال ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽³¹²⁾، والمشهود من الزاني والزانية عند الرجم إنما هو صورة الفعل لا الألم. رأيت أن الأكل إسم لمجرد إيصال ما يحتمل المضغ من الطعام إلى الجوف، والشرب إسم لمجرد إيصال ما لا يحتمل المضغ من المائعات إلى الجوف، وليس الشبع والري من مسماهما بشيء، ولكن جرت عادة الله تعالى أن يخلق الشبع عند استعمال الطعام المسمى ذلك بالأكل، والري عند استعمال الماء المسمى بالشرب، وقد لا يخلق ذلك فيكون الأكل والشرب موجودين والشبع والري مفقودين.

وفي مسألتنا هذه إذا تخلف وجود الألم لا يلزم فقدان العذاب، لما عرفت أن العذاب الوارد في النصوص إسم لصورة هذه الأشياء المذكورة، مما جرت العادة أن الله تعالى يخلق الألم عندها، فليس الألم من مسماها بشيء كما ذكرنا في الشبع والري، ولا شك أيضا عند كل أحد أن إدراك العذاب غير العذاب، كما أن السماء والأرض يبقيان وإن زال عن المدرك إدراكهما فافهم .

وأما قوله تعالى: [كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب]، فليس ذوقهم للعذاب خاصا بتألمهم به دائما، بل يمكن أن يقال

(312) الآية 2 سورة النور.

يذوقونه أولا عند مسهم له محض ألم وجيع، ثم يتطورون في طور آخر فيذوقونه لذة وعذوبة، فيبقى العذاب أبدا ويبقى ذوقهم له أبدا ولكن تتبدل جهة الذوق فقط، فليس في هذه الآية صريح تسرمد الألم والوجع على أهل النار / 176 / فتأمل والله أعلم .

وقال الشيخ رضي الله عنه في كتاب "الفتوحات المكية" أيضا في الباب التاسع والثمانين ومائتين: والشقي له جزاء بما أوعده من الشر في دار القرار، لوجود العذاب الدائم الذي لا يجري إلى أجل مسمى، من حيث الجملة حكما إلهيا عدلا كما كان النعيم في السعيد فضلا، لا يتبدل ولا ينخرم ولا ينسخ وفي هذا خلاف بين أهل الكشف. وكذلك أيضا الخلاف في أنه هل يتسرمد العذاب عليهم في النار، أو يكون لهم فيها نعيم بها كما لحزنتها، وإن لم يخرجوا منها⁽³¹³⁾ فإن الله تعالى قال لكل واحدة منهما علي ملؤها، فتنوع عليهم أسباب الألم ظاهرة وهم يجدون عنها اللذة في نفوسهم باطنا، بعد ما يأخذ العذاب الألم منهم حق العقوبة الموازي لمدة الكفر في الدنيا، فإذا فرغ الأمد جعل لهم في نعيم في النار والسلاسل، بحيث لو دخلوا الجنة تألموا لعدم موافقة المزاج الذي ركبهم الله عليه، فهم يتلذذون بالنار والزمهرير وما فيها من لذغ الحيات والعقارب، كما يتلذذ أهل الجنة بالظلال والنور ولثم الحور الحسان الذي مزاجهم يقتضي ذلك، ألا ترى أن الجعل يتضرر بريح الورد، وكذلك من خلق على مزاجه فما تم مزاج إلا وله لذة بما يناسبه، ألا ترى المجروح يتألم بريح المسك، فاللذات تابعة للملائمة (كذا) الطبيعة، فكما أن أهل الجنة يتعذبون برؤية النار، كذلك أهل النار الذين هم أهلها يتألمون برؤية الجنة، فلو دخلوها هلكوا، فهذا الأمر حق في نفسه لا ينكره عاقل، وإنما الشأن هل أهل النار على هذا المزاج بهذه المثابة، أو هم على مزاج يقتضي لهم الإحساس بالآلام والعذاب.

والنقل الصحيح / 177 / الصريح، النص الذي لا إشكال فيه إذا وجد مفيد للعلم بلا شك والد على كل شيء قدير، وإن كنت لا أجعل الأمر

(313) سنطت من (i) ووردت في (ب).

في ذلك، ولكن لا يلزمنا الإفصاح عنه لأن الإفصاح عنه لا يرفع الخلاف من العالم، انتهى كلامه رضي الله تعالى عنه.

فإن قلت: فما نتيجة العذاب حيث إذا لم يتألموا به، قلت: نتيجته أن ينقلب عذوبة خاصة بهم في حقهم بعد انقضاء مدة الألم، لا كالعذوبة التي يدركها أهل الجنة في نعيمهم، فكلما زاد العذاب وقوي زاد تنعمهم الخاص به كما أشار إليه الشيخ رضي الله تعالى عنه في أبيات الفصوص:

وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنات الخلد والأمر واحد وبينهما عند التجلي تباين
يسمى عذاباً من عذوبة طعمه وذاك له كالقشر والقشر صائن
ومن تأمل قوله تعالى: [فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة
وظاهره من قبله العذاب]⁽³¹⁴⁾ فهم المراد بطريق الإشارة القرآنية لا العبارة،
فإن السور هو الحجاب الذي قال تعالى وبينهما حجاب ولم يتوقف في شيء
من ذلك، لا سيما وكل إنسان يعلم من نفسه أنه إذا أصابه ألم من مرض
أو مصيبة مثلاً، ثم طالت مدة ذلك الألم عليه بحيث ألف ذلك الألم، فإنه
لا يجد له إدراكاً في نفسه بل ربما تألم لفقده مع أن مدة الدنيا قليلة، وإنما
كان عذاب الآخرة ليس كأمراض الدنيا ولا كمصائبها التي تنسى بطول
المدة، لأن مدة عذابها أطول فتذهب شدة العذاب في طول المدة وما ذلك
على الله بعزيز.

وقال الشيخ رضي الله عنه أيضاً في "الفتوحات / 178 / المكية" في
الباب الرابع والتسعين ومائتين: أعلم أنه لما رأى بعض العارفين تعظيم هذه
الأمور مشروعا، يعني التي أقسم الله تعالى بها من الموجودات والمعدومات
بقوله: [فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون]⁽³¹⁵⁾، ألحق كل ما سوى الله
تعالى بالسعادة التي هي في حق أصحاب الأغراض من المخلوقين، ووصلهم
إلى أغراضهم التي لا تخلق لهم في الحال، ولم يبق صاحب هذا النظر أحداً

(314) الآية 13 سورة الحديد.

(315) الآيتان 38 و 39 سورة الحاقة.

في العذاب الذي هو الألم، فإنه مكروه لذاته وإن عمروا الدنيا فإن لهم في ذلك نعيما ذوقيا لا يعرفه غيرهم، فإن لكل واحدة من الدارين ملؤها فأخبر الله تعالى أنه يملأها ويخلد فيها مؤبدا، ولكن ما ثم نص تسرمد العذاب الذي هو الألم، إلا الحركات السببية في وجود الألم في العادة بالمزاج الخاص الحاس بالألم، فقد يرى الضرب والقطع والحرق في الوجود ظاهرا، ولكن لا يلزم من تلك الأفعال الألم ولا بد، وقد شاهدنا هذا من نفوسنا في هذا الطريق وهذا من شرف الطريق، وفيه يقول أصحابنا ليس العجب من ورد في بستان وإنما العجب ممن يجد اللذة في غير السبب المعتاد، وهو كان مطلوب أبي يزيد رضي الله تعالى عنه في قوله:

وكل لذائذي قد نلت منها سؤى ملذوذ وجدي بالعذاب
ولهذا سمي عذابا لأنه يعذب في حال ما عند قوم فالمزاج يطلبه، وإذا كان الحق يأمر بتعظيم ما سواه مما يضاف إليه، وما ثم إلا مضاف إليه إما نصا أو عقلا، فيبعد أن تسرمد عليه العذاب الذي هو الألم، وقد كان الله ولا شيء معه، ولم يرجع إليه وصف لم يكن عليه مما أوجده وخلقه، وكذلك هو يكون وإنما قلنا ذلك من أجل من يقول يبقى اسم من الأسماء الإلهية لا أثر له، قلنا وإن لم يكن له أثر / 179 / فليس كما له بوجود الأثر عنه، فإن العين واحدة فافهم ذلك.

وهذه من أشكال المسائل في هذا الطريق، فالحل سبحانه وتعالى يقول إن رحمته سبقت غضبه، يريد أن حكمه برحمة عباده سبقت غضبه عليهم، ولا يظهر السبق في نفس الشاؤ، فإنه قد يكون الفرس واسع النفس بطيء الحركة، والآخر ضيق النفس سريع الحركة والشاؤ طويل، فلا يزال التوسع النفس وإن أبطأ يدخل على الضيق النفس حتى يزيد عليه ويتركه خلفه، فلا حكم بالسبق إلا في آخر الشاؤ، فمن حاز قصب السبق فهو السابق، ولهذا يطول في المسابقة بين الخيل في المسافة، فهو مشروع في معرض التنبيه على هذا المقام، وآخر المسافة هو الذي ينتهي إليه الحكم في السابق، والرحمة سبقت غضب الله عز وجل على خلقه، فهي تجور العالم في الدارين بكرم الله تعالى وما ذلك على الله بعزیز، وإن كان في النار فلهم فيها نعيم فلأنهم

ليسوا منها بمخرجين، ويصدقه قوله تعالى ورحمته وسعت كل شيء. فقد أظهرت في هذه المسألة ما لم يكن باختياري، ولكن حق القول الإلهي باختياره فكانت فيه كالمجبور في اختياره، والله ينفع به من شاء لا إله إلا هو، انتهى كلامه رضي الله عنه.

والحاصل أن الإنصاف في هذه المسألة أن يقال: إن الشيخ رضي الله تعالى عنه لم يكن منكرا شيئا من الوعيد الوارد للكفار في الآخرة، وإنما قوله بأن الله تعالى يخلد الكفار في النار وفي العذاب والسلاسل والأغلال أبد الأبدين ودهر الدهرين، على طبق ما جاءت به الشريعة المطهرة، ولكن الحق الذي لا شبهة فيه أن /180/ هذه المسألة مبنية على سر عظيم لله تعالى في صدور الذين أوتوا العلم، لو ظهر لبطل كل شيء وحجاب الغيرة يمنع من ظهوره، وهو من وراء طور العقل ومن أظهر شيئا منه كان مغلوبا في إظهاره، ولا يزيده الظهور إلا خفاء وقد أدبجه الله تعالى في قوله: [وإن إلى ربك المنتهى وإنه هو أضحك وأبكى] (316).

ومن فهم القرآن من الله تعالى لا من شيخ يعلمه فهم ذلك، ومن لا فلا وإن عاش عمر الدنيا، ولكن الآن نقول تقريبا للعقول، إن أهل النار في ترقيقهم وسلوكهم بالعذاب يصلون إلى عين الغضب الإلهي، فإذا وقعوا فيه انتهى سيرهم وذلك قوله تعالى: [وإن إلى ربك المنتهى]، كما أن أهل الجنة يصلون في ترقيقهم بالنعيم إلى عين الرضى فيقعون في الرضوان، فينتهي سيرهم وذلك قوله تعالى: [وإن إلى ربك المنتهى]. ثم إذا رد أهل النار لنفوسهم تلذذوا بالعذاب، فيصير عذوبة بالنسبة إلى عين الغضب الإلهي الواقعين فيه، لا أن العذاب نفسه ينقلب عذوبة وإنما عذوبته نسبية، وكذلك أهل الجنة إذا رجعوا إلى نفوسهم تألموا من نعيم الجنة، فيستغيثون منها حتى يردوا إلى شهود الحق لا على أن النعيم ينقلب عذابا، فتأمل هذا والله يتولى هداك.

(316) الآيتان 42 و 43 سورة النجم.

ونقول أيضا إن أهل الكشف إذا أشرفوا على حقيقة النشأة الأخروية وانكشفت لهم أحوال الناس فيها، ظهر لهم منها ما لم ينبه عليه الشرع صريحا من كيفية النعيم والعذاب، وحقيقة الثواب والعقاب مما لم يحتج الشرع إلى بيانه، فسكتت الأنبياء عليهم السلام عن التصريح به وأجملته ولم تفصله، لأنه من علم الهداية لا من علم المجاهدة، والأنبياء عليهم السلام / 181 / إنما جاءوا إلى كافة الخلق من عند الله تعالى بعلم المجاهدة، وعلم الهداية يتولى الله تعليمه لمن يشاء من عباده.

قال تعالى: [والذين جاهدوا فينا] يعني على الكيفية التي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام من عنده [لنهديهم سبلنا]⁽³¹⁷⁾، أي نوصلهم إلى الإطلاع على حقائق الأشياء الدنيوية والبرزخية والأخروية، والإطلاع المذكور هو مقام الولاية لأن الله تعالى يتولى تعليمه للعبد، فكشف الشيخ رضي الله تعالى عنه حين حصل له علم الهداية من الله تعالى عن حال أهل النار، فوجد العذاب الذي هو الحركات المخصوصة من الزبانية والسلاسل والأغلال، والحيات والعقارب والتهاب النار والحميم والزقوم، كل ذلك متسرمد لا شبهة فيه على حسب ماوردت به النصوص، ولكن وجود الألم الناشئ في أجسام المعذبين بذلك العذاب ومن أرواحهم بخلق الله تعالى عند مقارنة ذلك ليس متسرmdا، بل له أمد و حد ينقطع عنده فيبقى العذاب على ما هو عليه، ولكن ينقطع ألمه عنهم بعد استيفاء الألم لمدة الكفر الواقع منهم في الدنيا، وكان تخليدهم في النار وفي عذابها المذكور أبد الأبدين ودهر الداهرين في مقابلة نيتهم في الدنيا، فإن نيتهم كانت فيها أنهم يبقون على الكفر ما عاشوا، والألم الذي يحصل لهم من ذلك العذاب في مقابلة كفرهم بالفعل، ولا شك أن كفرهم بالفعل في الدنيا له مدة متناهية، فيدركون الألم مقدار موازنته عند الله تعالى، ثم ينتقلون إلى جزائهم على كفرهم بالقوة بسبب نيتهم ذلك، فيصير العذاب في حقهم صورة عذاب في ظواهرهم، كما أن كفرهم بالقوة في الدنيا كان صورة كفر جزاء وفاقا.

(317) الآية 69 سورة العنكبوت.

/182/ فإن قلت: يلزم من انقطاع الألم في حقهم تعطيل اسم إلهي وهو المنتقم كما ذكر الشيخ رضي الله عنه فيما تقدم، وأسماء الله تعالى يستحيل تعطيلها، قلت: لا يلزم ذلك بل يغلب اسمه الرحمان على اسم المنتقم كما ورد من أن رحمته سبقت غضبه، فيبقى فعل المنتقم على ما كان عليه من أثره الذي هو العذاب ظاهراً، يشوبه اسم الرحمان فيغلب عليه فيزول الألم باطناً، وذلك أن اسم الرحمان مهيمن على كل اسم إلهي فكان من هذا الوجه في مرتبة الاسم الله الجامع، ولهذا قال تعالى: [قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان أي ما تدعوا فله الأسماء الحسنی] (318).

ولما كان جميع ما تحت العرش آثار الأسماء الإلهية، قال تعالى [الرحمان على العرش استوى] (319) ولم يذكر غيره من الأسماء، وعن أبي يزيد رضي الله تعالى عنه أنه (320) لما سمع قول الله تعالى: [إن بطش ربك لشديد] (321)، قال: بطشي أشد من بطشه، لأن بطشه مشوب برحمة بخلاف بطشي، وما قال ذلك إلا لعلمه بأن اسم الرحمان مهيمن على كل اسم إلهي، وأثر كل اسم إلهي مشوب بأثره، فإذا غلب في حق أهل النار على اسمه المنتقم، بحيث أعدم أثره على البواطن وأبقى أثره في الظواهر بحسب جريان العادة لا مانع من ذلك.

أرأيت بأن المريض إذا وصف له الطبيب طعاماً شديداً المرارة ولم يعلمه بخاصيته مثلاً، فإنه يتعذب ويتألم باستعماله حتى يعلم بخاصيته ونفعه، ثم بعد علمه بذلك ربما يصير يتلذذ به ولا يجد له ألماً لما يشاهده من نفعه، مع بقاء المرارة فيه على حالها بل ربما نقول مع بقاء الألم في ذلك على حاله، ولكن حصلت /183/ اللذة لغلبة حال آخر أشد من الأول، كقيراط من الصبر (322) المر إذا وضع في أوقية من العسل، فإن حلاوة العسل تغلب

(318) الآية 110 سورة الإسراء.

(319) الآية 5 سورة طه.

(320) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(321) الآية 12 سورة البروج.

(322) عصارة شجر مر.

بحيث لا يبقى لذكر الصبر حكم مع بقاء عينه، وكذا هذا فإنه ورد في الحديث بأن الرب يضع قدمه في جهنم فتقول قط قط، وفي رواية لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فيتزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك وكرمك، نقل ذلك في "الدر المنثور". وإذا تأملت قول جهنم قط قط في هذا الموضع، وقوله ينزوي بعضها إلى بعض وفهمت الإشارة بذلك من الشارع ظهر لك الحق.

و إذا كان الوارد في أهل الجنة أنهم إذا رأوا الله تعالى ينسون نعيم الجنة، مع أن نعيمها باق في ذاته لا يزول وإنما الزائل إدراكهم، فلا مانع أن في النار كذلك يزول إدراكهم لعذابها بوضع الجبار قدمه فيها، مع بقاء العذاب في ذاته وعدم زواله، وهذه المسألة تحتاج إلى بسط الكلام فيها بأكثر من ذلك، والله الهادي إلى أقوم المسالك، انتهى كلامه رضي الله تعالى عنه في هذه المسألة، ومن أراد استقصاء المسائل التي أجاب فيها عن الشيخ محي الدين فعليه بتأليفه "الرد المتين على منتقضي الشيخ محي الدين" ففيه عجائب وغرائب.

وقد مدحت الشيخ المذكور بقصيدة رأيت أن نثبتها وهي هذه:

سقاء الله من قطر بهي
فخارا ليس أمره بالخفي
جميلا فاح بالعرق الزكي
لدان غصونها من صرف سقي
تطوف رافلات في حلي
تناغيها بلحن أعجمي
تكسر جسمها بعثار جري
بلحظ من مدامعه ندي
المهب بالغداة وبالعشي
ومسدفن كل حبر أو ولي
من أوتاد و أبدال ندي
وبدرا ساطع النور البهي

دمشق الشام حازت كل فضل
مباركة مقدسة تسامت
حوت دنيا وديننا ثم ذكرا
184 / هي البستان في الدنيا تثنت
إذ الأنهار تسقيها دراكا
إذ الأطياف تنشدها ارتياحا
جداولها على الخصباء تجري
ونرجسها لذاك الحزن يرثوا
وروح نسيمها يأتي عليل
تجاه الصالحية أرض خير
حوت أشباح أقوام كرام
حوت بحرا من الأذواق طام

وطودا شاغها أربى برضوى
عوارفه بحار زاخرات
مناقبه الكثيرة لا تنامى
دواوينه من الأمداح ملثى
فلم يترك إلى غير مقال
فصاحته من الرحمان فيض
مجلي المشكلات إذا أتته
وعلم راجح فيهما يراه
ودافع عن جناب الشيخ حقاً
/ 185 / سقاه الله أكؤسا دهاقاً
فكم أجلى من أوهام لقوم
نوالي الشكر للرحمان دأبا
هو المعروف إن ناداه عفاف
يسارع للصريخ إذا رآه
أيا عبيد الغنى إياك أعني
أيا غوث الورى من كل خطب
أيا دخري أيا كنزي أجبني
فلاني لا أبالي في زمانى
إذا كان اتصال في حماكم
ونادتني عنايتكم سريعاً
بشرق أو بغرب أو بجوف
فعار أن يضيع و لو عقال
قصدتك أن توجهني بأمن
ورفقتنا وكلهم أتاكم
وأوبتنا جميعاً في أمان
ومنشئها ابن عثمان ينادى
ويسأل راغباً من كل قار
/ 186 / بجاه المصطفى الهادي أجبنا

رسوخاً قد أتى بهدى جلي
ونسبة غيره مثل القري
فنشر حديثه في كل حي
لصحب أو ولي أو نسبي
وآب الكل ذو حصر وعي
فما سحبان أو غيلان مي
مقفلة بفهم الألعبي
وعزم قاطع بأشد فري
وأبدي نصرة ابن العربي
بحضرته بمشرب روي
وأنقذ آخرين بلج غي
على قربي من القبر الزكي
هو المعروف في الخطب الجلي
ويكشف كربه من غير لي
فنداركني أيا عبد الغنى
تحيزت لجانبك العلي
فواغوثاه ما يبين عي
وإن خلفت أهلي أو ولي
بلحظ منكم وجميل رعي
أمنت محمد من كل شي
وقبلته أو البحر الطمي
على حامي الحما السامي القوي
إلى المختار من بين قصي
يؤم حماك من بلسد قصي
إلى أوطان قومي مع بني
محمد مغربياً مالمكسي
دعاء بالمقاز الأخروي
وأرشدنا إلى السبيل السوي

وصل يا إلهي ثم سلم عليه من رسول مصطفى

زيارة تربة أرسلان الدمشقي

ومن جملة من تبركنا بزيارة قبره، العارف بالله تعالى القدوة البركة إمام أهل الحقائق والإيمان، الشيخ أرسلان الدمشقي⁽³²³⁾ رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركاته، كان هذا الرجل من العارفين بالله تعالى من أهل المائة السادسة، معاصرا لسيدنا القطب مولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ونفع به، وكان من العلماء أهل الظاهر والباطن، وله رسالة في علم التوحيد يقول في أولها: كلك شرك خفي وما بين إلا إذا خرجت عنك، فكلما أخلصت يكشف لك أنه هو لا أنت، تصدى لشرحها جماعة من المحققين منهم الشيخ البركة القدوة العارف بالله سيدي عبد الغني النابلسي، وسمى شرحه لها "خمة الحان ورقة الألحان في شرح رسالة الشيخ أرسلان"، وقد ختم شرحه هذا لهذه الرسالة بقصيدة نونية رأيت أن نثبتها وهي:

وعليك السله منان
ومن التحقيق تيجان
كم بدا لي منك عرفان
كامل ما فيه نقصان
وعلى الخيرات معوان
ذكرها في الناس يزدان
كم بها ترتج أركان
كله دين وإيمان
بإلهي روي وريحان
دس منه فيه قرآن

زدت نورا يا أرسلان
حلة التوحيد فيك زهت
يا أبا العرفان أنت فتى
قسور يوم الوغا بطل
بين أهل الله ذو شرف
ذوالكرامات التي اشتهرت
187 / من رجال الله همته
كله صدق ومعرفة
مات حتى في الضريح له
وكان التراب وهو به

(323) أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الجعبري الدمشقي (ت. 699 هـ / 1300 م)، أحد الزهاد الصالحين من أهل دمشق وقبره فيها معروف، له رسالة في التوحيد وكان الشيخ أرسلان نشارا ينشر الخشب ويتصدق بثلاث أجرته. (كشف الظنون 1-867؛ الزركلي 1. 288).

كان بالمنشار مكتسبا
ينشر الأخشاب وهو على
لم يمل مال به لسوى
ثم إن الله رام بأن
فأراه منه بارقة
عندما المنشار كلمه
ما لهذا قد خلقت فدع
وغدا المنشار منكسرا
وهو بحر في ولايته
صاحب الوقت الذي اقتبست
غوث مثلي كم به كرب
تنقضي حاجات قاصده
نور حق ما له أبدا
طالما قد كان مشغولا
/ 188 / وله الأسرار قد كشفت
وهو فرد في حقائقه
حيث أبدى في رسالته
علم توحيد به محيت
خسرة في الحان صافية
وجميع السكون من طرب
كم بها الأرواح قد سكرت
عقدها بالانتظام له
كلما قد جئت روضتها
أطربت سمعي من نغمتها
واللسان اليوم فاه بما
فلها قمت أشرحها
ثم جاء الشرح وهو بها
روض حسن يانع سرح

عيشه في الله فينان
من هداه فيه تكلان
مسح أن المال فتان
يعقب الأسرار إعلان
غيثها بالكشف هتان
قائلا ما فيه بهتان
عنك هذا يا أرسلان
حيث منه بيان برهان
كم أمدت منه غدران
من سناء الإنس والجان
فرجت عني وأحزان
سيما إن جاء لهفان
عن دمشق الشام كتمان
بالتقى في الله نشوان
وأزيلت عنه أكسوان
زان منه الحسن إحسان
ما به كم حار إنسان
عن قلوب القوم أوثان
أشرفت من نورها ألحان
عند أهل السمع ألحان
فانشئت تحتال أبدان
لفظها در ومرجان
فساح ورد لي وريحان
فاستشارت في أشجان
أودعته فيه آذان
وأنا بالنسور ملئان
من غيوث الفتوح ريان
فيه بالتاريخ غزلان⁽³²⁴⁾

فاقتطف منه فقد ظهرت
كل لفظ من عبارته
شاده عبيد الغني لمن
وهو بالتوحيد مشغول
189 / شرب الأكوان أجمعها
لا لذي كيف ولا شبهة
دينه تجسيم خالقه
طبعه كالصخر ليس به
قائم بالنفس همته
غافل عن ربه وإذا
حيث لا يدري الإله سوى
تقذف المعنى عقيدته
قذف ورد يانع نضر
قل له عني كلامي لم
خل عنك الغي ليس ترى
فليكف السوء عن كلمي
ليس قصدي الجاهلين وإن
وإذا شمس الضحى ظهرت
ومن الله البثواب لنا
وعليه الأجر مكملاً
حيث بالتوفيق ألهمنا
ثم أبقانا نصله
190 / عن إرسال الإله عفا

مثمرات فيه أغصان
لأولي الأسباب بسستان
عقله في الله ولهمان
ماله عن ذلك سلسوان
وهو صادي القلب ظمئان
ربه تبر وعقبيان
وهو أعمى القلب حيران
رقة والقلب صوان
بطنه والفرج حيوان
قال ربي فهو كفران
فوقه والتفوق طغيان
من كلامي وهو طعمان
عندما شمته جعلان
يسدره فسكر وإمعان
هذه الأنوار عميان
إن خلف اللفظ ثعبان
مدحوا قولي وإن شاتوا
مالها بالسقول أبطان
نرتجي والله محسان
رحمة منه وغفران
علم قوم قبلنا كانوا
بعدهم طبق الذي دائوا
وعليه منه رضوان

(324) ورد في هامش ص. 197 من نسخة (ب) ما نصه: " قوله غزلان هو تاريخ شرحه للمرسالة "، ويوافق سنة 988هـ حسب طريقة الحساب بالحروف المعروفة لدى المغاربة بـ " الحمارة الصغيرة "، انظر الناجي الأجد، الخط المغربي والهوية المفقودة، المخطوط العربي وعلم المخطوطات، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1994، ص. 91.

جنة الفردوس بسواه حور له حور وولدان
وسقا قبرا حواه حيا من عظيم اللطف هتان
دائم الأزمان ما انعطفت بالصباء في الروض أغصان
والشيخ أرسلان الدمشقي المذكور من أهل الكمال، وقبره مشهور
بدمشق مقصود عند الأزمات ونزول الملهمات، رضي الله تعالى عنه ونفعنا
به، وهو أرسلان بن يعقوب بن عبد الرحمان بن عبد الله الجعبري الأصل
الدمشقي النشار الزاهد القدوة، صاحب شيخه أبا عامر المؤدب وصاحب أبو
عامر الشيخ ياسين.

قال الشيخ شمس الدين الجزيري: قال الشيخ نجم الدين بن
إسرائيل⁽³²⁵⁾ الشاعر: كان الشيخ أرسلان يعمل في صناعة النشر في
الخشب، وذكروا عنه أنه بقي مدة عشرين سنة يأخذ ما يحصل له من الأجرة
ويقسمه ثلاثة أجزاء، ثلث لنفقته وثلث يتصدق به وثلث لكسوته ومصالحه،
وكان أولا يتعبد بمسجد صغير داخل باب توما أحد أبواب مدينة دمشق،
ثم انتقل إلى مسجد خالد بن الوليد - وهو مكان خيمة خالد رضي الله عنه
لما حاصر دمشق - وعبد الله تعالى فيه إلى أن توفي بعد الأربعين وخمسائة.

قال: وحكى الشيخ داوود بن يحيى الخريزي وكان صدوقا قال: حكى
لي جماعة أن الشيخ أرسلان لما شرع في بنیان المعبد، سير إليه الشيخ أبو
البيان⁽³²⁶⁾ صرة ذهب مع بعض أصحابه حتى يصرفه في المكان المذكور،
فلما اجتمع به الرسول وعرض عليه الصرة قال / 191 / الشيخ أرسلان: أما

(325) أبو المعالي نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر الشيباني الدمشقي (603-677هـ /
1206-1278م)، شاعر متصوف ولد بدمشق، انتسب إلى طائفة الخيرية الرفاعية التي كانت
عظ انتقاد وهجوم السلفيين السنة. جال ابن إسرائيل على طريقة المتصوفة الزهاد الفقراء وألف
ديوانا زاهرا بتجاربه الصوفية ومنتعه الدنيوية كذلك، بحيث عاشر عليه القوم ومدحهم. (E. 3-835)

(326) نبا بن محمد بن محفوظ القرشي المعروف بابن الخوراني الشيخ أبو البيان (ت. 551هـ / 1156)
شيخ الطائفة البينانية الصوفية بدمشق، كان عالما عاملا إماما في اللغة، شافعي المذهب سلفي
العقيدة له تاليف وشعر كثير، وكان هو والشيخ أرسلان شيوخ دمشق في عصرهما. (الزركلي
6 - 8).

يستحيى شيخك يرسل لي هذا وفي عباد الله من لو أشار إلى ما حوله لصار ذهباً وفضة، وأشار بيده فرأى الرسول الطين ذهباً وفضة فبقي الرجل في خدمته وانقطع عنده، وكان بدار الأستاذ طبقة صغيرة وإلى جانب الطبقة دكان حياكة، وفي هذا المكان كان ينشر وهناك كلمه المنشار مرتين، وفي الثالثة تقطع ثلاث قطع وقال: يا أرسالان ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فترك العمل وجلس في هذا المعبد.

ويذكر أن الشيخ أرسالان أعطى الملك نور الدين الشهيد⁽³²⁷⁾ قطعة من المنشار فكانت عنده، ولما احتضر نور الدين الشهيد المذكور أوصى أن تجعل تلك القطعة في كفنه. ومن كراماته ما روي عن أبي الخير الحمصي قال: ورد على الشيخ أرسالان خمسة عشر رجلاً فأخرج لهم خمسة أرغفة لم يكن عنده غيرها، فقال: كلوا بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقنا وأنت خير الزايقين، فأكلوا حتى شبعوا وفضل خلفهم فضلة حسنة، فقسمها عليهم بالسوية وكل منهم كان شديد الجوع، ثم سافروا طالبين بغداد فأخبروا أنهم ما زالوا يأكلون ذلك حتى دخلوا بغداد ومع كل واحد بقية.

وحكى الشرف الحصري أن نور الدين الشهيد بعث إلى الشيخ أرسالان ألف دينار مع مملوكه وقال: إن أخذها فأنت حر لوجه الله، فجاء إليه بها وهو يبني معبده المشار إليه، فقال: ما يستحيى محمود يبعث هذا وفي عباد الله من لو أشار إلى ما حوله لصار ذهباً وفضة، فرأى المملوك الحيطان ذهباً وفضة فتحير وقال: يا سيدي قد علق عتقي على قبولك هذا الذهب، فأخذه وصرفه في الحال على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام. / 192 / وحدث الشيخ محمود الكردي الشيباني قال: رأيت الشيخ أرسالان مرة بعرفات والمشاعر، فلما قدمت الشام سألت عن الشيخ فقالوا: ما غاب

(327) أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي الملقب الملك العادل نور الدين (511-569هـ)، من ملوك بني أيوب في الشام ملك دمشق (549هـ) وحماة وبلبك، وافتتح عدة حصون من بلاد الروم كما سير الأمير أسد الدين شيركوه إلى مصر ثلاث مرات قبل أن يملكها السلطان صلاح الدين نيابة عنه. كان ملكاً عادلاً زاهداً مجاهداً بنى المدارس بجميع مدن بلاد الشام، توفي بقلعة دمشق ودفن بمدرسته بها.

عنا، ورأيتَه جالسا مستغرقا والأسد يتمرغ على قدميه.

ومن كلامه قدس الله سره قوله: لو احتجب عني طرفة عين تقطعت من ألم البين، الحس مفتاح كل شر والغضب يقيمك على أقدام الذل، والإعتذار مكارم الأخلاق والعفو عند القدرة والتواضع في الدولة والعطية بغير منة، وإذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا لقدرتك، الكريم من احتمل الأذا (كذا) ولم يشك عند البلوى، ومن نظمه رضي الله عنه:

يا من علا فرأى ما في الغيوب وما تحت الثرا وظلام الليل منسدل
أنت الغياث لمن ضاقت مذاهبه أنت الدليل لمن حارت به الحيل
إنا قصدناك والآمال واثقة والكل يدعوك ملهوبا ومبتهل
فإن عفوت فذو من وذو كرم وإن سطوت فأنت الحاكم العدل
ومناقبه وفضائله أكثر من أن تحصى، وله مع أهل دمشق وغيرهم من الكرامات والمكاشفات حيا وميتا ما لا يحصى كثرة، وهو المشهور بخفير الشام وهو أمر محق عند الخاص والعام، وقد نوه بذكره و عد مناقبه وكراماته غير واحد من المؤرخين، كابن قاضي شهبة الأسدي⁽³²⁸⁾ والشيخ محمد البصري⁽³²⁹⁾ والشيخ محمد⁽³³⁰⁾ الحوراني في زيارات دمشق، وذكره في طبقات الأولياء كل من الشيخ عبد الوهاب الشعراني والشيخ عبد الرؤوف / 193 المناوي وغيرهم، قدس الله تعالى سره ونفعنا به وببركاته دنيا وأخرى.

(328) أبو بكر تقي الدين أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي (779-851هـ/1377-1447م)، فقيه الشام في عصره ومؤرخها وعالمها، من أهل دمشق، اشتهر بابن قاضي شهبة لأن أبا جده (نجم الدين عمر الأسدي) أقام قاضيا بشهبة من قرى حوران- أربعين سنة. من تصانيفه "الإعلام بتاريخ الإسلام" و "مناقب الإمام الشافعي" و "مدارس دمشق وحماماتها"، توفي في دمشق. (كشف الظنون 127 و 1101؛ شذرات الذهب 7-269؛ الزركلي 1-61؛ دائرة المعارف 1-260).

(329) محمد بن علي بن الطيب أبو الحسين البصري (ت. 436هـ/1044م)، أحد أئمة المعتزلة بالأعلام ولد بالبصرة وسكن بغداد وتوفي بها، كان جيد الكلام مليح العبارة غزير المادة إمام وقته، له التصانيف الفائقة في أصول الفقه منها "المعتمد" و "غرر الأدلة" و "شرح الأصول الخمسة". (ابن خلكان 3-271؛ الزركلي 6-275).

(330) الصحيح عثمان، أنظر تعريفه أعلاه، ص. 109

زيارة قبر بلال الحبشي

ثم توجهنا إلى زيارة قبر بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضريحه في جبانة باب الصغير خارج دمشق مشهور، وهو كما ذكره النووي في التهذيب أبو عبد الله ويقال أبو عبد الكريم ويقال أبو عبد الرحمان ويقال أبو عمرو بلال بن رباح الحبشي القرشي التميمي، مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أمه حمامة مولاة لبني جمح وكان قديم الإسلام والهجرة، شهد بدرًا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ممن تعذب في الله فصبر على العذاب وكان أمية بن خلف يعذبه ويتابع عليه العذاب، (فقدّر الله تعالى أن بلالا قتله ببدر، وكان بلال ممن أسلم أول النبوة ومن أول من أظهر إسلامه وكانوا يطوفون به ويعذبونه)⁽³³¹⁾، وكان من مولدي مكة وقيل من مولدي السراة، اشتراه بخمس أواق وقيل بسبع أواق وقيل بتسع وأعتقه لله عز وجل، وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، وكان بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته سفرا وحضرا، وهو أول من أذن في الإسلام، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الشام للجهاد فأقام بها إلى أن مات.

وقيل إنه أذن لأبي بكر رضي الله عنه مدته وأذن لعمر رضي الله عنه مرة حين قدم إلى الشام، فلم ير باك أكثر من ذلك اليوم، وأذن في مقدمة قدمها إلى المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، طلب منه ذلك الصحابة فأذن ولم يتم الأذان، وكان عمر رضي الله عنه يقول أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا. وثبت في صحيح البخاري / 194 / ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال: دخلت الجنة فسمعت خشف نعليك بين يدي، وفي صحيح البخاري ومسلم⁽³³²⁾ عن قيس بن أبي حازم قال: قال بلال لأبي بكر: إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فامسكني، وإن كنت

(331) سقطت هذه الجملة من (أ) وإن وضعت علامة محل سقوطها ووردت في (ب).

(332) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

إنما اشتريتنى لله عز وجل فدعني وعمل الله.

وفضائله مشهورة توفي بدمشق سنة عشرين وقيل إحدى وعشرين وقيل ثمانى عشرة وهو ابن أربع وستين سنة، وقيل كان قرن⁽³³³⁾ أبي بكر رضي الله عنه وقيل توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل ابن سبعين⁽³³⁴⁾ ودفن بباب الصغير من دمشق وقيل بباب كيسان منها وقيل بحلب. وقال السمعاني في "الأنساب" في ترجمة بلال المؤذن إنه دفن بالمدينة وهو غلط، والصحيح الذي عليه الجمهور أنه باب الصغير، قالوا كان آدم شديد الأدمة نحيفا طوالا خفيف العارضين، انتهى محل الحاجة منه.

زيارة قبور الصحابة والخلفاء وزوجات الرسول

وزرنا معه في قبته ضريح محمد بن عقيل بن أبي طالب⁽³³⁵⁾ رضي الله عنه، وبالجبانة المذكورة السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما زوجة الزبير رضي الله عنه، وبها أيضا السيد الجليل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب⁽³³⁶⁾ وقد تقدم أن تربته في ظاهر حمص فجمعنا بينهما ولله الحمد، والسيدة سكينة بنت الحسين⁽³³⁷⁾ والسيدة زينب بنت علي بن أبي

(333) الصحيح قرين.

(334) بياض في الأصل بالنسختين.

(335) هو الأخ الأكبر للإمام علي بن أبي طالب ومن الضالعين في تاريخ وأنساب قريش، اعتنق الإسلام بعد أن حارب المسلمين في بدر حيث أسر، وتورد المصادر معلومات متناقضة حول دوره في الوقائع الكبرى مثل فتح مكة وغزوة خيبر ومؤتة. وخلال اندلاع الصراع بين أخيه ومعاوية انضم عقيل إلى معسكر الأمويين، وتعزو المصادر هذا الموقف إلى رفض الخليفة علي بن أبي طالب أخذ مبلغ من بيت المال لتسديد دين على عقيل، والراجح أن هناك أسبابا سياسية تفسر الخلاف بينهما. خلف عقيل أبناء كثيرين انضموا إلى ثورة الحسين على يزيد بن معاوية واستشهد أكثرهم في كربلاء، توفي ودفن بالمدينة (E., I., 1 - 348).

(336) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب (1-80هـ/622-700م)، صحابي ولد بالحبيشة وهو أول من ولد بها من المسلمين، أتى البصرة والكوفة وأنشام وكان كريما حتى سمي "بحر الجود" كما كان أحد الأمراء في جيش علي يوم صفين. مات بالمدينة. (الزركلي 4-76؛ تهذيب ابن عساكر 7-325).

طالب بنت الحنفية⁽³³⁸⁾، والسيدة فاطمة بنت الحسين⁽³³⁹⁾، والسيد عبد الله بن زين العابدين، وزوجة النبي صلى الله عليه وسلم المطهرة أم حبيبة⁽³⁴⁰⁾ والزوجة المطهرة أم سلمة بنت أبي أمية⁽³⁴¹⁾ والزوجة المطهرة ميمونة.

وزرنا ضريح خال المؤمنين وكاتب وحي رب العالمين / 195 / معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه والنسب مشهور فلا نطيل به. قال النووي في " تهذيب الأسماء واللغات " : بقي معاوية في دمشق أميرا عشرين سنة وخليفة عشرين سنة، وقال الحافظ بن طولون⁽³⁴²⁾ في كتابه " بهجة الأنام " : في الحائط القبلي من جامع دمشق قبر معاوية وهو الذي تسميه العامة قبر هود

(337) سكية بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ت. 117هـ / 735م)، نبيلة شاعرة كريمة من أهل النساء وأطيبهن نفسا، كانت سيدة نساء عصرها تجالس الأجلة من قريش وتجمع إليها الشعراء من وراء الخمار فتسمع لهم وتناقشهم وتحيزهم، تزوجت من مصعب بن الزبير ومن عبد الله بن عثمان بن عبد الله ومن زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان. كانت إقامتها ووفاتها بالمدينة. (الزركلي 3-106؛ ابن خلكان 2-394؛ ابن سعد 8-346).

(338) زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب (ت. 62هـ / 682م) شقيقة الحسن والحسين، تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فولدت له بنتا ثم تزوجها الحجاج الثقفي، حضرت زينب مع أخيها الحسين وقعة كربلاء وكانت من بين السبايا إلى دمشق. (الإصابة 4 - 314؛ ابن سعد 8-340؛ الزركلي 3/ 66-67).

(339) فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (40-110هـ / 660-727م)، تابعة من راويات الحديث، لما قتل أبوها حملت إلى الشام مع أختها سكية وعمتها، ولما عادت إلى المدينة تزوجها ابن عمها الحسن بن الحسن بن علي، ثم تزوجها عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان فمات بدوره، فأبى الزواج بعده إلى أن توفيت. (ابن سعد 8-345؛ الزركلي 5-130).

(340) أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية (25ق.هـ - 44هـ / 596-664م)، صحابية من أزواج النبي وهي أخت معاوية، كانت من فصيحات قريش ومن ذوات الرأي والخصافة تزوجها الرسول بعد أن مات عنها زوجها الذي ارتد عن الإسلام وهما مهاجرين في الحبشة سنة 7هـ. لها 65 حديثا. (ابن سعد 8-76؛ الإصابة 4 - 423؛ الزركلي 3-33).

(341) أم سلمة، هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، من أزواج النبي تزوجها سنة 4هـ، وقد ورد خطأ في النسختين أنها بنت "أبي سفيان". (الإصابة 4 - 407).

(342) شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي (880-953هـ / 1475-1546م)، مؤرخ وعالم بالتراجم والفقه من أهل الصالحية بدمشق، قال الغزي: " كانت أوقاته مليئة كلها بالعلم والعبادة وله مشاركة في سائر العلوم "، ألف كتبا كثيرة منها " الغرف العلية في تراجم متأخري الحنفية " و " القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية " . (الزركلي 6-291).

عليه السلام، انتهى. وهو الآن معروف خلف مزار رأس نبي الله يحيى بن زكرياء عليه الصلاة والسلام، وهذا قول غريب والمعروف أنه بباب الصغير، ويقال إنه لما حضرته الوفاة أوصى أن يكفن في قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يجعل على جسده، وكان عنده ثلاث أظفار النبي صلى الله عليه وسلم، فأوصى أن تسحق وتجعل في عينيه وفمه وقال: افعلوا ذلك وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين انتهى.

وزرنا قبر أبي الدرداء عويمر بن زيد الأنصاري الخزرجي⁽³⁴³⁾ ومعه زوجته أم الدرداء، ولي قضاء دمشق في خلافة عثمان رضي الله عنه وتوفي بدمشق في خلافة عثمان أيضا سنة إحدى وقل اثنتين وثلاثين من الهجرة، قال النووي: وقبره في باب الصغير بجانب قبر معاوية رضي الله عنهما، قال وكان له امرأتان كل واحدة يقال لها أم الدرداء صحابية وتابعة، تزوج التابعة بعد الصحابية انتهى. وفي قلعة دمشق قبر يقال إنه قبر أبي الدرداء رضي الله عنه فجمعنا بين الزيارتين ولله الحمد، وزرنا قبرا هنالك يزعمون أنه قبر كعب الأحبار رضي الله عنه، فانظره مع ما تقدم وجملة من الصحابة حواله لم تعرف أسماؤهم.

وهناك⁽³⁴⁴⁾ ضريح السيد عمر بن عبد العزيز فانظره مع ما تقدم، ومنهم السيد أويس بن أويس الثقفي الصحابي سكن الشام ومات بها في خلافة عثمان رضي الله عنه، / 196 / ودفن بباب الصغير، وقال النووي في " تهذيب الأسماء واللغات " : بل بزقاق القلي قال أبو إسحاق إبراهيم الناجي وزقاق القلي بنيت المدرسة الصابونية مكانه.

وبهذه الجبابة التي بباب الصغير جماعة من الصحابة ذكر العلماء أنهم

(343) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن فيس بن أمية بن مالك بن عدي الخزرجي الأنصاري، من شباب صحابة النبي اعتنق الإسلام متأخرا بعد معركة بدر وآخاء النبي مع سلمان الفارسي. تصفه المعاجم بالزاهد ومن أهل العلم وحكيم جماعة المسلمين الأولى إلا أن شهرته تعود لكونه من أكبر العلماء بالقرآن، كان في عهد عثمان إماما وقاضيا في دمشق حيث درس القرآن في مسجدهما وبها توفي سنة 32هـ/652م. (دائرة المعارف 1-339؛ E.I., I-117)

(344) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

دفنوا في باب الصغير ولم تتعين أماكنهم، وفيها من التابعين والعلماء العاملين والأولياء والصالحين ما لا يحصى، فوقفنا هناك وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى. ثم زرنا خارج باب تومة قبر ضرار بن الأزور الأسدي⁽³⁴⁵⁾ شهد فتح دمشق ومات بها، قال ابن الحوراني (في كتاب الزيارات)⁽³⁴⁶⁾ وقبر ضرار بن الأزور الأسدي بظاهر دمشق خارج الباب الشرقي على جانب الطريق، وضريحه عليه أنس ومهابة وجلالة وقبره ظاهر يزار ويتبرك به في محلة الجذما انتهى، فتبركنا بزيارته والتمتع بمشاهدة تربته وقرأنا الفاتحة ودعونا الله بما نرجو قبوله، ثم عمدنا إلى زيارة قبر أبي بن كعب⁽³⁴⁷⁾ الصحابي رضي الله عنه على ما يقال إنه مدفون هنالك خارج باب توما بالقرب من مقبرة الشيخ أرسلان، ومما اشتهر عند أهل دمشق الشام أن كل ميت من اليهود والنصارى إذا مروا به على مزارته ينقلب إلى الأرض، ولأجل هذا لا يمرون بموتاهم على مزارته، ولكن إذا وصلوا إلى قرب مزاره ذهبوا من الطريق الآخر المحاذي لسور البلد. فدخلنا إلى ضريحه وقرأنا عليه ما تيسر من القرآن ودعونا الله تعالى بما نرجو قبوله.

وذكر النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" أن أبي بن كعب توفي بالمدينة ودفن بها، قيل سنة ثلاثين من الهجرة في خلافة عثمان، قال أبو نعيم الأصبهاني: وهذا هو الصحيح، /197/ وقال ابن عبد البر: والأكثر أنه مات في خلافة عمر. وهو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن

(345) ضرار بن مالك الأزور بن أوس بن خزيمة الأسدي (ت. 11هـ/633م)، أحد أبطال الجاهلية والإسلام وهو قاتل مالك بن نويرة بأمر من خالد بن الوليد. قاتل يوم اليمامة أشد قتال حتى قطعت ساقاه ومات بعد أيام في اليمامة رقيقاً في غيرها. (ابن عساكر 7-30؛ الزركلي 3-215).

(346) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(347) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد (ت. 21هـ/642م)، صحابي أنصاري كان قبل الإسلام حبراً من أخبار اليهود مطلعاً على الكتب القديمة، ولما أسلم كان من كتاب الوحي وشهد بدرًا وأحداً والمشاهد كلها مع الرسول وكان يفتي على عهده. شهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس، وأمره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه، توفي بالمدينة. (ابن سعد 3 القسم الثاني ص. 59؛ الزركلي 2-82).

معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمر بن الخزرج الأكبر الأنصاري، قال محمد بن سعيد عن الواقدي⁽³⁴⁸⁾: أول من كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة أبي بن كعب، وهو أول من كتب في آخر الكتب وكتب فلان بن فلان. ومناقبه كثيرة فمنها ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم عن أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على أبي بن كعب سورة [لم يكن الذين كفروا]، وقال أمرني الله عز وجل أن أقرأها عليك، وهي منقبة عظيمة لأبي لم يشاركه فيها أحد من الناس، وفي الترمذي وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اقرأ أمتي أبي بن كعب"، وترجمة هذا السيد الجليل كبيرة ومناقبه أثيرة.

ومررنا بقبر قالوا إنه قبر حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي ذكره النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" أن حسان بن ثابت توفي بالمدينة. قال أبو نعيم وجماعة من الأئمة: عاش حسان ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام، وتوفي سنة أربع وخمسين وهو ابن مائة وعشرين سنة، وشاركه في هذا حكيم بن حزام فعاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام وتوفي سنة أربع وخمسين، ولا يعرف لهما ثالث في هذا، والمراد بالإسلام حين انتشر وذاع في الناس وذلك قبل الهجرة بنحو ست سنين.

ثم توجهنا إلى زيارة صهيب الرومي⁽³⁴⁹⁾ الصحابي نفعنا الله به، وقبره في الميدان من محروسة دمشق، قال المناوي في "طبقاته": صهيب بن سنان

(348) أبو عبد الله محمد بن عمر واقدي (130-207هـ/)، كان إماماً عالماً له تصانيف في المغازي وغيرها، تولى القضاء ببغداد بأمر من المأمون الذي كان يكرمه ويبلغ في رعايته، توفي ببغداد. (ابن خلكان 4-348؛ ابن سعد 7-334).

(349) صهيب بن سنان بن مالك (32ق.هـ-38هـ/592-659م)، صحابي من أرمى العرب سهما وأشدهم بأساً وأحد السابئين إلى الإسلام، كان أبوه من أشراف بني النمر ولأه كسرى على الإبل (البصرة) وكانت منازلهم في أرض الموصل التي أغار عليها الروم وسبوا صهيبياً وهو صغير، فنشأ بينهم إلى أن اشتراه رجل من بني كلب وقدم به إلى مكة حيث اعتق وظل يعرف بالرومي، واشتغل بالتجارة إلى أن جاء الإسلام فأسلم وهاجر وشهد المشاهد كلها، توفي بالمدينة، له 307 حديثاً. (ابن سعد 3-161؛ ابن عساكر 6-447؛ الزركلي 3-210).

الرومي السابق / 198 / المهاجر المطعم المتاجر، أسرع الإجابة لله وللرسول وصار بربه يحول ويصول، وهو من السابقين الأولين المعذبين في الله، كناه المصطفى بأبي يحيى، ولم يشهد مشهدا إلا وكان حاضرا ولا غزا غزوة إلا وكان عن يمينه وشماله، مات سنة سبع أو ثمان وثلاثين رضي الله عنه.

ثم ذهبنا إلى مقبرة مرج الدحداح فقرأنا الفاتحة لمن بها من المشايخ والعلماء والصلحاء، وفي هذه المقبرة قبر أبي الدحداح الصحابي ولكنه غير معروف على التعيين وإليه تنسب المقبرة، ويقال إن هناك قبر عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وقد عمرت عليه عمارة مشهور ذلك عند أهل الشام. والصحيح ما ذكره (الترمذي في "سننه" في أبواب الجنائز حيث قال: حدثنا الحسين بن حريث حدثنا عيسى بن يونس⁽³⁵⁰⁾ عن ابن جريح⁽³⁵¹⁾ عن عبد الله⁽³⁵²⁾ بن أبي مليكة⁽³⁵³⁾ قال: توفي عبد الرحمان بن أبي بكر بالحبشي، قال: فحمل إلى مكة فدفن. فلما قدمت عائشة رضي الله عنها أتت قبر عبد الرحمان بن أبي بكر قالت متمثلة بأبيات متمم بن نويرة⁽³⁵⁴⁾ في أخيه مالك:

(350) عيسى بن يونس بن عمرو السبيعي الهمداني (ت. 187هـ / 803م)، محدث ثقة كثير الغزو للروم ومن بيت علم وحديث كان يغزو عاما ويحج عاما، ولد بالكوفة وسكن الحدث (غرب بيروت) مرابطا وبها توفي. (تذكرة الحفاظ 1-257؛ الزركلي 5-111).

(351) أبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح (80-150هـ / 699-767م)، فقيه الحرم المكي وإمام أهل الحجاز في عصره يقال إنه أول من صنف الكتب في الإسلام، رومي الأصل من موالي قريش مكّي الولادة والوفاة. (ابن خلكان 3-163؛ تاريخ بغداد 10-400؛ الزركلي 4-160).

(352) سقطت هذه الجملة من (أ) ووردت في (ب).

(353) عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة (ت. 117هـ / 735م): قاض من رجال الحديث الثقة ولاء ابن الزبير قضاء الطائف. (تهذيب التهذيب 5-306؛ الزركلي 4-102).

(354) أبو نهشل متمم بن نويرة اليربوعي، شاعر مشهور بمراثيه المؤثرة في أخيه مالك بن نويرة وصورة قتله خلال حروب الردة على يد خالد بن الوليد، وقد أحدث ذلك ضجة في حينه بالمدينة بسبب إقدام خالد بن الوليد على الزواج من امرأة ابن نويرة، وساهم شعر متمم في زيادة تأثر الناس إلى حد يروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لمتمم: "لو كنت أقول الشعر كما تقول لرثيت أخي كما رثيت أخاك". (ابن خلكان 5-15).

وكنّا كندمانى جديمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رھط كسرى وتبعنا
فلما تفرقنا كأني ومالكنا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
ثم قالت والله لو حضرتك ما دفنتك إلا حيث مت ولو شهدتك ما
زرتك.

والحبشي بضم الحاء المهملة وسكون الياء الموحدة وكسر الشين المعجمة
والتشديد موضع قريب من مكة، وقال الجوهري هو جبل بأسفل مكة، كذا
في "نهاية" ابن الأثير. وقال النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" في
ترجمة / 199 / عبد الرحمان بن أبي بكر: توفي بالحبشي، جبل بين مكة
سته أميال وقيل نحو عشرة، ثم حمل على رقاب الرجال إلى مكة سنة ثلاث
وخمسين، وقيل خمس وخمسين وقيل ست والصحيح الأول، وكانت وفاته
فجأة.

ولما أبى البيعة ليزيد بن معاوية بعثوا إليه بمائة ألف درهم ليستعطفوه
فردھا وقال: لا أبيع ديني بدنياي رضي الله عنه، أمه أم رومان بضم الراء
على المشهور وحكى ابن عبد البر ضمها وفتحها. سكن عبد الرحمان المدينة
وتوفي بمكة، قال: ولا يعرف أربعة ذكور مسلمين متوالدين بعضهم من
بعض أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم إلا أبو قحافة وابنه أبو بكر وابنه
عبد الرحمان وابنه محمد بن عبد الرحمان، انتهى كلام النووي باختصار. وقال
الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه "الإصابة في أخبار الصحابة" في
ترجمة عبد الرحمان بن أبي بكر: وكان موته فجأة في نومة نامها بمكان على
عشرة أميال من مكة فحمل إلى مكة فدفن بها، ولما بلغ عائشة خبره خرجت
حاجة فوقفت على قبره، فبكت وأنشدت أبيات متمم بن نويرة المتقدمة ثم
قالت: لو حضرتك لدفنتك حيث مت ولما يكيئك، انتهى.

قال سيدي عبد الغني بن النابلسي الدمشقي في "زياراته": قلت:
ولعل هذا المدفون بدمشق الشام هو عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر لا
عبد الرحمان بن أبي بكر، وقد أخبرني بعض الأصحاب أنه وجد مكتوبا على

قبره عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر، وهذا السيد عبد الغني حجة وعمدة
ومن العلماء العارفين ومن أهل البلد وصاحب البيت أدري بما فيه.

ثم عدنا مرة ثانية / 200 / إلى الصالحية لزيارة مقام الأربعين الأبدال فإنه
في جبل قاسون صعب المرتقى، فلما وصلنا إلى الجبل وهو فوق مقبرة
الصالحية، ترجلنا عن الخيل وصعدنا على أرجلنا في مسالك متعبة وطرق
متشعبة مصنوعة بالمكاتل والمعاويل والآلات، محفورة في الحجارة يصعد في
بعض الأماكن منها بالمدارج. وهذا المقام هو بيت مستطيل فيه أربعون محراباً،
وبوسط المحارب محراب يقال إنه محراب الخضر عليه السلام يقال إن الأبدال
الأربعين مجتمعون هنالك، وهذا بخبر بعض الصالحين من أهل الكشف وآثار
ذلك ظاهرة، فقد أخبرنا بالتواتر عن أهل البلد أنهم يرون بالليل القناديل تمر
بناحية مقام الأربعين، ومعلوم أن الجبل ليس به أحد. ولا شك أن الأبدال
الأربعين بالشام كما تقدم الكلام على ذلك.

وتحت هذا المقام شبه الكهف يقال له مغارة الدم، ويقولون بهذه المغارة
قتل قابيل هابيل ابني آدم، وعن يسار مستقبل هذا المقام شق في الجبل
يقولون أصحاب الكهف كانوا هناك، والذي ذكره المفسرون أنهم في
طرسوس بلدة صغيرة على ساحل البحر قريبة من حمص، فتبركنا بتلك
المزارات وصلينا هنالك ركعتين ودعونا الله بما نرجو قبوله.

وفي أسفل هذا الجبل فوق المقبرة قبر نبي الله ذي الكفل فزنا تربته
المباركة ولله الحمد، وعمن زرنا قبره الصحابية الجليلة المجاهدة المشهورة
بالإقدام والبأس والشجاعة خولة بنت الأزور⁽³⁵⁵⁾ أخت ضرار بن الأزور،
وقبرها خارج باب تومة في الطريق التي تمر إلى ضريح الشيخ أرسلان،
فقرأنا هنالك الفاتحة ودعونا الله تعالى وبضريحها أنس نفعا / 201 / الله بها.

(355) خولة بنت الأزور الأسدي (ت. نحو 35هـ / نحو 655م)، شاعرة من أشجع نساء عصرها تشبه
بخالد بن الوليد في حملاتها وهي أخت ضرار بن الأزور، لها أخبار كثيرة في فتوح الشام
وفي شعرها جزالة وفخر، توفيت في أواخر عهد عثمان. (الدر المنثور 184؛ الزركلي 2-
325).

ثم ذهبنا إلى مسجد الأقصاب فزرنا قبور السادات الشهداء، وقد دفنت فيه أقصاب سوق جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، ويقال إن الدعاء عندهم مستجاب ذكر ذلك غير واحد ويسمى الآن مسجد السادات. ثم زرنا مشهد الحسين ويسمى مسجد الرأس وهو معروف الآن بدمشق داخل باب الفرديس، وهو مسجد عليه جلالة ومهابة، يقصد للزيارة والدعاء والتبرك والتماس الخوائج وهو في غاية القبول، كذا ذكره الخوراني في "الزيارات". وهو تحت طاق في جدار المحراب عن يمين المستقبل، ويحكى أن أسفل ذلك المسجد دهليز كبير معمور بالصحابة والمجاهدين دفنوا هنالك جملة واحدة، ومن أجل ذلك سمي الباب باب الكراديس والله أعلم واليوم يقولون له باب الفرديس.

وفي مصر أيضا كما هو مشهور مشهد يسمى مشهد الحسين، قال الشيخ عبد الغني بن النابلسي: ولعل هذه الأماكن وضعوا فيها رأس الحسين حين جاءوا به من بلاد العراق من كربلاء ولا يدرى رأسه في أي مكان دفن، وذكر النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" أن الحسين رضي الله تعالى عنه قتل يوم الجمعة وقيل يوم السبت يوم عاشوراء، سنة إحدى وستين بكربلاء من أرض العراق وقبره مشهور يزار ويتبرك به انتهى.

نور الدين الشهيد محمود الملك العادل⁽³⁵⁶⁾

ومن زرناه وتبركنا به نور الدين الشهيد، ولا بأس أن نذكر ترجمته تبركا به ونذكر بعض مناقبه وما خصه الله به فنقول: ومن كتاب "إيقاظ الغافل بسيرة الملك العادل" تأليف أبي الوفا المقدسي الشافعي /202/ الحسيني رحمه الله تعالى ما نصه: فهذه ترجمة نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى لخصتها من أصول معتمدة، فأقول وبالله العصمة من الزلل: هو نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن نسيم الدولة بن أقسنغر التركي السلجوقي مولاهم، ولد بحلب يوم الأحد عند طلوع

(356) ورد هذا العنوان في هامش الصفحة 211 من (ب).

الشمس سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة، ونشأ على الخير وقراءة القرآن وقلة المخالطة، وكان أبوه يقدمه على بقية أولاده ويتوسم فيه النجابة، كان معتدلاً أسمر واسع الجبهة جميلاً لحيته شعرات في حنكه، مات أبوه سنة إحدى وأربعين وخمسمائة فتوجه إلى حلب بإشارة أسد الدين شيركوه⁽³⁵⁷⁾ لأن من ملك حلب ملك الشام.

قال ابن عساكر: فتح نور الدين نيفا وخمسين حصناً، وقال ابن الجوزي⁽³⁵⁸⁾ استرجع من أيدي الكفار نيفا وخمسين مدينة وكانت نيته فتح القدس فاخترمته المنية، وخطب بالحرمين الشريفين وأظهر السنة وأباد الرفض وأبدل بدعتهم في الآذان "حي على خير العمل"، وعدل وبنى المدارس والجوامع وأصلح طرق دمشق ووسع أسواقها، وأسقط المكوس من مملكته وعاقب على الخمر والفواحش، وكان وافر الشجاعة متعرضاً في حرب الكفار للشهادة، يتمنى أن يحشر من بطون السباع وحواصل الطير، وقف أوقافاً على المرضى والمجانين وبنى المكاتب لليتامى وبنى المارستان بدمشق، ووقف على سكان الحرمين وأقطع أمراء العرب الأقطائع ليكفوا عن الحاج، وأمر بإكمال سور المدينة وأجرى إليها العين التي تأخذ عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الربط والجسور والخانات / 203 / والقناطر، وجدد كثيراً من قنى السبيل بدمشق وغيرها، ووقف كتباً كثيرة في مدارس له وأوقاف ذارة على جميع أبواب الخير .

(357) أبو الحارث شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين (ت. 564هـ/)، عم السلطان صلاح الدين الأيوبي، ساهم في الحروب الصليبية إلى جانب أمراء أسرته وتولى وزارة مصر سنة 564هـ لكنه توفي في نفس السنة ودفن بالقاهرة، ثم نقل جثمانه إلى المدينة وتولى مكانه صلاح الدين. (ابن خلكان 2-479؛ ابن عساكر 6-358).

(358) "الخوراني" في (ب)، ابن الجوزي شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قيزغلو الملقب بالسبط (581 أو 582-654هـ/1185 أو 1256م)، واعظ ومؤرخ شهير حفيد ابن الجوزي البغدادي، استقر بدمشق حيث خدم السلاطين الأيوبيين. ألف كتاباً ضخماً في التاريخ العام سماه "مرآة الزمان" الذي شكل مرجعاً لكثير من مؤرخي الشام الذين جاءوا بعده كابن كثير والذهبي (775 - 3 - E... I.).

كان حسن الخط كثير المطالعة للعلوم ملازما للجماعة في الصلاة، عاكفا على القرآن وفعل الخير دينا لم يسمع منه فحش ولا في غضبه، يحب النصيح في الدين وفي بعده، لا يستغاب ولا يفحش في مجلسه عفيف عما في أيدي الناس. قال ابن الأثير: طالعت تواريخ الملوك قبله فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة منه، قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه وانعام يسديه، قال ابن الأثير: وهو الذي جدد للملوك سنة العدل والإنصاف وترك المحرمات بعد ما فسد الحال انتهى.

لم يترك في بلد مكسا ولا ضريبة، وكان ملكه في الشام ومصر والجزيرة والموصل وأعمالها وغير ذلك، والقوي والضعيف والقريب والغريب عنده في الحق سواء، يتولى كشف الحال بينهما بنفسه ولا يتعدى حكم الشرع. حكى أنه دخل الخزانة فرأى مالا كثيرا قد تجدد فسأل عنه، فقيل هو من فائض مال الأوقاف، فأمر برده إلى الشهرزوري وهو كان القاضي حينئذ ليرده على الأوقاف، فأعاده الشهرزوري إلى الخزانة فغضب نور الدين وقال: ردوه إلى القاضي وقلوا له أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاطبة عليه بين يدي الله تعالى.

قال ابن الأثير: وكان يورث أولاد جنده الأقطاع ليقوي عزمهم على القتال /204/ ولا يقولوا نموت فتضيع أولادنا، وكان يتولى أمور الجند ومصالحهم بنفسه ويتفقد عددهم وخيلهم، ومع ذلك كان شديد الهيبة والوقار، وكان يلزم الصغير والكبير منهم بوظائف الخدمة، ولا يجلس عنده أمير من غير أمره له بالجلوس، حتى أسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الداية وغيرهما إلا نجم الدين أيوب⁽³⁵⁹⁾ وإلا صلاح الدين

(359) أبو الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب الملك الأفضل نجم الدين (ت. 568 هـ)، والد السلطان صلاح الدين، كان في أول أمره مسلما قلعة تكريت هو وأخوه أسد الدين شيركوه ثم اتصل بخدمة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، ولما وُزر ابنه صلاح الدين للعاقد صاحب مصر توجه إليه والده نجم الدين سنة 565 هـ وبقي عنده حتى استقل صلاح الدين بملك الديار المصرية، وخلال حلة لصلاح الدين على الكرك حدث أن سقط والده من

يوسف⁽³⁶⁰⁾، وكان يقوم للصوفي وللفقيه ويتلقاه ويجلسه إلى جانبه، ويعطيهم الجزيل ويقول هذا من بعض حقهم في بيت المال ولهم المنة علينا إذا رضوا.

وكان مجلسه كله في ذكر العلم وأحوال الصالحين والمشاورة في الجهاد، والمنقبة العظيمة التي خصه الله تعالى بها التي حاز بها الفضل والخصوصية في الدنيا والآخرة، ما ذكره جمال الدين المطري في "تاريخ المدينة الشريفة"، وكذلك حسن الديار بكري⁽³⁶¹⁾ في تاريخه "الخميس"، أن الفقيه علم الدين يعقوب بن أبي بكر، المحترق أبوه ليلة حريق المسجد، حدثه أن جمعا ممن أدرك زمن نور الدين حدثه أن نور الدين رأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة منها: يا محمود أنقذني من هذين الشخصين يشير إلى أشقرين تجاهه، فسار هو ووزيره بألف راحلة وما يتبعها من خيل⁽³⁶²⁾، فدخل المدينة على حين

فرسه وتوفي سنة 568هـ ودفن بجانب أخيه أسد الدين بالقاهرة ثم نقل جثمانهما بعد سنين إلى المدينة المنورة. (ابن خلكان 1-255).

(360) أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب الملك الناصر صلاح الدين (532-589هـ / 1138-1193م)، صاحب الديار المصرية والشامية والفرائية والبيمنية، من أسرة الأيوبيين الأكراد وأشهر سلاطينهم، ازداد بتكريت ونشأ في كنف أبيه وعمه أسد الدين شيركوه وشهد الحروب الكثيرة مع الإفرنج، ولما مات أسد الدين استقر الأمر لصلاح الدين يوسف بعد صراع مع الملك العادل نور الدين صاحب الشام، وذاع صيت صلاح الدين بعد معركة حطين ضد الإفرنج سنة 583هـ وتحرير عكا ونابلس و القدس وغيرها من أرض فلسطين، توفي بدمشق "وكان يوم موته يوما لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم". (ابن خلكان 7-139؛ دائرة المعارف 14-263).

(361) حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، مؤرخ ولي القضاء بمكة وتوفي بها، اشتهر بكتابه تاريخ الخميس في أقوال تنس نفيس"، أجمل فيه السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء والملوك إلى زمن مراد الثالث العثماني (1574)، كما ينسب إليه وصف دقيق للحرم المكي. وهناك اضطراب في تحديد تاريخ وفاته، إذ يجعله الزركلي في سنة 1559 وحاجي خليفة سنة 1553، إلا أن شهادة قريبة منه زمانيا تذهب إلى أن وفاته كانت سنة 990هـ / 1582. (الزركلي 2-256؛ 358 E., I., 2).

(362) يورد عبد الغني بن إسماعيل النابلسي نقلا عن السهمودي رواية عن هذه الحادثة ويقول بأن الملك العادل بعد رؤيته تلك: " أرسل إلى وزيره وتجهزا في ليلتهما على راحل خفيفة في عشرين نفرا..."، وواضح أن هذه الرواية هي الأقرب إلى الحقيقة إذ الأمر خطير ويستدعي

غفلة فزار وجلس في المسجد، فطلب الناس للصدقة وفرق الذهب والفضة، فلما فرغ سأل هل بقي أحد فأخبر برجلين من الأندلس نازلين وراء قبلة الحجرة الشريفة، من خارج دار آل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعروفة بالعشرة، يقولان نحن في كفاية لا نقبل شيئا فجد في طلبهما، /205/ فلما رأهما إذا هما اللذان أراه إياهما النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فذكرا أنهما أحبا المجاورة عند النبي صلى الله عليه وسلم، فاستدرجهما وتهدهما فأقرا أنهما من النصارى بعث بهما ملوك الكفار لنقل النبي صلى الله عليه وسلم، ووجدتهما قد حفرا نقبا تحت الحائط القبلي وجعلوا ترابه في بئر في الدار وقربوا من القبر الشريف، فضرب أعناقهما عند الشباك الذي في شرق الحجرة وأحرقا.

وسأله أهل المدينة الخارجين عن السور أن يبني لهم سورا يحفظ مواشيهم وأولادهم، فأمر به فبني عام ثمانية وخمسين وخسمائة⁽³⁶³⁾ وكتب اسمه على باب البقيع فهو باق انتهى. وزاد صاحب "الخميس" أنه لما قتل دينيك الكافرین اللعينين حفر حفيرا دائرا بالحجرة النبوية كثير العمق وأمر بالرصاص فأذيب وصبه في الحفير حتى ملأه، انتهى.

قال: وكان كثير الزهد ولا يغتر بما يجبي إليه، وكان لا يأكل إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من المال المرصد للمصالح، فيأخذ ما أفتي بحله فقط. وقيل كانت نفقته من الجزية في كل شهر ألف قرطاس لمأكله وملبسه، وربما استفضل منها شيئا فتصدق به في آخر الشهر، ويقال إن قيمة ألف قرطاس مائة وخمسون درهما. وكان يصرف الهدايا في بناء المساجد وترميم المهجور منها وشراء وقف لها، ومنع الخمر من مملكته وحد على شربها كثيرا، وكان له أوارد ليلية ونهارية وإذا حضر من أشغال المسلمين شيء قدمه على الأوراد ثم

السرعة والتكتم، وهو ما كان منعذرا مع حشد ألف راحلة وما يتبعها من خيل حسب الرواية التي نقلها ابن عثمان عن "تاريخ الخميس". (الحقيقة والمجاز 349-350).

(363) سقطت "خسمائة" في النسختين.

أتمها، ومناقب هذا السيد الكامل والملك العادل تحتمل تأليفا مستقلا رحمه الله / 206 / تعالى ورضي عنه وقد أفردت بالتأليف.

وقال ابن خلكان في ترجمة نور الدين الشهيد بعد التعريف به كما سبق: وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف، وكان بينه وبين أبي الحق سنان بن سليمان بن محمد، الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية، مكاتبات ومحاورات بسبب المجاورة، وكتب إليه نور الدين في بعض الأزمنة كتابا يتهدده فيه ويتوعده بسبب اقتضى ذلك، فشق على سنان وكتب جوابه أبياتا ورسالة وهما:

يا ذا الذي بقراع السيف هددني لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدده⁽³⁶⁴⁾ لأسود البر أضبعه

أضحى يسد فم الأفعى بأضبعه يكفيه ما قد تلاقي منه أضبعه
وقفنا على تفصيله ومجمله، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله، فيا لله العجب ذبابة تطن في أذن فيل وبعوضة تعد في التماثيل، ولقد كان من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين، أو للحق تدحضون وللباطل تنصرون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وأما ما صدر منك من قولك في قطع رأسي، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أمانى كاذبة وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض، كم بين قوي وضعيف وردي وشريف، وإن عدنا إلى الظاهر والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمعقولات، فلنا إسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: (ما أودى نبي ما أوديت)، وعلمتم ما جرى على / 207 / عترته وأهل بيته وشيعته، والحال ما حال والأمر ما زال ولله الحمد في الآخرة والأولى، إذ نحن مظلومون لا ظالمون ومغصوبون لا غاصبون، وإذا جاء الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، وقد علمتم حالنا وكيفية رجالنا، وما يتمنونه

(364) بياض محل الكلمة في (i) و"استنطقت في (ب)، ابن خلكان، 5-186.

من الفوت ويتقربون به إلى حياض الموت، قل فليتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين، وأمثال العامة السائرة (أو للبط تهددون بالشط، فهبي للبلايا جلبابا وتدرع للرزايا أثوابا، فلاظهرن عليك منك ولافتننهم فيك عنك)⁽³⁶⁵⁾، فتكون كالباحث على حتفه بظلفه والجاذع مارن أنفه بكفه وما ذلك على الله بعزيز. وفي نسخة زيادة على هذا: فإذا وقفت على كتابي هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ومن حالك على اقتصاد واقرا أول النحل وآخر صاد⁽³⁶⁶⁾.

الصحيح أنه كتبها إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. وبالجملة كانت ولادته يوم الأحد سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخسمائة بقلعة دمشق بعة الخوانيق، والدعاء عند قبره مستجاب مشهور، انتهى باختصار.

تعرف ابن عثمان على علماء دمشق الأحياء

ومن الأعلام المدفونين بالصاحية الإمام الكبير والنحوي الشهير، محمد بن مالك الجباني⁽³⁶⁷⁾ صاحب "الألفية والتسهيل" رحمه الله تعالى ورضي عنه، وعن لقيته من الأحياء البركة سلالة العلماء والصالحين، والفقيه المحدث الشيخ سعد الدين الحنفي حفيد الشيخ القدوة العمدة، سيدي عبد الغني بن النابلسي رحمه الله تعالى ورضي عنه، وحفيده هذا سلك مسلك أسلافه في الدين والاعتكاف على قراءة العلم، وله مشاركة في علوم، صاحب وقار وسمت حسن. وقد توجهنا / 208 / إلى زيارة جده سيدي عبد الغني المذكور، فأدخلنا إلى مكانه وأكرمنا أكرمه الله، وأراني رحلة له إلى

(365) سقطت هذه الجملة من النسختين حيث ترك بياض قدر نصف سطر، وخرجت من ابن خلكان، 5-168.

(366) إشارة إلى الآية الأولى من سورة الفتح ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، والآية 86 من سورة ص ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾.

(367) محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجباني (600-672هـ / 1204-1274م)، أحد الأئمة في علوم العربية، ولد في جبان بالأندلس ورحل إلى دمشق فتوفي بها، أشهر كتبه "الألفية" في النحو و "الضرب في معرفة لسان العرب" و "الكافية الشافية" وغيرها. (الزركلي 6-233؛ نفح الطيب 1-434).

بيت المقدس نحى (كذا) فيها نحو جده، وأطلعنا على عدة تأليف لسيدي عبد الغني منها تأليف في حلية العشبة المسماة في الوقت⁽³⁶⁸⁾ ببطابة⁽³⁶⁹⁾، ومنظومة عدد فيها منافعها و سماه الصلح بين الإخوان.

ومنهم الفقيه اللبيب الحسيب الأديب كمال الدين الشيخ محمد بن محمد الدمشقي المشهور بالغزي الشافعي⁽³⁷⁰⁾، اجتمعت معه في جامع الأموية وأدخلنا إلى بيت له في المسجد كبير في ناحية الصحن، يقعد فيه بقصد المطالعة والإفتاء، وأتى إلينا إلى منزلنا الذي كنا به ودار الكلام بيننا في الشيخ الجليل صاحب الكرامات سيدي أرسلان الذي تقدم ذكره، فقلت له: من هو هذا الرجل، فقال لي: أبعث إليك التعريف به فأبطأ، فأرسلت إليه بطاقة نصها: "الحمد لله وحده، أحيي طلعة ذلك الهلال المرقوب بسلامته من النقص بعد الكمال، الذي هو للدنيا زينة وجمال وللدين كمال، وللمستمعين فال وللمعتفين آمال، تحية حب معتكف على حبكم لا يبرح، وذو وجد بمحاسنكم لا يكيف لعدم انتهائه ولا يشرح، ويستنجر منكم ما وعدتم به من ترجمة الشيخ أرسلان، فقد كان عليكم في ذلك الإعتماد والتكلان، والله تعالى يتولى هداكم ويفسح في بقاء مدتكم ومداكم، ولا تبخل علينا برؤيتك، أنفسنا تفديك ثق ولا تجعلها بيضة الديك.

فبعث الترجمة ومعها أبياتا نصها:

يا واحد الفضل وفرد النسهي	وأكمل الناس مقاما وحال
209 / ومن رقى مجده رتبة	قد قصرت عنها فحول الرجال
ومن بميدان العلوم اغتدى	إن جال لم يبق لسفير مجال

(368) سقطت من (i) ووردت في (ب).

(369) يقصد التبغ.

(370) أبو الفضل كمال الدين محمد بن محمد شريف بن شمس الدين الغزي العامري (1173-1214هـ/1759-1799م)، مؤرخ نسابة أديب كان مفتي الشافعية في دمشق حيث ولد وتوفي، له شعر جيد وكتب منها "التذكرة الكمالية" و"المورد الأنسي في ترجمة الشيخ عبد الغني النابلسي". (الزركلي 7-70).

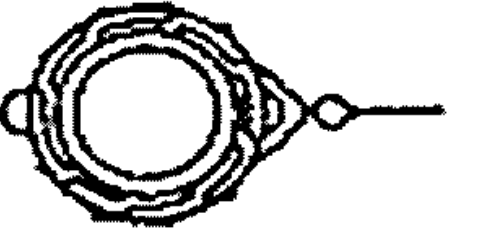
لا عجب من بدر فضل أضأ
تبارك السواهب قلبي له
فأجبه بقولي:

فمن جهات الغرب يبدو الهلال
وجل من قد خصه بالكمال

وأنتم أهل لكل الذي
وحزتم علما ومكرمة
خلقا وخلقا وانبساطا له
وحلية حلاك رب العلا
فما عسى يثنى عليكم به

ذكرتم بلا بقاء احتمال
لله أنت يافصيح المقال
أدب غض للنفوس استمال
بها لكم على القلوب اثنمال
وأنتم للدين صرتم كمال

استتكار ابن عثمان لمارسات القضاة وانتشار الرشوة والفساد



ومنهم مفتي الحنبلية الشيخ إسماعيل الجزاعي، فقد كان منزله بالقرب منا وكان يتردد إلينا كثيرا. وقد نزلت نازلة بدمشق وذلك أن القاضي سجن رجلا حكم له، حتى يؤدي عشر الشيء المتنازع فيه كما هي عادة قضاة المشرق، نسأل الله السلامة والعافية من هذه الورطة التي وقعوا فيها، فقد عمت بها البلوى في القسطنطينية وبلاد الترك والشام والعراق ومصر وجميع بلاد المشرق، وباعوا آخرتهم بدنياهم متفقين على ذلك من غير توقف ولا تأمل، ولا تخوف ولا استحياء ولا تستر، فليس للوعظ فيهم عمل ولا تأثر، فكأنها عندهم جباية من أصول فيسمونه بالمحصول، /210/ فتجد القاضي يناضل على قبضه ويصول، من غير ارتياء ولا استحياء ولا حشمة، ولا اعتبار بعار أو وصمة، كأنه حق واجب ويزاد للجلس والحاجب، فإن كانوا مع إظهارهم لهذا الأمر جليلة معتقدين حليته، فقد باءوا بالصفقة الخاسرة وجوه يومئذ باسرة، فيا حسرتا على الأحكام الشرعية المرضية المرعية، فقد ضاعت حقوقها وساغ عقوبها.

وطلب مني أن نشفع عند قاضي البلد في هذا الرجل، وهذا القاضي لم يكن بيني وبينه اتصال، فلا كان والرجل ألح علي به كثيرا، وقد وقع بيننا وبين قاضي مكة المشرفة معرفة ومحبة لما أتينا من القسطنطينية، فقد جئنا في رفقة واحدة، فقد وجهه السلطان برسم أن يكون قاضيا في الحرم

الشريف، وجمعنا الطريق فصارت بيتنا وبينه المعرفة، فكتبت له أبياتا ليشفع
هو عند القاضي المذكور، الآتي بهذا الفعل المنكور وهي:

الحمد لله الذي يثيب معذرا صلاح هذي الأرض والخلق عيال على كماله لحادث يشكي لذي مروءة غاية مأربي لكم وحرصني جعل في الأغلال والقيود حتى يؤدي لقاضي البلد / 211 / من غير ما جرم ولا جناية من أجل ما حكم فيه وقضا ما أنزل الله بها سلطانا حرمة مال المؤمنين كالدم وقد أتانا راغبين أهله فتوسط له عند القاضي، وبالتي واللتيا ⁽³⁷¹⁾ أسقط له نصف حقه، واستخلصناه بمشقة من رقه، بعد أن علق بأظفاره مثل ما علق أظافر سنور بفارة، وبقي ينهق تحسرا مثل حمار فارد من كثرة ما هو شاره.	ويجتي إلي من ينيب بدفعه ببعضنا عن بعض أحبهم ذو النفع لعياله يسلي هموما نزلت بهمه أن تنقذوا عبد الجليل الحمصي في ظلمة في باطن الأخدود ربع كيس من قروش العدد فلتدركنه منكم عناية أعيدكم بالله من سوء القضا فالظلم يخلي الدور والأوطانا عن النبي رواء ذو التقدم ونحن جنناك فأنت أهله فتوسط له عند القاضي، وبالتي واللتيا ⁽³⁷¹⁾ أسقط له نصف حقه، واستخلصناه بمشقة من رقه، بعد أن علق بأظفاره مثل ما علق أظافر سنور بفارة، وبقي ينهق تحسرا مثل حمار فارد من كثرة ما هو شاره.
---	--

ومن الغريب أن القاضي الذي بعثنا له بالأبيات ليشفع عند قاضي البلد
في قضية الرجل المذكورة، رأينا منه أشياء ونحن في طريق الحجاز أبشع من
سيرة القاضي الأول، وذلك أنه مهما مات أحد من الحجاج إلا بعث
أصحابه في الحين، فيحصوا متاعه ويأخذ عشره وورثته قائمون موجودون،
بل ربما مرض أحد فثقف متاعه قبل موته، ويناضلون على هذا ويخاصمون
عليه إن ظهر من يصددهم عنه ولو بشفاعه، ويرون أنه حقهم نفذه لهم
السلطان، فإن كانوا مع هذا يعتقدون الحلية فهو كثر ولا حول ولا قوة إلا
بالله، فقد ضاعت الأحكام الشرعية في هذه الديار المشرقية، فلا تجد

(371) تعبير شائع في مؤلفات المغاربة يقصد به "بعد جهد ومشقة".

أحكامهم إلا بعادة أو قانون مصطلح عليه، وإن سلكوا فيها على المنهاج الشرعي فبأقل رشوة يستمالون عن الحق.

ومن أغرب ما حكى لي في ذلك صاحبنا الفقيه الأجل الأديب الشيخ كمال الدين محمد الغزي / 212 / الدمشقي، أن [...] ⁽³⁷²⁾ سافر في البحر فأخذه النصارى أسيرا وذهبوا به إلى مالطة، فعرفوه من أهل العلم فخلوا سبيله، فبينما هو ذات يوم يدور فدخل إلى كنيسة فوجد راهبا قاعدا وحواليه الكتب، فرأى فيها تفسير أبي السعود ⁽³⁷³⁾ والبيضاوي وغير ذلك، فأخذ سفرا من تفسير أبي السعود فتصفحه فإذا في آخر ورقة منه مكتوبا فيه: كتبه فلان الفلاني المقدسي، فقال للراهب: إستنسخت هذا الكتاب في بيت المقدس أو اشتريته، فقال له: إنني استنسخته لما كنت قاضيا هنالك، فقال له: وكيف كنت قاضيا ببيت المقدس وأنت من الرهبان، فقال له: إني كنت مملوكا لقاضي عسكر بإسطنبول، فلما طالت خدمتنا معه كبرني وجعلني قاضيا ببيت المقدس، فانظر هذه المفسدة العظيمة ولا حول ولا قوة الا بالله، جبر الله حال المسلمين.

وصف مقتضب لدمشق

رجع إلى خبر دمشق: هي مدينة عظيمة بما أضيف إليها، فعدد الحمامات التي بها نحو الستين ومن المرمات التي تنسج الحرير ما يزيد على الخمسة عشر ألفا كما أخبرني بعض أهلها، عامرة الأسواق مؤسسة في بسيط

(372) بياض في النص في النسختين؛ ويذكر الزباني حكاية مطابقة مشيرا إلى أن شخصا يدعى إبراهيم الدمياطي حج معه، فحكى له كيف وقف في مالطة على راهب يطالع كتبا إسلامية فلما استفسره عن السر قال له بأنه نسخها عندما كان قاضيا بالقدس. (الترجمة، 192)

(373) أبو السعود بن محمد الأمدي (896-982هـ / 1490-1574م)، نسبة لآمد المعروفة الآن بديار بكر، فقيه عثماني من أصل كردي ظل شيخا للإسلام ثلاثين عاما وكان من أكبر أعموان السلطان سليمان القانوني، صنف تفسيرا للقرآن استنقاه من تفسير البيضاوي والكشاف للزحشري، مما بوأه مكانة مرموقة لدى السلاطين العثمانيين، وقد حزن السلطان سليم الثاني حزنا شديدا لوفاة. (دائرة المعارف 1-348).

من الأرض، قريبة من جبل قاسون الذي في سفحه الصالحة وهي قرية عظيمة من قرى دمشق، كثيرة المياه -نعني دمشق- كثيرة البساتين وكلها على السقي.

مراسيم خروج الרכب النبوي من قلعة دمشق

وقد أقمنا بها ثمانية وثلاثين يوما، وقبل خروجنا منها بأربعة أيام تأهب الوزير إلى السفر، لأنه يخرج قبل الרכب بثلاثة أيام بالمحمل وعلم النبي صلى الله عليه وسلم، وليس هذا العلم هو نفس علم النبي عليه الصلاة والسلام، لكن لما كانوا يسافرون به إلى مقامه الشريف في كل سنة نسب إليه.

ويوم خروج العلم من القلعة /213/ ودفعه إلى الوزير يوم مشهود، فتوجهنا إلى رؤية ذلك ودخلنا إلى القلعة، ثم إلى ضريح صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عويمر بن زيد الأنصاري أبي الدرداء، فزرناء ودعونا الله تعالى عند قبره وأقمنا هنالك ننتظر خروج العلم، ثم بعد هنيئة أتى قائد القصبة ويقال له أغات الكشائية، لأن هذه القصبة لها قائد مخصوص من قبل السلطان، ومعه عسكر إلى نظره فليس للوزير عليه سبيل، ومن حسن سياسة السلطان أن الوزير لا يدخل إلى هذه القلعة لا بوجه ولا بحال، وإذا أراد أن يدخل يمنعه قائد القلعة بعسكره خشية أن يتعصب فيها ويظهر الإستبداد والشقاق، لأن هذا الوزير عمله متسع ومجياؤه (كذا) كثير، وبلاد السلطان بعيدة فلا يؤمن من ذلك، وبسبب هذا رسموا على الوزراء أن لا يدخلوا إلى القلعة.

ولهذه القلعة مدافع كثيرة دائرة بها وحفير، وسور عظيم في غاية الضخامة من بنیان الروم الذين كانوا هنالك قبل الإسلام، فإذا أراد الوزير أن يظهر خلافا وشقاقا وعصيانا على المملكة، فإن العسكر الذي بالقلعة يرمونه بالمدافع من القلعة ويهدون داره، فهم هنالك عليه لا له؛ ولما جاء أغات الكشائية الذي هو رئيس القلعة دخل إلى ضريح أبي الدرداء مع أعيان العسكر، ودخلنا معهم وأتوا بصندوق فتحوه وأخرجوا منه علم النبي صلى

الله عليه وسلم، وأحضروا قصعة من النحاس وأباريق من ماء الورد والطيب والبخور، ثم غسلوا جامور العلم وهو من الذهب بماء الورد في تلك القصعة، وطافوا /214/ على الحاضرين بتلك الغسالة، فشرب الناس منه على سبيل التبرك وتمسحوا به، وبخروه وركبوه في صعوته أي عصاه، والناس في هذه الحالة يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى فرغوا من هذا العمل، ثم رفعوا العلم الشريف وخرجوا به بالطبول والآلات وقصدوا به دار الوزير، وحضر القاضي والمفتي وسلموه للوزير بأشهاد، ويكون في هذا اليوم- نعني يوم خروج العلم- مهرجان عظيم وتخرج مدافع كثيرة بعشية هذا اليوم إيدان برحيل الوزير.

ومن الغد خرج الوزير في موكب عظيم ومعه عسكره، وتوجه إلى قلعة يقال لها مزيرب، ليتلاقى هنالك مع العرب حتى يكمل أغراضه في شأن الإبل التي تحمل له الميرة وغير ذلك، وبقي الركب بعده ثلاثة أيام، وفي ليلة التاسع عشر من شوال كان خروجنا من دمشق الشام، فركبنا عشية بقصد زيارة صالحيتها لكن لم يتيسر لنا ذلك لكثرتهم نفعا الله ببركاتهم، فطلعنا إلى الصالحية منبت الصالحين، فعمدنا أولا إلى تربة الإمام سيدي محمد بن مالك صاحب "الألفية والتسهيل"، لكوننا لم نزره قبل فزرناه وتبركنا به، وقبره من وراء جدار قبة نبي الله ذي الكفل، وليس عليه قبة نفعا الله به فدعونا الله هنالك، ثم التفتنا إلى الصالحية وقصدنا جميع صلحائها بتعيينهم في أماكنهم، وكذلك صلحاء دمشق فزرناهم على هذه الكيفية خصصنا من علمنا وعممنا من لم نعلم.

ومشينا في تلك العشية إلى موضع يقال له الربوة في غربي دمشق، بين بساتين متعددة وأنهار مطردة /215/ ذات ظل ظليل ونسيم عليل، وهي المذكورة في القرآن في قوله تعالى: [وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين]⁽³⁷⁴⁾ على خلاف في ذلك، ثم رجعنا إلى بيت نزولنا واشتغلنا بالتأهب والاستعداد وشد حوائجنا، وبعثت بأبيات للفقهاء الجليل المحدث صاحبنا الشيخ سعد

(374) الآية 50 سورة المؤمنون.

الدين النابلسي ونصها:

خليلي قد حثت الصبر حثا
وقد أنشأ الفراق سحاب بين
فأرسل من صواعقه دويا
وآذن بالرحيل عن خليل
تزان به الصدور لذي دروس
أسعد الدين ساعدني فقلبي
وكيف يكون لي جسم سفير
وهل جسم بلا قلب ترفق
وقد قالوا السفراق أخ لموت
فإن تمنن فبالذي قد ملكتم
وصبري بعد تسليمي عليكم
فكان جوابه قدومه بنفسه لتشيعنا إلى أن جاوزنا المدينة بكثير .

وصف آخر لدمشق

وبعد صلاة العشاء وطلوع القمر حملنا وركبنا الأتخات تحملها الإبل،
وسرنا وأسواق المدينة مسرجة كلها عامرة بالبيع والشراء، والدكاكين مفتوحة
والسكك ملئى بالناس رجالا ونساء بقصد توديع الحجاج، فتجاوزنا المدينة
وخرجنا على بابها المسمى بوابة الله، فما جاوزناها إلا على مسيرة ساعة
وبقي طرف من المدينة من وراء بيتنا.

الحاصل أن دمشق بلد كبير، نعني بما أضيف إليه، وأما خصوص
مسور دمشق القديمة فليست غاية في الكبر وإنما هي متوسطة، وأما بما
أضيف إليها وزيد فيها خارج السور فهي كبيرة جدا مستطيلة لناحية القبلة،
ونمادينا على المسير فصلينا صلاة الصبح في الطريق، وبعد طلوع الشمس
بنحو ساعة وصلنا الخيام على خمس ساعات على قرية يقال لها ذو النون،
فأتى أهلها بالخضر الموجودة في الوقت من تفاح وغيره وخبز وعلف وتبن،
فأقمنا هنالك إلى أن صلينا العصر وحملنا وسرنا عشية ذلك اليوم والليلة

بعده، ووصلنا الخيام عند طلوع الشمس بمسير ست ساعات بقرب قريتين يقال لهما الصنمين⁽³⁷⁵⁾.

وهذه المرحلة كثيرة الحجارة صحراوية نباتها الشحيح، فظلنا مقيمين بها حتى انكسر حر الظهيرة وتحركت الأرواح⁽³⁷⁶⁾، ورحلنا قرب العصر فصلينا العصر لآخر وقتها وبقينا نازلين / 216 / إلى أن صلينا المغرب وسرنا، وبعد صلاة الصبح أشرفنا على الخيام وقد كان الوزير تقدم أمامنا كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، فخرج للملاقة الركب النبوي بعساكره وأوقفها عن يمين الطريق ويسارها وركب الحجاج سائر بينهما، إلى أن وصلنا الخيام على عشر ساعات بموضع يقال له مزيرب يقيم به الحجاج، فأقمنا به ستة أيام لقضاء ما بقي من الأغراض.

تنظيم شؤون الركب النبوي وممارسات الأعراب غير التزيهة

وهناك يتم الكلام على الكراء مع المقومين الذين يحملون الحجاج ويقومون بأكلهم وشربهم، على أن يؤدوا إليهم قدرا معلوما للراكب والفرس والجمل والأكل والمحمل والمحارات، ويسمون هؤلاء القوم مقومين لأنهم يقومون بأمر الحجاج في جميع ما ذكر حتى الخيام يبنونها لهم، فلا تجد أحدا في هذا الركب الشامي يطبخ أو يبني خيمة، إلا إذا أراد أن يطبخ شيئا زائدا على ما يأتي به المقوم.

وفي السابع والعشرين من شوال بعد أن فرغ الباشا، وهو الأمير الموجه مع الركب النبوي، من ترتيب أموره والكراء من العرب على حمل أثقاله وشؤونه، آذن بالرحيل بإخراج المدافع، ومن الغد بقرب العصر استعملنا المسير في أرض ذات انفساح، فما انفصلنا عن الدار بنصف ميل إلا وأحمال الباشا التي حملت الأعراب ملقاة في الأرض وفروا بالكراء وهلم جرا.

(375) الصنمين، قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران بينها وبين دمشق مرحلتان. (معجم البلدان 3-431).

(376) عامية يقصد بها الرياح الخفيفة.

فصلينا الصلوات لأوقاتها، وفي نصف الليل أشرفنا على الخيام قرب قرية يقال لها الرمة⁽³⁷⁷⁾ على ثمان ساعات بسير الإبل، وقد كانوا عازمين على أن ينزلوا بموضع أمامها يقال لها المفرق، لكن ثبطنا أمر هذه الأحوال التي رمت بها شياطين الأعراب حتى يسر / 217 / لها الباشا الإبل لحملها. فكملنا الليل هنالك وأقمنا النهار إلى العصر وسرنا عشية والليل كله، وصلينا الصبح عند الخيام بحوز قرية يقال لها المفرق، وهذه البلاد كلها بسيطة ذات انفساح كثير، صحراوية نباتها الشيع والحرمل وما أشبه ذلك، فظلنا مقيمين هنالك في حر شديد، وبعد صلاة العصر ركبنا وسرنا وصلينا المغرب لوقتها، وتمادينا على المسير فأنخنا هنيئة بعد نصف الليل ثم جددنا المسير، وبعد طلوع الفجر نزلنا لأداء الصلاة ثم سافرنا، وبعد صلاة الصبح بساعة نزلنا على واد جار يقال له الزرقا⁽³⁷⁸⁾، فكان مسيرنا اثنتي عشرة ساعة فظلنا مقيمين على هذا الوادي، وغسل الناس ثيابهم وبتنا به فاستراح الناس والإبل.

ومن الغد رحلنا بقرب الزوال فسرنا خمس ساعات، ونزلنا قرب العصر بموضع يقال له خان الزبيب فصلينا الظهر والعصر، والماء كان محمولا عندنا لأن الموضع ليس به ماء، وإنما سار الناس هذه المسافة بالنهار لأن الطريق ذات حجارة كثيرة وصعود وهبوط، ففيه مشقة على الإبل ولاسيما بالليل، فمن أجل ذلك ساروا بها نهارا متحملين مشقة الحر؛ وإنما قيل لهذا الخان خان الزبيب لأن الحجاج كانوا إذا قفلوا من مكة، تلقاهم أهل الشام بهذا الموضع يبيع الفواكه والمأكولات الطرية، وأما اليوم فإنما يأتون للزيرب.

وبقينا هنالك إلى أن صلينا المغرب، وسافرنا الليل كله وضحوة من

(377) يرسمها عبد الغني النابلسي "الرمثا" وهو الاسم الذي لازالت تعرف به اليوم، وهي قرية عظيمة ينسب إليها الشيخ عبد الرحمان الرمثاني المدفون بجبل لبنان من أرض البقاع، ارتبطت بدورها بطريق الحج فكان أهلها يبيعون المؤن للحجاج. (الحقيقة والمجاز 487).

(378) الزرقاء: نهر بالأردن يصب في الغور بناحية معان، عرف قديما بالمسبعة لكثرة أسوده. (معجم البلدان 3- 137: الحقيقة والمجاز 486).

النهار بعده ووصلنا موضعا يقال له البلقا⁽³⁷⁹⁾، نزلنا فيه على مسير سبع عشرة ساعة، والبلقا إسم قلعة على ماء هنالك، / 218 / فظلنا مقيمين عليها ولما صلينا العصر سرنا بقية النهار والليل كله، وصلينا الصبح بموضع يقال له وادي النسور، وليس هناك واد وإنما هو منخفض من الأرض، ثم تمادينا على المسير فنزلنا قرب الزوال على قرية يقال لها قطرانة، مبنية على بركة ماء كبيرة مؤسسة على وادي يحمل بالسيل وقت الأمطار، فبنوا في وسطه سدا وصرفوا ماءه إلى هذه البركة بقصد الحجاج، وهي كبيرة مربعة الشكل في كل ربع ثمانون خطوة، كثيرة العمق فقد ظهر من مدارجها نحو اثنتي عشرة وبقي فيها من الماء عمق اثني عشر قدما.

ووضع الباشا والناس في هذه القلعة أثقالهم التي لا يحتاجون إليها حتى يرجعون، وكذلك يخفون من الميرة التي تردهم إذا رجعوا، ويجعل كل واحد متاعه في بيت من بيوتها أو ناحية من نواحيها، وبها أناس ساكنون حصينة السور والغلق وعليها المدافع. وقد وصلنا هذه المنزلة على مسير ثمان عشرة ساعة، فقلنا بها إلى أن صلينا العصر وسرنا بقية النهار والليل كله، وبعد طلوع الشمس انحدرنا في مضيق بين جبال كثيرة الحجارة يسمونه بغاز الحسا، والحسا قلعة هنالك بها بركة ماء وقلعة، لكن بلغ الخبر أن ماءها لا يكفي الركب فتركها الباشا للرجوع كي يجتمع ماؤها، فتركها يسرة ومر بهذه الطريق فيها بعض عيون وخضرة وقصب كثير بين هذه الجبال، فنزل الحجاج عليها على مسير ثمان عشرة ساعة، فقلنا هنالك إلى أن صلينا العصر وشرب الناس واستقوا.

انعدام الأمن واستنفار خفرالركب لمواجهة غارات البدو

وطول هذا البغاز / 219 / أي المضيق الذي بين هذه الجبال كثير نحو

(379) أطلق هذا الاسم من طرف الجغرافيين القدامى على النصف الجنوبي من شرق الأردن، ويقصد به أيضا ناحية عمان فقط والهضبة الكلسية الواقعة بين وادي الزرقاء شمالا ووادي الحبيب جنوبا، اشتهرت أوديتها العميقة بخصبها وكثرة ووجود حنطتها، مما جعل الخلفاء الأمويين يتخذونها متنزهات لهم، ويشير ياقوت إلى أن البلقا من قرى حلب أيضا. (دائرة المعارف 4-

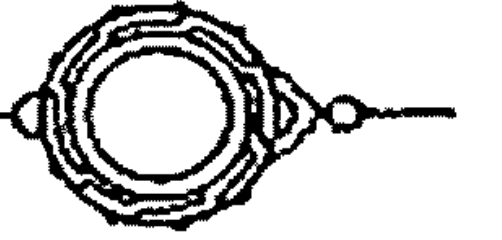
106؛ الحقيقة والمجاز 1486؛ 1028 E., I., 1)

أربع ساعات أو ما يزيد عليها وهو مخوف، وقبل أن نصل إليه تقدم العسكر أمامنا بالليل فسبقوا إليه وتمسكوا به، وتفرقوا على قننه عن اليمين والشمال مشرفين على الوادي، وراياتهم وعلاماتهم مركوزة في الأرض والركب مار بين الفريقين، وإنما تقدم العسكر إلى هذا المكان خشية أن يتمسكوا به العرب، فلا يتركون الحجاج يسرون إلا أن يرضونهم بما يريدون.

وعند العصر سافرنا من هذا المكان الشاق، الذي كادت أن تلتف به الساق بالساق، الذي هو مأوى لكل شيطان ومريد (كذا) من الإنس عاق، ثم خرجنا منه وتمادينا على المسير في أرض بسيطة كثيرة الحجارة، وبعد طلوع الشمس بنحو ساعتين نزلنا على قلعة أمامها بركة ماء مثل البركة المتقدمة يقال لها عنزة، مسماة باسم قبيلة من العرب هي في أرضهم فسميت بهم، ولكون هذه القبيلة خفراء لهذه القلعة وما يوضع فيها، فنزلنا عليها وشرب الناس واستقوا وسقوا الإبل والدواب وطبخ الناس غذاءهم وعشاءهم.

وسافرنا منها في الإصفرار وعند الفجر صلينا الصبح بقرب الدار، ثم توجهنا إلى الخيام عند قريتين بموضع يقال له معان⁽³⁸⁰⁾، فيها عيون وبساتين وصلناها على سبع ساعات وقد وجدنا فيها عنباً ورمانياً، إلا أن هاتين القريتين استولى عليهما الخراب، وقد أباد أهلها الجوع والقحط فلم يبق منهم إلا قليل، وقد أخبرت أن هاتين القريتين كانتا على أحسن حال وأكمله من العمارة والتجارة، وتيسر الأشياء فيها من العمارة والعلوفات / 220 / وسائر الأقوات، وأما اليوم فيكفيك من شر سماعه.

(380) معان هي الآن مدينة بالأردن في طرف بادية الشام في الطريق إلى الحجاز من نواحي البلقاء، اشتهرت بمياهها وبساتينها ومن ثمة كانت محطة على طريق الحج. (الروض 555؛ معجم البلدان 5- 153؛ الخفيفة والمجاز 485).



شق الطرق في الجبال وإعجاب السفير بذلك

وهذه المنزلة هي المنزل الثانية التي يقيم بها الركب بين الشام ومكة، لإراحة الأنفس والإبل يوم الوصول وليلة غده وبعده إلى عشية النهار، فرحلنا منه بعد المقام المذكور عند الزوال وسرنا بقية النهار واللييلة بعده، وبعد طلوع الشمس بساعة، نزلنا بموضع يقال له العقبة⁽³⁸¹⁾ على مسيرة ثمان عشرة ساعة على غير ماء، وقد كنا حملناه معنا من معان، وقد كان في هذا الموضع قلعة وبركة ماء فخربت وبقيت هذه المرحلة من غير ماء، فنزلنا بها إلى نصف النهار وطبخ الناس ما أكلوا وصلينا الظهر وسرنا فأنحدرنا مع هذه العقبة، وقد كانت من قبل صعبة يمر بها جمل في إثر جمل إلى زمن عثمان باشا رحمه الله لما كان أميراً على الشام، ففتحها بالمعاويل ووسعها وسواها، فهي اليوم يمر بها الستة والسبعة من الإبل رحمه الله وجزاه خيراً، ولما انحدرنا منها انتهينا إلى رمل ومن هناك إلى مكة كله رمل وهذا أول الحجاز .

ثم تمادينا على المسير بقية النهار والليل كله، وكنا ننزل لأداء الصلاة لأوقاتها وفي نصف الليل للإستراحة، وبعد صلاة الصبح وصلنا الخيام على مسير اثنتي عشرة ساعة على قلعة يقال لها المدورة، وإلى جانب القلعة أرض مأوها قريب يحفر عليه شيء قليل وينبع الماء، منه يستقي الحجاج ويشربون، وقد أداروا على هذه المتابع سورا يرد عنها الرمل لئلا يغطيها ويعفى أثرها، فهو يتلقى ما تأتي به الرياح من الرمال، فظلنا هناك⁽³⁸²⁾ مقيمين من الصباح إلى عشية / 221 / النهار، وسافرنا الليل كله وصلينا الصبح عند الخيام بموضع يقال له ذات حج، وهناك قلعة مؤسسة على بركتين من الماء مأوئهما كثير إلا أن رائحته كريهة، وقد حمل الناس الذين لهم خبرة الماء من المدورة الدار التي قبل هذه⁽³⁸³⁾، فحملنا الماء معنا كما فعل الناس، فكنا نشرب من

(381) العقبة، منزل في طريق مكة من الشام بين واقصة والقاع، وهو ماء لبني عكرمة من بكر بن وائل فيه مضائق بين جبال تمر بها الثغافل وركب الحجاج. (معجم البلدان 4-134).

(382) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(383) يورد النابلسي أن بذات حج بركة ماء تحرسها كل سنة طائفة من عسكر الشام، ويروي أنه "استقى الناس من ذلك الماء الكثير وحملوا الماء لأن بعد ذلك ثلاث منازل لا ماء فيها إلى قلعة معان". (الحقيقة والمجاز 485).

الماء المحمول ونتوضأ من ماء ذات حج، وقد وصلناها بعد مسير عشر ساعات فظلنا بها إلى أن صلينا العصر، ثم سرنا العشية والليل كله وصلينا الصبح عند الخيام بموضع يقال له القاع⁽³⁸⁴⁾، بأرض بسيطة عريضة مستوية عرية من النبات وليس بها ماء، فقلنا بها إلى العصر وسافرنا والحر كأنه لهيب النار تلك العشية والليل، وصلينا الصبح عند الخيام بتبوك⁽³⁸⁵⁾ وهناك قرية وقلعة وبركة ماء فظلنا بها، وهناك بساتين فكان أهلها يأتون بالرمان والعنب يبيعونه من الحجاج، وقد وصلنا هذه المنزلة بمسير اثنتي عشرة ساعة، فظلنا بها النهار كله وعند المغرب سافرنا الليل كله، ونزلنا عند صلاة الصبح بموضع يقال له ظهر مفر على غير ماء، والعادة أنهم إذا رحلوا من تبوك ينزلون على قلعة يقال لها الأخضر⁽³⁸⁶⁾ بينها وبين هذه الدار نحو عشر ساعات، لكن وصل الخبر إلى الوزير بأن الدولاب الذي يستقى به الماء للبركة فسد، فبعث دولاباً آخر من الطريق وتثاقل في المسير، فبات في ظهر مفر ليستقوا الماء الكافي، لأن البلاد التي من الأخضر إلى أمام فيها مسيرة ثلاثة أيام (لا ماء فيها)⁽³⁸⁷⁾ إلى مدائن صالح⁽³⁸⁸⁾.

(384) القاع، منزل بطريق مكة بعد العقبة لمن يتوجه إلى الحجاز ومنه يرحل إلى زبالة، يقال له كذلك قاع البزو. (معجم البلدان 4-298؛ الحقيقة والمجاز 484).

(385) تبوك، قرية على طريق الحج بين دمشق والمدينة، كانت أيام النبي على الحدود الشمالية لبلاد العرب دخلت التاريخ لحدوث الغزوة الشهيرة التي قام بها النبي لإخضاع عرب الشمال سنة 9 هـ. (دائرة المعارف 4-575).

(386) الأخضر، منزل قرب تبوك بين وادي القرى، كان قد نزل الرسول في مسيره إلى تبوك، فيه قلعة يستقر بها عساكر الشام لحماية بركة الماء من الأعراب، كما يوجد بئر اشتهر أن الذي حفره الخضر عليه السلام فيزوره الناس ويتركون به. (معجم البلدان 1-123؛ الحقيقة والمجاز 484).

(387) سقطت من (أ) وأضيفت في الهامش في (ب).

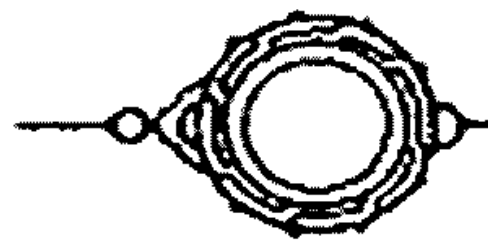
(388) مدائن صالح، قرية في شمال غرب العربية السعودية بنيت قرب خرائب وأطلال الحجر (بكسر الحاء) التي تشير بقاياها الأثرية إلى الأهمية التي كانت لها قديماً. وقد اختفى اسم الحجر وصار البدو يسمون الموقع بمدائن صالح، ويتميز هذا الموقع الأثري بالتقويم ذات الأعمدة المصقولة والواجهات المنقوشة والمنحوتة في الأجراف الصخرية فيما يشبه آثار البترا. وقد وردت في القرآن قصة تمود - أهل هذه المنطقة - مع النبي صالح وناقته وكيف دمر الزلزال هذه القرية (377 - 378 E.I.).

فقلنا في ظهر مغر إلى قرب العصر ثم سافرنا، / 222 / ونزلنا عشية فصلينا العصر لآخر وقتها وبقينا إلى أن صلينا المغرب، وسرنا في بلاد كثيرة الحجارة وقد تقدم أمامنا العسكر بالنهار إلى موضع ضيق بين جبال، يخشى من العرب أن يتمسكوا به ويمنعوا الركب من المسير، فمررنا بهذا المضيق ووجدنا العسكر نازلا به على قنن الجبال يمينا وشمالا بعلاماتهم، والوزير نازلا أسفله على فم المضيق بخيله، وبقوا هنالك إلى أن خرج الركب كله؛ وقد كان هذا المضيق في غاية الصعوبة والضيق قبل اليوم يمر الركب كله جمل في أثر جمل، إلى زمن عثمان باشا رحمة الله عليه وذلك قبل تاريخه بنحو ست عشرة سنة، فوسعه وقلع الصخور العظيمة والحجارة الكثيرة ونحت الجبال يمينا وشمالا، فصار الناس يمرون به اليوم بأربعة وخمسة من الإبل متساويات تقبل الله منه، وهذا الوزير هو صاحب العقبة الأولى وله آثار كثيرة في هذه الطريق، فقد ابنتى قلعا متعددات وبركا للماء كثيرات، كثر الله في المسلمين مثله، يبقى الثناء وتذهب الأموال.

وفي آخر الليل وصلنا الأخضر بعد مسير نحو عشر ساعات، وبه قلعة حواليها خمس برك يخرج إليها الماء من القلعة فتمتلا (كذا)، فاستقى الناس بالليل وفي أول النهار ما يكفيهم ثلاثة أيام لا ماء فيها، وعند العصر اعتمدنا على رحمة الله تعالى وسرنا فقطعنا ذلك البغاز أي المضيق المذكور قريبا، وفيه من أوله إلى آخره نحو خمس ساعات، وتمادينا على المسير الليل كله، وبعد طلوع الشمس بساعة نزلنا في موضع بين جبال بعد سير خمس عشرة ساعة، / 223 / وليس هذا الموضع معروفا لنزول الركب بل الموضع المعروف للنزول قلعة يقال لها المعظم⁽³⁸⁹⁾، بقي بين هذا الموضع وبينها أربع

(389) المعظم، وادي عذب الهواء وحلو الماء ومتسع الأرجاء، يورد الشيخ إبراهيم الخياري في رحلته حسب ما نقله النابلسي أنه * قد اشتمل على قلعة عظيمة محكمة البناء... وبجانب القلعة... بركة ماء مربعة متسعة... مبنية بالحجر *، ويرجح النابلسي أنها سميت بالمعظم لكون الملك المعظم هو بانيها وجعلها معسكرا لجنوده قبل أن ينقض عليهم الأعراب ويخربوا القلعة. (الحقيقة والمجاز 483).

ساعات لكن فسد ماؤها، فلما لم يكن فيها ماء وخشي الناس من الحر نزلوا في ذلك الموضع إذ لافائدة في المسير إلا التعب، فبقينا نازلين إلى أن صلينا الظهر وسرنا فوصلنا القلعة المذكورة عند العصر، وتمادينا على المسير بقية النهار والليل كله ونزلنا بعد طلوع الشمس بساعة بموضع قرب الحمراء، وهي قلعة لكن لا ماء فيها بمسير ست عشرة ساعة، وبقرب الزوال استعملنا المسير النهار والليل كله ومن الغد إلى قرب الزوال ثلاثا وعشرين ساعة، ونزلنا بمدائن صالح وهناك قلعة بها آبار وعيون.



مرور الركب بآثار الأنباط واندھاش ابن عثمان من الموقع

وهذه البلاد جبالها كلها على شكل المدائن مقلوب أعاليها سافلها والعياذ بالله، وبيوتهم كانت منحوتة في الجبال، والظاهر أنها قرى قوم لوط لأنهم هم الذين وقع بهم القلب، وأما قوم صالح فأهلكهم الله تعالى بالصيحة والله اعلم.

فبلغ الناس إلى هذا المحل على آخر رمق من نفوذ (كذا) الماء وكثرة الحر والعطش، وهذه المرحلة من أصعب الأرضين وأكثرها حجارة وصخورا وصلدا عظيما، فاستقى الناس لأنفسهم وللإبل والدواب وحملوا الماء أيضا للدار الأخرى لأنها لا ماء بها أيضا، وقلنا في هذا المكان من شدة الحر إلى أن صلينا المغرب وسافرنا الليل كله، وبعد طلوع الشمس نزلنا بموضع يقال له سهل المطران مسامة (كذا) لآبار الغنم، وبها قلعة بقيت عن يميننا وقد كانت تظهر لنا عن بعد، وهي المرحلة / 224 / الثانية من مدائن صالح إن لو ذهبنا على العوالي، لكن تركنا العوالي عن يميننا وبها مياه وبساتين ونخيل، وقد أتى أهلها إلى المدائن بالتمر والليم⁽³⁹⁰⁾ وغير ذلك، فترك الوزير طريقها لطولها ولكون أهلها فيهم إذاية بالسرقة ونحوها، وأتى مع هذه الطريق لاختصارها وخلاتها من هؤلاء الشياطين وإن كانت لا ماء بها.

فظلنا مقيمين بهذه الأرض إلى العصر وسرنا بقية النهار والليل كله ومن

(390) يقصد البرتقال.

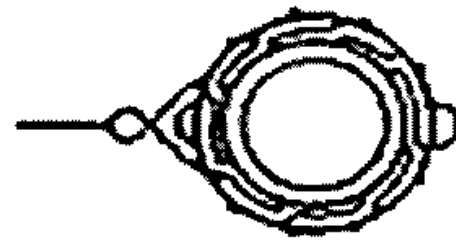
الغد إلى الظهر، ونزلنا على قلعة وبها ماء يقال له البير الجديد، وصلناها على سير إحدى وعشرين ساعة، وقد وصلنا عند طلوع الشمس من ذلك اليوم قلعة أخرى يقال لمائها الزمرد، فأبى الوزير أن ينزل بها وترك ماءها إلى الرجوع، فأقمنا عند البير الجديد بقية النهار فشرب الناس والإبل وطبخوا ما أكلوا، وبعد العشاء سافرنا الليل كله ومن الغد النهار كله إلى الإصفرار، ونزلنا على قلعة يقال لها هدية⁽³⁹¹⁾، لكن ما رأينا فيما تقدم أشد حرا من هذا اليوم مع عدم الماء وشدة اللهيب والحرق، فقد مات من الآدميين في هذا اليوم من العطش مائة وخمسة وسبعون، منهم من رأيناه على قارعة الطريق ومنهم من أخبرنا به، أما الإبل فشيء كثير.

وهذه القلعة، أي قلعة هدية، مؤسسة بين جبال في أرض ماؤها قريب يحفر عليه مقدار ذراع أو أقل وينبع ماؤها، إلا أنه ليس بعذب ففيه مساسة وقد أسهل بطون الناس، وقد نزلناها على مسير عشرين ساعة فبتنا بها واستقى الناس لأنفسهم والإبل، وحملنا معنا الماء منها للدار التي / 225 / بعدها لكونها لا ماء فيها، وعند الإصفرار سافرنا منها فسرنا الليل كله وبعد طلوع الشمس بساعة نزلنا بأرض يقال لها الفحلتين⁽³⁹²⁾ على سير اثنتي عشرة ساعة، وهذه البلاد كثيرة الحجارة والطريق فيها مارة بين جبال، فقلنا بهذه المنزلة إلى أن صلينا العصر وسافرنا إلى ضحوة الغد، ونزلنا بأرض منفسحة بين جبال يقال لها آبار ناصف، يحفر الناس الآبار في الرمل ويستخرجون الماء وهو أحسن من ماء هدية، وقد وصلناه على خمس عشرة ساعة، وبعد صلاة الظهر سافرنا بقية النهار والليل كله ومن الغد إلى الزوال، ونزلنا بظاهر المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وبنينا الخيام بسفح جبل سلع،

(391) منزلة على طريق الشام من المدينة، وهي أرض واسعة ذات رمال ووعر وأحجار وجبال، وفيها حفر كثيرة من الماء لكنه يوجب إسهال البطن بسبب ما ينبت هناك من السنا. (الحقيقة والمجاز 481)

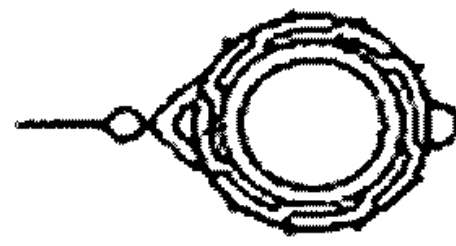
(392) منزلة على الطريق بين الشام والمدينة المنورة، كانت تسمى كذلك حصن عنتر، اشتهرت عند الحجاج بنقله الماء وشدة الحر وكثرة الغبار. (الحقيقة والمجاز 481).

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم وافر السلام على عرب بذي سلم



الوصول إلى المدينة المنورة وزيارة قبر الحبيب

ولما نزلنا الخيام أول ما فعلنا أن تطهرنا ولبسنا ثيابا بيضا وتطينا، وقصدنا الملاذ الأعظم والمقصد الأفخم، حضرة سيدنا وسيد الثقلين سيدنا ومولانا، ووسيلتنا إلى ربنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما وصلنا باب المدينة ترجلنا وسرنا على أقدامنا إلى باب المسجد الحرام الشريف، وقصدنا موضع محرابه صلى الله عليه وسلم وصلينا فيه ركعتين، وتقدمنا إلى الضريح المبارك الميمون وقابلنا تربته الطيبة من الشباك ولله الحمد، وتبركنا برؤيته والدعاء عند مقامه الشريف وكذا أصحابه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ورجعنا إلى الخيام ثم رجعنا من الغد أيضا ففعلنا مثل ما تقدم، ومن الغد كذلك .



زيارة قبور الصحابة والخلفاء الراشدين وزوجات النبي

وخرجنا إلى البقيع⁽³⁹³⁾ فزرنا أولا تربة سيدنا العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم، / 226 / وسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه، والإمام زين العابدين والإمام جعفر الصادق⁽³⁹⁴⁾ والإمام محمد الباقر، والسيدة

(393) البقيع، بقيق الخردق، مقبرة إلى جنوب شرق المدينة المنورة دفن بها إبراهيم ولد النبي وبناته وزوجاته والجمهور الأعظم من الصحابة والأئمة مثل الحسن بن علي وعثمان بن عفان ومالك بن أنس، ولذلك فهي من المزارات التي يؤمها الحجاج. (دائرة المعارف 4-35؛ رحلة ابن جبير 145).

(394) أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط الملقب بالصادق (80-148هـ/699-765م)، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. كان من أحلاء التابعين وذا منزلة رفيعة في العلم، أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك وواصل بن عطاء، وله أخبار مع الخلفاء العباسيين إذ كان جريئا عليهم صдаعا بالحق، ولكنه اتخذ مواقف سياسية انتظارية رغم تشوف الشيعة إلى تزعمه لانتفاضاتهم بحيث بقي على الحياد مثلا خلال ثورة محمد النفس الزكية (145هـ/762م). توفي مسموما بإيعاز من المنصور حسب رواية الاثني عشرية ودفن بالبقيع. له رسائل مجموعة في كتاب ورد ذكرها في كشف الظنون. (ابن خلكان 1-327؛ الزركلي 2-126؛ E., I., 2-384)

فاطمة⁽³⁹⁵⁾ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلهم في قبة واحدة،
 وزرنا بعده أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة عائشة بنت أبي
 بكر وحفصة بنت الفاروق عمر بن الخطاب⁽³⁹⁶⁾ وأم ميمونة
 وجويرية⁽³⁹⁷⁾ وجميعهن في قبة واحدة.

ثم زرنا بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة واحدة، ثم تربة
 عقيل بن أبي طالب، ثم إلى تربة الإمام الأعظم مالك بن أنس رضي الله
 عنه، ثم إلى جانبه نافع⁽³⁹⁸⁾ شيخ القراء، ثم إلى زيارة سيدنا إبراهيم بن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه في قبة واحدة على قول بعض
 المزورين بقية العشرة الكرام ولكن غير صحيح، فإن أبا عبيدة بن الجراح
 تربته في الغور في نواحي القدس، والإمام علي رضي الله عنه بالكوفة
 وسيدنا حمزة⁽³⁹⁹⁾ في ظاهر المدينة قبالة أحد، وأبو بكر وعمر في الحجرة

(395) فاطمة الزهراء بنت رسول الله (18 ق.هـ - 11 هـ / 605-632 م)، من خديجة بنت خويلد، تزوجها
 أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب، عاشت بعد
 أبيها 6 أشهر ولها 18 حديثاً. (ابن سعد 8-11؛ الإصابة، النساء ت. 830؛ الزركلي 5-132).

(396) حفصة بنت عمر بن الخطاب (18 ق.هـ - 45 هـ / 604-665 م)، صحابية جلييلة من أزواج النبي
 ولدت بمكة وهاجرت إلى المدينة مع زوجها الذي توفي عنها، فتزوجها الرسول سنة 2 أو 3
 هـ. ظلت مقيمة بالمدينة إلى أن توفيت بها، روى لها البخاري ومسلم 60 حديثاً. (الزركلي 2-
 264-265؛ الإصابة 4-273؛ ابن سعد 8-56).

(397) جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار (ت. 56 هـ / 676 م)، إحدى زوجات النبي كان أبوها سيد
 قومه في الجاهلية، وسييت مع بني المصطلق فاقتداها أبوها ثم زوجها للرسول، وكان اسمها
 "برة" لكن الرسول سماها جويرية. كانت من فضليات النساء أدبا وفصاحة، توفيت بالمدينة
 وروى لها البخاري ومسلم 7 أحاديث. (الزركلي 2-148؛ ابن سعد 8-83).

(398) نافع القارئ، أبو رويم نافع بن عبد الرحمان بن أبي نعيم الليثي (ت. 59 هـ /)، أحد القراء
 السبعة المشهورين وإمام أهل المدينة، كان أسوداً شديداً السواد صبيح الوجه حسن الخلق ذا
 دعاية، أصله من أصبهان واشتهر بالمدينة حيث انتهت إليه رئاسة القراء، وتوفي بها. (ابن
 خلكان 5-368؛ الزركلي 8-5).

(399) حمزة بن عبد المطلب بن هاشم القرشي (54 ق.هـ - 3 هـ / 556-625 م)، عم النبي وأحد صناديد
 قريش وسادتهم في الجاهلية والإسلام، ولد ونشأ بمكة. تردد في اعتناق الإسلام ولما علم
 بتعرض أبي جهل للنبي والنيل منه ضربه وأظهر إسلامه فكان ذلك سندا للرسول
 وللمسلمين، هاجر مع النبي إلى المدينة وحضر بدرًا وغيرها وقتل في معركة أحد ودفن
 بالمدينة. (الزركلي 2-278؛ طبقات ابن سعد؛ تاريخ الخميس 1-164).

النبوية وسيدنا عثمان والعباس في البقيع، وطلحة قتل يوم الجمل وكذا الزبير بن العوام لأنه مات يوم الجمل بوادي السباع والله اعلم.

وزرنا جماعة من الصحابة شهداء قتلوا في فتنة يزيد بن معاوية، وبعدهم زرنا سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وقبته في آخر البقيع، ثم زرنا مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم السيدة حليلة السعدية رضي الله عنها، وقبتها بقرب ضريح سيدنا عثمان، ثم إلى تربة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي سعيد الخدري وهو خارج سور البقيع، ثم فاطمة بنت أسد / 227 / والددة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم عمدنا إلى قبة فيها عمات النبي صلى الله عليه وسلم.

فكان مقامنا في المدينة المنورة في التوجه إلى مكة اليوم الذي وصلنا واليوم الذي بعده، واليوم الثالث سافرنا عند الظهر فسرنا ساعتين ووصلنا ذا الحليفة⁽⁴⁰⁰⁾، ويسمى اليوم ببيار علي لأنه هناك آبار كثيرة، فنزل الناس هنالك وابتنوا الخيام واستقوا الناس الماء لتلك الليلة ولليوم بعدها لكونها لا ماء فيها، وبقينا هنالك نازلين إلى أن صلينا العشاء بنحو ساعة، حتى تهيأ من تعين عليه الإحرام من هذا الميقات، وسرنا الليل كله ومن الغد إلى قرب الزوال، فنزلنا موضعا يقال له الشهداء على مسيرة ست عشرة ساعة من المدينة، وهذه البلاد إلى هذا الموضع كلها جبال وأرضها كثيرة الحجارة كثيرة الحر، فقلنا هنالك وعند العصر سافرنا بقية النهار والليل كله ومن الغد إلى الضحى، فنزلنا على قرية يقال لها الجديدة⁽⁴⁰¹⁾، مؤسسة على جبال على عين ماء جارية عذبة ليس هناك بين المدينة ومكة أفضل من مائها، وقد وصلناها

(400) ذو الحليفة، مكان يبعد ستة أو سبعة أميال من المدينة، وهو عبارة عن "بطحاء سهلة لينة... وهنالك بئر يعرف ببئر علي وعليه نزول الركب وبه آثار بنيان ورسوم دائرة" على حد تعبير العبدري، وكان ينزل به الرسول (ص) إذا خرج من المدينة لحج أو عمرة تحت شجرة في موضع المسجد الذي بذى الحليفة اليوم، وثبت أنه (ص) وقت لأهل المدينة ذا الحليفة. (الروض 196؛ العبدري 201).

(401) قرية على الطريق بين المدينة ومكة، يصفها النابلسي بأنها "قرية واسعة كبيرة فيها ماء وتسمى بالخيف لكثرة النخل في وادياها". (الحقيقة والمجاز 438).

على خمس عشرة ساعة ووجدناها مخربة، خربها سلطان مكة سرور⁽⁴⁰²⁾ عند توجهه إلى المدينة وقد وجدناه هناك، لأن أهلها أهل فساد وإذابة كثيرة للحجاج على ما يحكى، فظلنا بها وبعد صلاة العصر سافرنا منها فخرجنا بين جبال ووجدنا أثر الحصار من فعل أهلها، وأغلقوا طرقها بالحجارة الكثيرة والشجر ويوتهم على حافتي الطريق، وفي بلادهم نخيل كثير.



التقاء الركب الشامي بالركبين المصري والمغربي

ثم خرجنا من هذا المضيق / 228 / إلى أرض منفسحة واسعة، فسرنا بها بقية النهار والليل كله ومررنا فيه بالصفراء⁽⁴⁰³⁾، وهي قرى ذات بساتين ونخيل كثير، فكان أهلها يبيعون بالليل على قارعة الطريق التمر والليم على ضوء جريد النخل، ثم صلينا الصبح بحنين⁽⁴⁰⁴⁾ وهي أيضا أجنات ونخيل وماء، ثم تمادينا على المسير فنزلنا بدرا على خمس عشرة ساعة من الجديدة، وهناك تلاقينا مع الركب المصري والمغربي وقد سبقناه نحن إلى الدار فظلنا هنالك، وماء بدر رديء وقد كنا حملنا الماء معنا من الجديدة لأنه عذب.

وتلاقينا مع حجاج أهل المغرب، وناولونا مكاتب جاءوا بها من المغرب من عند سيدنا أمير المؤمنين ومن الأهل فجددنا العهد بخبرهم، وقد طلع في هذا الركب المصري سيدنا يزيد بن أمير المؤمنين؛ ويقرب العصر سافرنا وتخلف المصري يأتي خلفنا، فسرنا بقية النهار والليل كله ومن الغد إلى قرب الزوال، فوصلنا موضعا يقال له القاع وهي أرض بسيطة متسعة، نزلناها

(402) الشريف سرور بن مساعد بن سعيد (1168-1202هـ/ 1753-1788 م)، شريف حسني من أمراء مكة ثار على عمه أحمد بن سعيد أربع عشرة مرة ونشبت بينهما حروب انتهت باستيلاء سرور على الإمارة سنة 1185هـ واستمر فيها إلى أن توفي بمكة. (الزركلي 3-81).

(403) الصفراء، قرية فوق ينبع على مسير ثلاثة أيام من المدينة كثيرة النخيل والمزارع تستقيها عيون ينبع، وتتميز بكثرة حصونها ويسكنها الأنصار وجهينة ونهد. (الروض 362؛ معجم البلدان 3-412؛ رحلة ابن جبر 139).

(404) حنين، واد عميق ذو نخيل ومياه على مسيرة يوم من مكة على طريق الطائف، شهد الواقعة الشهيرة التي حدثت بعيد فتح مكة وانهزم المسلمون في بدايتها رغم كثرة عددهم كما ورد في سورة التوبة. (دائرة المعارف 8-132).

على خمس عشرة ساعة على غير ماء، وبقينا هنالك إلى أن صلينا الظهر وسرنا بقية النهار والليل كله ومن الغد إلى الزوال، فنزلنا رابع⁽⁴⁰⁵⁾ على عشرين ساعة وهو ميقاتنا، وهناك قرية كبيرة حواليتها نخيل وماؤها رديء، وبحر القلزم⁽⁴⁰⁶⁾ المسمى الآن بالسويس يرى منها وقد كان ظهر لنا بالأمس عشية، لكن وجدنا أهل رابع فارين من بيوتهم خوفا من الشريف سرور سلطان مكة، فظلنا بها وبتنا ومن الغد إلى قرب العصر فأحرم الناس وأحرمت من هنالك مفردا، وسافرنا الليل كله ومن الغد نزلنا قديدا⁽⁴⁰⁷⁾ موضعا به نخيل / 229 / وقرى، لكنها خربة خربها سلطان مكة في وجهته هذه إلى المدينة. وقد توجه الناس لسقي الماء من آبار بعيدة عن المحط، وبعد صلاة العصر سافرنا بقية النهار وفي نصف الليل نزلنا موضعا يقال له خليص⁽⁴⁰⁸⁾، به ماء عذب على ثمان ساعات من الدار الأخرى بعد أن مررنا في آخر المسافة على موضع يقال له عقبة السكر⁽⁴⁰⁹⁾، وهو شرف من الرمل في غاية الصعوبة تدخل فيه أرجل الإبل والبهائم إلى السوق، فبقينا بخليص بقية الليل ومن الغد بعد الظهر سافرنا، وحملنا الماء معنا من خليص

(405) رابع، واد يقطعه الحجاج بين البزواء والجحفة دون عزور، له ذكر في المغازي وأيام العرب. (معجم البلدان 3-11؛ الحقيقة والمجاز 439).

(406) الأصح القلزم وهو البحر الأحمر نسبة إلى مدينة القلزم (كلبسم القديمة) الواقعة قرب السويس، ولهذا البحر شهرة سيئة عند العرب بسبب الزوابع والصخور المرجانية. (دائرة المعارف 3-382).

(407) قديد، واحة كثيرة المياه والبساتين بها حصن صغير في الطريق بين مكة والمدينة يسكنه أخلاط من العرب، يبعد عن البحر بخمسة أميال وبينه وبين الجحفة ستة وعشرون ميلا. كانت توجد بها مناة التي دان بها الأوس والخزرج وغيرهم إلى أن هدمها أبو سفيان بأمر من الرسول. (الروض 454).

(408) قلعة على مسيرة ثلاثة أيام من الجحفة في اتجاه مكة، بصفها العبدري بأنها "قلعة منيعة على شرف مرتفع ولها نخل كثير وماء جار طيب"، كانت محطة للحجاج حيث ينام سوق كبير يجلب إليه الأعراب "الغنم والتمر والإدام فيكثر العيش بها ويرخص" على حد تعبير العبدري. (العبدري 166).

(409) كانت تعرف زمن العبدري بعقبة السويق "وهي عقبة كثيرة الرمل وليست بطويلة ولكنها شاقة لوعثها والناس يقصدونها بشرب السويق ويستصحبونه برسم ذلك من مصر ويخلطونه مع السكر". (العبدري 166).

لأن المحط الذي بعده لا ماء فيه، فسرنا بقية النهار والليل كله وعند طلوع الشمس نزلنا الخيام بموضع يقال له سبيل الجواخي على ثلاث عشرة ساعة، وسافرنا منه عشية والليل كله ومن الغد عند الضحى نزلنا بظاهر مكة المشرفة، وهو اليوم السابع من ذي الحجة⁽⁴¹⁰⁾، فنزلنا الخيام واغتسلنا بها للطواف لأنه لم يمكن لنا الاغتسال بذي طوى⁽⁴¹¹⁾ لعدم مرورنا عليها.



الوصول إلى مكة وبدء شعائر الحج

وتوجهنا إلى البيت ودخلنا على باب السلام، وليس هو باب السلام الذي كان يدعى باب بني شيبه، لأن ذلك في داخل المسجد اليوم، وهو باب المسجد القديم وهو في مقابلة المقام وباب البيت، وهو الذي ينبغي الدخول منه وهو اليوم مقوس بالبناء في موضعه القديم علامة عليه، وأما باب السلام الذي يسمى الآن باب السلام، فهو أحد أبواب المسجد المزداد وليس هو في مقابلة باب البيت فهو منحرف عنه بعض الإنحراف، وباب المسجد الذي هو في مقابلة بابه الداخلي هو باب النبي / 230 / صلى الله عليه وسلم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي من تلك الناحية لأن داره عليه السلام كانت في زقاق الحجر وهو في تلك الناحية.

فطفنا بالبيت طواف القدوم وصلينا ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم، ودعونا بالملتزم بما نرجوا من الله قبوله، وخرجنا من باب الصفا فسعينا بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم رجعنا إلى البيت فقعدنا به نتبرك بمشاهدته، وبعثنا بعض أصحابنا ليكتري لنا دارا لنزولنا فهيأها لنا وانتقلنا من الخيام إليها، ومن منة الله كانت قريبة من المسجد الحرام (فكنا نستغرق غالب الأوقات في المسجد)⁽⁴¹²⁾

(410) ذي الحجة 1201 الموافق لـ 20 شتنبر 1787.

(411) ذر طوى، موضع اختلف في ضبطه بدقة كما يشير إلى ذلك العبدري، وإن اتفق على وجوده على وادي بين ثنية الحصاحص وثنية المقبرة المسماة كدي قرب مكة. (الروض 260؛ معجم البلدان 4-44؛ العبدري 167).

(412) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

وخطب الخطيب خطبة يوم السابع إحدى خطب الحج، ومن الغد وهو يوم التروية خرج الناس من مكة قاصدين عرفات، ولم ينزلوا بمنى ولا باتوا بها فقد أميتت هذه السنة، وصار الناس في هذا الزمان يخرجون من مكة اليوم الثامن، ويروحون إلى عرفات وينزلون في موضع الوقوف، فسرنا كذلك ووصلنا الخيام بعد العشاء، وبين مكة وعرفات نحو أربع ساعات فبتنا بالخيام وقلنا بها، وقد عمر هنالك سوق عظيم خرج الناس من مكة بجميع المأكولات والمشروبات والأمتعة من مكة وغيرها، والأعناب والرمان من الطائف وجميع الفواكه، وعند النزول توجه الناس إلى مسجد نمرة، وقد خلفناه من ورائنا لكونه في طرف الحرم ونحن تجاوزناه إلى عرفات وهي في الحل، فخطب الخطيب وهذه الخطبة الثانية من خطب الحج جمع الناس فيه بين الظهريين .

وهذا المسجد أفسدته الأعراب فتدخل إليه مواشيها وأعدوه مقبلا لها، /231/ فكله ملتان بيعر الغنم، وهو كبير مسقفه ثلاث بلاطات وباقية فضاء عار من السقف؛ ورجع الناس إلى الخيام وبعد العصر بهنيئة ركب الناس ووقفوا، فمن وجد فسحة قرب من الجبل ومن لم يجد فسحة وقف بمكانه، وصعد الخطيب على ناقته إلى الجبل واستمر في خطبته إلى أن غربت الشمس، ودفع الناس من عرفات وتقدم وزير الشام بمحملة وعسكره وطبوله، وكذا باي مصر بمحملة وعسكره وطبولهم تنقر والمزامير والعسكر يخرج المدافع، وكل واحد من الفريقين يجهد في أن يتقدم على الآخر، فسبق أمير الشام فتقدم بمحملة وعساكره وتبعه أمير مصر كذلك والحجاج من ورائهم، واستمروا كذلك بعد أن مررنا بين المأزمين العلمين، وهما بناءان أحدهما عن يمين الطريق والآخر عن اليسار، إلى أن وصلوا المزدلفة، ونزلنا بها بغير خيام لأن الخيام تقدموا بها أمامنا، فلما حططنا بالمزدلفة وقد وصلناها بعد العشاء صلينا بها العشاءين جمعا وقصرا للأخيرة، والتقطنا جمار العقبة منها وبتنا بها، ولما طلع الفجر صلينا الصبح لأول وقتها وسرنا بغلس إلى المشعر الحرام، فرجعنا إليه لأننا خلفناه ورائنا فهو في آخر المزدلفة، فوقفنا به للدعاء إلى الأسفار ثم رجعنا على أدراجنا إلى أن وصلنا الخيام

بمنى، وتنادينا على المسير إلى العقبة فرمينا الجمار ثم رجعنا إلى الخيام، فذبحنا شاة ترتبت علينا من فدية، لكوني لما أحرمت أبقيت رأسي مستورا خشية من أذى الحر، ثم حلقنا وتوجهنا إلى مكة من فورنا في ثياب إحرامنا، فطفنا طواف الإفاضة ثم رجعنا / 232 / إلى منى فبتنا بها، ومن الغد رمينا الجمار الثلاث الأولى التي تلي مسجد منى والثانية التي في السوق، وختمنا بالعقبة ثم رجعنا إلى الخيام، ومن الغد رمينا الجمار أيضا كما تقدم وتعجلنا في المسير إلى مكة، بل وتعجل الناس كلهم ولم يبت أحد ليلة الرابع بمنى، وقد أميتت سنة التحصيب أيضا فلم ينزل به أحد.

وفي الليلتين اللتين بتنا فيهما بمنى كان يقع بالليل مهرجان عظيم، فيوقد أمير الشام مصابيح كثيرة على كيفية مخصوصة وترتيب عجيب، ويرفعها على أعمدة طوال وكذلك أمير مصر وكذلك سلطان مكة، ويبيتون ليلتهم كلها يرمون بالمحاريق، أهل الشام يرمون لناحية أهل مصر وأهل مصر يرمون لناحية أهل الشام فتنشأ هنالك فرجة عظيمة⁽⁴¹³⁾.

ثم بعد ذلك توجهنا للإتيان بالعمرة، فأحرمتنا بها من وادي التنعيم، وهناك بركة معدة للماء لكن بها بعض خراب فليس بها ماء اليوم، وبإزائها مسجد فدخلنا إليه وأحرمتنا منه، ثم أتينا إلى مكة فطفنا ثم رجعنا إلى المسعى، فسعينا وحلقنا وتمننا وله الحمد وله المنة. وبقينا بعد ذلك في مدة مقامنا بمكة ملازمين البيت والصلاة فيه، والطواف والوضوء من زمزم

(413) يصف عبد الغني النابلسي احتفال أمراء الحج المصري والشامي بانتهاء مناسك الحج قائلا: ' ثم جلسنا نتأمل بواذر السرور بما يصنع في هاتيك الليالي فرحا بإتمام طاعة رب العالمين من إيقاد المشاعل الكثيرة والفناديل المختلفة الوضع على العيذان منشورة، ورمي البارود في الأوراق يعلو ويهبط كالنجوم، ومنه ما ينتشر في الجو وينتفض انفضاض الرجوم، متشنيين في فعل ذلك أنواع الفنون، مما تنحير فيه الأسماع وتشخص العيون، كما هو عادتهم في كل سنة يستعدون له من بلادهم. ثم إذا فرغوا من ذلك الرمي بالبارود ضربوا الطبول والبوقات ونشخوا في الزمور والصنجات، ثم بعد ذلك يضربوا المدافع الهائلة والمكاحل الصغار التي لها مقابلة، يفعل هذا كله احتاج المصري فإذا فرغ فعل ذلك نظيره الحاج الشامي ويتناخرون في ذلك بأنواع الاختراعات العجيبة والنكت البديعة الغريبة '. (الحقيقة والمجاز 461-462).

والشرب منه إلى أن آذن الناس بالرحيل، فتأهبنا وشددنا حوائجنا ودخلنا إلى البيت فطفنا طواف الوداع، وسألت عن كدى لأخرج منه فلم يعرفه من كان حاضرا معنا، إلا أنه ذهب بي إلى أحد أبواب المسجد في الناحية التي من وراء البيت، وقال من هذا الباب يخرج المودع، فظننت (كذا) أنه ذلك / 233 وهو مناسب لكون الدخول من أمام، وهذا الباب الذي يخرج منه من وراء، فخرجنا وقلوبنا منكسرة وأنفسنا من الفراق متحسرة لا حرمانا الله من رؤيته .

مغادرة مكة ووصف المسجد الحرام

ثم قصدنا بيوتنا فوجدنا المحامل لركوبنا موجودة، فركبناها وسرنا إلى الخيام وقد كانت مبنية في موضع يقال له الشيخ محمود على نحو ساعة من مكة.

وأما المسجد الحرام فهو من أكبر مساجد الإسلام وأعظمها، ولسنا نعني المسجد الحرام القديم وحده فذاك صغير جدا، وحده ظاهر بوسط المسجد وهو محل المطاف، وإنما قصدنا المسجد الحرام على الهيئة التي هو عليها الآن من الزيادة والتوسعة، فطوله من المشرق إلى المغرب أحد وأربعون قوسا مرفوعة على أعمدة الرخام، وفي عرضه ثمانية وعشرون قوسا كذلك، عرض كل قوس خمسة عشر قدما ونصف، وعرض أصل كل عمود قدم ونصف وفي بعضها ثلاثة أقدام، فتكون مساحة طوله بتقريب من أجل الأعمدة سبعمائة قدم وخمسة أقدام، وعرضه أربعمائة قدم وستة وسبعون قدما بتقريب أيضا من أجل الأعمدة، لكونه ضل عني عدد الأعمدة التي في أصولها ثلاثة أقدام من غيرها، ومسقفه ثلاث بلاطات فقط دائرة به من الجهات الأربع، ووسطه براح متسع جدا وعدد أبوابه نحو الأربعين، أخبرني بذلك بعض أهلها، وفي وسطه بيت الله الحرام .

قصيدة لابن عثمان يلخص فيها مناسك الحج

وقد سألتني بعض الإخوان من الطلبة الملازمين لنا، أن ننظم لهم المناسك على مذهب إمامنا مالك رضي الله تعالى عنه، فلم يمكنني إلا

مساعفته فنظمتها / 234 / وختمتها بدعاء دعونا به عند مواجهة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وأردت أن تثبتها وهي هذه:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الحمد لله الرؤوف الرحمان
من فضله علمنا بالقلم
شفيعنا في الحشر من النار
وآله وصحبه الأبرار
على نبي هو النور الذاتي
أسير في سيدة ذات فج
عليه صيب من الرضوان
معينة الأمي لا الأريب
عوفيت من قهر ورد عاف
على الذي قصده تعينا
على دلالة مريد الحج
خلاف في تأخيره أو فور
واحدة موافقا للسنة
الإحرام والسعي كذا الإفاضة
ليلة نحر ساعة تلك الصفه
بسهوة أو جهله لا يعذر
فألدم إن تركته لا يهدر
فألدم إن تركته عمدا حتم
تلبية والنطق بها منعدم
أو بعده مثله في الأحكام
أو فصلت وعن طواف بعدت
وصلك بالسعي الطواف فعله

قال محمد هو ابن عثمان
معلم الإنسان ما لم يعلم
ثم صلاته على المختار
وحزبه ورهطه الأخيار
وبعد حمد الله والصلاة
لما أخذت في طريق الحج
سألني البعض من الإخوان
نظم الناسك على تقريب
فلم أجد بدا من الإسعاف
والله أسأله أن يعيننا
سميته نور الضياء الوهاج
الحج فرض مرة في العمر
وعمرة إيت بها في السنة
أركانه أربعة مفروضة
/ 235 / طوافه بعد وقوف عرفه
فهذه إن تركت لا تجبر
وواجب من غير ركن يجبر
إحرام ميقات طواف من قدم
لا مع عذر ولنسيان دهم
أو أهملت في أول الإحرام
وركعتا الطواف حيث تركت
تجرد من المخيط قبله

والمشي في الطواف والسعي معا لقادر من غير تفريق اسمعا

كذا الوقوف في النهار واجب
والبدء بالحجر في الطواف
والدفع من عرفة من اللفوب
ترك ثلاث بسمنى يوجد دم
من ذاك أن يمشي من قد
لغير عذر ومع الإمكانيان
رمي جمارك ولو حصاة
كذا وقوف عسرة نهارا
لغير عذر ثم إن تؤخرا
236 / عن النهار كله لسيل
نزول مزدلف مع حظ الرحال
تقديم جرة على الإفاضة
وركعتا الطواف إن أديتها
فالدّم في البعض بالاتفاق
سننه غسل صلاة ركعتين
ووصله مع حضور نية
وجددها عند كل حال
لدى نزول وهبوط وصعود
خلف صلاة رؤية الرفاق
وسوقه الهدي وإن لم يجب
إشعار ما يشعر مع تقليد
قصد إلى مكة بالإحرام
اليمنى أول الأشواط
كذا دعاءه وذكر الله
والرمل في الثلاثة الأشواط
تقبيله الحجر الأسود لدى
رقيه على الصفا والمرو
237 / كذا ما بينهما مع الخيب

فالدّم إن تركته يا صاحب
إن لم يعد قبل الإنصراف
ولم يجاوزها إذا بعد الغروب
ولو في جل ليلة يوجب دم
وصفه قبل دخول مكة لعرفة
مؤخرا لبعض ذي الأركان
إن خرج الوقت من الآفات
فالدّم إن تركته جهارا
رمي جمار أو حصاة مضطرا
فاحذر وكن متبعا لقول
رمي ونحر حلقه وهو حلال
والدم في العكس مع المضاضة
في البيت والحجر وما أعدتها
وهو على مشهورها في الباقي
لبس ردا نعلين ثم أزرعين
إحرامه بكلمة التلبية
تجددت بفعل أو مقال
كذا قيام أو مقام وقعود
سماعه تلبية الخلاق
عليه فهو أفضل التقرب
لما يقلد بلا تفنيد
تقبيله الحجر واستيلاء
من سنن الطواف لا الأشراف
دون قسرة بلا اشتباه
والمشي في الباقي بلا اختلاط
خروجه للسعي دع من عاندا
مستقبل البيت بصدق النجوى
بطن مسيل فاعله لا يخب

وثامن الشهر اخرجن لنى
وبت بها ليلة يوم عرفة
إلا إذا كنت بها مستوطنا
أو عرفات كلهم يكمل
واقصد إلى عرفة بعد الطلوع
وجمعك الظهريين قل في نمرة
واجمع عشائك بمزدلفة
تقصير مرأة وحلق الرجل
إلا صغيرة هما سنيان
وغير ذا أفعاله مندوبه
أما المباح فهو غير ما ذكر
أذكر ما يوهم منها منعاً
فمنه أن يغسل بالأشنان
ورعيه البهيم في الحرام
وأكله الأدهان مثل السمن
يرد من له عليها رجعية
ويشتري العبيد والجواري
/ 238 / يحرم في الثوب الذي فيه علم
فإن يكن شعراً لذاك قد حلق
وينشد الشعر الذي لا يذكر
لا سيما إن كان فيه وعظ
ومنه الإستغلال بالبناء
كالظل من مجارة ومحمل
من استظل برداء على عصا
ويتقي الشمس وريحاً بيد
العربي منه لا العجمي
وشده نفقة بوسطه
يزيل ما تحت أظافر وسخ

بقدر ما تدرك ظهراً ومنى
وأقصر صلاتك وكن ذا معرفة
كمن بمزدلفة قد قطننا
من قصرها يمنعم المنزل
مبيت مزدلفة بعد الرجوع
بإثر خطبة نعم بلا مرة
لغرب تحز كمال الصفة
إلا لخوف من أذى أو وجل
طواف للوداع خذ بيان
عما تكن أفعاله مطلوبه
نعم فجزئياته لا تنحصر
إفادة لطالب ونفعاً
كلتي يديه فخذن بيان
وهشه للشجر الكرام
بغير طيب فكلن في أمن
إذ هي في الشرع كمثل الزوجية
ويشتري من ذلك الجواري
من الحرير ولعذر احتجم
ففدية راتقة لما فتق
فيه النساء والخنا والمنكر
ففيه ذكرى للنفوس حظ
وثابت الشجر والخباء
لا يستظل منهما بداخل
فثدية وإن تعمد عصي
والسيف قد أبيح للنقل
عرض حمالة لذا منهي
جرايه بصدره وربطه
من قذرات أو عفونات وسخ

وطرده عن رحله وقوته
 وذبحه الأنعام والدجاج
 محظوره ثلاثة تفسر
 فالفسد الجماع بالإطلاق
 نعني إذا أدامه أو فكر
 قبل الوقوف مطلقا وبعده
 أما إذا أمنى بلا استدامه
 239 / كذا إذا أمذى وإن يقبل
 ثم على غير فم فالهدي
 وحيث قلنا بفساد الحج
 مع القضا في قابل بفور
 مجبوره لباسه المخيط
 ولو قليلا مثله كخاتم
 وستر مرء وجهه ورأسه
 ومراة وجهها أو الكفين
 وتلبس النساء ربات الحجال
 مؤنث الطيب عليه جرم
 إلا إذا ألقاه ريح أو بقي
 أو من خلوق كعبه أصابه
 دهنه لحية ورأسا أصلعا
 إلا إذا كان بكف أو قدم
 إبانة الظفر لغير عذر
 وقتله لقملات كثرت
 عقد نكاح محرم لا يبرم
 قبل البناء وبعده ينفسخ
 240 / يمنع صيد حيوان البر
 ولو بأدنى سبب كفضعه
 وجروه وفرخه وبيضه

طيرور مكة لخوف فسوته
 وصيد ماء كله لا لجاج
 مكروهها ومفسد ومجبر
 كمنني بنظر الأحداق
 تحريك مركوب عليه يجرى
 بشرطه فلتفهم من قصده
 عليه هديه ولا ملامه
 على فم عليه هدي فسقل
 كجسه إن كان منه مذي
 فواجب تكميله بعج
 والهدي ثم ذبحه أو نحر
 وجعله لعضوه المحيط
 فإن يكن عمدا فهو آثم
 وإن بطين من أذى حرسه
 لغير سترة بغير مين
 من المخيط ما يشأن لا رجال
 فعله قصدا عليه جرم
 من قبل إحرام وبالقرب اتقي
 فإن يقل جبر ما أعابه
 وجسدا لمن أصيب قل لعا
 لعلة بغير طيب كالعدم
 ورفع ضر وسخ أو شعر
 وطرحها عنه كما لو قتلت
 عن نفسه وغيره محرم
 ولو بالأولاد فليس يرسخ
 كذا التعرض له بشعر
 فمات من سببه بروعه
 فلا تطف بها فذاك بعضه

إلا العقارب أو الحيات
كذا غراب وحادأة وفي
وعادي السباع مثل الذئب
ووزغ يقتله الحلال
بقتل صيد يجب الجزاء
بمثل ما قتل من أنعام
أو عوض ذلك من الصيام
وإن يكن كسر لما يعرض
وقطع ما ينبت في الحرام
صيد المدينة على تحديد
جابر محظور له أشياء
سوى نكاح جبره لا يلزم
تسرفه ثم إزالته أذى
وهي أن تنسك شاة من غنم
من المساكين لكل واحد
/ 241 / والحكم في الجزاء قد تقدم
والهدي في النقص بحج واجب
أو المقدمات للجماع
كذا إذا أمنى بغير فكر
وفي الفساد والتمتع وفي
ووطئه بعد إفاضة إذا
كذا إذا وطئ قبل حلقه
إن جعل النسك فيها هديا
يجمع فيه بين حل وحرام
أو في منى بشرط أن يوقفه
مكروه ضد سنة ومنذوب
ومثل ذلك شدة بعضه
وكب وجهه على وساد

فارة فتلك مؤذيات
لصغير منهما خلاف اقتفي
إن كبرت فاقتل بلا تريب
لا محرم وليجتنبه قالوا
بحكم عدلين به احتذاء
أو قيمة الصيد من الطعام
بعدد الامداد من أيام
فصم له يوما فلا يعض
سوى السنن وأدخر كلامي
شجرها يريد في يريد
هدي وفدية كذا الجزاء
وكن بالإستغفار ممن يعزم
يوجب كل منهما نوع فدى
أو ستة بدله إذا أطعم
مدان أو صوم ثلاثة زد
بيانه إن كنت ممن علما
أو عمرة بتركه لواجب
والذي حاصل بلا نزاع
والوطء قبل حلقه للشعر
قران أو فوات ذا فلتعرف
آخر جمرة عن ذلك خذا
بعد إفاضة فهديا يلقيه
فأجره في الحكم فيه جريا
بمكة يذبح شرط ملستم
بعرفات عند من عرفه
فاجتنبه تفز بالمطلوب
نفقة له كذا بفخذه
والنهى عنه بالعموم بادي

ولبس مصبوغ بغير طيب
وشمك الطيب المذكور كذا
جلسوس بالمكان فيه طيب
وغمس رأس بعده تجفيف
242 / من ذاك أن تنظر في المراءات
ولبس مرأة قباء مطلقا
الإحرام بالحج أو القران
وإن تسرد ترتب به فاستمع
أول ما يفعل في الميقات
غسل وتنظيف ولبس نعلين
قراءة بالكافرون والإخلاص
تلبيدك الوفرة بالغاسول
وقلد الهدي مع الاشعار
تقليده تعليق شيء في العنق
الأفضل أن يفعل شيئا مما
واستحضر نية ما تحرم به
أفضلها الافراد عند مالك
وذاك أن تحرم بالحج فإن
وإن ترد حجك بالتمتع
فأت بعمره على الكمال
بشرط أن تكون قد حللت
ثم القران اقرن بحج عمرة
243 / أو اردفن حجك من قبل الطواف

وبعد ركعتين للطواف
وقل إذا مشيت أو ركبت
مع التوسط في ذكرها وفي
صفة ذكرها كما تقدم

لمقتدي به من المراهوب
حجامة طلت دماء أعداك
وحمله فإنه مريب
فحاذرن فإنه مخيف
خشية أن تصلح من أشعث
فحصلن وقيدن وحققا
قبل الزمان وكذا المكان
وارعني سمعك للسرد وع
عن قادة أئمة ثقات
وأزرة ردا صلاة ركعتين
وفقت للصدق وحسن الاخلاص
والصمغ من قبل من المنقول
ولا يكن من الجلال عار
لبقر لا غنم أو الأنق
تنبته الأرض عليه وسما
عند التوجه لقصد مطلبه
عليه مغفرة خير مالك
أتمته فأت بعمره تسن
فافعل كما أصفه لك وع
أحرم بحجك على التوال
بأشهر الحج الذي نويت
صحيحة وقدمنها نية
وبعد كراهة بها اتصف

قد منعت كيفية الاردا
تلبية الرسول إذ أجبت
رفعك للصوت وليس بالخفي
بيانته حتى تصل الحرم

واترك إذا تلبية واستقبل البيت بالغير فلا تحتفل
وليغتسل بذي طوى لذا الطواف من غير ذلك حاذرا مما يخاف

وادخل نهارا من كذا الثانية باب بني شيبه منه فادخل بوضع فيك ثم إن لم تقدر كذا اليماني استلسمه باليد وليطفن سبعة بالبيت يرمل في ثلاثة من أول شروطه طهارة من الحدث وكسونه ولاء لا تماري بداخل المسجد عن شذروان وستة من أذرع من حجر ويستحب فعلها خلف المقام / 244 / وعد إلى الحجر للتقبيل من بابه وارق عليه للدعا ثم انحدر ملازما للذكر وخب في بطن المسيل خببا وافعل كما يفعل في أعلا الصفا من الوقوف والدعا أهل الصفا

تفعل ذلك مرار سبعة أربع وقفات على الصفا تقف صحته وقوعه بعد طواف مع شروط للصلاة الممكنة وعد إلى تلاوة التلبية فإن يكن ثامن يوم النحر وبت بها وبعده تقدم المشي مرة كذا الرجعى ومثله بمروة ولتنصرف صح وفرضيته فيها خلاف (أكرم ببقعة علت في الأمكنة) (414) إلى رواح مصلى عرفة فاخرج إلى منى تفز بالدخر إلى مصلى عرفات تكرم

(414) سقط هذا الشطر من (i) وورد في (ب).

واجمع بها الظهريين قصرا
 بششروط ادراك لجزء الليل
 وادفع لمزدلفة مع الإمام
 في حط رحلك كمال الأرب
 وبت بها في طاعة الإله
 وصل صبحك مع الإمام
 / 245 / تقف للدعاء للأسفار
 ولقطها أولى من المزدلفة
 بحجر مثل حصاة الخذف
 اعني بها عقبة بها يحل
 الصيد والنساء ثم الطيب
 ثم ارجعن لمكة في نسق
 وصل ركعتين للقيوم
 ثم ارجعن إلى منى بفور
 وبت بها ليال ثلاثا
 في كل يوم بعدها ترمي الجمار
 ثان وثالث هما ورابع
 في كل جمرة سبع حصيات
 تقف للدعاء إثر الأولين
 بقدر ما تسرع في قراءتك
 قبل صلاة الظهر من بعد الزوال
 والرمي من قبل الزوال باطل
 ومن تعجل فلا يسيئ
 إن غربت عليه شمس لزمه
 / 246 / والعود أحمد لبيت الله
 وصل فيه إن تشأ تقربا
 وادخل إلى مكة ليلا تصب
 ولازم البيت وفعل الطاعة

واصعد إلى الوقوف للغروب تسعد
 عوفيت من ضر لذا يا خل
 ومر بين المأزمسين لا ازدحام
 واجمع عشا مقصرا للمغرب
 ولا تكن عن ذكره بالساهي
 وغلسن للمشعر الحرام
 وسر كما أنت إلى الجمار
 ويرمينها برمي خذفة
 كالقول فارم آمنا من خوف
 من كل شيء محرم إلا ما قل
 والنحر والخلق به تطيب
 وطف إفاضة وصل ما بقي
 واسع إذا لم تسع في القدوم
 وصل عندها صلاة الظهر
 أو ليلتين إن تشأ اتبعائا
 أولى ووسطى عقبة ولا تمار
 ليوم نحرك الأضحى يا رافع
 مثل حصا الخذف ولأ نقيات
 لا بعد عقبة وسر من دون مين
 بقرة مع إظهار فاقتك
 لرمي ذي الجمار وقت للكمال
 وبعد إن صلى الكمال عاطل
 قبل غروب ثالث بفوت
 رمي جمار رابع قد دهمه
 ولا تكن عن أبطح باللاهي
 ظهرا وعصرا وعشا ومغربا
 بما ذكرت لك سنة النبي
 والصف والصلاة والجماعة

بأدب سـكـينة وقـار
وعمرة كالحج إن لم تـقـرن
من الجمعرانة أو تنعيم
أحرم لها كالحج واسع وطف
وإن ترد حمل عصي التنسيار
وأخرج موجهها إلى صوب السفر

معظما لحرم الغفار
فأت بها من بعد حج تزن
فأت بها وفزت بالنعيم
وأحلق وقد تمت بلا تكلف
فطف مودعا لبيت البار
ولتحمد الله على نيل الظفر

فإن تقم بعده بعض يوم
ومن كدى أخرج بضم الكاف
وسر إلى سر الوجود السهادي
مكبرا حيث علوت شرفا
حتى إذا إلى المدينة وصل
فينبغي الغسل مع التطيب
صلاة ركعتين من قبل الدخول
إن دخل المسجد حيى بالركوع
أو يقصد القبر الشريف في الأزل المصطفى لما من الوحي نزل

بطل حكم وأعد بالعزم
بعزم صادق وقلب صاف
بجد سير تحظ بالمراد
مصليا على الرسول المصطفى
والفوز بذاك الجوار قد حصل
تحسين هيئة من المطلبوب
وليمش راجلا إلى خير رسول
إن كان في وقت جواز يا خضوع
أو يقصد القبر الشريف في الأزل المصطفى لما من الوحي نزل

/ 247 / خيرة خلق الله بالإطلاق
مستقبلا له ولا يلتصق
منكس الرأس لما جنأه
متصفيا بالذل وانكسار
وأنه بين يديه واقف
إذا دعاه فلينادي بالخضوع
معتقدا أنه باب الله
فلا سبيل للدخول إلا
يا سيدي يا سندي يا أملي
هذا العبيد قد أتاك راجيا
قد أثقلت عاتقه ذنوب
فلم يدع من اقتراف ذنب

المجتبى لخدمة الخلاق
به ولا يطف ولا يعتنق
لنفسه من الخطأ أدناه
مستحضرا للفقير واضطرار
حرمته ميتا كحي عارف
بأدب وبالوقار والخشوع
من غير لبس لا ولا اشتباه
منه عطاء ربنا وفضلا
يا ثقتي في فاقتي أنت الولي
مما جئنا من الخنا وبأكيا
وأوهن القلب لها كروب
شيئا ولا من اكتساب عيب

ولم يجد لدائه من نافع
وعمره مضى وقد تولى
للذب عن عبدك والدفاع

ملتجئاً إلى ملاذ للورى
إذا تمسك امرؤا بذيله
أنت الذي أنعشتنا من بعدما
/ 248 / فكلنا لفضله عتيق
لنا اشفعنا عند النبي المجتبى
فإنني عبد له حقيق
بجاء جبريل وما به نزل
والآل والأولاد والأزواج
وصاحبك من عموم الناس
وبابن عمك أبي الغصن
والصاحب طرا وخصوصا

لا تحرمنا عبداً أذاك طامعا
من أرض مغرب غريب الدار
مؤملاً منك أخيراً مأمول
علماً به عملنا موصول
وتوبة خالصة نصوحاً
والإشتغال عن غير بالله
وإن أكن من الشقا بوسم
فبدلن شقاوتي سعادة
فأنت إن أقسمت لا تحنث
والعبد بين الله والرسول
/ 249 / ياسيدي فلن يضيق عني
بين العشائر بهذا الوسم
ومثلكم ذمته لا تخفر

سواك يا ذخيرتي يا شافع
في غير ما يرضي وأنت أولى
فليس غيرك له يسراعي
ناء المدى في مجدك سامي الدر
في وحل فلا ينني عن نشله
كان الضلال في البسيط عمما
يا عمر الفاروق يا عتيق
وأسمعنا مرحباً فمرحباً
عند الكرام يكرم الرقيق
عليه نحن عاكفون لم نزل
فاطمة ذات السنا الوهاج
كذلك همزة مع العباس
سيدنا الحسن والحسين
عشرة أكرم برفقة كرام بررة

من جاهك السامي ملاذا شافعا
ذا فاقة وكثرة انكسار
ومطلب الانتاج من كل رسول
وحجنا البيت له قبول
والبعد عن شهوتنا نزوحاً
وآمراً من نفسنا ونه
لأجل عصياني وكثير جرم
وعوضن حرماني بالإفادة
والله يمحو ما يشاء ويثبت
فكيف يرجع بغير سول
جهاك في يوم المعاد إني
ناديت إني منكم في حرم
وجاهكم عند الإله أكبر

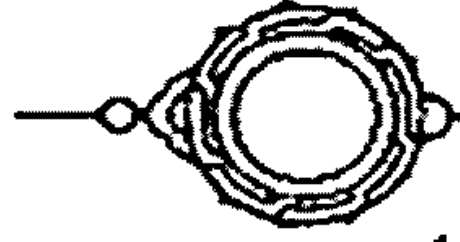
يا ربنا أشكو إليك همي
برفقتي مع فرقة قد انفصوا
لاقيتهم والفرع من شبيبتي
في خدمة أكثر ما جنيت

فلم يزل يبتزني من عمري
حتى لقد ابيض ليل مظلم
يظن ذا العبد الذي يروع
يعتد ما جره قدح خاسر
وما درى بأنه أفاتني
فاغنني اللهم يا إلهي
واكفنيه اللهم أنت الكافي
وكل ما أضمر لي من شر
الاسم الأعظم الجليل القدر
وبالضحى وعلق والقدر
وبجميع سور القرآن
250 / حتى يرى لعجزه مبهورا
أخرص لسانه وكف يده
وكل من يريدنا بشره
واكفني اللهم ما في الغيب
وأرزقني اللهم رزقا واسعا
واختم لنا الختم الذي ترضاه
مؤمننا لنا من الأكدار
مسهلا لسكرات الموت
مريحنا من تعب في المحشر
(محاسبنا حسابك اليسير

وحزني وكربتي وغمي
عيش الهنا ظل شبابي قلصوا
أسود غريب فأقنوا قوتي
بها على نفسي بما سعت
غض شبابي وفتي أمري
من هامتني وهو نذير معلم
من لم يكن في قربه يضيع
من قربه والوجه وجه باسر
من عمري أضعاف ما أفادني
عنه بفضلك به أباهي
فحاله ليس عليك خافي
فمجزئه ربنا بسر
وماله من سطوة أو قهر
والمصطفى صاحب هذا القبر
وما حوت من قاطع البرهان
كأنه من حجر منحوتا
وعزمه انقضى وارد كيده
فرده ياربنا في نحره
من تعب ومحنة وعيب
وكن بقوتك عني دافعا
موفقا لنا لمقتضاه
مدة مكثنا بهذي الدار
موسعا في القبر يا ذا الغوث
موردنا من سلسبيل الكوثر
معاملا بفضلك الكبير⁽⁴¹⁵⁾

(415) سقط هذا البيت من (أ) وورد في (ب).

موجرنا يارب من النار واجعل لنا في رفقة المختار
في جنة الفردوس مع زيادة أكرم بها مزية مفادة
وصل يارب على الزكي محمد المصطفى المكي
وآله وصحبه الأعلام ما ختمت صلاة بالسلام



التلميح لحادث سطو مولاي اليزيد على أموال الهبة

وكان مقامنا في مكة المشرفة إلى السابع والعشرين من ذي الحجة⁽⁴¹⁶⁾ لكن لم نستوعب زياراتها، فقد قطع عنها ما ليس يرسم في حساب، ومنع من الإتيان بها شوائب فتنة عريقة الإنتساب، ومن طلب من الأيام دوام الصفا، فقد أخطأ في قصده وهفا، لكنه الدهر فتارة يهش وتارة يهر، فلما فاتنا ذلك القصد، بما عرض من الصد، جبرناه بالملازمة في البيت الذي هو المطلوب، معتكفين على طواف ودعاء جابر كسر القلوب،/ 250 مكرر/ ⁽⁴¹⁷⁾، ولله در القائل:

لقد طاب الطواف لنا ورقت حمياه ولذا لنا المدار
وملنا ليسار لفرط سكر فإن السكأس مجراها اليسار
والنظر إلى الكعبة عبادة، وروي أن الناظر إلى الكعبة كالمجتهد في العبادة في غيرها من البلاد، فهي خير أرض الله وأطيبها لديه، وأحب البلاد إلى الله وأكرمها عليه، تضاعف فيه السيئات كما تضاعف فيه الحسنات، فالحسنة فيها بمائة والخطيئة بمائة من الخطيئات، والصلاة وصوم رمضان فيها بمائة ألف، [ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم]⁽⁴¹⁸⁾ ولو بقول خلق.

كان لعبد الله بن عمر فسطاط في الحرم يصلي فيه، وفسطاط في الحل يخرج إليه إذا عاتب خدمه وذويه، حذرا من شتم الخدم في الحرم وصونا له

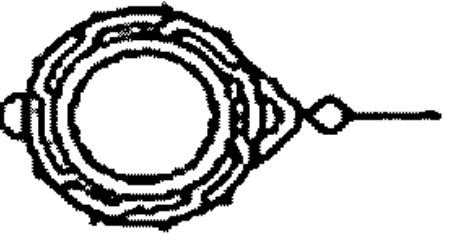
(416) الموافق لـ 10 أكتوبر 1787.

(417) كتبت هذه الصفحة كلها في الهامش بنسخة (أ).

(418) الآية 25 سورة الحج.

أن يعاقب فيه من اجترم؛ ولا يحل القتال فيه لأحد إلا سيد بني أد بن أدد، قال تعالى: [لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد]⁽⁴¹⁹⁾، وإنما أحلت له ساعة من نهار ثم عادت حرمتها إلى الأبد، فهي البلد الأمين وواسطة العقد الثمين، وبه أقسم الله تعالى في كتابه المبين. المقام بها سعادة والخروج منها شقاوة، هي أقرب الأرض إلى السماء وأعلاها ربوة، ضعف فيها كل عمل وأسعف بمأموله كل ذي أمل، فهي ذات الأسماء والكنى والألقاب، وربة البراقع والبنقاب، فهي مكة وبكة والبلد والبلدة، والأمين والحرم والكعبة وطيبة، والرأس والبيت العتيق الثمين والعرش والعريش، والقادس والمقدسة والقادسة والبائسة والقرية والثنية، وكوثر والخطمة والنساسة والناسة، وهي صلاح بالبناء على الكسر من باب حرام وقطام، والعطشة والرتاح وبزة، والمسجد الحرام والبيت الحرام و أم رحم وأم زحم.

من كناها وكثرة الأسماء تكون لشرف مسماها، وفي الحديث إن الله خلق مكة قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألف عام، وحفها بالملائكة الكرام فحيث وقعوا فهو حد الحرم والمسجد الحرام، انتهى من مقامة "ساجدة الحرام" للإمام السيوطي رضي الله عنه وفيه تقديم وتأخير.



الرجوع من مكة مع الركب الشامي

فبقينا مدة مقامنا بمكة ونحن ملازمين للبيت، حتى تعين / 251 / السفر ونفرتنا مع ركب حجاج الشام إذ نفر، ورجعنا على أدراجنا نفري المعالم والمجاهل، ونحوم على المنازل والمناهل، فوصلنا طيبة طيب الله ثراها وفسح لنا في المدة حتى نراها.

قال الإمام السيوطي في مقامة "ساجدة الحرم" في حق المدينة: فهي صاحبة العلمين وثانية الحرمين، والمشاركة لمكة في التفضيل والتكريم، وفي مضاعفة الصلاة والبركة والتحريم، وهي دار الإيمان وقبة الإسلام، وأرض الهجرة ومبرأ الحلال والحرام، المسماة في القرآن بالمدينة والدار والإيمان،

(419) الآيتان 1 و 2 سورة البلد.

وفي التوراة بطيبة وطابة، وجابرة والمجبورة والمدينة والمرحومة، والعذراء والمحبة والحبوبة والقاصمة والمسكينة، ومن أسمائها تيدر والبلاط وحسنة، وحببية والمحبية ومدخل صدق، ودار السنة ودار الهجرة والبحرة والبحيرة والمطيبة، واحذر أن تسميها بيثرب فتضل، قال صلى الله عليه وسلم ﴿من سمي المدينة بيثرب فليستغفر الله عز وجل﴾، وإنما ذكر هذا الاسم في القرآن حكاية عن قول المنافقين لأهل الإيمان، تربة تأكل القرى وتجزل القرى، وتنفي الخبث والقرى، وتأبى الضيم والخبث، وفتحت بالقرآن وفتح غيرها بالسيف، تربتها مونة وشفاء من الجذام، وبركتها مثل بركة المسجد الحرام.

ومما صح في فضلها وذكرها أن الإيمان يأرز إليها كما تأرز الحية إلى جحرها، وبها عزت كلمة الإسلام وعلت، وتقررت الشرائع وأكملت، إلى أن قال: ولا يدخلها الدجال ولا الطاعون. وإذا نظرت إلى التفضيل بينها وبين مكة، قام لكل منهما أنصار وأعوان ودليل وبرهان، حاشا البقعة المعظمة المكرمة الزكية الزاهرة، الطاهرة الشريفة المنيفة العالية الغالية، الطيبة المطيبة المقدمة المرقية، التي ضمت جسده الأعظم وخلق منها بدنه الأكرم، أن تكون كغيرها في فخرها صلى الله عليه وسلم، فإنها أفضل البقاع من غير خلف ولا نزاع، بل هي أفضل من الكعبة ومقدمة عليها في الرتبة، بل نقل السبكي عن ابن عقيل الحنبلي⁽⁴²⁰⁾ أنها أفضل من العرش العظيم، وهو

(420) أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي (431-513هـ/1040-1119م)، فقيه وعالم حنبلي كبير ولد ببغداد، وفيها تعلم القرآن والسنة والنحو وغيرها من العلوم على يد علماء كبار أغلبهم شافعيين وحنفيين. لكنه لازم القاضي الحنبلي أبو يعلى بن الفراء مدة 11 سنة، كما عاصر تولى أبي عبد الله الدمغاني قضاء بغداد وهو حنفي، مما ساهم في انتشار المذهب الحنبلي. غير أن حب اطلاعه ورغبته في توسيع مداركه جعله يتصل بالأوساط العلمية الاعتزالية ويعمق دراساته الكلامية التي كان يناهضها الحنابلة، مما جلب له متاعب وعرضه للمحن خاصة بعد اشتغاله بالتدريس في جامع المنصور، حيث اضطر إلى التبرؤ من بعض كتاباته الممجة للحلاج وللمعتقدات الاعتزالية. من مؤلفاته "كتاب الفنون" و"الواضح في أصول الفقه" و"كتاب الإرشاد في أصول الدين" (E., I, 3-721).

قول جلي واستدلوا بذلك على أن الملك الجبار منزّه عن الحلول والاستقرار، انتهى كلامه.

وقوله إن الإيمان يأرز إلى آخره أي ينضم، قال البلوي في تأليفه "عمل من طب لمن حب" : ومنها أرز ومعناه تقبض وانضم، يقال أرز يأرز أرزا ويقال أرزت ليلتنا تأرز أريزا، والأريز البرد الشديد. وجاء في الحديث أن الإسلام ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها. قال أبو عبيد: قال الأصمعي: قوله يأرز ينضم إليها ويجتمع بعضه إلى بعض فيها، ذكر هذا أبو عبيد، قال ثابت: زعم بعض العلماء أن في الأرز معنى لم ينتبه له أبو عبيد، قال: الأرز أن تدخل الحية الجحر على ذنبها، فأخر ما يبقى منها رأسها فيدخل بعد، وكذلك الإسلام خرج من المدينة فهو ينكص إليها حتى يكون رأسه آخره نكوصا كما كان أوله خروجا، قال وإنما تأرز الحية على هذه الصفة إذا كانت خائفة وأما إذا كانت آمنة فهي تبدأ برأسها فتدخله وهو الإنجحار، انتهى. رجع .

وقد كان أصابني الألم المسمى بالنقرس ونحن في مكة فاشتد علي ألمه لما سافرنا، فكنت أبيت أثقلب في المحمل لا أقدر على الهدوء والسكون على حال من الأحوال، إلى أن وصلنا المدينة المشرفة فنزلنا بالخيام بظاهرها، فوقع في نفسي أن اطلب حكيما أو طبيا عارفا لعلمي أجد عنده علاجا، فوالله ما عزمت على النطق بقولي هل عندكم حكيم أو طبيب، إلا وأتذكر النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيي أن أسال، وقع لي ذلك مرتين أو ثلاثة فأمسكت عن السؤال، وقصدت ضريحه صلى الله عليه وسلم وشكوت إليه حالي، فما رجعت من عنده إلا ببعض الخف والراحة، وتبادى الحال في الزيادة في الراحة من بركته صلى الله عليه وسلم. وقد فتح الله علينا في الدخول إلى الحجرة النبوية وصلينا ركعتين في محراب النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يتعبد فيه.

وأقمنا بظاهر المدينة نحو ثلاثة أيام أقصده عليه الصلاة والسلام في كل يوم، وعدنا إلى زيارة أهل البقيع فتبركنا بهم، وبقي لنا سيدنا حمزة رضي

الله تعالى عنه فلم نتوجه إليه لأن الطريق غير آمنة، لكن تبركنا بزيارة تربته من بعيد فهو مدفون في سفح جبل أحد، وقبته ظاهرة وبالقرب منها قبة مبنية على رباعية النبي صلى الله عليه وسلم، فتبركنا بالجميع ونحن مارين بالطريق وهما عن يميننا .

رحلة العودة من الحجاز نحو الشام

وتمادينا على المسير نبيت في منازلنا التي / 252 / كنا نبيت فيها أولا في الغالب، وربما خالفنا فبتنا دون منزلنا الأول لطول تلك المرحلة، فنقسمها على مرحلتين أو نخرج على ماء تركناه أولا لقلته في ذلك الوقت؛ وقد تلقانا بقلعة هدية وزير معه جيش كثير وفي رفقتهم تجار وإبل كثيرة حاملة للميرة والعلوفات، رداء للجيش الآخر الذي مع الوزير الأول لتعبه فيتقوى به على الأعراب، ويرتفق الناس بالميرة التي تصحبه مع التجار. واستمر المسير هكذا إلى أن وصلنا وادي الزرقاء، فوجدنا به أهل الشام بأنواع الفواكه والخضر، والطباخون يطبخون سائر المأكولات وأنواع الحلاوات، فكان آخر منزلة بتنا بها قرية يقال لها الكسوة⁽⁴²¹⁾، فخرج أهلها وعمرؤا سوقا عظيما فيه جميع الأشياء، فبتنا بظاهرها في الخيام وبينها وبين دمشق ثلاث ساعات.

رجوع ابن عثمان إلى دمشق

حتى إذا كان الثلث الأخير من الليل، حملنا على الإبل وركبنا المحامل وسرنا فوصلنا باب دمشق الذي يسمونه بوابة الله قبل طلوع الفجر، فأنخنا هنالك حتى صلينا الفجر وسرنا إلى المدينة، فتلقانا صاحب لنا كنا قدمناه أمامنا قبل وصولنا بيوم، بقصد أن يعين الدار التي ننزل بها فتوجه بنا إليها ونزلنا بها، وكنا نتعاهد قبر النبي يحيى فتبرك به في مدة مقامنا.

(421) الكسوة، بضم الكاف قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر، وكما أورد ابن عثمان يستريح بها ركب الخج الشامي قبل دخول دمشق. (معجم البندان 4-

وقد بعثت إلى صاحبنا الشيخ محمد كمال الدين الغزي مفتي الشافعية،
وكان من أهل الأدب والظرف، تمرا من تمر المدينة على ساكنها أفضل الصلاة
والسلام على سبيل التبرك، وسبحة من النوع المسمى باليسر ومعها أبيات
موريا باليسر وهي:

كما خصصت أنفاسه بذكى النشر
بسيوم إذا يجري وليل إذا يسري
تظل بها يمينك ملئى من اليسر
أحب رسول الله عن سائر التمر
من المسك عن عرق وعن عنبر شحري
لدى ذكركم يوم السلو من الفخر

ومن حاز مجدا ساميا هامة النسر
بها بهجة الأفلاك والأنجم الزهر
وفاقت بهاء للدراري وللدر
هدية حبر قد حوى أكمل الخبر
لأعلم أن اليسر من كفكم يجري
تميح لآل النحر من فيضك البحري
وبر ببر ماليء البحر والبر
وأهدى لنا من زهرها طيب النشر.

/ 253 / أحيي مقاما خص بالرحب والبشر
تحية حب لا تزال معادة
وأهدي إلى الذات الكريمة سبحة
ومن طيبة جثناك بالعجوة التي
ليغنى منها لونها وسوادها
فهبي لها منكم قبولا أعده
فأجاب عنها بقوله:

أمالك رق النظم طرا مع النشر
ويا من تسامى في المعارف رفعة
وفت منك أبيات حلت كلماتها
وصحبتها وافت ووفت وقد سمت
وأرسلت لي يسر المسابح منة
فلا زلت في حفظ الإله وصونه
ودم رونق الدنيا فإنك أوحده
مدى الدهر ما وافى النسيم إلى الربا

اشتداد الوباء بالشام خلال غيبة السفير في الحجاز

وقد وقع في هذه السنة موت كثير بالشام في مدة غيبتنا بمكة، فقد
حكى أنهم كانوا يدفنون نحو الخمسمائة في كل يوم، وقد وجدنا كثيرا ممن
تلاقينا معهم انتقلوا إلى رحمة الله تعالى، فمنهم الفقيه الأجل المحدث الشيخ
/254/ سعد الدين من ذرية الأستاذ البركة سيدي عبد الغني النابلسي،
فرثيته بقصيدة وهي:

قد كان ما كنا نحير منه ولا عسفه محيد

خطب ألم وقد أشاب للهولسه رأس الوليد
أودى به الجدل المحكك دخرها الكنز العتيد

صدر المحافل جثم أشياخها ما إن تميد
صد العدا وشجاهم ضد المقابيل والعنيد
بحر العلوم إذا أفاد بنكثة ما إن يعيد

أخلاقه منعمشة للروح كالسعذب البرود
يبدي البشاشة والطلا قة للقریب أوالبعيد
لم أنس لا أنسيت وقت نظامها نظم العقود

بأريكة بحديقة بشذى أزاهرها تجود
فكلاهما متمائل وكسلاهما روض مجود
لله أيام مضت لو كان ماضيها يعود
قالوا اصطبر لا تجزعن فكل موجود فقيد
فأجبتهم عن مثله ما الصبر من خلق الرشيد
وإذا الحقوق تأكدت منسها له الحق الأكيد
إيه أسعد الدين سرت مصدعا قلبي العميد
255/ من لي بمثلك في الحياة فلا أراه في السوجد
هيئات لا يأتي به دهر فخلصفت وحيد
هل يسمعني أخو الحجا والعلم والسراي السديد
والسؤدد الموروث حا ز طريفه وكذا التليد
واللجسا الأحمى ملا ذا لعتفي الركن المشيد
هالسوا عليه الترب إن قلسوبهم لمن الحذيد
عجبا بليل غاسق وضعوا على البدرالصعيد
وبقوا حيارى يخبطون ولا كعشواء قعود
من للمجالس والمجالس و الممدارس من عميد
قد عطلت أبحاثها واستعجمت لا من يفيد
خلت السديار لفقده فالعلم أعظم ما فقد
وضعوه حذو أبيه بينهما صفائح اللحدود

عجبا للشمس أدركت
إن شئت عام وفاته
سنة اثنتين فأرخن
أنعم مساء أيها
ففي نعمة وسعادة
وعليك من حب تحيته
وقد أم البريد
قمرا وذا أمر بعيد
فتلق من بيت فريد
والألف والمائتين من بعد ذلك زد
الاستاذ والخبر المجيد
ورضى من الرب المجيد

256 / لصبيّة بمغرب
مودعا منطوي
ومخلفا قلبي لديكم
وجعلته مرفلا
وأفيدكم بأننسي
لي عنهم دهر مديد
الأحشا على حر شديد
يلزم القبر السعيد
فالا لأنعمام يزيد
عن ودكم لا لي عديد

التأهب للسفر إلى مدينة عكا

ثم أخذنا في التأهب للسفر لمدينة عكة⁽⁴²²⁾ بقصد الركوب إلى الأوطان، فتوجهنا إلى زيارة رأس نبي الله يحيى بجامع الأمويين، فزرناه وتبركنا به ودعونا الله هناك، وغيره من الأنبياء والصحابة والصالحين لم يساعدنا الوقت في الطواف عليهم ثانيا من أجل الطين والأمطار، لكن عممناهم بالزيارة من مكان عال، ولما كنا بجامع الأمويين بقصد الزيارة دخلنا إلى مقصورة صاحبنا الفقيه الأجل الشيخ محمد الغزي بقصد رؤيته

(422) عكا، مدينة كبيرة من ثغور الشام ومن أحسن بلاد الساحل وأعمرها، يصفها ابن جبير قائلا: "وهي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحط الجوّاري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة والمشيبة في عظمها واحتفالها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق وملقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق... انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة السادسة، فبكى لها الإسلام ملء جفونه... فعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضارب للنواقر". كانت سنة 1105هـ حسب شهادة عبد الغني النابلسي "بلدة خربة مندكة قد تهدمت أسوارها وانكسر سوارها وانقلعت عين قلعتها وخفيت بدائع صنعتها ولم يبق منها إلا القليل من البيوت"، لتشهد في عهد أحمد باشا الجزار انبعاثا حضريا كما يصف ابن عثمان. (الروض 410؛ معجم البلدان 4-143؛ ابن جبير 211؛ الحثيفة والمجاز 98).

ووداعه، فقام إجلالا وأنشد ارتجالا:

فأهلا بحبر أتى زائرا فكأنى بفضل له كان أهلا
فكان كفيث سقى روضة ويدر بأفاق قلبي تجلا
وعافية فسي غواد السقيم ونور تبدى وسر تجلا
فاكسب ذات الكمال⁽⁴²³⁾ ارتقا وأولى جميلا به صار أولى
وخرجوا معنا مشيعين .

وكان خروجنا من دمشق الشام تاسع ربيع الأول من سنة اثنتين ومائتين وألف⁽⁴²⁴⁾، فبتنا بقرية قرب المدينة بنحو ساعة ونصف يقال لها المزة بالزاي، وبظاهرها قبر الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه وقد تقدم ذكره في الزيارات. ومن الغد سافرنا فرحنا إلى خان عظيم معد للمسافرين، بداخل قصبة مؤسسة على وادي يقال له سعسع وصلناه على عشر ساعات، ومن الغد سافرنا في أرض ذات حجارة وصلد كثير متصل، فنزلنا بخان أيضا معد للمسافرين يقال له خان الأرنب نزلناه على خمس ساعات، وسافرنا من الغد فرحنا إلى خان يقال له خان الجسر، مؤسس على وادي السيسبان /257/ وصلناه على تسع ساعات، وفي آخر هذه المرحلة مررنا بأرض كثيرة الحجارة كثيرة الطين، فصفحت الأرض بالحجارة المبسوطة ليمر الناس عليها زمن الطين، إلى أن أوصلوا الرصيف إلى الخان وسموها جسرا، فأضيف إليها الخان فقليل خان الجسر، وعلى الوادي أيضا جسر أمام الخان، وبالقرب من هذا الخان عن يمين الطريق المتوجه إلى عكة شجرة يقال إن بقرها مقابر بنات يعقوب، فقرأنا عند مواجعتها الفاتحة ودعونا الله تعالى بما نرجو قبوله.

ومن الغد سافرنا فأصابنا مطر كثير في الطريق، فقصرنا المرحلة ونزلنا بخان معد للمسافرين أيضا على خمس ساعات، وإلى جانب الخان جب

(423) كتب في الهامش قبالة هذا الشطر ما يلي: * قوله ذات الكمال يعني نفسه لأن لقبه كمال الدين .

(424) دجنبر 1787.

يوسف عليه السلام محيط به سور، وله باب يصعد اليه بمدارج ثلاثة،
وقبالة البير داخل مسوره مسجد صغير له بلاط واحد، فدخلنا إلى مسور
البير وأشرفنا عليه وفيه ماء كثير عذب، ودعونا الله تعالى هنالك، وقعدت
بباب المسجد مقابلا للبير وقرأت سورة يوسف، متفكرا قضيته وقضية أبيه
عليهما السلام، وأنشأت هنالك أبياتا وهي:

يا أمين الجباب يا جب يوسف لقد حزت في البسيطة فخرا
صنت يوسف إذ رموه وألقوا فوقه من حجارة الأرض صخرا
فحنوت عليه حنو رحيم أو مريد من شيخه حاز سرا
ثم صادفك الفراق الذي يعقوب صادف قبل صبرا فصبرا
فبكاه يعقوب دهرًا وأنت لا تزال تبكي ودمعك أجرا
/ 258 / وأراه مكفكفا فأجاب الحال لو كان مرسلا صار بحرا
دمت في ترف وماء زلال تحسبه الورد أريا وخيرا
ووفود تترى بعطفك طول الدهر محمد منك وردا وصبرا
ومن الغد سافرنا وأعدنا الزيارة والدعاء عند البير المذكور، فسرنا في
أرض من أصعب الأرضين وأكثرها حجارة وصلدا، فوصلنا قرية يقال لها
الرمة على خمس ساعات فبتنا ببعض بيوتها، وبهذه القرية زيتون كثير وأهلها
نصارى تحت ذمة المسلمين.

الوصول إلى عكا وحفاوة الباشا الجزار وذكر بعض إنجازاته

ومن الغد سافرنا منها إلى عكة فوصلناها على ست ساعات، ولما قربنا
من المدينة بعثنا أحد أصحابنا ليكتري لنا دارا ننزل بها، فطاف البلاد كلها
 فلم يجد منزلا، فسمع بذلك الوزير صاحب البلد وعملها ويقال له أحمد
باشا الجزار⁽⁴²⁵⁾، فعين لنا موصعا نزلناه مشرفا على البحر في أحسن حال،

(425) من أشهر ولاية العثمانيين بالشام، ارتبط اسمه بمدينة عكا التي لا تذكر إلا مقرونة به إذ هو
الذي أعاد بناءها. اشتهر الجزار باستقلاله عن الباب العالي الذي أعياه أمره. عرف بالقسوة
والشدة وسفك الدماء ومنها لقبه الجزار، كما قاوم الحملة الفرنسية على الشام. يورد الزباني

في خان جديد أنشأه على ساحل المرسى، وبعد يوم من نزولنا استدعانا لأنه كان مريضا، فتوجهنا إليه فأبدى بشاشة وفرحا وقعدنا معه ساعة نتحدث ثم خرجنا من عنده.

ولهذا الوزير أثر كبير بهذه المدينة وهو الذي شهرها وبه اشتهرت، وأنشأ بها مسجدا من أحسن المساجد وألطفها على شكل مساجد القسطنطينية، وغرس في صحنه المستدير شجرا مصفوفا من نخيل وسرو، وأنشأ بها أيضا حماما ما رأيت مثله لا في القسطنطينية ولا في الشام؛ وأهل البلد يشنون عليه كثيرا، فله جرايات على الضعفاء والفقراء ورواتب لأهل الحياء / 259 / والحشمة الذين لا يسألون الناس إلحافا، إلا أنه به شמוש من الدولة أبي القياد (كذا)، يفعل في بلاده برأيه ويقبل من أوامرها ما يوافق غرضه. وقد استدعته الدولة ونحن هنالك للقدوم عليهم، قائلين له إنهم أرادوا بعثة لناحية العدو برسم الجهاد فأبى عليهم، لكنه معذور فلا يأمن على نفسه.

وبظاهر المدينة ضريح نبي الله صالح عليه السلام، وهو عن يسار الخارج من المدينة لناحية المشرق في وسط المقبرة، فتوجهنا إليه وفتحوا لنا القبة التي فيها قبره المبارك، وقرأنا عنده ما تيسر من القرآن ودعونا الله بما يرجى قبوله.

ولما دخلت إلى حمامها البديع ذي الصنع الرفيع، وجدت القيم عليه أبداع وأحسن وأنصع، والطيور على أجناسها تقع، ولما خرجت منه وقعدت في إحدى مصاطبه للإستراحة، أتى إلي معرضا بالقهوة علي، فقلت عند رؤية شماله⁽⁴²⁶⁾ وقويم قدش وتمايله:

لم أنس عكة إذ جعلتها مأزبي يوم دخلت إلى حمامها المعجب

حادثا طريفا جمعه بأحمد باشا وعنه يقول: * وكان هذا الجزار رجلا أحق يبحث عن أهل الحكمة وعلم الحدثان، وكان يزعم أنه المهدي المنتظر ويصرح بذلك * : وقد دارت بين الرجلين مناقشات صريح فيها أحمد الجزار أنه سيملك * المشرق والمغرب ويصل بلادك (المغرب) ويملكها * . (الترجمة 258-259).

(426) الصحيح 'شمالك' كما في (ب).

إذ قال ظبي به أسقيك قهوتنا
فقال لو من شراب قد حلا قلت إن
ثم ثنا عطفه يميم من خجل
ورام مشيا فلم يقدر وأقعه
ثم تبسم عن در وعن شنب
أفديه من أوطف عن لمس وجنته
/260/ فقولني موثرين فيه تورية بالوتر

فقلت كلا فإني لست بالشارب
كان ولا بد من لماك مع شارب
فأكد التيه منه سورة الراغب
ردف يعجزه بشقله الغالب
ومال به الخيا قسرا إلى جانب
يحمى بقوسين موثرين من حاجب
المقصود من الإيثار وفيه تسامح.

التعاقد مع صاحب المركب للإبحار إلى المغرب وزيارة القدس الشريف

(427) وأقمنا بعكة تسعة أيام حتى عينا المركب الذي يحملنا في البحر،
وتعاقدنا مع صاحبه وعينا المدة للسفر، واشتغل رئيسه بإصلاح شؤونه
والاستعداد للسفر، وتوجهنا في خلال هذه المدة لزيارة القدس الشريف
والتبرك بمشاهدة المسجد الأقصى، وبمن هنالك من الأنبياء على نبينا وعليهم
الصلاة والسلام، فكان مبيتنا يوم خروجنا من عكة عند عرب أهل بيوت
شعر، بقرب تربة ولي مشهور في تلك النواحي يقال له الشيخ إبراهيم
الزعبي على ست ساعات من عكة، فرحنا إليهم وأسماء تجودنا فما كان إلا
أن رأونا وأدخلونا إلى خيمة من أكبر خيامهم، وفرحوا بنا وسلكوا معنا
مسلك أهل الحاضرة، فأتوا بالقهوة إثر نزولنا وبعلف الخيل وبعشاء قل أن
يوجد في الحاضرة، وباتوا يحرسون الخيمة التي نزلنا فيها إلى الصبح جزاهم
الله خيرا .

ومن الغد سافرنا فرحنا إلى قلعة سنور وصلناها على سبع ساعات،
فأكرم مثوانا صاحب القلعة وأحسن نزلنا، وأتى بطعام كثير وفراش
متكلف، ولم يترك شيئا من الحضرية في طعامه ولا في شرابه؛ وهذه القلعة

(427) ابتداء من هنا نشر الدكتور عبد الهادي التازي نص رحلة ابن عثمان إلى القدس والخليل،
انظر كتابه: القدس والخليل في الرحلات المغربية، رحلة ابن عثمان نودجا، منشورات المنظمة
الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، الرباط، 1997.

حصينة وقد وجدنا جماعة معلقين عدتهم ببابها، فلما دخلنا الباب أخذوا العدة من أيدي رفقائنا وأصحابنا، لأنهم لا يتركون أحدا يدخل بالعدة إلى هذه القلعة، ومن الغد عند خروجنا ردوا العدة إلى أصحابنا.

طبيعة العلاقة بين الولاة و الباب العالي

وهذا الرجل صاحب هذه القلعة تحت نظر وزير الشام مولى عمل هذه الناحية على / 261 / يده، لكنه غير كامل الطاعة والانقياد، فهو يميل إلى الاستقلال والاستبداد، منفذا لأوامر أميره لكنه لا يتلاقى معه خوفا على نفسه، والوزير أيضا لا يقدر على نزعته فهو قانع بما يأتي منه، فإذا أتى الوزير إلى ناحية بلاده يخرج منها إلى ناحية أخرى حتى يرجع الوزير ويرجع.

وصف بلدة نابلس

ومن الغد سافرنا من هذه القلعة فوصلنا إلى بلدة نابلس⁽⁴²⁸⁾، وهي بلدة متوسطة بين جبال مرأها حسن، وبنائها كله بالحجارة المنحوتة. حسن المنظر، وماؤها كثير ذات بساتين، إلا أن أزقتها كثيرة العفونات والطريق إليها من القلعة المتقدمة في صعود وهبوط وحجارة، فوصلناها على أربع ساعات ونصف، فنزلنا بها على شيخ القلعة المذكورة، والقلعة كنا وجدنا بها ولده فله تصرف بهذه البلدة أيضا، فبتنا عنده ومن الغد عين فارسا يصحبنا في الطريق إلى القدس، ولما خرجنا من نابلس أرونا عن يسار الخارج قبا يقال إنهم مدافن أولاد يعقوب عليه السلام، فتركنا بزيارتهم وقرأنا الفاتحة وتمادينا على المسير في أرض كثيرة الحجارة، ولاسيما من موضع يقال له خان اللبان وأمامه وادي التين، وهو منخفض من الأرض بين جبال، وتلك الجبال كلها مغروسة بالتين إلا أنه صعب من كثرة الحجارة، لكن من عرف

(428) نابلس، هي مدينة السامرية بفلسطين بين جبلين كثيرة المياه وأرضها حجرية، تقع شمالي القدس و* بها البئر التي حفرها يعقوب عليه السلام، كما حبس بها عيسى عليه السلام وطلب من المرأة السامرية ماء ليشرب، وعليه الآن كنيسة حسنة*. كما يوجد بها الجبل الذي يعتقد اليهود أن الذبح كان عليه. (الروض 571؛ معجم البلدان 5-248).

ما قصد هان عليه ما وجد.

(429) فكان مبيتنا بقرية يقال لها البيرة⁽⁴³⁰⁾ على عشر ساعات، ومن الغد سافرنا منها فوصلنا القدس الشريف على ساعتين ونصف، وقبل وصولنا بنحو ساعة قابلنا النبي شمزيل بن يعقوب / 262 / عن يمين المار إلى القدس على ربوة عليه بناء، فقرأنا الفاتحة عند مواجهته ودعونا الله هنالك، وهذه البلاد كثيرة الحجارة كما تقدم.

وصف المسجد الأقصى وقبة الصخرة



وللقدس السور الحصين مبني بالحجارة في غاية الكمال والإتقان، والأبواب الحصينة الغلق فعدد أبوابه ستة⁽⁴³¹⁾: الأول ومنه دخلنا باب العمود، والثاني باب الزاهرة، والثالث باب الأسباط، والرابع باب المغاربة، والخامس باب النبي داوود، والسادس باب الخليل. فدخلنا إليه ونزلنا ببيت يقال إنه بيت الشيخ أبي مدين الغوث⁽⁴³²⁾ دفين تلمسان وعليه وكيل وله أوقاف.

(429) ابتداء من هنا نشر د. محمد بن عبود ومحمد المنوي النص الخاص بالقدس في المناهل، ع. 39، 1990.

(430) البيرة، قرية بين بيت المقدس ونابلس، خربها الملك الناصر لما استنقذها من الإفرنج. (معجم البلدان 1-526).

(431) ورد في هامش الصفحة 278 من (ب): "قد وقع لي شك في عد الأبواب (كتابة غير واضحة)، بل هي سبعة والباب السابع يقال له ... (غير واضح).

(432) شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني أبو مدين الغوث (ت. 594هـ / 1198م)، من مشاهير الصوفية أصله من الأندلس أقام بفاس طلباً للعلم ولكنه سرعان ما استهواه التصوف الذي تنقل في مراتبه حتى بلغ مرتبة الفطوب و"الغوث"، ورحل إلى مكة حيث لقي الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني كما قيل وأنتم على بده علوم التصوف ولما رجع إلى المغرب اشتغل بتعليم الصوفية ونشر تعاليمها، حيث استقر بيجاية ناسكا وعلا صيته وخرع إليه الناس حتى قلق الموحدون من تعاليمه التي تخالف مذهبهم، فاستدعاه السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور إلى مراكش لناقشته، ولبي الشيخ الدعوة غير أنه توفي قرب تلمسان حيث لا يزال قبره مزارا ومحجا قامت حوله مدينة العباد. (جذوة الاقتباس 332؛ دائرة المعارف 1-399؛ الزركلي 3-166).

فكان أول ما بدأنا به أن توضحنا وتوجهنا إلى المسجد الأقصى، فدخلنا أولا إلى قبة الصخرة وقد صعدنا إلى المكان الذي فيه الصخرة بمدارج نحو العشرين، وهو بلاط واسع جدا في وسط مسور المسجد، وفي وسط هذا البلاط قبة الصخرة المباركة وهي مثمثة الدائرة، لها أربعة أبواب عظام مجلدين بالصفرة، وفي داخل هذه القبة قبة أخرى مرفوعة على أعمدة الرخام دائرية بالصخرة، وبين الأعمدة شبابيك من الصفرة في علو نحو قامتين، لها أربعة أبواب من نفس الشبابيك، فدخلنا من الشباك المذكور فألفينا الصخرة محيطة بها شباك من خشب علوه أقل من القامة، فأشرفنا منه على الصخرة ولمسناها على سبيل التبرك من طيقان بالشباك المذكور، ووضعت أصابع يدي في أثر أصابع الملك حيث أقام الصخرة لما مالت بالنبي عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء كما يأتي بيانه.

فعدد / 263 / أعمدة القبة كلها أربعون عمودا من الرخام الفائق، منها أربعة عشر عمودا هي الدائرة بالصخرة المرفوعة عليها قبتها، ومنها ستة عشر عمودا مرفوعة عليها المستقف المحيط بقبة الصخرة وهو مسطح، وجميع حيطان هذه القبة من داخل وخارج مكسو بالرخام المصقول الذي كأنه مرءات، وما رأيت في بلاد الإسلام أكثر تأنقا من صنعة هذه القبة، وفيها محراب يصلي فيه إمام الحنفية الخمس .

ومن داخل القبة الأولى انحدرنا إلى سفلي الصخرة بأربع عشرة درجة، فصارت الصخرة فوقنا وقد أحاط بجوانبها بناء متصل بها، وتحتها عمود من رخام قائم تحتها متصل بها كأنه مقيم لها، وعند المدارج أيضا عمود طرفه في بعض المدارج وطرفه الآخر متصل بها قرب لسانها.

وهذا المكان الذي تحت الصخرة كثير الأنس يجد الإنسان فيه نشاطا وخفة وانشراحا لعبادة الله تعالى، فصلينا في محراب سيدنا سليمان عليه السلام وهو عن يسار الخارج منها وهو من الرخام، وصلينا أيضا ركعتين في محراب سيدنا داود عليه السلام وهو عن يمين الخارج، وقرأنا تحت الصخرة ما تيسر من القرآن ودعونا الله هنالك بما نرجوا من الله قبوله، ثم

صعدنا مع المدارج التي انحدرتنا منها فأرونا طرفا من الصخرة محتدا شيئا ما يقولون إنه لسان الصخرة، ولا أصل له وإنما ذاك من موضوعات المزورين⁽⁴³³⁾.

ومكتوب في دائرة قبة الصخرة من خارج سورة الإسراء، وبدائرة المسطح المحيط بها سورة / 264 / يس إلى يأكلون. وعبارة بعض المؤرخين: وأما الصخرة فهي في وسط المسجد على صحن كبير مرتفع عن أرض المسجد الأقصى الشريف، وارتفاع القبة التي على الصحن إحدى وخمسون ذراعا بذراع العمل، وهو مقدار ذراع وربيع ذراع الإنسان، وهذا الارتفاع من فوق الصحن، وأما علو الصحن عن أرض المسجد فسبعة أذرع، فيكون ارتفاع القبة عن أرض المسجد ثمانية وخمسون ذراعا.

وأما جامع المسجد الأقصى الذي يصلي فيه إمام الشافعية، وهو المسقف من الأقصى وصار اليوم اسم الأقصى علما عليه بالغلبة، فعرضه من المحراب إلى الباب الكبير مائتان وخمسون قدما، وطوله خمسة وخمسون وأربعمئة قدم، هذا مما يلي صدر المسجد في بلاط المحراب وما يليه، وفيما دون ذلك أقل، ومحرابه في غاية الحسن وهو الذي يقال إن المهدي يصلي فيه، وينزل عيسى عليه السلام فيجده قائما يصلي بالناس فيقتدي به، وهو مكسو بالواح من الرخام عرض الواحدة أقل من شبر وعددها سبعة عشر لوحا، ثمانية بيض وأربعة حمر وثلاثة إلى السواد أميل واثنان إلى الخضرة أميل، وفيه أمر يحكيه أهل الحرم فإن قصد فحسن وإن كان اتفاقا فغريب، يقولون أما الثمانية الألواح البيض إشارة إلى ثمان ركعات صلاة الظهر والعصر، والأربعة الحمر إشارة إلى صلاة العشاء بعد حجرة الشفق، والثلاثة التي تميل إلى السواد إشارة إلى صلاة المغرب إذا أقبل الليل، والاثنان الخضراوان إشارة إلى صلاة الصبح.

وقد صلينا في هذا / 265 / المحراب على سبيل التبرك، وأمام المحراب

(433) بقصد المرشدين المرافقين للزوار.

قبة عظيمة مزينة بالفصوص الملونة كاملة الزينة مكتوب في دائرتها: بسم الله الرحمن الرحيم جددت هذه القبة المباركة في أيام مولانا السلطان الملك الناصر، العالم العادل المجاهد الم رابط المثار، المؤيد المنصور قاهر الخوارج المتمردين محيي العدل في العالمين، سلطان الإسلام محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون الصالحى تغمده الله برحمته، في شهر سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. ومكتوب فوق المحراب: بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس، عبد الله يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر، صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله تعالى على يديه في شهر سنة ثلاث وثمانين وخمسائة. وبه منبر من العود المنتخب في غاية ما يكون من الصنائع الفائقة والنقوش الرائقة، صنعه نور الدين الشهيد صاحب دمشق المتقدم الذكر.

وله أي للأقصى المسقف من الأبواب أحد عشر بابا: سبعة في صف واحد في مقابلة الصخرة أوسطها هو الباب الكبير المقابل للمحراب، وأمام هذه الأبواب بلاط مسقف وأربعة أبواب في جانبه، وفي الجهة الغربية من الصحن عدة مدارس وبقرها متصلا بها مسجد، وهو بلاط واحد كبير طويل جدا يقال له البقعة البيضاء، وبه يصلي إمام المالكية قرب مرتبط البراق، ويقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى به، وبقره زاوية لسيدى عبد القادر الجيلاني وبها حجرة شيخنا أبي السعود /266/ نفعا الله بركاته وهو القائم عليها.

وطول جميع مسور المسجد الأقصى، بين المسقف والصخرة وغير ذلك، سبعمائة وخمسة وثمانون ذراعا من باب الأسباط إلى محراب داوود وسوق المعرفة، وسوق المعرفة المذكور هو مكان مسقف بين محراب داوود والمحل الذي فيه محراب مريم ومهد عيسى عليهما السلام، ولم أقف على معنى هذا الاسم، والمزورون يقولون إن أرواح الصالحين تتعارف هنالك، ولا يعتمد عليهم في شيء من ذلك لأن غرضهم معلوم.

وعرضه أربعمائة وله أحد عشر بابا: فأولها وثانيها بابان متحدان في

السور الشرقي الذي يرى بعض المفسرين أن الله تعالى فيه قال: [فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب]⁽⁴³⁴⁾، فإن الوادي الذي وراءه يقال له وادي جهنم ومتصلا به مقبرة اليهود، وهذان البابان من داخل الحائط مما يلي المسجد، أحدهما يسمى باب الرحمة والآخر باب التوبة؛ ويحكى أنه كان في بني إسرائيل إذا أذنب أحدهم ذنبا يصبح مكتوبا على باب داره، فيفر إلى هذا المكان فيتوب ويخرج من باب التوبة ويدخل من باب الرحمة، فإن تاب الله عليه تمحى الكتابة وإلا يبقى هناك، ولا يستطيع أحد أن يكلمه ولو كان أدنى الناس إليه، والذي ذكر الحنبلي⁽⁴³⁵⁾ صاحب "تاريخ الأنس الجليل في القدس والخليل" أن المكان الذي كانت تقصده بنو إسرائيل عند ذنوبها هو محراب داود.

والثالث باب الأسباط نسبة لأسباط بني إسرائيل وهم يوسف وروبير وشمعون ويهوذا، وهو قريب من / 267 / بابي الرحمة والتوبة، والرابع باب حطة في جهة الشمال، وهو الذي أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يدخلوا منه سجدا ويقولوا حطة، فبدلوا وخالفوا ما أمروا به لعنهم الله، والخامس باب شرف الأنبياء في جهة الشمال أيضا، ويرون أنه الذي دخل منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم الفتح، والسادس باب الغوانمة والسابع باب الناظر، وقد جددت عمارته في زمن الملك المعظم عيسى من بني أيوب في حدود الستمائة ويعرف قديما بباب ميكائيل، والثامن باب الحديد والتاسع باب القطنين ومنه يخرج إلى سوق القطنين، والعاشر والحادي عشر باب السلسلة وباب السكينة وهما متحدان، وباب المغاربة سمي بذلك لمجاورته

(434) الآية 13 سورة الحديد.

(435) أبو اليمن عبد الرحمان بن محمد مجير الدين العلمي الحنبلي المقدسي (810-928هـ/1456-1522م)، مؤرخ من القدس تلقى تعليمه بالناصرة واشتغل قاضيا بالرملة ثم قاضي القضاة بالقدس إلى أن توفي بها. له كتب منها "فتح الرحمان في تفسير القرآن" و "المنهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد" ترجم فيه لمجموعة من الفقهاء الحنابلة، وأشهرها كتابه "الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل" الذي جمع فيه معلومات مهمة عن أوضاع القدس بالخصوص خلال الفترة الأيوبية وتاريخ المدينة ومساجدها وتراجم رجالها (296-7 E. I.).

لباب جامع المغاربة الذي تقام فيه الصلاة أو لأنه ينتهي إلى حارة المغاربة، وهذا الباب في آخر الجهة الغربية من المسجد مما يلي القبلة ويسمى باب النبي صلى الله عليه وسلم.

وزرنا أيضا في هذا الحرم الموضع الذي فيه محراب سيدتنا مريم، وفيه أيضا مهد عيسى عليه السلام، وقد انحدرنا إليه بمدارج وقعدت في المهد تبركا بصاحبه، وأشرفنا من هذا المكان على الفضاء المحمول عليه المسجد الأقصى كله، فهو محمول على أعمدة من الحجارة العظيمة من بناء الجان على عهد نبي الله سليمان عليه السلام، فذكر لي بعض المزورين من أهل الحرم أن عدد الأعمدة التي تحت الأرض المحمول عليها المسجد الأقصى / 268 / ثلاثة آلاف قائمة والعهدة عليه، وكلها تحت الأرض وقد رأينا بعضها من طاق من محل مهد عيسى عليه السلام، فهي في غاية الضخامة العمود فيه ثلاث قطع من الحجارة العظيمة.

وزرنا أيضا بهذا الحرم تربة سليمان عليه السلام وهي موضع كرسيه، وقيل الصحيح أنه مدفون مع والده في الجسمانية موضع خارج سور المسجد من جهة الشرق، وجزم بعض العلماء بأن سيدنا داوود مدفون بصهيون، موضع خارج سور المدينة من جهة القبلة، وهو الآن مقامه مشهور في غاية الجلالة يزوره الخاص والعام لاغتنام المدد والجمال وقيل غير ذلك (والله أعلم) ⁽⁴³⁶⁾.

وزرنا المكان الذي كان يحكم فيه نبي الله داوود عليه السلام، وهو أمام قبة الصخرة تحت قبة السلسلة مكتوب فوق محراب هذه القبة [يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق] الآية ⁽⁴³⁷⁾، وذلك أن هذه السلسلة أدليت من السماء في أيام داوود عليه السلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس، فكان الناس يتحاكمون عندها، فمن مد يده

(436) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(437) الآية 26 سورة ص.

إليها وهو صادق نالها ومن كان كاذباً لم ينلها، إلى أن ظهرت فيهم الخديعة، وذلك أن رجلاً أودع رجلاً جوهرة فخبأها في عكازه وطلبها المودع فجحد، فتحاكما فقال المدعي إن كنت صادقاً فلتدن مني السلسلة فمسها، ودفع إليه المدعى عليه العكازة وقال: اللهم إن كنت تعلم أنني رددت له الجوهرة فلتدن مني السلسلة، فمسها فقال الناس قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم، فارتفعت بشؤم / 269 / الخديعة وأوحى إلى داوود أن احكم بين الناس بالبينه واليمين وبقي ذلك إلى الآن.

وزرنا أيضاً تربة نبي الله داوود عليه السلام وهو خارج سور البلد، وقرأنا في ضريحه سورة (ص) ودعونا الله هناك، وتبركنا بزيارة مربوط البراق وصلينا هناك ركعتين، ورأينا الحلقة التي ربط فيها البراق لكن الحلقة بدلت بغيرها وجعلت هذه تذكرة.

ثم توجهنا لزيارة طور سيناء ومن اشتمل عليه من أهل الشاء والسنا، فخرجنا من باب الأسباط أحد أبواب القدس، فزرنا أولاً قبر الصحابي الجليل عبادة بن الصامت⁽⁴³⁸⁾ وهو عن يسار الخارج من باب الأسباط ملاصقاً للسور، وبعده بشيء ما الصحابي الشهير شداد بن أوس قرب السور المذكور في مقبرة هنالك.

ثم اتحدنا إلى زيارة سيدتنا مريم بنت عمران، فوقفنا عند ضريحها وقرأنا لها الفاتحة ودعونا الله هنالك، ومفتاح قبتها بيد النصاري ولا حول ولا قوة إلا بالله، جبر الله حال هذه الدولة فقد أفسدهم الطمع، وأمامها تربة الإمام الحنبلي صاحب "تاريخ الأنس الجليل في القدس والخليل"، ثم صعدنا إلى الطور فزرنا قبر الشيخ محمد العلمي من ذرية سيدنا عبد السلام بن مشيش نفعا الله تعالى ببركاته، وحذاء ضريحه مسجد وزاوية يقال لها

(438) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري (38ق.هـ - 34هـ / 586-653م)، صحابي ورع شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها، ثم حضر فتح مصر وكان أول من تولى قضاء فلسطين، مات بالرملة أو بيت المقدس وروى 181 حديثاً. (ابن عساكر 7-206؛ الإصابة 8-448؛ الزركلي 3-258).

الأسعدية سميت باسم بانيها أسعد أفندي كان شيخ إسلام، ثم دخلنا إلى
الموضع الذي رفع منه عيسى عليه السلام فصلينا فيه ركعتين، وأرونا حجرا
فيه أثر قدمه فتبركنا به ودعونا الله / 270 / هنالك، وقد كان أيضا بأيدي
النصارى فاستنقذه الله منهم على يد هذا الرجل الصالح الشيخ محمد العلمي
بواسطة شيخ الإسلام المذكور، ثم توجهنا إلى زيارة تربة نبي الله عزير
فدخلنا مقامه المبارك ودعونا الله هنالك.

ومن جبل الطور يظهر بيت المقدس في غاية البهاء والابتهاج وحسن
المنظر وكذا من جهة القبلة، وأما من جهة الغرب والشمال فلا يرى منه من
بعيد إلا القليل لموارد (كذا) الجبال له، فإن بيت المقدس والخليل في جبال
كثيرة الأوعار والأحجار، والسير فيها متعب والمسافة فيها بعيدة، فإن الجبال
المحيطة بالبلدين مسافتها تقريبا ثلاثة أيام طولا ومثلها عرضا بسير الأثقال،
ولكن إذا من الله على قاصد الزيارة بالوصول إلى المسجد الشريف الأقصى
وإلى المقام الشريف الخليلي، يحصل له من الأنس والبهجة ما لا يكاد
يوصف، ويسلوا عما حصل له من المشقة والنصب، وقد أنشد الخافظ ابن
حجر عند قدومه لزيارة بيت المقدس في معنى ذلك:

إلى البيت المقدس جئت أرجو جنان الخلد نزلا من كريم
قطعنا في مسافته عتَابا وما بعد العتَاب سوى النعيم
ثم انحدرنا من وراء الطور فدرنا إلى صوب كليم الله ونبيه موسى بن
عمران عليه السلام، وهو بعيد من هذا المكان قيل بنحو أربع ساعات،
فحدثت نفسي بالوصول إليه فأخبرني أهل البلد أن الطريق مخوفة، فرددنا
الوجهة إلى صوبه ودعونا الله هنالك، ثم تبركنا بزيارة بير / 271 / نبي الله
أيوب عليه السلام الذي يروى أنه المراد بقوله تعالى: [اركض برجلك هذا
مغتسل بارد وشراب]⁽⁴³⁹⁾، وقد أخبرني بعض الأفاضل من علماء القدس
وقد توجه معنا لهذه الزيارة وهو الذي كان يدلنا على هذه الأماكن، أن هذا
البير في فصل الشتاء والأمطار يفيض ويفور بماء كثير مثل النهر، وقد رأينا

(439) الآية 42 سورة ص.

مجره يابساً وهو محفور بجري الماء، وأشرفنا على البير فإذا فيه ماء كثير لكنه بعيد، فقد رميت فيه بحجر فما وصل الماء إلا بعد حين.

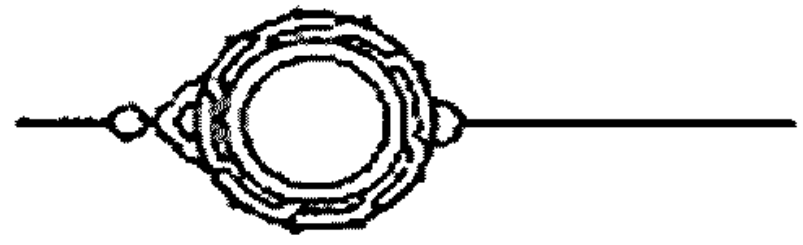
ثم مررنا بعين يقال لها سلوان أخبرنا أهل البلد أنها تجري حيناً وتحبس حيناً، وهي خارجة من أصل جبل لا يدرى لها أصل، قال الإمام الحنبلي في تاريخه "الأنس الجليل": أما عين سلوان فهي بظاهر القدس الشريف من جهة القبلة بالوادي، يشرف عليها سور المسجد القبلي، وقال في آخر كلامه عليها وعن خالد بن⁽⁴⁴⁰⁾ . أنه قال: زمزم وعين سلوان التي ببیت المقدس من عيون الجنة، ومن الغريب أنها لا تجري غالباً إلا عند أوقات الصلاة وتحبس فيما عدا ذلك، ونحن لما وصلنا إليها وجدنا ماءها منحبساً، وعند وصولنا إليها خرج ماءها وجري على وجه الأرض في مصاريقه، فشربنا منه فإذا ماءها أشبه بماء زمزم، وهذا عند أهل البلد معروف وقد أخبرونا به قبل رؤيتنا له فلما شربناه وجدناه كما قيل.

ويروى عن كافة أهل البلد أن رجلاً هندياً شرب من ماء زمزم فسقط له قدح في البير، فغاب حبة من الدهر وأتى إلى القدس، فاستقى ماء من بعض الضيع فناولوه الماء في قدح، فأمعن النظر في القدح فإذا هو قدح الذي سقط منه في بير زمزم، فقال لصاحبه: من أين لك هذا القدح، فقال له: اشرب وما عليك فيه، فقال: هذا القدح لي وقد سقط مني في بير زمزم، وما هو مجلد فانزعوا عنه الجلد فإن وجدتم تحته كذا دنانير فهو لي وإلا فلا، فقال له: إن كان /272/ كما تقول فقد رمت به عين سلوان ورفعناه، فأخبرهم الخبر فأمسكوا القدح وعلقوه في المسجد الأقصى وقد رأيته، ولا غرابة في هذا فقد ورد أن مياه الدنيا كلها تخرج من تحت صخرة بيت المقدس.

وزرنا أيضاً القبة التي عرج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وهي في شمال قبة الصخرة قريبة منها، وصلينا هناك ركعتين

(440) اسم غير مقروء.

ودعونا الله بما يرجى قبوله، وتبركنا أيضا بالدخول إلى المسجد الأقصى القديم الذي من فوقه المسجد الذي يسمى اليوم بالأقصى، فانحدرنا إليه بمدارج وهو الذي فيه محرابان، محراب إلى صوب الصخرة القبلة الأولى ومحراب إلى جهة الكعبة المشرفة، وبناءه قديم من بناء سليمان عليه السلام بالحجارة الهائلة، فقد كُتبت حجرا من أحجار جداره فوجدت فيه تسعة عشر شبرا في طوله وعرضه نحو خمسة أشبار، ورأيت فيه أعظم من ذلك جدارا في طرفه أسطوانة من ثلاثة أحجار فقط، منحوتة منها شكل الأسطوانة مدورا من نفس الحجر الذي هو الجدار وباقيها مستطيل، وتبركنا بزيارة خلوة أبي مدين الغوث دفين تلمسان وهو في حارة المغاربة.



التوجه إلى الخليل وزيارة قبر أب الأنبياء إبراهيم

ثم سرنا من القدس إلى بلدة حبرون⁽⁴⁴¹⁾ وتسمى اليوم بالخليل، فكان خروجنا من القدس من باب يقال له باب الخليل، ومررنا في الطريق على قبر راحيل أم يوسف عليه السلام عن يمين الطريق، عليها قبة بينها وبين القدس نحو ساعة، ثم على قرية بيت لحم وفيها المكان الذي ازداد فيه نبي الله وكليمه عيسى بن مريم عليه السلام، / 273 / وقد بقيت عن يسارنا وأكثرها نصارى والبقعة المباركة في أيديهم، فزرنا المكان عند مواجهته وقرأنا الفاتحة ودعونا الله هنالك، ثم تمادينا على المسير فواجهنا تربة نبي الله يونس بن متي صاحب الخوت، بقي عن يسار الطريق على ظهر جبل فدعونا الله تعالى عند مواجهته، فوصلنا إلى الخليل على ست ساعات بالسير الحثيث، وهو في قبلة القدس وهو أشبه شيء بمكة عند أول نظرة مؤسس على

(441) حبرون أو الخليل نسبة إلى إبراهيم الخليل الذي يوجد قبره بها إلى جانب قبور إسحاق ويعقوب والبطارقة، ولذلك اكتسبت هذه المدينة مكانة خاصة لدى المسلمين واليهود والمسيحيين، فقد سيطر عليها الصليبيون ثم استردها صلاح الدين بعد معركة حطين، وصنفها العبدري بأنها " قرية مليحة النظر والمخير أنبثة السموع والبصر مشرق كالصبح إذا أشرق، موضوعة ببطن واد قليل الماء والشجر والمحيط بها حرار وعرة " . (دائرة المعارف 8-430؛ العبدري 222).

جبال، فنزلنا على شيخ البلد وتوضأنا وسرنا إلى المقصد الأعظم والملاذ
الأفخم، أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، فدخلنا
المسجد وملنا ذات اليمين إلى قبه، وتبركنا بالمقام عند ضريحه وقرأنا عليه
سورة إبراهيم ودعونا الله هنالك، وكنت حقيقاً بأن أنشد هنالك ما أنشده
بعض الشيوخ، وهو في الدواوين مسطر ومنسوخ لابن مطروح:

<p>خليل الله قد جئناك نرجو أنلنا دعوة واشفع تشفع وقل يارب أضياف ووفد أتوا يستغفرونك من ذنوب إذا وزنت بيزبيل أو شمام ولكن لا يضيق العفو عنهم وقد سألوا رضاك على لساني / 274 / فيا مولاهم عطفا عليهم</p>	<p>شفاعتك التي ليست ترد إلى من لا يخيب لديه قصد لهم بمحمد صلة وعهد عظام لا تعد ولا تحدد رجحن ودونها رضوى وأخذ وكيف يضيق وهو لهم معد إلهي ما أجيب وما أرد فهم جمع أتوك وأنت فرد</p>
--	--

وفي مقابلته ضريح أم الأنبياء سارة زوجته وهما عند باب المسجد،
ضريح سيدنا إبراهيم عن يمين الداخل وزوجته أمامه، وفي داخل المسجد
قريب من المحراب عن اليمين ضريح نبي الله إسحاق عليه السلام، فتبركنا
به ودعونا الله تعالى عند مقامه، وفي مقابلته عن اليسار ضريح زوجته ربة.
ثم خرجنا من مسقف المسجد إلى ضريح نبي الله يعقوب بن إسحاق عليه
السلام، فزرناه وتبركنا به ودعونا الله في مقامه، ثم عجنا (كذا) إلى تربة
نبي الله يوسف الصديق عليه السلام، فزرناه وتبركنا بمشاهدته ودعونا الله
هنالك صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، اللهم صل على سيدنا محمد
وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم،
وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم
وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد⁽⁴⁴²⁾

وهذا المسجد ليس بالكبير، فمساحته مقدار ما كتب في دائرة جداره،

(442) كتب هذا الدعاء بخط بارز ومنق في النسختين.

ففي دائرة المحراب [إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين] إلى آخر السورة⁽⁴⁴³⁾، ومن أول سورة يس إلى [ومنها يأكلون]⁽⁴⁴⁴⁾ بخط غليظ بذوب الذهب، وفي داخل المسجد في أرضه طاق مثل البير بقرب مقام سيدنا إبراهيم، تخرج فيه مصابيح ليلا ونهارا وتدل فيه⁽⁴⁴⁵⁾، قيل إن الأنبياء المذكورين عليهم السلام مدفونون هنالك في مغارة تحت أرض المسجد (والمسجد فوق ذلك)⁽⁴⁴⁶⁾.

وفي المسجد / 275 / المذكور شبابيك على شكل القبور مغطاة بستور ديباج مثل ما يفعل عندنا بقبور الأولياء، جعلت في مقابلة قبور الأنبياء إلا قبر يوسف فإنه في آخر المسجد عند انتهاء الصحن في الناحية الغربية، وكذا نبي الله يعقوب خارج عن مسقف المسجد، ويروى أن نبي الله آدم عليه السلام مدفون هنالك.

قال الإمام الحنبلي في تاريخه "الأنس الجليل" وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن آدم عليه السلام رأسه عند الصخرة ورجلاه عند مسجد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وقال الشيخ البركة أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي⁽⁴⁴⁷⁾ نفع الله به في شرحه "الخصن الحصين"، عند قوله ولم يعرف قبر نبي بعينه، إلا قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقط وقبر إبراهيم عليه الصلاة والسلام داخل السور من غير تعيين ما نصه: وفي مناسك الشيخ خليل ما تقوله العامة من أنه صلى الله عليه وسلم قال: من زارني وزار أبي إبراهيم في عام واحد ضمننت له على

(443) الآية 120 سورة النحل.

(444) الآية 72 سورة يس.

(445) بياض مقدار كلمة في الأصل.

(446) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(447) أبو عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي المالكي (1042-1116هـ/1632-1704م)، فاضل من أهل فاس مولدا ووفاء، اشتغل أول أمره بعلوم العربية ثم اقتصر على التفسير والحديث، من كتبه "تكميل المرام في شرح شواهد ابن هشام" وشرح أرجوزة العربي الفاسي. (صنوة من انتشر 215؛ سلوة الأنفاس 1-316؛ الزركلي 6-212).

الله الجنة، فليس بصحيح ولكنه من أفعال الخير. وكذلك قول العامة أقدم حجتني، وهو عندهم من تمام الحج وهو باطل، لكن يستحب زيارة المسجد الأقصى وزيارة الخليل وذلك كله حسن.

قال أهل العلم: وليس موضع قبر مقطوع به بعد موضع قبر النبي صلى الله عليه وسلم إلا موضع الخليل، انتهى. وقال صاحبنا العلامة أبو سالم عبد الله العياشي⁽⁴⁴⁸⁾ رحمه الله في رحلته: زرنا قبر خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام وقبور أنبيائه الكرام، سيدنا إسحاق وسيدنا يعقوب عليهما السلام وقبور أزواجهن، والقبور كلها في مغارة تحت أرض المسجد، وفي المغارة طاق مفتوح في وسط أرض المسجد مثل البير قد علفت /276/ فيها مصابيح توقد ليلاً ونهاراً، وفي أرض المسجد شبابيك على شكل القبور مغطاة بستور ديباج، في مقابلة قبور الأنبياء التي في المغارة إلا قبر يوسف عليه السلام، فإنه في آخر المسجد في ركنه الغربي في محل يغلق عليه ولا يفتح إلا في أوقات مخصوصة.

واقترحنا دخول المسجد اقتداء بمن جوز ذلك من العلماء ورخص فيه، وإن كان كثير من أئمتنا المالكية قد شددوا النكير في ذلك، وقالوا لا يحل دخوله لأن قبور الأنبياء مقطوع بأنها هنالك ولا نعلم أعيانها، فكل محل يوطأ فيه يمكن أن يكون هو موضع القبر، ولا يحل الجلوس ولا المرور على قبر مسلم فكيف بقبر نبي. ولكن العمل منذ افتتحت البلاد على خلاف ذلك، فقد صار المحل مسجداً تقام فيه الجمعة والجماعة على مر الأعصار،

(448) أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي (1037-1090هـ/1628-1679م)، يصفه القادري بـ "العلامة الكبير المحقق النحرير الفاضل المشارك في أنواع العلوم والمدارك الراوية الرحالة الجوال"، من قبيلة آيت عياش الأمازيغية جاب المغرب طلباً للمعلم وبعد إجازته من طرف عبد القادر الفاسي حج للمرة الأولى سنة 1649، وفي حجته الثانية سنة 1653 ألف رحلته "ماء الموائد" التي نالت شهرة كبيرة، كما ألف العياشي كتباً أخرى منها "تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية" في التصوف، و "اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر" وغيرها. توفي العياشي في وباء سنة 1679. (القادري، نشر الثاني، ج. 2، ص. 254؛ E., I., 818؛ الإفرائي، صفوة من انشور).

والعلماء والأخيار يقدون عليه ويسمونهم في تآليفهم وأسمعتهم مسجداً،
وحكم المسجد ألا يمنع أحد من الدخول فيه، وقد استدل جواز الدخول
فيه الحنبلي مؤرخ القدس بما يطول ذكره، انتهى.

ونقل صاحب كتاب "دفع النعمة بالصلاة على نبي الرحمة" عن الهروي
في كتاب "منازل الأرض"، أنه سمع على الشيخ أبا طاهر الحافظ السلفي
بثغر الإسكندرية سنة⁽⁴⁴⁹⁾ خبراً يرفعه إلى فلان الآدمي، ذكر فيه أن الآدمي
المذكور قصد زيارة الخليل عليه السلام، وصادف القيم بالموضع فتقرب إليه
بهدية وطلب منه النزول إلى المغارة، فوعده عند انقطاع الزوار زمن الثلج،
فلما انقطع الناس أتى به إلى بلاطة / 277 / وأخذ ما يستضيء به، ونزل في
درج مقدار سبعين درجة، وانتهى إلى مغارة واسعة كبيرة وانتهى لطريق فيها
ولها دكة عالية، عليها إبراهيم الخليل ملقى وعليه ثوب أخضر وشبت، وإلى
جانبه إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ثم أتى إلى حائط في المغارة فقال له
إن سارة خلف هذا الحائط، فهم الرجل أن ينظر ما وراء الحائط وإذا
بصوت يقول إياك والحريم فعاد من حيث جاء والله أعلم.

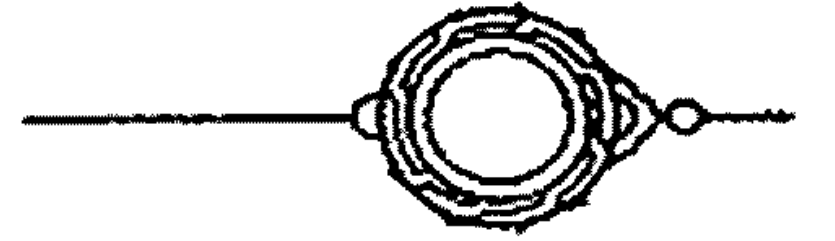
قال الهروي: ثم دخلت أيضاً القدس سنة تسع وستين وخمسمائة
 واجتمعت فيه وفي الخليل عليه السلام بجماعة مشايخ، حدثوني أنه لما كان
 زمن الملك ابن مروود⁽⁴⁵⁰⁾ انخسف موضع في هذه المغارة، فدخل جماعة من
الفرنج إليها بإذن الملك، فوجدوا فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب وقد بليت
أكفانهم وهم مستندون إلى حائط، على رؤوسهم قناديل معلقة رؤوسهم
مكشوفة، فجدد الملك أكفانهم ثم سد الموضع وذلك في سنة ثلاث عشرة
 وخمسمائة من الهجرة النبوية.

ثم رجعنا إلى محل نزولنا عند شيخ البلد فأكرم مثنانا وأحسن نزلنا،
وقدم مفتي البلد للسلام علينا وبقي معنا نتحدث طرفاً من الليل، ولما قرب

(449) بياض في النسختين.

(450) بياض محل الاسم في (أ) وورد في (ب)، ويرد عبد الهادي التازي أن المقصود بودوان B
Baudoin.

طلوع الفجر بساعتين فتحوا لنا الباب وخرجنا من حبرون بلدة سيدنا إبراهيم الخليل، لأنه تعلق لنا غرض في صلاة الجمعة في المسجد الأقصى وقد كانت الليلة ليلة الجمعة، وخشنا أن تفوتنا إذا بقينا إلى الصباح فسرنا بقية الليل وصلينا الفجر والصبح عندما طلع الفجر، وتمادينا على المسير فوصلنا إلى القدس قبل الزوال / 278 / بساعتين، فاسترحنا وتوضأنا وتوجهنا إلى المسجد الأقصى فصلينا فيه الجمعة ولله الحمد.



موجز تاريخ بيت المقدس

وقد رأيت أن نرسم ما يتعلق ببناء بيت المقدس، وأول من بناه ومن أعاد بناءه بعد الطوفان ومن جدد بناءه بعد الخراب، وما يتعلق بالصخرة المباركة وقبتها ومن بناها، والمسجد الأقصى ومعراجه صلى الله عليه وسلم وكيف هو، منتخبا ذلك مما يعتمد عليه من التأليف مثل "الأنس الجليل في القدس والخليل"، ورسالة الشيخ التافلاتي أحد أصحابنا المغاربة المالكية، لكنه انتقل إلى مذهب أبي حنيفة لما استقر ببيت المقدس وولي الفتوى هنالك.

فأول من بناه الملائكة الكرام بعد بناء البيت الحرام بأربعين عاما كما جزم به الجلال المحلي والجلال السيوطي، وكما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع للناس فقال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي، قال: المسجد الأقصى، قلت: وكم بينهما قال: أربعون عاما.

وهذا البناء قبل خلق آدم بمئتين من السنين، وبه صرح في الجلالين في تفسير قوله تعالى: [إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة]⁽⁴⁵¹⁾، وهو الذي يجب الاعتماد عليه ولا يعول على غيره، وبه صرح البيضاوي في تفسيره لكن لم يقل بنته الملائكة، وقد علمت النقل عن الجلال المحلي والجلال السيوطي في ذلك.

(451) الآية 96 سورة آل عمران.

واعلم أن أول قبلة للملائكة ولآدم عليه السلام هي الكعبة المشرفة، كما قاله الإمام ابن عباس وغيره وهو القول المعتمد عليه، فبيت المقدس ثاني القبلتين / 279 / على القول المرجح، وأما من بناء بعد البناء الأول فقال ابن هشام في "التيجان" : إن آدم عليه السلام لما بنى البيت الحرام أمره جبريل عليه السلام بالمسير إلى بيت المقدس وبنائه، فبناه وتعبد فيه وكان بين البناءين أربعون عاماً، وزعم بعض المؤرخين أن سيدنا آدم عليه السلام لم يعلم بوجود لبيت المقدس فضلاً عن كونه بناه، وهو جهل وخطأ صراح؛ ثم خربه الطوفان فبناه سام بن نوح عليه السلام، ثم خرب فبناه سيدنا يعقوب عليه السلام بعد بناء سيدنا إبراهيم الكعبة بأربعين عاماً، كما صرح به النجم الحافظ الفيظي في معراجة وغيره وعندي فيه نظر.

ثم شرع سيدنا داود في بنائه فلما علا البناء انهدم، ثم أعاد البناء فانهدم، فتضرع إلى الله تعالى فأوحى الله إليه أن هذا البناء لا يتم إلا على يد ولدك سليمان، ثم بناه سيدنا سليمان عليه السلام بناءً محكما شاهقا أمر الجن فعمرنه، وكان علو قبة الصخرة اثني عشر ميلا، وزينه بأنواع الجواهر والآلئ والذهب والفضة كما بسطه المؤرخون، ثم خربه بخت نصر⁽⁴⁵²⁾ وأخذ جميع ما فيه من الذخائر العظيمة، ثم بناه الملك كورش المومن⁽⁴⁵³⁾ ملك الفرس بعد سبعين سنة، أمره الله تعالى على لسان نبي الله أرمياء، ثم خربه طيطوش⁽⁴⁵⁴⁾ ملك الروم لعنه الله، ثم بنت هيلانة أم قسطنطين قبة الصخرة المشرفة، فلما أكملتها دخلها سبعون ألف راحب ليكفروا فيها،

(452) بخت نصر، خلط العرب في اسم بخت نصر بين نابونصر ملك الكلدانيين الذي ولي عرش بابل بين 747 و733 ق.م، ونبو شادنزر أو نبوخذ نصر الذي حكم بابل بين 605 و562 ق.م. وهو المقصود عند ابن عثمان، إذ هو الذي فتح بيت المقدس وخرّبها مرتين وسبى اليهود. (دائرة المعارف 3-429)

(453) ملك الفرس الأخمينيين الذي سقطت بابل على يده وأعاد اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر إلى أورشليم، ولذلك يعتبره اليهود منقذا لهم ويروى أن زوجته كانت يهودية.

(454) هو Titus Flavius Sabinus (39-81) أحد قياصرة روما، خلف والده Vespasian واشتهر بحروبه ضد اليهود، حيث دخل مدينة القدس وخرّبها سنة 70 م، وهو ما يحيل عليه ابن عثمان.

فهدمت عليهم ولم ينج منهم أحد، فبناها النصارى ثانيا وثالثا / 280 /
فهدمت عليهم، فأشار عليهم إبليس لعنه الله بأن يبنوا القمامة الكبرى،
فأخذوا جميع أعمدة المسجد وأحجاره وآلاته الحسنة فبنوا بها القمامة الكبرى
والجسمانية وبيت لحم والمصعد، وجعلوا سطح الصخرة والمسجد مزبلة حتى
كانت النساء الخيض من بلاد النصارى يرسلون خرقهن فترمى في المسجد .

ثم لما جاء الإسلام وفتح بيت المقدس صلحا على يد أمير المؤمنين عمر
بن الخطاب رضي الله عنه، كنس عنه جميع المزابل وغسل الصخرة المشرفة
وبنى قطعة من المسجد للصلاة في صدر المسجد، وما زال هكذا وإلى الآن
يدعى بمسجد عمر وهو عن يمين المستقبل في المسجد الأقصى، وهو بلاط
واحد مفتوح له قوس داخل المسجد في الصف الأول، حتى جاءت ملوك
بني أمية فبنى عبد الملك بن مروان منهم هذا البناء الموجود الآن، وبسط
الكلام على ذلك يطلب في كتب التاريخ.

وطول الصخرة المشرفة نيف وثمانون ذراعا، وطول سطح الصخرة
المحيط بها مائة ذراع. وكل الأنبياء عليهم السلام صلوا للقبليتين، روى الليث
عن يونس عن الزهري قال: لم يبعث الله من هبوط آدم إلى الأرض نبيا إلا
جعل قبلته صخرة بيت المقدس، وقال بعض العلماء: إلا إبراهيم فإنه لم
يصل إلا إلى الكعبة خاصة. ولا يجوز الطواف بالصخرة أو قبتها كالكعبة،
لأنه ما شرع الله الطواف إلا بالبيت الحرام، وما شرع الطواف بالصخرة ولا
بقبتها في جميع الملل.

وأما الباب الذي دخل منه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، /
281 / فهو الباب السفلي القريب من باب مسجد المغاربة، والحلقة التي ربط
فيها البراق قيل إنه كانت هنالك حلقة في صخرة من صخور المسجد تربط
فيها الأنبياء دوابهم، ولما أسرى بنينا صلى الله عليه وسلم خرق الصخرة
المشرقة بأصبعه المبارك، وربط البراق هناك زيادة لشرف النبي صلى الله عليه
وسلم على سائر الأنبياء، ودواب الجنة لا تبول ولا تروث. وأما الحلقة
الموجودة الآن فليس محل ربط البراق، بل محل ربطه أسفل من ذلك ولكن

لما أُرِدمَ المحل بالأثرية جعلت الحلقة علامة على ذلك.

وأما عروجه عليه الصلاة والسلام فهل هو من فوق الصخرة أو من موضع القبة المعروفة الآن بقبة المعراج، فالذي ذكره بعض المؤرخين أنه من فوق الصخرة، وهو قول واه والصواب أن العروج من مكان القبة المذكورة ولا خلاف فيه بين العلماء. والموضع الذي صلى فيه صلى الله عليه وسلم إماما بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هو مكان القبة المشهورة الآن بقبة بخ بخ، وهي شمال قبة المعراج قريبة منها كما يشهد لذلك الحديث، وليس مقامه في المحراب الذي هو غربي الصخرة، وإن ذهب إليه بعضهم فهو غير صحيح. وهل دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الصخرة وصلى هناك، فأما الدخول تحت الصخرة فقد دخل وأما الصلاة فلم يثبت أنه صلى تحتها.

ويسمى ذلك المكان الذي هو داخل المغارة تحت الصخرة مسجد داوود كما في الشفا وشرحه للشهاب، وأما النقب الذي في الصخرة فوق /282/ المغارة وتزعم العامة أنها موضع عمامة النبي صلى الله عليه وسلم، فلا سند له عند المحدثين وإنما هو من كلام المزورين، وأما المعراج فمن أي شيء هو، فهو درجة من ذهب ودرجة من فضة، وفي كتاب شوق المصطفى أنه أوتي بالمعراج من جنة الفردوس وأنه منضد، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة. وأما صخرة بيت المقدس فهل هي من صخور الدنيا أم من صخور الجنة، فقد ورد في حديث ضعيف السند صخرة بيت المقدس من صخور الجنة، وفي لفظ سيدة الصخور صخرة بيت المقدس، فبعض المحدثين أبقاه على ظاهره وبعضهم حمله على المجاز والله أعلم.

وهل هذه الصخرة معلقة في الهوى (كذا) أم لا، فلم يثبت فيها حديث يرجع إليه في شأنها، ولا نقل عن السلف فيها شيء بتعليق أو عدمه، لكن نقل بعض المحدثين أنها معلقة، ونقله أرباب السير وكثير من المؤرخين من غير تكبر، ويكفي هذا في الجزم بالتعليق وهو شيء جائز في العقول. قال الشهاب الحفاجي في شرحه على الشفا ما نصه: قال البرقي في

غريب الموطأ: أن صخرة بيت المقدس من غرائب الدنيا، فإن جميع المياه تخرج من تحتها، وهي صخرة صماء في وسط المسجد الأقصى كجبل بين السماء والأرض، معلقة لا يمسكها إلا الله، وفي أعلاها قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ركب البراق ليلة الإسراء، فمالت من تلك الجهة من هيئته، وفي الجهة الأخرى أثر أصابع الملائكة التي أمسكتها لما مالت، ولذا كان بعضها أبعد من الأرض وتحتها غار عليه باب يفتح / 283 / لمن يدخله للصلاة والدعاء، انتهى.

وقال الإمام أبو بكر بن العربي في شرحه لموطأ مالك: صخرة بيت المقدس من عجائب الله، فإنها صخرة قائمة في وسط المسجد الأقصى قد انقطعت عن كل جهة، لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، في أعلاها من جهة الجنوب قدمه صلى الله عليه وسلم حين ركب البراق، وقد مالت لهيئته صلى الله عليه وسلم، وفي الجهة الأخرى أصابع الملائكة التي أمسكتها لما مالت، ومن تحتها المغارة التي انفصلت تحتها من كل جهة أي فهي معلقة بين السماء والأرض.

وامتنعت لهيئتها من أن ندخل تحتها لأنني كنت أخاف أن تسقط علي بذنوبي، ثم بعد مدة دخلتها فرأيت العجب العجيب، تمشي في جوانبها من كل جهة فتراها منفصلة عن الأرض لا يتصل بها من الأرض شيء، وبعض الجهات أشد انفصالاً من بعض. وهذا الذي ذكره ابن العربي أن قدمه صلى الله عليه وسلم أثر في صخرة بيت المقدس حين ركب البراق وأن الملائكة أمسكتها لما مالت، قال به الحافظ ناصر الدين الدمشقي، وقد أنكر أكثر المحدثين ذلك القدم لعدم صحة السند به عندهم والله أعلم.

وهل عروجه عليه الصلاة والسلام كان مستقيماً أو معوجاً وعلى أي كيفية كان، ذكر الشيخ الغيطي في معراجيه وغيره أن العروج كان مستويًا لا اعوجاج فيه، انتصب بخط مستوي (كذا) من مكان المعراج إلى باب السماء، وكيفية عروجه فيه هو أنه في حالة صعوده عليه السلام، تهبط له الدرجات / 284 / وترفعه درجة فدرجة إلى نهايتها، وكذلك في النزول تهبط

حتى ينزل عنها ثم ترفع، فالحركات في الدرجات لا منه عليه الصلاة والسلام كما هو وصف أهل الجنة في الجنة. وهل عرج على البراق أم تركه مربوطاً في المسجد حتى رجع، والراجع عند المحدثين أن البراق بقي مربوطاً كما صححه المحدثون، وعرج صلى الله عليه وسلم بنفسه وقيل إنه عرج على ظهر البراق. وهل صخرة بيت المقدس أعلا (كذا) مكان في الدنيا وأقرب إلى السماء نعم، صرح بعض المحدثين أن بيت المقدس أقرب أماكن الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، انتهى.

ولا شك أن الصخرة جزء من بيت المقدس فيغطي الجزء حكم الكل، قال الخافظ ابن حجر: وفيه نظر لأن أقرب أماكن الأرض إلى السماء البيت الحرام، قال بعض المحدثين هذا النظر صحيح، ولكن يلزمه من عروجه من البيت الحرام اعوجاج المعراج إلى باب السماء الذي هو فوق بيت المقدس، وصرحوا بأن أفضل بقعة في المسجد الأقصى الصخرة المشرفة، وكلما قرب منها كان أفضل مما بعد. وما خفي من الصخرة المعلقة إلا أطرافها المتصلة بالتبليط والعمارة، ولو أزيل ذلك التبليط والعمارة لظهرت قطعة بين السماء والأرض منفصلة عن كل شيء.

وهل فضيلة هذه الصخرة باقية أم نسخت بفضيلة الكعبة المشرفة، قال علي القاري في موضوعاته: كانت صخرة بيت المقدس في شريعة بني إسرائيل فضيلتها في الأرض كيوم السبت في الزمان، وبعد نسخ الله قبلتها بالكعبة صار التفضيل للكعبة ونسخ تفضيل الصخرة، فهي الآن / 285 / قطعة من المسجد، هكذا قال وللنظر فيه مجال فليراجع.

والدعاء في مغارتها مستجاب، وأما الطرف الناقء منها الذي يستقبله الإنسان عند الإنحدار إلى مغارتها، ويزعم المزورون أنه لسانها ويقبلونه فلم يثبت في السنة أن لها لساناً، وإنما هو قول المزورين لجلب الدراهم، بخلاف الكعبة المشرفة فقد ورد في الحديث أن لها لساناً تشهد به يوم القيامة لمن قبلها، وقصة سيدنا عمر مع سيدنا علي في ذلك مشهورة في كتب الحديث.

وهل لهذه الصخرة ذكر في القرآن أم لا ، نعم ذكرت في قوله تعالى :
[سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها]⁽⁴⁵⁵⁾ ،
وقوله تعالى : [وما جعلنا القبلة التي كنت عليها]⁽⁴⁵⁶⁾ ، فالقبلة في الآيتين
المراد بها الصخرة المشرفة ، وذكرت أيضا في قوله تعالى : [واستمع يوم يناد
المناد من مكان قريب]⁽⁴⁵⁷⁾ ، قال المفسرون المراد بالمكان القريب صخرة بيت
المقدس .

وأما ما ورد في فضل المسجد الأقصى ، فمن ذلك ما رواه النسائي⁽⁴⁵⁸⁾
وابن ماجة⁽⁴⁵⁹⁾ وغيرهما أن سليمان عليه الصلاة والسلام لما بنى بيت المقدس
سأل الله ثلاثا : سأله ملكا لا ينبغي لأحد سواه فأعطاه إياه ، وسأله حكما
يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسأله من أتى هذا البيت يعني بيت المقدس لا
يريد إلا الصلاة فيه أن يخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه . قال عليه الصلاة
والسلام : وأنا أرجو أن يكون أعطاه ذلك ، رواه النسائي والإمام أحمد في
مسنده وصححه الحاكم . وروى أبو داود وابن ماجة عن ميمونة / 286 /
مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت : يارسول الله أفتنا في بيت المقدس ،
فقال : (أرض المحشر والنشر ، إيتوه فصلوا فيه فإن الصلاة فيه كآلف صلاة
في غيره) ، قلت : رأيت إن لم أستطع أصلي فيه ، قال : (فتهدي زيتا يسرج

(455) الآية 142 سورة البقرة .

(456) الآية 143 سورة البقرة .

(457) "ينادي المنادي" في النسختين : الآية 41 سورة ق .

(458) أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان النسائي (215-303 هـ / 830-915 م) ،
صاحب "السنن" القاضي الحافظ شيخ الإسلام ، أصله من نساء بخراسان استوطن مصر
فحسده مشايخها وخرج إلى الرملة بفلسطين حيث عذب لرفضه الحديث عن فضائل معاوية
ومات بسبب ذلك ودفن ببيت المقدس ، وقيل خرج حاجا فمات بمكة . له "السنن الكبرى"
و"مسند علي" و"مسند مالك" . (ابن خلكان 1-77 ؛ البداية والنهاية 11-123 ؛ الزركلي 2-
171) .

(459) أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الربيعي القزويني (209-273 هـ / 824-887 م) ، أحد أئمة علم
الحديث ومصنف كتاب "السنن" أحد الصحاح الستة المعتمدة ، وهو من أهل قزوين رحل
إلى البصرة وبغداد والشام والحجاز في طلب الحديث ، وله "تفسير القرآن" و"تاريخ
قزوين" . (ابن خلكان 3-279 ؛ كشف الظنون 300 ؛ الزركلي 1-7) .

فيه فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه) وقد صح غير ذلك.

وأما ثواب الصلاة في المسجد الأقصى فالذي صح في ذلك من الحديث أن الصلاة فيه بخمسائة، وصح أيضا أن الصلاة فيه بألف، وورد في حديث مضطرب أن الصلاة فيه بأربعين ألف وهو في مسند ابن ماجة ولا يصح الاحتجاج به، وأما رواية سبعين ألف فلا تصح.

وهل الأقصى جميع المسجد أم البقعة المعروفة الآن التي فيها المنبر، فقد أجمع العلماء على أن المسجد الأقصى هو جميع⁽⁴⁶⁰⁾ ما أحاط به سور المسجد، فدخل فيه قبة الصخرة وجامع المالكية وجامع قايتباي والمحل الذي فيه المنبر، وأما خصوص الأقصى بالمكان الذي فيه المنبر الآن فهو اصطلاح جديد. وهل صلى عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء تحت المسجد في الأقصى أم لا وأي موضع صلى فيه، نقل في الشفا للقاضي عياض⁽⁴⁶¹⁾ أنه صلى مع جبريل تحت المسجد في مقدم المسجد قبل أن يصلي إماما بالأنبياء. وهل تضعيف الصلاة خاص بالمسجد أم عام بالبلد، أما تضعيف الصلاة بالمسجد فقد ثبت بالأحاديث والإجماع، وقال بعض العلماء تتضاعف في القطر المقدسي كله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

287/ وما ورد من أن الخضر عليه السلام يصوم رمضان في كل عام

(460) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(461) القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن البحصوي السبتي (476- 544 هـ/ 1082- 1149) من أشهر وجوه المالكية في الغرب الإسلامي، ارتبط بالدولة المرابطية التي ظل وفيا لها. استقر بمسقط رأسه سنة بعد الإقامة بالأندلس وفاس والقيروان، وتلمذ خلال رحلته في طلب العلم على يد مشاهير الأعلام مثل ابن حديد وأبي خنيس الإحيماء للضري وأبي بكر بن العربي. اشتغل قاضيا بمدينة سبتة سنة 1121م ثم قاضيا على غرناطة لكنه لم يمكث في هذا المنصب طويلا نظرا لإحراجه للحكام بها. كان عياض محرضا على مقاومة سبتة للموحدين مما جعل الأخيرين ينشونه إلى تادلا قبل سجنه بمراكش حيث توفي. وكان نموذجا للفتية المالكية الذي يعتبر أن لاهيئة غير تلك التي علمها مالك ومدرسته، ترك العديد من المؤلفات أهمها "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" و "ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك" (E., I., 4-302).

في بيت المقدس، فقد صرح به بعض العلماء المحدثين وأورد في ذلك أثرا.

جرايات عثمانية لأهل القدس ومؤسسات خيرية

ولهذه الدولة العثمانية بهذا الحرم الشريف بل وكذا حرم مكة والمدينة اعتناء عظيم وأثر جسيم، فمهما سقط شيء منه إلا أعادوه وما تلاشى جددوه، صانهم الله تعالى وأبقاهم وأسماهم في معارج المآثر الحميدة وأرقاهم، ولهم هنالك زيادة على إصلاح ما في الحرم من البناء، الصدقة الجارية على من في القدس من الآباء والأبناء، وعينوا هنالك زاوية تظل على طول الأناء أعشارها تفور، وأنيتها بالطعام على الفقراء تدور في العشي والبكور، ومن انحاز له من هذه الصدقة حظ أو نصيب، صار ملكا له يورث عنه بالفرض و التعصيب، فإن أراد بيعه في حياته فهو كبعض شئثاته. وهذا الحسنة جارية قد مضت عليها من الدهر أحقاب، يتبع أثرها منهم صالح الأعقاب، وكل من أتى من ملوكهم عن هذا النهج لا يجيد ولا ينقص بل يزيد، أدام الله تعالى أيامهم ونصر جيوشهم وأعلامهم.

لقاء ابن عثمان مع شيخه في الطريقة القادرية

ومن اجتمعت معه في القدس الشريف، الشيخ البركة القدوة العارف بالله تعالى، أستاذنا وشيخنا أبو السعود محمد المأذون بالخلوة القادرية والخلوتية⁽⁴⁶²⁾، وقد أخذت عنه وصافحني بمصافحة شيخه في الطريقة، السيد مصطفى بن كمال الدين الصديقي الدمشقي البكري الخلوتي⁽⁴⁶³⁾ قطب عصره، وأخذ أيضا عن السيد عبد القادر القادري شيخ السجادة القادرية

(462) الخلوتية طريقة صوفية واسعة الانتشار متفرعة عن الأبهريّة الزاهدية، انتشرت في البداية بالأناضول ومنه بدأت توسعها زمن السلطان بايزيد الثاني (1481-1512) حيث انتقل مركزها إلى استانبول. ومنذئذ صارت الخلوتية تنفرع إلى زوايا تحمل كل واحدة اسم مؤسسها. وتعكس خلفات شيوخ الخلوتية تأثرهم بمذهب ابن عربي في التصوف كما نجد آثارا لأفكار شيعية عندهم. وكما يدل على ذلك اسمها كان على كل مريد أن ينوم بخلوة دورية وفق طقوس مضبوطة إضافة إلى الأذكار و تجيل الشيوخ وغير ذلك (E.. I.. 4-1023)

(463) أورد ابن عثمان ترجمته أسفله.

ببغداد. ومما أنشدني / 288 / لنفسه مخاطبا بعض من استجار به بوارد صدر له
في حالة الصلاة، فمما ورد له في الركوع:

قبلنا قبلنا من أناخ ببابنا مطية ذل واستجبنا دعاءه
طردنا طردنا من تصدى لكيدته جعلنا جعلنا الهاشمي إمامه
فجاء خاطر يقول له: من أين لك هذا، فورد عليه خاطر في حالة
السجود بأن قال:

وما كان من دمع غزير فإنما تعلق قلبي بالعلو فأوردا
عن العالم العلوي ما كان مثبنا صحيحا عن الأملاك قد جاء مسندا
ومما أنشدنا متمثلا ما تلقاه عن شيخه القادري المذكور وهو في جميع
ذلك مشير إلينا:

وحيث اتجهتم ساعدتكم عناية ويرعاكم الرحمان من كل جانب
ومن كلامه وإن كان فيه شيء من جهة الوزن:

أنا شيخ الوقت في العصر وما يجري في الوقت أنا ملزومه
أنا من أصل الزمان إمامه أنا في كل الأمور علومه
ومن كلامه رضي الله عنه:

من يدعي حب ليلى ذاك لم ينم ولم يذق لذة في العيش من ألم
ولم ير غير سر عدى في الوجود وقد أذناه أمست عن الأغيار في صمم
ولم يرد غيرها لو راودته على جنات خلد ولم يخش من الضرم
ومن يرى أنه بالحب متصف ولم يكن هكذا قد جاء بالتهم
28 / يظن جلب المعاني من معادنها سهلا وما ضرني إن كان كالبهم

ترجمة الشيخ مصطفى البكري

ونذكر الآن ترجمة الشيخ مصطفى البكري شيخ شيخنا أبي السعود،
فمن "شرح بلغة المريد ومنتهى موفق سعيد" للشيخ مصطفى المذكور،
والشرح لولده أبي الفتوح كمال الدين: هو أي الشيخ مصطفى بن كمال

الدين بن علي بن كمال الدين بن عبد القادر محيي الدين بن أحمد بدر الدين بن أحمد ناصر الدين بن أحمد زين الدين بن محمد ناصر الدين بن شهاب الدين أحمد بن عبد الخالق بن عبد المنعم بن ناصر الدين محمد بن عوض بن يحيى بن محسن بن موسى بن يحيى بن يعقوب بن نجم الدين محمد بن أبي الروح عيسى بن شعبان بن عيسى أبي الروح عوض بن داود بن محمد بن نوح بن سلطان المدينة المنورة طلحة الخير بن أبي محمد عبد الله بن الإمام الصحابي الجليل عبد الرحمان بن أمير المؤمنين وخليفة سيد المرسلين أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.

وسلسلته في الطريق أخذ وتلقى عن شيخه الشيخ عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي، وهو أخذ وت خلف عن شيخه الشيخ مصطفى أفندي الأدرنوي، وهو أخذ وت خلف عن شيخه الشيخ علي قرباش، وهو الذي مات عن أربعمئة وستة وأربعين خليفة، وله شرح على فصوص الحكم أتى فيه بالعجب العجائب، وهو أخذ وت خلف عن شيخه الشيخ إسماعيل الجروي، وهو أخذ وت خلف عن شيخه الشيخ عمر الفزاري القسطنطيني، وهو أخذ وت خلف عن شيخه الشيخ محيي الدين القسطنطيني، وهو أخذ وت خلف عن شيخه الشيخ /290/ الشيخ شعبان القسطنطيني، وهو أخذ وت خلف عن شيخه الشيخ خير الدين التماذي، وهو أخذ وت خلف عن شيخه الشيخ حلبي سلطان المعروف بحلبي خليفة، وهو أخذ وت خلف عن شيخه الشيخ بير محمد الأرزنجاني، وهو أخذ وت خلف عن شيخه السيد يحيى الشرواني، وهو أخذ وت خلف عن شيخه صدر الدين الحياي، وهو أخذ وت خلف عن شيخه الشيخ عز الدين، وهو أخذ وت خلف عن شيخه الشيخ أخي مرام الخلوتي، وهو أخذ وت خلف عن شيخه بير عمر الخلوتي، وهو أخذ وت خلف عن شيخه أخي محمد الحلواني، وهو أخذ وت خلف عن شيخه إبراهيم الزاهد الكيلاني، وهو أخذ وت خلف عن شيخه جلال الدين التبريزي، وهو أخذ وت خلف عن شيخه شهاب الدين الشيرازي، وهو أخذ وت خلف عن شيخه ركن الدين النجاشي، وهو أخذ وت خلف عن شيخه قطب الدين الأبهري، وهو أخذ وت خلف عن شيخه أبي النجيب السهروردي، وهو أخذ وت خلف عن شيخه عمر البكري،

وهو أخذ وتخلّف عن شيخه وحي الدين القاضي، وهو أخذ وتخلّف عن شيخه محمد البكري، وهو أخذ وتخلّف عن شيخه محمد الدينوري، وهو أخذ وتخلّف عن ممّشاد الدينوري، وهو أخذ وتخلّف عن شيخه شيخ الطائفتين الجنيد البغدادي، وهو أخذ وتخلّف عن شيخه خاله السري السقطي، وهو أخذ وتخلّف عن شيخه معروف الكرخي، وهو أخذ وتخلّف عن شيخه داود الطائي، وهو أخذ وتخلّف عن شيخه حبيب العجمي، وهو أخذ عن الإمام الحسن البصري، وهو أخذ عن أمير المؤمنين الليث / 291 / الغالب الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وهو عن قرّة عينه وابن عمه رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم، وهو عن الروح الأمين جبريل عليه السلام، وهو تلقى عن رب العزة جل جلاله وعظم فيضه ونواله، فهذا سند شيخنا وقدوتنا وعمدتنا أبي السعود نفعا الله به.

ومن اجتمعت معه في القدس الشريف السيد الفاضل الأديب الشيخ مصطفى بن الشيخ أبي السعود المترجم له، فمما أنشدني لنفسه:

دری بحبی له فاختال في غيد وصاد لحظاه قلب الصب واقتدرا
طرا على مهجتي ما لست أعرفه والدمع قد سح من جفني واقتطرا
فقوله واقتدرا يصح أن يقرأ بسيطا على أنه من الاقتدار، ويصح أن يقرأ
مركبا من وقت ودرا.

وله أيضا من هذا النمط:

رنا فأحكم قتلي في تلفته والقلب واللب ذاقا السقم وقت رنا
لم أدر هل موطننا كان الفرّاد له هذا المليك الذي في الحسن أم سكنا
وله أيضا:

قامت تتيه دلالا في ملابسها ربت شجوني أمالت عطفها واقتربت
رنت بلحظ فأصمى القلب طافقه والروح قد سارعت للموت واقتترنت
وله أيضا:

قسانى الملاح تـبـبـدى ثمـلـت إذ ما سـقـاني
وقسام يسزري بسـبـبان سـبـبـت إذ ما سـسـبـاني

/ 292 / وما أنشدني لغيره من أهل القدس في أهل زاوية بمصر يقال
لها التمرتاشي فاستحسنته لما فيه من التضمن الحسن:

يا زائرا للتمرتاشي فزد بعدا واحذر تقيم به من قومه البُهت
قوم إذا نزل الأضياف ساحتهم كأنهم هربا أبسطال أبرخسة
وما أنشدني لبعض أدباء الروم من ذلك النمط:

لما انتنا⁽⁴⁶⁴⁾ قده السامي يعانقني أخنى على كبدي عطفاه واقتسما
فجاء يحمي فؤادي منهما جلدي فسل سيفيهما لحظه واقتحما
يصح أن يقرأ بسيطا من الاقتسام والافتحام، ويصح أن يكون مركبا
من وقت مضافا إلى سما وحما، ويشبهه قول الآخر:

رب ظمبي هويتته ينتمسي لسهوازنه
قلت ما أثقل الهوى قال ما لسهوى زنه
ولآخر:

أهلا بظبي حماه قصصر كجنة قد حوت نعيما
طرقته لا أهاب سوءا أباحني حبه الحرما
أفدي حريقا أباح ريقا لا بل حريما أباح ريما

شخصية أهل القدس

ولأهل بيت المقدس بشاشة وطلاقة وأخلاق حسنة، وميل إلى مؤانسة
الغريب ومسامرته والمحادثة معه، ولا سيما إن كان من هذا الجنس العلمي،
فلهم اعتناء به كثير حياهم الله وبياهم وأدام سقياهم / 293 / ورياهم، وإلى
مكارم الأخلاق يسرهم وهياهم.

تظلم الناس من الولاة العثمانيين والنير الضريبي

وكان مقامنا به يومين ثم سافرنا منه، ورجعنا على طريقنا فبتنا أول يوم
بقرية سنجيل فأكرمنا أهلها، إلا أنهم كثيرو التشكي من الوزراء والولاة

(464) كذا في (أ) والصحيح اثني كما في (ب).

الذين يولون أمرهم من قبل الدولة العثمانية صانها الله، فإنهم أكلوا اللحم وامتشوا العظم واستفوا المخ ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهذه سيرتهم في جميع الإيالة، فكل من مررنا به يشتكي من جورهم، حتى أن بعضهم سألني عما يلزم الناس في أرض المغرب، فقلت له الذي أوجبه الله تعالى وهو الزكاة والأعشار، فقالوا: وكيف الأعشار، فقلت لهم: يأخذ رب الزرع تسعة أعشار والمزكى العشر، فقال: يا ليتنا لو تركوا لنا العشر وأخذوا تسعة أعشار.

وأقبح من ذلك أن الوزراء يولون النصارى خدامهم على القرى، فتجد النصراني يستلزم للوزير خراج القرية ويتولى قبض ذلك من المسلمين في مهانة والأمر لله.

ومن هذه القرية بتنا بقلعة سنور فأكرمنا أهلها، ومنها إلى قرب عكة فبتنا بظاهرها، ومن الغد دخلناها بكرة، فأقمنا بعكة إلى سابع وعشرين من ربيع الثاني⁽⁴⁶⁵⁾ أصلحنا في هذه المدة شئوننا وأخذنا الأهبة للسفر، وأكرمنا وزير هذه البلد جزاه الله خيرا.

رحلة العودة بحرا من عكا

وركبنا البحر وكان فصل الشتاء معتمدين على الله تعالى، فسافرنا من عكة ثلاثة أيام وأرسينا بجزيرة قبرص لغرض كان لرئيس المركب وقد طلب منا ذلك، فبقينا مرسين بها⁽⁴⁶⁶⁾ نحو العشرة أيام.

وصف جزيرة قبرص وأحوالها

وهي جزيرة كبيرة كثيرة الخصب والرخاء والخير، وجددنا الماء وأخذنا منها بعض المؤن، / 294 / ونزلنا إلى برها في تلك المدة فاسترحنا من ميد البحر بها يومين، إلا أنها خفيفة العمارة فأخبرني بعض أهلها أن سبب ذلك

(465) يناير 1788.

(466) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

جور الحكام ولا حول ولا قوة إلا بالله. والذي يتصرف فيها الوزير الأعظم في الدولة العثمانية وهي معينة لمنصب الوزارة، فكل من يتولى الوزارة يتصرف في هذه الجزيرة ويأخذ خراجها مقطوعة من السلطان لمن يتولى ذلك.

التوجه إلى مرسيليا والتوقف في تونس لشدة هيجان البحر والرجوع برا إلى المغرب

ثم رجعنا إلى المركب وسافرنا طالبين مدينة مرسيلية من أرض الفرانصيص وإليها كان الكراء، ولما سافرنا من جزيرة قبرس، وقد كان الوقت آخر فصل الشتاء ووقت هيجان البحر وطغيانه، فلاقينا من شدة أهواله ما أيسنا (كذا) به من الحياة، فإن كان الريح موافقا لنا أتى وهو عاصف، وأثار أموجا لا يصفها لعظمها واصف، وإن كان غير موافق ترجحت البوائق، وتطلعت لولا فضل الله بأعناقها العوائق، فذهب الوسن عن الأماقي وبلغت الروح التراقي، مع الإخلال بأركان الصلاة فالغالب نصلي جلوسا، وربما صلينا إيماء وبالتيمم لعدم القدرة على استعمال الماء.

حفاوة أهل تونس بالسفارة المغربية ولقاء الباي

ولما واجهنا تونس وقد سئمنا الحياة، أمرنا رئيس المركب أن يعرج بنا إلى مرساها، وعزمنا على أن ننزل ببرها ونتوجه إلى بلادنا منها، فأسقطنا عن رئيس المركب ما بقي من الكراء، وبعثنا بعض أصحابنا إلى البر قبل نزولنا بقصد أن يكتري لنا دارا لنزولنا، فسمع ذلك أمير البلد فأمر بتعيين دار لنزولنا من أفضل دور البلد، وعين قيما يقوم بالمؤن والأطعمة، فنزلنا بها وفرح بنا أهل البلد وأعيانها تبعا لأمرهم. وبعد نحو ستة أيام /295/ استدعانا لملاقاته، فتوجهنا إليه إلى موضع خارج المدينة بنحو ساعة وفيه داره ومستقره، فأدخلنا إلى داره وفرح بنا وأتى بقهوة معرضا بها علينا على مقتضى عوائدهم، وقد كنا صائمين قضاء رمضان فاعتذرنا له بذلك.

ومن لاقينا بتونس صالح علمائها الشيخ البركة الحجة القدوة، العارف

بالله تعالى الفقيه الأجل سيدي أحمد بن عبد الله السوسي المغربي⁽⁴⁶⁷⁾ نفع الله به، أجمع الناس على صلاحه وخيره، فتبركنا برويته وزيارته والتمسنا منه الدعاء في أمورنا، فتبرأ من أن ينسب إليه شيء من ذلك، فبعثنا إلى تربة ولي الله المجمع على ولايته وصلاحه سيدي محرز، صاحب الإمام سيدي عبد الله بن أبي يزيد، وأمرني أن أثبت حوائجي إليه، وقيل لي إن دأبه مع من يطلب منه أمراً أو يقصده في حاجة أن يبعثه إلى تربة الولي المذكور، ودعا لنا بخير وأطال في الدعاء، وأشار إلينا بقضاء حوائجنا التي كانت في الباطن فأفصح عنها، وتقضيت العجب من ذلك أنا وبعض أصحابنا المطلعين على أحوالنا.

وهكذا كان دأب والده الشيخ البركة سيدي عبد الله بن محمد السوسي السكتاني، وكان من العلماء الصالحين (العالمين العاملين)⁽⁴⁶⁸⁾ وذوي الانصاف الكاملين، ولد في أوائل سنة⁽⁴⁶⁹⁾ ومائة وألف، وأخذ عن سيدي أحمد بن ناصر⁽⁴⁷⁰⁾ وهو ابن سبع عشرة سنة، ورحل إلى فاس وتلاقى بمشايخها، ورحل إلى إفريقية وحج سنة ستة وعشرين ومائة وألف، ومكث مجاوراً في مكة وتارة في المدينة سبعا وعشرين سنة، وتلاقى مع كثير من المشايخ أراي إياهم ولده في كراسة، ومن جملتهم /296/ الشيخ محمد العابد من المعمرين، يقال إن عمره مائتان ونيف وخمسون سنة، ولم يكن يريد يفصح عن عمره حتى سأل بعض تلامذته، فقال له سألتك بالله إلا ما أخبرتني عن شيء، فقال ما هو، قال له: كم مضى من عمرك، فقال: ولم هذا السؤال وما حملك على ذلك وتسألني بالله، مضى لي كثير. قال له يا سيدي

(467) يعرفه الجبرتي بـ "الصوفي الزاهد أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن حمو السكتاني السوسي ثم التونسي" وقد توفي بعد زيارة ابن عثمان له ببضعة سنين. (عجائب الآثار 1 . 544).

(468) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(469) بياض مقدار كلمتين في (أ) وكتب التاريخ في (ب) كاملاً بالأرقام (1122) لكنه خاضع.

(470) أحمد بن ناصر (1057-1129هـ / 1647-1717م)، من أشهر العلماء والمتصوفة المغاربة، كان شيخ الزاوية الناصرية بتامكروت بدرعة، حج عدة مرات وترك رحلة دون فيها مشاهداته وإفشاءاته بالمشرق. (التقاط الدرر 312).

مائة سنة قال له أكثر، فقال مائة وخمسون قال له أكثر، قال مائتان قال أكثر، قال مائتان وخمسون قال أكثر، قال ثلاثمائة قال أقل.

ولهذا الشيخ كرامات مشهورة، وقد أعطى سجداته لسيدي عبد الله السوسي، وسيدي عبد الله خلفها لولده سيدي أحمد، فأخرجها لنا وتبركنا بها وقبلناها. توفي الشيخ سيدي عبد الله السوسي سنة سبع وسبعين ومائة وألف بتونس، ودفن خارج المدينة وقبره معروف.

زيارة ابن عثمان للولي سيدي محرز وشكواه من معاناته وهمومه

ثم توجهنا إلى تربة الولي المذكور كما أمر وشرحنا إليه حالنا، وهذا السيد المذكور - نعني سيدي محرز - هو صاحب البلد - نعني تونس - مشهور مقصود عند أهل البلد في قضاء الخوائج ودفع الأزمات ونزول الملهمات. قال خادم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الفضل عياض رضي الله عنه وأرضاه في "المدارك" ما نصه: سيدي محرز العابد رحمه الله تعالى ورضي عنه وغفر له، هو أبو محمد محرز بن خلف التونسي المعروف بالعابد، خاتمة صلحاء علماء إفريقية، روى عن أبي إسحاق الدينوري وكتب إلى الأبهري ولا أدري ألقبه أم لا، روى عنه حاتم وكان متقشفا فاضلا زاهدا في الدنيا، بجانب أهلها مستجاب الدعوة، انتهى المراد من كلام القاضي / 297 / عياض.

وقد أطلال في ترجمته وذكر بعض من ألف في مناقب الشيخ وترجمه بما نصه: ذكر مناقب الشيخ الصديق الصالح الولي العابد العارف القطب أبي محمد محرز بن خلف بن عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قد اتفق على فضل سيدنا الشيخ المؤدب محرز بن خلف رضي الله عنه ورحمه ونفع به، وأنه سلطان الصالحين في حياته وبعد مماته. وقد ورد عن الصالحين والعلماء العاملين والثقات المتصرفين في فضل الشيخ ومناقبه ومفاخره ومآثره وبركاته التي لحق بها الأولين وسبق الآخرين شيء كثير، إذ كان رضي الله عنه من أعبد العابدين وأزهد الزاهدين ومن العلماء الراسخين، صاحب

أفاضل العلماء وأهل القرآن القراء، إذ هو في زمانه رأس الفقراء كثير التذلل واليكاء، مستجاب الدعوة حسن الثناء بما لا يعد ولا يحصى، انتهى.

وكتب الشيخ البركة سيدي أحمد بن عبد الله السوسي بخطه على هامش نسب الشيخ المذكور، ما ذكره المعروف بالشيخ من أنه يتصل نسبه بسيدنا أبي بكر الصديق، لعله سقط في عمود النسب شيء إلا أن يكون عمرو كثيرا جدا، وقد ذكر بعض العلماء مثل هذا الاعتذار في نسبة بعض الأخيار لسيدنا عمر وبينهما مهامه من الأعصار، أقول كون الشيخ بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنه رجلا مستبعد ولا وجه للتوقف في هذا، فإنه من المعلوم أن الناس ينتسبون إلى جدهم الأعلى إن كان مشهورا وهكذا قبائل العرب كلها.

وذكر بعض من ألف في مناقب الشيخ، قال أبو الطاهر وأخبرني الفقيه أبو عمران رحمه الله، قال: ذكر الشيخ /298/ أبو بكر بن أبي الطيب الباقلائي رحمه الله يوما ببغداد قال: لو أدرك محرز السلف لكان خامس الأربعة، يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلي. ومناقب هذا الشيخ الجليل لا تحصى، مات رحمه الله عام سبعة عشر وأربعمائة، ودفن بداره بتونس وقد جاوز السبعين رضي الله عنه ونفعنا ببركاته آمين.

وقد كانت بيننا وبين الشيخ المترجم له سيدي أحمد بن عبد الله السوسي محبة أكيدة، ومواصلات وزيارات عديدة، وكان يستدعينا لمنزله محبة ألقاها الله تعالى لنا في قلبه، فكان يكرمنا ويستعمل الطعام الكثير ويحضر له الجهم الغفير، أبقاه الله تعالى وحفظه وأجزل في مرضاته حظه، وقد استدعاني ذات يوم فأحضر طعاما وقد كنت صائما قضاء لرمضان، ترتب علي في سفري من القسطنطينية إلى الشام، فأمسكت عن الأكل وعرفته بذلك، فأملى علي أبياتا وقال خذ هذه مكان الفطور، وقال: قال الإمام اليافعي في تاريخه في ترجمة سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ما نصه: قال الشيخ تاج الدين بن أنجب أنشدني صديقنا سديد الدين أبو محمد الحسن بن وليد الطيبي النقيي الشافعي قال، أنشدني قاضي القضاة عز الدين

أبو محمد بن عبد السلام لنفسه قوله:

أوجه وجهي نحوه متشفعا
وهم كاشفوا ضري وكربي وشدتي
وهم واهبوا الأبصار والسمع والنهي
وإن مذنب يوما أتى متدخلا
/ 299 / وإن سائل يوما أتاهم بفاقة
يروح رجائي فيك تبقى حشاشتي
وأصبحت ما إن لي إليك وسيلة
إليهم بهم منهم إذا الخطب أعياني
وهم فارجوا همي وغمي وأحزاني
وهم عالموا سري وجهري وإعلاني
ومعتذرا حنوا عليه بغفران
ومسكنة جادوا عليه بإحسان
وخوف بعادي منك قد هد أركاني
سوى فاقتي والذل مني وإذعاني
وقال هذا فطورك عندنا في هذا اليوم، واحتفل في طعام كثير عند
المغرب واستدعانا إليه كثر الله أمثاله ونفعنا به، وجعل محبتنا معه متصلة دنيا
وأخرى آمين بمنه ويمنه وفضله وطوله.

ومنهم سيدي أحمد بن عروس المغربي التونسي العبد الصالح المجذوب
الكبير الشأن، كان من أكابر الأولياء من أهل الجذب بتونس، له كرامات
ظاهرة وأحوال باهرة، منها أنه كانت الطيور الوحشية تنزل عليه فتأكل من
يده، ومنها أنه كان عنده جمع وافر من الفقراء فكان يمد يده في الهوى
(كذا) ويحضر لهم ما يكفيهم من القوت، ودخل عليه رجل لزيارته فرأى
طول أظفاره وشعث رأسه، فحدثته نفسه بشيء، فقال له: السبع يكون
بأظفاره. وكان مهابا جدا لا يقدر على لقائه كل أحد، بحيث يقشع الجلد
لرؤيته، وكان يجلس على سطح فندق بتونس ليلا ونهارا، ولم يزل كذلك
حتى مات بها سنة نيف وستين وثمانمائة.

وزرنا قبالة هذه التربة تربة رجل من الأولياء، مقصود عندهم يقولون
له سيدي الكلاعي، وليس هو صاحب السيرة ولم أقف على من عرف به.
وعممنا غيرهم من الأولياء بداخل البلد، وزرنا بخارج البلد مقاما كان يتعبد
فيه الشيخ الكامل العالم العامل سيدي أبو الحسن الشاذلي⁽⁴⁷¹⁾، ومقامه هناك

(471) أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي القطب (ت. 656هـ/ 1259-58م، ينتهي
نسه إلى إدريس الأكبر دفن زرهون، مولده بقبيلة غمارة الشمانية. كان مريدا للشيخ عبد

مشهور على ربوة يقال لها جبل الفتح.

/ 300 / وهناك مقبرة عظيمة ذكر لي بعض العارفين أنها اشتملت على أربعة وعشرين ومائة ولي، فوقفنا بمكان عال وعممنا الجميع بالدعاء ودعونا الله هناك، وخصصنا بالزيارة تربة الإمام العالم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، وتربة الإمام المحقق ابن عرفة، والإمام الخضراوي وغيرهم ممن يطول ذكرهم نفعنا الله تعالى ببركاتهم أجمعين.

وصف مدينة تونس وإشارة إلى وباء 1200 هـ

ومدينة تونس مدينة كبيرة مقصودة للمراكب البحرية، مؤسسة في بسيط من الأرض على ساحل بحيرة صغيرة أدخلت إليها من البحر، وهي كبيرة طولها نحو العشرين ميلا، وهي كثيرة الزيتون تحمل زيتها المراكب إلى بر النصارى طول أيام السنة، فقد أخبرني بعض أهلها الذين كانوا قائمين بمثوثتنا، أن أعشار زيت تونس فقط من غير عملها ستة وثلاثون ألف مطر، والمطر فيه قلتان والقلة اثنان وثلاثون رطلا، مستلزم عند من استلزمه بهذا العدد ومعلوم أنه استلزمه ليربح فيه، ومعاصر زيت تونس وما حولها نحو ثلاثمائة.

وهذه المدينة أحدثت في زمن بني أمية، وهي كثيرة الخيرات والمستغلات إلا أن ماءها قليل فلا يشربون إلا من ماء الأمطار، ولأهلها رفاهية وتأنق في الملبس واعتناء بالطيب. وجامعها - نعني جامع الزيتونة - معمور بقراءة القرآن والتدريس متصلا ذلك بياض النهار. وقد مات من علمائها وطلبته كثير في الوباء الذي كان عندهم في سنة مائتين وألف وما بعدها، وتمادى بها إلى قرب ورودنا عليها وقد وجدناه انقطع، فقد أخبرني أهلها أنهم دفنوا في هذا الوباء / 301 / زهاء⁽⁴⁷²⁾ ثمانين ألفا، فقد كانوا

السلام بن مشيش الذي أمره بالذهاب إلى تونس حيث عاش مدة طويلة، وفي رحلته إلى الحجاز للحج توفي بصعيد مصر. أنشأ الشافلي مدرسة صوفية انتشرت في شتى أنحاء العالم الإسلامي. (التقاط الدرر 146).

(472) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

يدفنون في اليوم الخمسمائة وما يقرب من الألف لطف الله بالمسلمين.



مغادرة تونس وحفاوة أهل القطر التونسي بالسفارة المغربية

وكان مقامنا في هذه المدينة اثنين وعشرين يوما، وسافرنا منها ثالث رجب من سنة اثنين ومائتين وألف، فكان مبيتنا بظاهر بلدة يقال لها تبرة وصلناها على خمس ساعات، ولما نزلنا بالخيام أتى أهلها بالشعير للعلف وبالطعام الكثير، بإشارة من أمير تونس وقد تقدم بذلك أمام مسيرنا إلى جميع إيالته. ومن الغد سافرنا فسرنا ست ساعات، ونزلنا بظاهر قرية يقال لها مجاز الباب⁽⁴⁷³⁾، مؤسسة على وادي يقال له مجردة، ففعل أهلها من الإكرام والملاقة مثل من تقدمهم، وهذا الوادي كبير ويأتي بسيل كثير، وعليه قنطرة في غاية الإتقان والإحسان، فمشيت إليها بعد ما نزلنا لأتأمل إتقانها وحسن صنعتها، فوجدتها في أحسن ما يكون، وقد مدحها الشعراء فرأيت مكتوبا في حجرتين فوق متنها في جوانبها، إحداها عن اليمين والأخرى عن اليسار، قصيدتين رأيت أن تثبتهما، فالأولى:

بن الأمير محمد بن مراد
شبهها لها لو طاف كل بلاد
إنشائها لمرور هذا الوادي
عفوا ومغفرة ليوم معاد
متنا لها من رائح أو غاد
رجب الأصم بساعة الإسعاد
معها ثمانية لدى التعداد
وشفيع ملهوف عديم الزاد
يتلوه تسليم بغبر نناد

لله قنطرة الأمير مراد
في الحسن والإتقان مانظر امرؤ
فتقبل اللهم منه السعي في
واجعل ثراه إذ أتاك ميمما
يدعو لبانيها بخير من علا
وقد انتهى منه البناء وتم في
302 / وبعيد ألف مع ثمانين أرخت
من هجرة الداعي إلى نهج الهدى
صلى عليه الله جل جلاله
والثانية:

لله قنطرة بهذا الوادي
أضحت تخبر أنها لمراد

(473) يصنفها الزباني ضمن مدن أرض إفريقية، الترجمة، ص. 479.

ابن الأمير محمد الباشا الذي
فلقد أجاد بناءها حتى غدت
الله يجزله متن الصراط بفضله
هذا وإن بناءها قد تم في
في عام ألف مع ثمانين انقضت
من هجرة المختار خير مؤمل
صلى عليه الله عد الخلق من
شاعت مآثره بكل بلاد
وكأنها طود من الأطواد
عنفوا جميلا منه يوم معاد
ويحفه بالطف والإسعاد
رجب بعون الله ذي الإمداد
تتلو ثمانية بلا تردد
يوم القيامة يوم فقد الزاد
عرب وعجم حاضر أو باد

حفاوة أهل تستر المورسكيين وتسامر ابن عثمان معهم

ومن الغد سافرنا من هذه البلدة فنزلنا بظاهر بلدة يقال لها تستر على
أربع ساعات، ولما قربنا منها قدم علينا رثيد (كذا) أهل البلد يتطلع أخبارنا،
فلما تلاقى معنا سلم علينا وانقلب يشدد إلى أهل البلد، فخرج أهلها
بعلاماتهم وطبولهم كبارا وصغارا، وبالغوا في الترحيب والفرح وإبداء
البشاشة كأنهم من صميم الإخوان جازاهم الله خيرا، استمروا معنا في تلك
الهيئة / 303 / إلى موضع النزول، وبنيت الخيام ونزلنا وأتوا في الحين بأطعمة
كثيرة كانوا معتدين لها، وبالعلف وبالغوا في الإكرام، وفي الليل كذلك
أتوا بطعام كثير.

وجل أهل هذه البلدة من الأندلس في غاية الحضرية والأدب وحسن
الأخلاق، ولا زالوا يسألون عن بلادهم بالأندلس وقد كنت على بصيرة بها
لما رحلت إليها عام ثلاثة وتسعين ومائة وألف⁽⁴⁷⁴⁾، فكنت أخبرهم عن
بلادهم وأرضهم وينشرحون لذلك، وكل واحد يقول أنا من البلد الفلانية
ويطلب مني وصفها فأصفها له، فينشرحون بما يحصل لهم من التأصل في
الحضرية، ولا سيما من كان منهم بلادهم من القواعد العظام مثل قرطبة

(474) يشير هنا إلى سفارته الأولى إلى إسبانيا سنة 1780-1799 موضوع كتابه "الإكسیر فی فکاک

وإشبيلية وغرناطة وجيان وما أشبه ذلك. واجتمع علينا جمع من طلبتهم فتذاكرنا في مسائل علمية، أصلح الله حالهم وبلغهم آمالهم وكثر أمثالهم بمنه وكرمه.

ومن الغد رحلنا منها فنزلنا على قرية يقال لها تبرسق على أربع ساعات، فتلقنا أهلها قبل وصولنا إليهم بالعلامات والطبول مثل من تقدمهم وأبدوا فرحا كثيرا، ونزلنا بظاهر بلدتهم وأتوا بطعام وعلف، وبالغوا في الإكرام مقدرتهم واعتذروا، إلا أنهم إلى البداوة أقرب وباتوا بالليل بحرسوننا. ومن الغد سافرنا منها⁽⁴⁷⁵⁾ فنزلنا بموضع يقال له القنطرة سمي بقنطرة مضروبة هنالك، وأهل هذه البلد عرب أهل خيام وصلناهم على سبع ساعات. ومن الغد سافرنا فنزلنا على بلدة يقال لها الكاف على مسير أربع ساعات، فأنخنا بظاهرها وبعث إلينا حاكمها الميرة والمثونة، وهذه البلدة آخر عمل صاحب تونس وحد إفريقية.

ومن الغد سافرنا منها فسرنا ثمان ساعات ونزلنا على ماء يقال له الزرقاء اسم عين هناك، وسافرنا /304/ من الغد سبع ساعات ونزلنا على عرب أهل بوس بموضع يقال له تفش، ومن الغد سافرنا فسرنا ثمان ساعات، ونزلنا بموضع يقال له مرج كحيل على عرب أهل خيام، ومنه لموضع يقال له مهيرز وصلناه على تسع ساعات، ومنه نزلنا بظاهر قصمطينة⁽⁴⁷⁶⁾ (كذا) على أربع ساعات في الخيام على واديه.

(475) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(476) بتصد قسنطينة، وهي مدينة منيرة ومحصنة شرق الجزائر بنيت على هضبة صخرية تحيط بها أودية وخوانق عميقة وضيقة أشهرها وادي الرمل، عرفت هذه المدينة فترات ازدهار في عهود الموحدين كما يشير إلى ذلك البكري والإدريسي، وبعد ذلك عرفت فترات اضطراب خلال المرحلة الحفصية. وفي سنة 1534 خضعت المدينة للنفوذ التركي وأصبحت عاصمة لبيك الشرق الجزائري، وخلال القرن 18 عرفت قسنطينة انتعاشا ملحوظا خاصة في عهود بايات أقوياء حكموا المدينة بشكل شبه مستقل عن داي الجزائر، أمثال أحمد القولي (1756-1771) وخصوصا صالح باي (1771-1792)، الذين يرجع لهم الفضل في بناء العديد من المرافق ذات النفع العام مثل مساجد سوق الغزل و سيدي لخضر على يد الباي بوكمية والباي بوحنك، وإعادة بناء القنطرة على وادي الرمل والقناة الرومانية المزودة للمدينة بالماء من جبل وحش من طرف الباي صالح (534-535 E.I.).

وصف مدينة قسنطينة وبعض أحوال ولاية الجزائر

وهي أي قسنطينة مؤسسة على ربوة يمر بأصلها هذا الوادي ومنه يشربون، يحمل منه الماء في القرب الكبار على الدواب للمدينة كلها وحماماتها ومساجدها، وهي مدينة متوسطة يسقفون أسطحها بيوتها بالقرمود، ولعله من أجل الثلج فهي شديدة البرد، وعليها وارد كثير وعمارة زائدة، فلا يكاد الإنسان أن يمشي في داخلها إلا بمشقة من كثرة الازدحام، ويعمر السوق خارج بابها في سائر الأيام ما رأيت بلدة أكثر واردا منها، وهي منبع البغال فمنها تفرق في البلاد، فلو ترى ما يدخل منها إلى السوق في كل يوم لتقضيت العجب، يأتي الغرب بها أي بالبغال يسوقونها كأنها القطيع من البقر.

وبها رخاء كثير والأشياء موجودة إلا أنها إلى البادية أقرب، وهي من عمل صاحب الجزائر وبها خليفته ويسمونه باي الشرق، فأقمنا بها نحو سبعة أيام تقضينا فيها ضرورياتنا وسافرنا منها إلى الجزائر فوصلناها على أحد عشر يوما.

وقد مررنا في بلاد في هذه المسافة يقال لها "البيان" ما رأيت أصعب ولا أمتع منها، فهي بيان⁽⁴⁷⁷⁾ حقيقة لأن الطريق تمر بين جبال في وسط نهر، وربما تدنو الجبال بعضها من بعض حتى لا يبقى إلا مجرى الوادي في أضيق ما يكون كأنه الباب، فلو جعلت له دقة لسدته، وقع ذلك مرارا ومن أجل ذلك سمي هذا / 305 / المكان البيان.

وأهل هذه البلاد أهل إباء لا ينقادون إلى الباي أي الحاكم، بل ربما قبضوا منه عند إرادته المرور إلى الجزائر في بعض الأعوام فصار ذلك عادة لازمة، وكذا القفل⁽⁴⁷⁸⁾ والمسافرون لا يقدمون على المسير في هذه البلاد إلا مع رفقة كثيرة، ويرصد الناس ما يبعث باي قسنطينة من اخراج عند كل

(477) يقصد أبوابا.

(478) يقصد القوافل.

ثلاثة أشهر، فبيعت معه العسكر فيمر الناس معهم، وقد اتفق أن مررنا مع هذا العسكر، ولما كنا في هذه البلاد رأوا بعض أهلها في غابة، فوقع منهم اضطراب وأخذوا يعتدون لملاقاتهم وتمسكوا بعدتهم.

ولما وصلنا إلى الجزائر خيمنا بظاهرها ولم ندخل إليها، وقد وجدنا فيها الوباء نعوذ بالله، وقد كان قبل وصولنا إليها قويا، فكان يموت كل يوم على ما حكى لنا نحو الثلاثمائة، وقد خف أمره لما كنا هنالك فكان يموت في اليوم نحو العشرة. وأقمنا بظاهرها يومين وزرنا تربة الأستاذ البركة سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وقبره خارج المدينة على ساحل البحر، فتوجهنا إليه من وراء سور البلد وتبركنا بتربيته المباركة ودعونا الله هنالك بما نرجو قبوله، وهو أي الشيخ رضي الله عنه كما وجدته مكتوبا في خشبة معلقة على ضريحه معرفا بنفسه ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله والحمد لله

ومما وجد بخط الشيخ الإمام الولي الصالح أبي زيد عبد الرحمان الثعالبي رضي الله عنه ما نصه: الثعالبي عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف بن طلحة بن عمر بن نوفل بن عمار بن منصور بن محمد بن سباع بن / 306 / ثعالب بن موسى بن سعيد بن مفضل بن عبد الله بن قيس بن هلال بن عامر بن حسن بن محمد بن جعفر بن أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ذريته عبد العزيز بن محمد بن مخلوف الثعالبي. توفي الشيخ رضي الله عنه سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة.

ذكر جانب من علاقات الجزائر مع الإسبان واستشراء الوباء

وهذه المدينة في غاية التحصين والمنعة من البر والبحر، فلها سوران والحفير ومن دون الحفير سور آخر، وبأسوارها الأبراج والمدافع لناحية البحر، لأن النصارى كثيرا ما يقصدونها بالمراكب الحربية والعساكر الكثيرة، وينزلون إلى البر فيخيب الله قصدهم ويرد في نحورهم كيدهم، ولا سيما جنس الإصبيول فقد وقع ترده إليها بالحرب مرات، فقد أتاها في العشرة

الأخيرة من المائة الثاني عشر مرتين بالمراكب العديدة والجيش المديدة، ونزل إلى البر وأنزل المدافع وصعب أمره، ومنع المسلمين من الوصول إليه بكثرة المدافع، فاجتمع المسلمون يفكرون فيما يأتون، فألهمهم الله تعالى لجمع الإبل الكثيرة وترسوا بها، وساقوها أمامهم تجاه العدو وعساكر المسلمين خلفها، فخرجت مدافع النصارى وكورهم في الإبل، وحمل المسلمون على الكفار ونصر الله تعالى دينه وأمكن من الكفار وقتلوا تقيلاً.

وقد وجدنا بهذه المدينة وأعمالها الطاعون ومات به خلق كثير، ثم سافرنا منها فوصلنا تلمسان على اثني عشر يوماً، وخيمنا بظاهرها فتقضيها ضرورياتنا ولوازم السفر، وزرنا تربة الولي الصالح المستصرخ به في جميع الأقطار، القطب سيدي أبي مدين الغوث نفعا الله تعالى ببركاته⁽⁴⁷⁹⁾، وتربة الشيخ البركة / 307 / القدوة الصالح سيدي محمد السنوسي نفعا الله به.

وصف مدينة تلمسان وخرابها وجور حكامها

ومدينة تلمسان هذه مدينة كبيرة مشهورة، كثيرة المياه والبساتين والأجنة والزيتون والمستغلات، إلا أن الخراب استولى على كثير من أطرافها فلم يبق إلا رسومها، وزادها عمال الجور والظلم، فقد استولوا على ما بأيدي المسلمين، فقد أخبرني بعض أصحابنا كان يتردد إليها في قضاء أغراضنا، أنه رأى أهل البلد يشترون الأشياء من العطارين وغيرهم بالزرع من قلة الدراهم بأيدي الناس، ومن قلة حياء حاكم البلد وكثرة حرصه وإذاية العامة، أن كل من يمر به من حجاج بيت الله يقبض منهم شيئاً معيناً على أمتعتهم وحوائجهم من غير مبالاة جبر الله حال المسلمين.

دخول الأراضي المغربية

ثم سافرنا من هذه المدينة فمررنا على قرية وجدة فأقمنا بها، بل بتنا بها فقط عند عامل سيدنا وسلطاننا مولانا أمير المؤمنين، وهي من أول أهل

(479) وردت إضافة طويلة في الهامش تصعب قراءتها.

طاعته ورعيته أدام الله تعالى نصره، واستعملنا السير منها إلى أن وصلنا
حضرة فاس فتلقانا الإخوان والأحباب عند وادي سبو، وجمع الله شملنا
برؤيتهم وزيارتهم، واستعد بعض الأحباب بطعام كثير أحضره على ضفة
الوادي، فأكلنا وأكل جميع من حضر من الرفقاء والمسافرين والمارين جزاء
الله خيرا، ثم دخلنا المدينة فنزلنا بدار من أجل دورها عينها حاكم البلد،
وذلك في آخر يوم من شعبان من سنة اثنتين ومائتين وألف.

وصف مدينة فاس

وهذه المدينة العظيمة المقدار الكثيرة الآثار، الشهيرة في الأقطار المتوفرة
الأوطار، فضلها أشهر من أن يذكر، وأوضح من أن يحسد أو ينكر،
وخيرها واجب على المسلمين أن يشكر، /308/ إذ هي بلد العلماء الأعلام،
وإليها الرحلة والإمام، فالعلم فيها درس وبساحتها غرس، وأرضها مباركة
الحظ والتأسيس، (مشتهرة بحسن الخط والتدريس)⁽⁴⁸⁰⁾ مختصة بكل شيء
نفيس، ولواديها البشر والتأسيس، فهو مأوى كل متفرج وخليع وجليس،
ولأهلها التبكير للزيارة والصلاة والتغليس، وناهيك بمدينة خطها سيدنا
ومولانا إدريس، فالتعريف بما اشتملت عليه من الفضائل من باب تحصيل
الحاصل، إذ هي الفريدة في المحاسن واطراد المياه العذب الغير الآسن،
ونباهة البنيان وتمام الحضرة في المغرب، وإن شئت وفي المشرق المتسع
الكبير ولا ينبئك مثل خبير ولله در القائل:

بلد أعارته الحماسة طوقها وكساه ريش جناحه الطاووس
فكأنما الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كئوس

لقاء ابن عثمان مع السلطان سيدي محمد

فأقمنا بها يومين، وقدم سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وناصر الدين
المجاهد في سبيل رب العالمين، أدام الله تعالى أيامه وأمضى أحكامه، وجعل

(480) سَقَط من (i) وورد في (ب).

النصر والظفر خلفه وأمامه آمين، وقد كان أعزه الله سمع بقدومنا إلى فاس وهو بمكناسة، فبعث إلينا فخرجنا لملاقاته التي هي أمنيّتنا المقصودة وضالتنا المنشودة، فوردنا عليه وهو مخيم بوادي العطشان فيما بين فاس ومكناسة، فتبركنا بحضرته والتمتع برؤيته، وختمنا أعمالنا بمشاهدة أنوار طلعت له ولله الحمد.

ثم تعاطينا معه أكرمه الله وأعزه أخبار الحرمين الشريفين، والمشرق والشام والقسطنطينية وغيرها من البلدان التي رأيناها ومررنا بها، وبتنا عنده بمحلتة المباركة، ومن الغد بعثنا إلى فاس أيضا، وتوجه لغرض من مصالح المسلمين في ناحية شراقة، ومنها توجه إلى بلاد الحياينة يتفقد أحوال المسلمين من رعيته، فجزاه الله خيرا / 309 / على الإسلام والمسلمين.

إرسال ابن عثمان في مهمة تسليم أسرى إلى الجزائر

ثم ورد علينا أمره المطاع بالقدوم عليه، فوردنا عليه وهو مخيم بقرب النخيلة من بلاد الحياينة، فتلاقينا معه أدام الله تعالى عزه، فبقينا مخيمين معه هنالك ثلاثة أيام، وقد كان ورد عليه جمع من أسارى المسلمين بعثهم إليه عظيم الإصبيول على سبيل الإهداء والإكرام، لكونه لما عمل الصلح مع أهل الجزائر، ووقع فداء الأسارى بينهما من الجانبين على ما تقتضيه قوانين الصلح، امتنع أمير الجزائر من إعطاء المال في هؤلاء الأسارى كما فعل النصارى في إخوانهم، ولم يقبل أن يفديهم بالنصارى، بل قبض المال في أسارى الإصبيول الذين عنده، ولم يرد فيهم بدلا بأسير مسلم، وأحمل هؤلاء المسلمين وأبقاهم بأيدي الكافرين فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فلما سمع ذلك عظيم الإصبيول اغتاض من ذلك، وأعطاه ما أراد من المال في النصارى إخوانه، وجمع هؤلاء الأسارى من المسلمين وبعثهم مجانا إلى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين على سبيل الإهداء والإكرام، لما يعلم من حرصه أيده الله على إنقاذ المسلمين، وأن هدية الأسارى عنده لا يعادلها شيء من هدايا الدنيا. وقد كان عند هذا الجنس من الأسارى الآلاف، فأنقذهم جميعا سيدنا أمير المؤمنين أدام الله علاه وأبقاء وتولاه، منذ عمل

معه الصلح وهو أيده الله في كل حين يخرج منهم حصّة، فكان آخر من بقي من المسلمين بأيدي الإصبنول هذه الجماعة، والله يتقبل منه ويشبهه.

وهذه المنقبة الكبيرة والذخيرة الأثيرة، ما ادخرها الله /310/ تعالى له دون غيره إلا لخصوصية له أيده الله، فكل ميسر لما خلق له، وإذا أراد الله بعبد خيرا خلق ونسب إليه. ولما أقمنا معه نصره الله في معسكره ببلاد الحياينة ثلاثة أيام، ناداني وقال هؤلاء أسارى المسلمين أنقذهم الله تعالى على أيدينا ولله الحمد، وأردنا إيصالهم إلى طرف بلادهم، فأردنا أن تغتم ثوابهم وتربح أجرهم، فتتوجه معهم ويكون نظرك عليهم في ركوبهم وأكلهم وشربهم، حتى توصلهم إلى تلمسان وتدفعهم إلى عاملها، وتفرق عليهم هذه الصلة هنالك. وأصبحنا من المال ما نفرق عليهم بحساب عشرة مثاقيل لكل واحد، وعين البغال لركوبهم والزاد الوافر، وتوجهنا بهم من عنده أيده الله، فلما أشرفنا على تلمسان بموضع يقال له عقبة اليهودي تظهر منه البلد على بعد، وجدنا هنالك طليعة لأهل البلد وقد فرش بسطا تحت ظل زيتون هناك، وتلقانا وعرفنا بأنه مبعوث من عند حاكم البلد، فنزلنا هنالك للاستراحة حتى استكمل القوم واجتمع الناس، وركبنا متوجهين إلى المدينة فتلقنا خيلهم، وأخذوا يلعبون بالبارود إلى أن وصلنا المدينة، والناس كلهم رافعون أصواتهم بالدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين، ونزلت الخيل التي توجهت معنا بظاهر البلد وكذلك الأسارى وأدخلونا إلى دار الحاكم وأنزلونا بها.

ومن الغد فرقت على الأسارى صلتهم تقبلها الله تعالى من سيدنا قبولا حسنا، ثم توجهنا لزيارة القطب المشهور سيدي أبي مدين الغوث وتبركنا به ثانيا ولله الحمد، ثم سيدي محمد السنوسي نفعا الله به، وعممنا من لم نعرف من الصالحين والأولياء المشتمل عليهم عباد /311/ تلمسان، وقد كان بقي في خاطري المرة الأولى لما مررنا من هنالك زيارة ابني الإمام أبوا زيد عبد الرحمان وأبوا موسى عيسى ابنا الإمام، فقد عاقني عن زيارتهما والبحث عليهما السفر والرفقة، وبقي ذلك في خاطري كثيرا وحصلت لي ندامة على عدم تقديمهما مع الزيارات على أموري. ولما رجعت هذه المرة لم يكن لي هم

غير زيارتهما، فبحثت عنهما فلم أقف على من يعرفني بتربتهما، فبعثت لقاضي البلد وطلبت منه ذلك فبعث معي من أراني إياهما جزاء الله خيرا، وقبراهما على قارعة الطريق المارة من تلمسان إلى سيدي أبي مدين، دائر بهما بناء قصير لا سقف له، فوقفنا عليهما وقرأنا لهما ما شاء الله من القرآن ودعونا الله عند تربتهما ولله الحمد.

وقد رأيت أن نرسم بعض خبرهما دليلا على عظيم مقدارهما فنقول: قال سيدي أحمد المقرئ صاحب تأليف "نفح الطيب" عند ذكر مشايخ لسان الدين ما نصه: وقد ذكر لسان الدين رحمه الله في "الإحاطة" شيوخ مولاي الجد فلنذكرهم من جزء الجد الذي سماه "نظم اللآلي في سلوك الأمان"، ومنه اختصر لسان الدين ما في "الإحاطة" في ترجمة مشيخته فنقول: قال مولاي الجد رحمه الله فممن أخذت عنه واستفدت منه علماها- يعني تلمسان - الشانخان وعالمها الراسخان، أبو زيد عبد الرحمان وأبو موسى عيسى ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام، وكانا قد رحلا في شبابهما من بلدهما برشك إلى تونس، فأخذا بها عن ابن جماعة وابن العطار واليغرنى وتلك الحلبة، وأدركا المرجاني وطبقة من أعجاز المائة /312/ السابعة، ثم وردا في أول المائة الثامنة تلمسان على أمير المؤمنين أبي يعقوب⁽⁴⁸¹⁾ وهو محاصر لها، وفقهه حضرته يومئذ أبو الحسن علي بن يخلف التونسي، وكان خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يعد، وارتفع شأنه عند أبي يعقوب حتى أنه شهد جنازته ولم يشهد جنازة أحد قبله، وقام على قبره وقال نعم الصاحب فقدنا اليوم.

حدثني الحاج الشيخ بعباد تلمسان أبو عبد الله محمد بن محمد بن

(481) أبو يعقوب يوسف المريني (1286-1307) ابن أبي يوسف وولي عهده، تولى الحكم سنة 1286 وواجه عدة انتفاضات كشفت عن هشاشة الدولة المرينية، علاوة على اضطرابه التورط في الأندلس وصراعاتها، وعلى الجبهة الشرقية خاض حروبا طويلة ضد الزبانيين بتلمسان، تمكن خلالها من إخضاع مجمل المغرب الأوسط، وفي الوقت الذي كان على وشك دخول تلمسان المحاصرة لمدة 8 سنوات اغتيل في 13 ماي 1307 (C. A. Julien, Histoire de l' Afrique du nord, v. 2, p.p. 174-176).

مرزوق العجيسي، أن أبا يعقوب طلع إلى جنازة التونسي في الخيل حوالي روضة الشيخ أبي مدين رحمه الله تعالى، فقال: كيف تتركون الخيل تصل إلى ضريح الشيخ، هلا عرضتم هناك-وأشار إلى حيث المعراض الآن- خشبة ففعلنا، فلما قتل أبو يعقوب وخرج المحصوران أنكرا ذلك فأخبرتهما، فأما أبو زيان فكان السلطان يومئذ فتزل وطأطأ رأسه ودخل وأما أبوا حموا (كذا) وكان أميراً فوثب وخلفها.

ولما رجع الملك إلى هذين الرجلين اختصا ابني الإمام، وكان أبو حمو أشد اعتناء بهما ثم بعده ابنه أبو تاشفين، ثم زادت حظوتهما عند أمير المسلمين أبي الحسن⁽⁴⁸²⁾، إلى أن توفي أبو زيد في العشر الأوسط من رمضان عام أحد وأربعين وسبعمائة بعد وقعة طريف بأشهر، فزادت مرتبة أبي موسى عند السلطان، إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان في أول عام تسعة وأربعين. وكان أبو موسى قد صدر عنه قبل الوقعة، فتوجه صحبة ابنه أمير المؤمنين أبي عنان⁽⁴⁸³⁾ إلى فاس، ثم رده إلى تلمسان وقد واستولى عليها عثمان بن عبد الرحمان بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، فكان

(482) أبو الحسن بن السلطان أبي سعيد عثمان (1331-1351)، أعظم ملوك الدولة المرينية وأشهرهم، بلغت الدولة في أيامه أوج قوتها وازدهارها. تدخل بدوره في الصراع بين بني نصر والغشئاليين في الأندلس لكنه اضطر إلى سحب الجيوش المغربية بعد الهزيمة التي تكبدتها قرب طريفة سنة 1340. أما على الجبهة الشرقية فقد نجح في دخول تلمسان سنة 1337 ثم تونس سنة 1347، غير أن ابنه أبا عنان اعتقاده منه بوفاة أبيه في الطاعون الذي ضرب تونس أعلن نفسه سلطاناً، فحاول أبو الحسن استعادة عرشه لكنه فشل وحاصره ابنه في الأطلس الكبير حيث توفي سنة 1351 ودفن في مقبرة المرينيين بشالة. ترك أبو الحسن مآثر عمرانية عظيمة منها مسجدا الشراييلين وأبي الحسن ومدرسة المصباحية بفاس ومسجدا منصور وبيدي أبي مدين بتلمسان (Julien, op. cit., p.p. 178-182)..

(483) أبو عنان فارس المريني (1348-1358)، ولد في بتاير 1329 ونولى الحكم وهو في ريعان الشباب مع ما يعني ذلك من طموح وعزم، تقدمه المصادر متصفاً بصفات سلطان كبير غير أنها تأخذ عليه رفضه للمشورة. نجح في استعادة نفوذ المرينيين على تونس وتلمسان وإن لم يدم ذلك طويلاً، إذ توفي أبو عنان قبل تثبيت سلطته على الإمبراطورية التي سرعان ما تفتتت بعد وفاته سنة 1358، ومنذئذ بدأت أزمة الدولة المرينية التي استمرت إلى سقوطها (Julien, op. cit., p. 182).

عنده إلى أن مات الفقيه / 313 / عقب الطاعون العام.

قال لي خطيب الحضرة الفاسية أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عبد الله الرندي: لما أزمع الفقيه ومن أطلق معه على القفول إلى تلمسان، بت على تشييعهم فرأيتني كأني نظمت هذا البيت في المنام:

وعند وداع القوم ودعت سلوقي وقلت لها بيني فأنت المودع
فانتبهت وهو في في⁽⁴⁸⁴⁾ فحاولت قريحتي بالزيادة عليه فلم يتيسر لي مثله.

ولما استحكم ملك أبي تاشفين واستوثق، رحل الفقيهان إلى المشرق في حدود العشرين وسبعمئة، فلقيا علاء الدين القونوي، وكان بحيث أني لما رحلت فلقيت أبا علي حسين بن حسين ببجاية، قال لي إن قدرت ألا يفوتك شيء من كلام القونوي صاحب البيان، وسمعا صحيح البخاري على الحجار وقد سمعته أنا عليهما، وناظرا تقي الدين بن تيمية وظهرنا عليه وكان ذلك من أسباب محنته، وكانت له مقالات فيما يذكر وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين. حدثني شيخني العلامة أبو عبد الله الأبلي أن عبد الله بن أبي إبراهيم الزموري أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه:

محصل في أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلا دين
أصل الضلالة والإفك المبين فما فيه فأكثره من وحي الشياطين
قال وكان في يده قضيب فقال لي: والله لو رأيته لضربته بهذا القضيب هكذا، ثم رفعه ووضع.

ويحسبك مما طار لهذين الرجلين من الصيت بالمشرق، أني لما وصلت إلى بيت المقدس وعرف به مكاني من الطلب، وذلك أني لما قصدت / 314 / قاضيه شمس الدين بن سالم ليضع لي يده على رسم استوجب به هناك حقا، فلما أطللت عليه عرفه بي بعض من معه، فقام إلي حتى جلست، ثم سألتني بعض الطلبة بحضرته فقال لي: إنكم معشر المالكية تبيحون للشامي يمر

(484) أي فمي.

بالمدينة أن يتعدى ميقاتها إلى الجحفة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن عين المواقيت: "هن لهن ولمن مر عليهن من غير أهلهن"، وهذا قد مر على الحليفة وليس من أهله فيكون له، فقلت له إن النبي صلى الله عليه وسلم قال من غير أهلهن أي من غير أهل المواقيت وهذا سلب كلي، وإنه غير صادق على هذا الفرد ضرورة صدق يقتضيه وهو الإيجاب الجزئي عليه، لأنه من أهل المواقيت قطعاً، فلما لم يتناوله النص رجعنا إلى القياس، ولا شك أنه لا يلزم أحداً أن يحرم قبل ميقاته وهو يمر به، لكن من ليس من أهل الجحفة لا يمر بميقاته إذا مر بالمدينة فوجب عليه الإحرام من ميقاتها، بخلاف أهل الجحفة فإنها بين أيديهم وهم يمرون عليها.

فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك، فلما عرفت أنني آت من أهل المغرب فقال لي: تعلم أن مكانك في نفوس أهل هذا البلد مكين وقدرك عندهم رفيع، وأنا أعلم انقباضك عن ابني الإمام، فإن شئت فانتسب لهما فقد سمعت منهما وأخذت عنهما، ولا تظهر العذول عنهما إلى غيرهما فتضيع من قدرك، فإنما أنت عند هؤلاء الناس خليفتهما ووارث علمهما، وأن لا أحد فوقهما وليس لما تبني يد الله هادم، انتهى محل الحاجة منه.

أداء المهمة بالجزائر والرجوع إلى المغرب

وكان مقامنا بمدينة تلمسان في الرجوع إليها ثانياً يومين، تقضينا فيها أغراض مولانا الإمام /315/ أدام الله ظله على الأنام، وزرنا من تيسرت لنا زيارته من صالحيتها نفعا الله بهم أجمعين، ثم قوضنا عنها الرحال وأخذنا في السفر والترحال، نقشو آثارنا وننزل ديارنا، فأصبحنا بوجدة يوم عيد الفطر وصلينا مع الناس صلاته وحصلنا سنته، وأقمنا بعده ثلاثة أيام لقضاء بعض أغراض سيدنا أمير المؤمنين. ثم رحلنا منها فكان مبيتنا بقصبة العيون فقرت بالمبيت بها عيون، بنفوس رجعت بمنائها ظافرة ومؤن وافرة ورد في الحافرة. ثم سافرنا منها فنزلنا بقصبة زاء، أكرم بها حرزا حوى من الأرض نشزا، وبباكورها الذي لها يعزى (وبجداول نهرها التي طرزت أرجاءها

طرزا⁽⁴⁸⁵⁾، ومنها نزلنا على وادي ملوية، على ضفته البهية وبسطه السندسية ومياهه الروية، ومنها للجبوب ذات ماء للنفوس محبوب، مبرد في الحر كل لهيب، داع لكل ظمآن ومهيب، ومنها لقصبة مسون نزلنا⁽⁴⁸⁶⁾ على واديه، لكنه أجاج غير عذب، فكان له مسوغ من القرب، ثم إلى مدينة تازة ذات الأنهار المطردة، والبساتين المتعددة والطيور المغردة، إلا أن بها أشواقا متجددة،

وأبرح ما يكون الشوق يوما. إذا دنت السديار من السديار فأقمنا بها يوما للاستراحة بمكان بين بساتينها رحب الساحة، فأخذنا الاستعداد وجددنا الزاد، وبتنا بظاهرها في إكرام أميرها، ولما قوض الليل أطنابه ورفع الصبح شهابه، أدينا العزيمة والفرض /316/ وضربنا في الأرض، فكان مبيتنا في الكور⁽⁴⁸⁷⁾ من بلاد الحياينة، في محلة سيدنا الكاملة الإسعاد، الوافرة الأبطال والأنجاد وقامعة أهل الزيغ والفساد.

رجوع ابن عثمان إلى فاس وإذن السلطان له بالتوجه إلى مكناس

ومن الغد رحلنا عنها فوصلنا حضرة فاس المحروسة عند منتصف النهار، فنزلنا في زيتون باب الفتوح لنقيل، والنفوس إلى الكرا تمل، فقلنا بها وأوتي إلينا من المدينة بأشهى مطايبها، إلى أن انكسر من الهاجرة سورة شدتها وصلينا العصر لوقتها، ثم ركبنا فيمينا حصن دار دبيع المشهور، ومعسكر مولانا الإمام المنصور، فتلاقينا معه أيده الله ونصره في أسعد الأوقات، ملقى جميلا أنسى النفس مشقة الطرقات، وتمهديننا معه أكرمه الله وأعزه خبر تلك النواحي وعشائر تلك الضواحي، فنظر فينا أبقاه الله بعين الإشفاق، وكاشف ما أنا ذو احتياج إليه من الإرفاق، فأمر قائد المدينة

(485) منتطت من (أ) ووردت في (ب).

(486) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(487) كتبت بكاف ذات ثلاث نقاط.

صانها الله تعالى أن يتخير لنا دارا من أفضل دورها وأبردها زمن المصيف،
فحللت منها في محل منيق ذي رونق وتفويق، واغتنمنا زيارة الإمام الأشهر،
والولي الأكبر والملاذ الأحمى الأفخر، سيدنا ومولانا إدريس نفع الله تعالى
به، وأقمنا هنالك نحو العشرة أيام، ثم أمرنا سيدنا ومولانا أمير المؤمنين
بالتوجه إلى مكناسة، حيث الأهل والولدان والإخوان والأخدان، والعشائر
والأصحاب والأصدقاء والأحباب،

بلد بها نيطت علي تمائمي وأول أرض مس جلدي تراها

وصف رقيق لمدينة مكناس وأحوالها

بلد خيرها كثير وماؤها عذب نمير، وهوأها (كذا) صحيح وحوزها
فسيح، /317/ وقد وصفها الإمام العالم المشارك المتفنن، أبو عبد الله لسان
الدين بن الخطيب رحمه الله في "نفاضة الجراب" عند وصف بعض
الأماكن، فمن ذلك قوله حين أجرى ذكر مدينة مكناسة الزيتون ونصه:
وأطلت مدينة مكناسة في مظهر البحر، رافلة في حلق الروح متبسمة عن
شنب المياه العذبة، سافرة عن أجهل المراد، قد أحكم وضعها الذي أخرج
المرعى قيد البصر وفدلكة الحسن.

فنزلنا بها منزلا لا تستطيع العين أن تخلفه حسنا ووضعها، من بلد دارت
به المداشر المغلة، والتفت بسوره الزياتين المفيدة، وراق بخارجه للسلطان
المستخلص الذي يسمو إليه الطرف، من رحب ساحة والتفاف شجرة،
ونباهة بنية وإشراق ربوة، ومثلت بإزائها الزاوية القدمى المعدة للوراد، ذات
البركة النامية والمأذنة السامية والمرافق المتيسرة، يصاقبها الخان البديع المنصب
الحصين الغلق، الخاص بالسابلة والجوابة في الأرض يبتغون من فضل الله
تعالى، تقابلها غربا الزاوية الحديثة المرينية، برونق الشبيه ومزية الجدة
والانفساح وتفنن الاحتفال، إلى أن قال: وبداخلها مدارس ثلاث لبت العلم
كلفت بها الملوك الجلة الهمم [وأخذها التنجيد]⁽⁴⁸⁸⁾، فجاءت فائقة الحسن،

(488) سقطت في النسختين: (نفاضة الجراب، تحقيق مختار العبادي، البيضاء، ص. 372)

ما شئت من أبواب نحاسية وبرك فياضة، تقذف فيها صافي الماء أعناق
أسدية، وفيها خزائن الكتب والجراية الذارة على العلماء والمتعلمين. وتفضل
هذه المدينة كثيرا من لذاتها بصحة الهوى، وتبحر أصناف الفواكه وتعمير
الخزين، ومداومة البر لجوار ترابها سليما من الفساد معافا من العفن، /
318/ إذ تقام ساحات منازلها غالبا على أطباق الآلاف من الأقوات، تنقلها
المواريث ويصحبها التعمير وتتجاف عنه الأرض، ومحاسن هذه البلدة المباركة
جمة، قال ابن عبدوس من أهلها ولله ذره:

إن تفتخر فاس بما في طيها وبأنها في زيار حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها والأطيبان هواؤها والماء
ويسامتها شرقا جبل زرهون المنبجس العيون، الظاهر البركة المتزاحم
ال عمران الكثير الزياتين والأشجار، قد جلله سكر ورزقا حسنا، فهو عنصر
الخير ومادة المجبى، وفي المدينة دور نبيهة وبني أصيلة، والله سبحانه ولي
من اشتملت عليه بقدرته، وفيها أقول:

بالحسن من مكناسة الزيتون	قد صح عذر الناظر المفتون
فضل الهوى وصحة الماء الذي	يجري بها وسلامة المخزون
سحت عليها كل عين ثرة	للمزن هامية الغمام هتون
فاحمر خد الورد بين أباطح	وافتر ثغر الزهر فوق غصون
ولقد كفاها شاعدا مهما ادعت	قصب السباق القرب من زرهون
جبل تضاحكت البروق بجوه	فبكت عذاب عيونه بعيون
وكأنما هو بربري نافذ	في لوحه والتين والزيتون
حييت من بلد خصيب أرضه	مئوى أمان أو مناخ أمون
وضفت عليك من الإله عناية	تكسوك ثوبى آمنة وسكون

/ 319 / انتهى.

وقد وصفها في مقامة البلدان على منوال السجع فقال: مكناسة مدينة
أصيلة، وشعب للمحاسن وفصيلة، فضلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها
ماءها ومراعيها، فجانبها مربع وخيرها سريع، ووضعها له في قنة الفضائل

تفريع، اعتدل فيها الزمان وانسدل الأمان، وفاقت الفواكه ولاسيما الرمان، وحفظ أقواتها الإختزان ولطقت فيها الأواني والكيزان، ودنا من الحضرة جوارها، فكثرت قصاها من الوزراء وزوارها، وبها المدارس والفقها ولقصبها الأبهة، والمقاصر والأبها (كذا)، انتهى.

ويعني بالحضرة مدينة فاس المحروسة لأنها إذ ذاك كرسي الخلافة، ومكناسة مقر الوزارة، وأهل المغرب يعبرون عن المدينة التي فيها كرسي الخلافة بالحضرة.

قلت دخلت مكناسة هذه مرارا عديدة، وقد أبلى الدهر محاسنها التي كانت في زمن لسان الدين بن الخطيب جديدة، واستولى عليها الخراب وتكدر منها بالفتن الشراب، وعاث في ظاهرها الأعراب وفي باطنها سماسة الفتنة العائقة عن كثير من الأرباب، حتى صار أهلها حزبين ولبس كثير من أهلها ثياب البعد عنها والبين، والله يجبر حالها ويعقب باخصب أمحالها، ويرحم الله ابن جابر إذ قال:

لا تنكرن الحسن من مكناسة فالحسن لم يبرح بها معروف
ولئن عت أيدي الزمان رسومها فلربما أبقت هناك حروفا

قلت وهي الآن على ما ذكر من الأوصاف مع تهدم الأطراف، ووقوع بعض الخراب وسكنى الأعراب، والله تعالى يجبر حالها ويحفظ أسرها، ويعافئها /320/ من اختلالها ويشفيها من اعتلالها. فبتنا يوم سافرنا من حضرة فاس بوادي الجديدة مع أشواق جديدة، عند بعض العشائر من البربر آيت يemor فأكرمونا، وبتنا عندهم في ضيافة وحراسة من آفة، إلى أن صلينا المكتوبة وقربت إلينا المركوبة، وسرنا والأحباب والأهل والأصحاب والجيران يتلاقونا أفواجا أفواجا، إلى أن دخلنا دار مثوانا، فحفت بنا الأهل ولدانا وإخوانا، وحشم وخدم ومن تركناه في العدم، وحفوا بنا مستبشرين فرحين مسرين منشرحين، ألبسهم الله تعالى السرور زيا، وعروضهم عن ظمأ الفراق من التلاقي ريا، فأنشدتهم بعد أن نبهتهم لحمد الله على جمع شملنا وأرشدتهم،

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا
فاجتمع والمنة لله الشمل واتصل الحبل وسر الولد والأهل،
وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب مسافر

تاريخ الرجوع إلى مكناس ومدة السفارة

وكان دخولنا ضحوة يوم الثلاثاء لست بقين من شوال من شهور سنة
اثنين ومائتين وألف⁽⁴⁸⁹⁾، فكانت مدة هذه الغيبة المباركة ثلاث سنين تنقص
مقدار شهر ونصف كانت كجولان طرف أو كرجعة طرف.

ومرت لنا حقبة من الزمان في محادثة الإخوان، ومجازبة أهذاب الآداب
مع الفقهاء والأدباء أولي الألباب، فمما أنشدنا لنفسه صاحبنا الفقيه الكامل
العالم الفاضل، سلاله الأكابر والعلماء المشاهير، الأديب اللبيب الحسيب
النسيب أبو عبد الله سيدي محمد⁽⁴⁹⁰⁾ بن الفقيه العالم العلامة المشارك
النظار، آخر علماء الكلام وبقية المحققين الأعلام، أبو محمد محمد البيجري
رحمه الله، قصيدة / 321 / وقدمها نشرًا، أنشأها حين ورد عليهم خبرنا
بخروجنا من البحر في مدينة تونس، فقدمها بين يدي سلامه علينا نصه:
أهدي لمحل العلا عالي الخلا، ما سنح لي من الفكر وإن لم يكن سمح بنسبة
ما له من الصيت والذكر، استثناسنا برضاه ومعولاً من خلقه الكريم على
مقتضاه، إذ النفس الزكية تجتزئ بالركية، لازال المجد لكم يربو ولا يكبو،

(489) يوليو 1788.

(490) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد السلام البيجري المكناسي، نسبة إلى "بيجرة قرية أو
مدينة صغيرة بقرب غرناطة" التي خرج منها أجداده نحو فاس كما كتب بنفسه، وهو فقيه
علامة فاضل كامل من بيت علم ومجد وقضاء وأديب شهير ووحيد عصره نظماً ونثراً وظرفاً
ولطفاً، كان صديقاً لابن عثمان وله معه جلسات تبادل فيها النظم، تتلمذ على والده وعلى
السيد الغازي بن عبود، كما ورد في تقييده أن بدين بجزء كبير من تعلمه لـ "تلميذ والدنا
الأكبر الفقيه النبيه الأشهر، العلامة الفهامة الدراكة المحقق الأنور شيخنا أبو عبد الله سيدي
محمد بن العلامة الصدر الخطيب البليغ المدرس المتني القاضي أبي محمد سيدي عبد الوهاب
بن الشيخ، فاتصلت به اتصال الراح بالماء وقبضت عليه كما قبل قبضة الأعمى في الظلما"،
توفي في ثامن عشر رجب سنة خمسة ومائتين وألف. (تقييد في عائلة البيجريين، ص. 19،
مخطوط خاص؛ إتحاف أعلام الناس، ج. 4، ص. ص. 140-144).

والسعد يصبر ولا ينبو، آمين،

تاق قلبي فما له استقرار منذ جاءت من تونس أخبار
توقان وأنس اجتمع الضدان عندي فلم يسع إنكار
باشتياقي لفرد في المعالي تترامى دأبا به الأسفار
والتأنس بالتفكر في أوصافه قد تؤنس الأفكار

قمر المجد سار في فلك السعد فذاك السيار والدوار
وتحرك ذا بفتحريك هذا ليس في غاية له إقصار
أترى يسمح الزمان بقرب منه متصل وتدنو الدار
فنندال من النوى بسرور في منادمة لها أسرار
(كل ما فيض الإله له الألفاف بما جرت به الأقدار)⁽⁴⁹¹⁾

نرتجي دومه عزيزا كريما بالنا في الهنا له استقرار
وهذا الرجل نسيج وحده نظما ونثرا وأدبا وخبرا، له بديهة سيالة يجيب
في أسرع حصّة من الزمان في كل غرض وما يتهيأ له، مع المروءة التامة
واخياء والحشمة والسمت الحسن، والدين في السر والعلن، وبيته بيت علم
وقضاء. فمما اتفق لي معه أبقاه الله ذات يوم، وقد كان في مجلسنا سفرة
وضع فيها باسمين على ترتيب مخصوص، وحولها ريجان دائر بها ولم / 322 /
تستكمل دائرته، فقلت له في ذلك:

كان ما جمع في سفرة ريجان قد حفت به باسمين
وجه حبيبي تم في حسنه معذرا أفنى به العالمين
فأخذ الدوات والقلم وخط قبل أن يتكلم:

لذاك يسقى الكأس ممتزجا كوجهه في الوصف كي لا يمين
رأيته في حكمه منصفنا يجريه عمدا دائما لليمين.
وقد استدعيته ذات يوم برسالة، فكتبت له بنثر وبعده أبياتا فمن

(491) ورد هذا البيت في الجامش من (i) وسنط في (ب).

فصولها : وإنا لنتنظر قدومك علينا قبيل الشمس شروقاً، والإبريق يصطك
فؤاده لسقياك خفوقاً، حتى نتقضى من منادمتك حقوقاً، فالساق مشمر عن
ساق، والإبريق متأهب بما يليق لأن يريق، والكأس بحلا عسجدية كأس،
والكل للقياك متأهب وبطاعتك متقرب،

مجلس أنس تم لاكنه إن لم تزينه بكم عاقل
أكؤسه مصطفة ترجي سلوها عن سقيكم باطل
قد أوقفت إريقها رائدا فامتد منه عنق يسأل
إن لم تقدر منكم زورة فدمعه هام يرى هاطل
كذا إذا أسعفتهم باللقا فأمره مستبهم مشكل
بكأؤه الثاني فمن فرح وعكس ذاكم دمه الأول
فلا تردوه لها خائبا عسى سرور بكم يكمل
323 / فقدم بين يديه :

السمع والطاعات منا لكم واجبة والأمر ممثّل
نأتي على الرأس لمجلسكم إن لم تساعدنا له الأرجل

وبعده: المبرز في العلى المحرز للمعلى، محيي فصاحة الأوائل ومعبي
سحبان وائل⁽⁴⁹²⁾ كرم الله طلعتة وحتم على الدهر طاعته آمين، هذا وما
عسيت أحلي ولو حصلت لي ملكة المحلي، أو حصلت أنواع بديعة الحلي،
وأنت أعزك الله السفير بين الملوك، والوزير الذي هو في عقد الوزارة
فاخرة السلوك، فأنى يوصل إلى الأوج من فلك مجدك، ولا يقال للزوج إن
له معنى من معاني فردك، بيد أنك حفظك الله كريم الأخلاق، وحضرتك
العلية حضرة الإطلاق، فبساط أنسك لا شك أنه أرفع، لكن انبساطك فيه
أوسع للنفوس وأنفع، وهو وإن كانت به الفرش المرفوعة، والأكواب
الموضوعة، وألوان الطعام مما طار كما قيل وعام⁽⁴⁹³⁾ أو من غيرهما، كذلك

(492) سحبان وائل، توفي سنة 55هـ / 674م، من أشهر الخطباء العرب وأفصحهم، أسلم زمن
الرسول (ص) وعاش زمنا بدمشق عند الخليفة الأسوي معاوية. يقال إنه عمر طويلا.

(493) إشارة بليغة الى الطير و السمك.

المشوب بالطيب المشتبه بقلنسوة الخطيب، فخطابك البليغ أفضل من ذلك كله وأجمل، ومنزعك اللطيف أوصل للنفوس وبها أحل، لأن ذوق معاني الكلام ألد من ذوق ما في الأواني من الطعام وأجل وأكمل، ومما هزني من ذلك للكلام، ولزني في المداعبة معك كما لز الألف مع اللام، ما أودعته في رسالة الاستدعاء من قولك والساق مشمر عن ساق، فإنه ذكرني قول بعض المقاول:

لم أنس يوماً قام يكشف عامداً عن ساقه كاللؤلؤ البراق
/ 324 / لا تعجب إن قامت لذاك قيامتي إن القيامة يوم كشف الساق
وإني لما حضرت ذلك المجلس الأبهى، وأظهر فيه الساق من شمائله ما أظهر، إنما تاه فكري في لطف مناولته، ووصف مطالعته لرضاك ومحاولته، فغبت بذلك عن ملاحظة الساق المشمر عنه، بل وعن الساعد الذي كان أقرب إلي منه، نعم أنهم لك نفسي بنظرة أولى لمحياء، وكأن القلب بها حياء، لكن قلت في الحين على الشذوذ إياي وإياه، فلعل السيد لنفسه هياء، والنظرة الأولى كما علمت معفو عنها، وإذا سمح قدرك العالي بالمداعبة فهذا منها والسلام.

فراجعته بقولي: أبقاك الله لطفة تجليها، وبنات أفكار بدر نشارك تجليها، ونادرة تردفها بأخرى تليها، تلك رياض تفتحت عن أزهارها أكمام، ولات حين للأزاهر إمام، هذه يقظة أو منام، عهدي بالرياض لم ينتج الآن شمام، أو ذاك مسك فض عنه ختام، تحيرت في ذلك أظنه سحرا أجل نفث به حبر وإن شئت بحر فخذ عن إمام، إمام تجملت بطلعته الأيام، وتجمعت له شوارد العلوم فتسنى له بعد تفرقها التثام والتمام، أما الأدب فهو بعض بعض فنونه، ورشوحه من معين أنهار عيونه، أما تراه قدوة للأنام حل من درى المعقول والمنقول حيث لا محل للمحلى، وأربى فيما أبدع من البدائع على بدائع الحلي، أليس معدودا في إحراز السبق في مرتبة لو كانت قبل المجلى، وأما ذكائه فشهاب يتوقد، وألمعية في كل آونة تتجدد، فقد غذا إياس عن إدراك شأوه ذا إياس، عذبت مفاكمته وعلمت مشاكهته، / 325 / رمى بسهمه في أغراض المداعبة فقرطس، واستخرج من لجج بحارها من

الغرائب ما أعجز من غطس، ما ألطفه تشبيها يشهد للمشبه بأن له شبيها، في ذكر القلانس والخطيب، فقد همصرت من أفنان البلاغة كل غصن رطيب، وما أحلى منازعك علوت منازعك، ولو حضر لأذعن لك ابن الخطيب، وقد وصف سيدي ما استحسّن من المجلس والساق، وساق ذلك أحسن مساق، فأبدع ما شاء في تناسب واتساق، وأحكام المبنى وتسديد اللفظ لغرض المعنى، والخروج من معنى لآخر حيث لا شعور للسامع، شاغلا له ببوارق سحرك اللامع، غير أن سيدنا يسر حسوا في أرتغا وما أدري ما الابتغا، فقد رأيت راجع الالتفات لاستدراك ما فات، وللنظرة وحدها استنزر ولصيده في جوه حلق واستنسر، وذكر أنه ما أعرض عنه إلا لتوهمه أنني هيأته لنفسي فاستأثرت به و إلا لألحفه بثوبه، فإن كانت المثابة العلية ممن يقنع بنظرة وإن أعقبت حسرة وتمذهبت بمن قال:

وهويته يسقي المدام كأنه قمر يطوف بكوكب في مجلس
فقد استوفى حظه وأنال مراده لحظه، وليكتف بذلك أدام الله حفظه، ولم تبق له منة في استبقائه، حيث استقصى الشمائل الناشئة عند المعاطاة من تلقائه، وإن لم يقنع بذلك المقدار من التغزل، وأراد من غلع العذار كمال المرام من التزل، وتمذهب بقول الآخر:

وضممته ضم البخيل لماله أحنو عليه من جميع جهاته
/ 326 / فلا ملام على اغتلام، فالمجلس والغلام مع كمال المرام، ولعل بتيسر الجمع تجودكم عند الانفصال غمام، هذه دعابتي بعثت بها إلى محل كمالك، وعظيم جلالك ثقة ببرك ورحيب صدرك، واعتمادا على تحملك للمداعب وإغضائك عن المعاييب، فاغض أبتاك الله واسمح وبعين الصفتح والتجاوز فالمح.

فكاتبني بما نصه:

سيدي أدام الله لك السعادة، ولا قطع عنك من الإنعام ومزيد الإكرام، كما لم تقطع عادة، إن هذه النفوس كما جاء تصدى كما يصدى الحديد، فتأكد لذلك صفائتها التي هي لنورها كالتجديد، وإن عما اتفق عليه

رؤساء الحكماء، وأطبق معهم نجباء العلماء، أنه لا بد لها من رياضة، إذ التدرّج حكمة هذا العالم وإن كانت القدوة فياضة، وصاحب القصر يهوى قبابه وتارة رياضه، ويستحسن من أزهارها المختلفة ما خالطت حرته بياضه، ولذا قيل:

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال
كما قيل أيضا:

تنقل فلذات الهوى في التنقل ورد كل صاف لا تقف حول منهل
وفي المعنى:

أفد طبعك المكدود بالجد ساعة بلهو وعلله بشيء من المرح
البيتين. وقد علمت أعزك الله أن اللذة انبساط باختلاس، وأكمل
اللذات استنباط حكم همم الجلاس، لأن همة المرء ميزان عقله وبرهان /
327/ فضله، وأكثر ما تظهر في قوله، المرء مخبّر تحت لسانه، وقد كان من
تقدم من الكبراء والأمراء والوزراء يستعملون جل أوقاتهم في هذا المعنى،
يولعون به ويعنون أجل بذلك يولع وبه يعنى.

وأذكر الآن من ذلك ما حكاه الثعالبي في يتيّمته، وقد ذكر القاضي
التنوخى فقال: وكان كما قرأت في فصل للصاحب، إن أردت فإني سبعة
ناسك، أو أحببت فإني تفاحة فاتك، أو اقترحت فإني مزرعة راهب، أو
آثرت فإني نخبة شارب، إلى أن قال: وكان من جملة القضاة الذين ينادمون
الوزير المهلبى، ويجمعون إليه في الأسبوع ليلتين على أطراح الحشمة
والتبسط في القصف والخلاعة، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها مثل
المهلبى، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولد السماع، وأخذ الطرب منهم
مأخذه، وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة
والطيش، إلى أن قال: وعليهم المصبغات ومخائق البرم وفيهم يقول السري:

مجانس ترقص القضاة بها إذا انتشروا في مخائق البرم.
وإذا أصبحوا عادوا لعاداتهم في الترهيب والتوقر والتحفظ، وأبهة
القضاء وحشمة المشايخ الكبراء.

وإنك أسعدك الله لمن فرسان هذا الميدان، ولك فيه بحمد الله يدان،
 بل أنت أعلى علما وعقلا وكرما وفضلا، فوق المعروف والمقول في ابن
 معروف، شجرة فضل عودها أدب، وأغصانها علم وثمرتها عقل وعروقها
 شرف، تسقيها سماء الحرية وتغذوها أرض المروءة، لأن الإغتيباط إنما يكون
 عند الأعواز وليس في المعتاد إعجاز، فمن لا توجد / 328 / هذه المعاني
 والمعالي في زماننا إلا عنده، فهو كموحد الفترة الذي يبعث أمة وحده، وما
 كنت أظن الأيام تنتج عن عقم، أو تشفى مما كان بها من السقم، حتى طلع
 نجم سعدك في أفق مجدك، فأشرق إشراق الغزالة والقمر ذي الهالة، فله
 أنت في القبة اليمنى، سعادة لك ويمنا، وجه متهلل بالبشر متجمل لا
 متبرم ولا متملل، ولسان يلفظ بالجواهر الحسان وبانجمنان في أخبار الزمان،
 فإذا أمرت برمز الحاجب لا بالكلام، انتمر لأمرك ذلك الغلام المقارب
 للاحتلام.

سيدي كيف تجدك إذا اهترت أعطافه، وارتجت أردافه تشابهت أوصافه،
 فتمايل قده وتسایل خده، لاريب أن ما بالقلب من الخور، هو مما في عينيه
 من الخور، وأنه إنما ذاب من ذبول الأهداب، أو من تراءى لغره على غرة،
 لكنه بالشفة يشفى فلمى ثغرها غسل مصفى، وجواهره أنقى من البرد،
 وأصفى ما أبردها على الكبد للمنفرد المستبد،

كيف يسلو الذي تعشق أغير صيد فاصطاد وهو قد كان أصيد
 إن طرفي جنى علي ولم أجن من الروض وجنة تتورد

كما قلت لا أعود إلى العشق ابتليت
 ولكن السعود أحسمد
 ها أنا مغرم به فاعذروا أو فاعذلوا فالمحب دأبا يفتند.
 وكتب أبياتا أخرى مداعبا، مشيرا لقولي في الرسالة التي قبل هذه: فلا
 ملام على اغتلام إلى آخره:

يا كريمًا عز وصفًا وعظيمًا جل ألفًا
 329 / أنت أولى بالوفاء من كل من بالسعده وفى

فاجمع الشمل كما قد
إنما ينفع إلف
هكذا المزحة ظننا
إنك المرء احتمالا
فلنكن ساكن بال
كيف لا والشيب عال
لكن الأليق حزم
فاسترب من يستزكى
فأجبتة بقولي، مضمنا حكاية
الطيور كي يصيدهم، مظهرا شحوبه

أحكم السواضع ووصفا
بمعسان لمعان
شافعات لغرام
قائلات خاتلات
أكسد الختل بقلول
فاسترب من يستزكى
وفيه توريعة
فتذكر قول شيخ
إذ أتته حائلمات
/ 330 / وانكسارا وشحوبا
أترى أني غرر
أترى أنك سعال
فإذا عاطتكم راح
تضع الأسرار في القلب فما تنفعك رصفا

فإذا صار أمساما
كيف ترجون سلوا
ذا محال ذا مسججال

بهت أكرم صاح ضيفا
إلفه في ذاك عرفا
بلى يقينا بك يلفا
شأنها عندك خفا
ذو النهي إن هم عفا
رأسه والماء جسفا
يومن المحذر خوفنا
واحذر المألوف ألفنا
تحكى على لسان حال الفخ في خدعته
حتى يتمكن منها:

وسقى روحى صرفا
قربت لسلح زلفا
أكسب الأعضاء رخفا
ذو النهي إن هم عفا
نسف الأوهام نسفا
واحذر المألوف ألفنا
إذ قلب خف فخا
قلبه للصيد خفا
فأراها منها ضعفا
والفرصة خفا
لم أر في الحرب زحفا
عن غزال رق ظرفا
منه راحا رق ظرفا
تضع الأسرار في القلب فما تنفعك رصفا

صارت الأرداف خلفا
ذاتكم بالحب عجفا
أدهش الأبطال خرفا

أذعنوا للأسر قسرا
دع بننيات السطريق
واغتنم ساعات أنس
لا يرى للصب شيء
(دمت في عيش هني
رافعا في كل حين
لفظوا ترسا وسيفا
واسلك الجد جد تشفى
واخطف اللذات خطفا
من رضى المحبوب أشفا
لا ترى في الدهر عنفا
عن حبيب القلب سجفا)⁽⁴⁹⁴⁾

وقد آن أن نطلع عن الهدر والهزل، وما جلبناه من حطبه الجزل، وما فات منا رسمناه فقصدنا به علم الله لقارئه التأنيس، لا تمذهبا بمذهب إبليس، والله تعالى ولي المغفرة في الدنيا والآخرة، ونلجأ إلى الله تعالى بالأوبة، ونضرع إليه في قبول التوبة وغفران الحوبه، وأن يفرج عن النفس بحط أثقال أوزارها كل كربه، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضى، ليكون ذلك عنوان الرضى وعلامة عفوه عما مضى، / 331 / إنه ولي ذلك بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

وها أنا أقف مواقف الخجل والتقصير، وأضرع إلى الله العلي الكبير بجاه البشير النذير⁽⁴⁹⁵⁾، أن يجعله حججا مبرورا وسعيا خالصا مشكورا، وعملا صالحا متقبلا في دفاتر أعمالنا مرسوما، ونرغب إلى من كسبه أو كتبه، أو قرأه أو طالعاه أو تأمله أو راجعه، من إخواننا المؤمنين وأوليائنا الموقنين، أن ينظره بعين الرضى والتجاوز والصفح والإغضاء، لا بعين الانتقاد والاعتراض والسخط،

واعلم بأنك إن طلبت مهذبا رمت الشطط
وأن يخلصوا نياتهم في التأمين على هذا الدعاء، إن أعمل كل منهم شفاعتنا إليهم في ذلك ورعا، اللهم أهلنا ومالنا وأهلنا وبالننا حسن العاقبة وحسن العافية، وحنانك وحنانك وخيرك وجبرك، واسترنا ولا تسبرنا وكن لنا كلنا وتولنا، ونولنا من أثقال الأنفال لا أنفال الأثقال ما تسرنا وتسترنا

(494) سقط هذان البيتان من (أ) ووردا في (ب).

(495) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

به، ولا تحرمنا فتخرمنا أو تعوقنا فتفوقنا رفقاؤنا ورقباؤنا، بحق فضلك
وفضل حقك، آمين آمين، وأختم ذلك بقول بعض الموفقين وعباد الله
المتقين، في مدح رسول رب العالمين وخير خلق الله أجمعين:

إن كنت تسئل أين قد	ر محمد بين الأنعام
فأصغ إلى آياته	تظفر برأيك في الأوام
أكرم بعبد سلمت	تقديمه الرسل الكرام
/ 332 / في حضرة للقدس وا	فأهبا بعز واحترام
صفوا وصلوا خلفه	إن الجماعة بالإمام
للشهب نور بين	والفضل للقمر التمام
سلك النبوة باهر	وبأحمد ختم النظام
هذا الكتاب دلالة	تبقي إلى يوم القيام
شهدت له من بعد عجز ألسن اللد الخصام	

خير الورى وأجل آيا ت نه خير الكلام
فعمله من رب الورى أزكى صلاة مع سلام
اللهم اختم لنا بما ختمت به لأحبائك، وقربنا من أعتابك ولا تطردنا
من بابك، وتجاوز عنا يوم الجزاء والحساب، وهب لنا من لدنك رحمة إنك
أنت الوهاب، واكفنا أمر الدنيا وأحوالها والآخرة وأهوالها، ووفقنا لما
ترضى به عنا، ولا تواخذنا إن نسينا أو أخطأنا، واحشرنا مع الذين أنعمت
عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا،
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ورحم عبدا قال آمين.

وكان الفراغ من تبويضها منتصف ذي الحجة
من شهور سنة اثنتين ومائتين وألف.

تمت الرحلة

ملحق ١

التقريظ الأول :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله، ولكاتبه عفا الله عنه
محمد العربي ابن اسماعيل الناصري، في أواخر جمادى الأولى بمكناس سنة
1210.

أضحت ينابيع علمك تتفجر
عن وصفها لسن الفحول تقصر
مسكا ذلائله نفيسا عنبر
فكأن ماء الورد منها يقطر
الفن البديع عليها وشيا أحمر
يبدو في ثوب أخضر ومعصر
وينصرحي الدين أبدت تخبر
فشموسها عن وصفها لاتضم
كل العلوم في صدره تنقرر
ينبئك عنه ما تراه يسطر
مر الليالي بها الزمان يفخر
مرقي الافاضل للمحاسن تنشر

لله درك يابن عثمان الذي
في رحلة جمعت علومها جمة
فكأنها الدر النفيس مضمخ
أو أزاهر البستان ترفل في الحلي
أو روضة تزهر في فرط بلاغة
وغدا البيان يغني في أرجائها
شربت من كل زلال علم حكمة
إن الرحال وإن تقادم عصرها
كيف لا وواضعها المرفع في الوري
ذو وزارة وفصاحة ونباهة
أكرم به من نشئة تسمو على
لا زالت يا فخر الكمال ترتقي

التقريظ الثاني :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم،
ولكاتبه عبد الله تعالى موسى بن محمد المكي الناصري لطف الله به آمين.

لسله رونق رحلة نبوية
جمعت من الآداب ما أنست به
فالعبدري وإن تقدم تاجه
فيها من التاريخ روض زاهر
مدنية مكية قدسية
تنبي فصاحتها ورقة لفظها

طرز ابن عثمان الهمام حلاها
رحلا بأنس فصاحة مبنائها
يسعى حلى الدر من معناها
ومن المناسك ما كفى فتنائها
ما ضل من جعل الطريق هداها
بعلوم جامعها الذي أنشأها
فرد الزمان وأوحد البلغاء والسوزراء من للعلم حاز الجاهها

كم كربة بركابه وبرويه
قاله يبغي حاله مترقيا

عن ملة حنفية جلاها
أوج العلا متمكنا برباها

التقريظ الثالث:

ولكاتبه عفا الله عنه^(١)

حاكت على نسج البديع مطارقا
لو حاك البلوي فرائد سرها
وإذا الحجيج غدا يقضي مناسكا
لا غرو إن كان ابن عثمان الذي
سبقت له قدما مفاخر رتبة

تغشي المحاجر من بريق حلاها
أغنائه عن شفق المغيب ضحاها
نال البرور برصد نجم هداها
أنشأها فردا في المعالي تنهاها
ضاءت بها قنن العلا ورباها.

(١) لا ندري بالضبط أي مؤلف يحيل عليه ابن عثمان، إذ وقفنا في كشف الظنون على أربعة كتب تحمل نفس العنوان المختصر وإن كنا نرجح أولها:

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للشيخ أحمد بن محمد الفيومي، والمصباح المنير في شرح الصلاة على البشير النذير لشهاب الدين البلقيني، والمصباح المنير والمرشد للعبير في المسير فيما يتعلق بالحج والموَجِر والأجيب لكمال الدين محمد بن زياد الوضاحي، والمصباح المنير في علم التفسير لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن أحمد الديري.

ملحق ٢

المسار التفصيلي للرحلة

جدول بمراحل سفر ركب الحج العثماني من أسكدار إلى مكة

ملاحظات	مدة الاستراحة	مدة السير	نقطة الوصول	رقم الرحلة
تاريخ الخروج من عدوة إستانبول 25 رجب / 18 ماي 1787	1	قرطل	1 بقية اليوم	4
غالباً ما يستريح الركب بقية اليوم الذي يصل فيه ليغادر ليلاً أو في الصباح الباكر	5 س.	كيزة	2	1
1	2 س. + 2 س. ونصف مدة العبور	3	خارسك كوي بعد عبور خليج دبل سغال	
1	5 س.	كاور كو	4	
1	6 س	جترنك	5	
1	5 س	لنك	6	
1	4 س	خان الوزير	7	
1	7 س	مدينة السكوت	8	
أول محطة استراحة للركب بين إستانبول والشام	9	2 يومان ونصف	10 س	
1	9 س	سيدي الغازي	10	
1	8 س	خصرم باشا	11	
1	5 س	بياض كوي	12	
1	8 س	بلودم	13	
1	12 س	مدينة أخ شهر	14	

15	إلغين	9 س	0	الرحيل بعد منتصف الليل
		16	اللاذق	1 9 س
17	قوبه	10 س	2	ثاني منزلة للاستراحة
18	إسمل	11 س	القبيلولة	منطقة صحراوية كثيرة الرياح
		19	قرينار	قبيلولة 9 س و30د
		20	أركلة (كنك شام)	قبيلولة 11 س
		21	وادي قشلة	1 9 س
		22	شفت خان	1 6 س
		23	أوابل	1 8 س
		24	الشاقلط	1 8 س
25	مدينة أذنة	8 س	1	ثالث محطة للاستراحة
6 س	1			الخروج ليلة يوم الوصول كما هو دأب الراكب في كل المراحل
				المصبصة 26
		27	قرطقراط	1 7 س
		28	يلاس	1 10 س
		29	بيلان	1 8 س
30	أنطاكية	12 س	2	رابع منزلة للاستراحة على طريق الشام
		31	الزريق	1 11 س
		32	جسر الشفر	1 6 س
		33	قلعة المضيق	1 10 س
34	حماة	10 س	2	خامس محطة للاستراحة
		35	رستن	1 ؟
من شروق الشمس إلى عشيبة نفس اليوم، والغريب أن ابن عثمان يروي عن قيامه بزيارات كثيرة، بحيث يتساءل المرء كيف تبنى له ذلك وهو متعب. 1 ؟				
				36 حمص

			8 س	ضبعة اخسية	37				
			10 س	النبق (قرية)	38				
			8 س	النطيفة (قرية)	39				
40	دمشق	8 س	38	غادر الרכب دمشق بتاريخ 19 شوال					
			5 س	ذو النون (قرية)	41				
			6 س	الصنمين (قرية)	42				
10		6		محطة للقيام بإجراءات كراء الدواب والتعاقد مع القيمين على خدمة الحجاج					
				مزيرب	43				
			8 س	الرمثا	44				
			8-10 س	الفرق	45				
			12 س	وادي الزرقا	46				
			5 س	خان الزبيب	47				
			17 س	البلقا	48				
			12 س	وادي النسر	49				
			18 س	فطراته (قرية)	50				
			18 س	بوغاز الحسا	51				
			؟	قلعة عترة	52				
53	معان	7 س	3	المنزلة الثانية بين الشام ومكة					
			18 س	العقبة (مضائق)	54				
			12 س	قلعة المدورة	55				
			10 س	قلعة ذات حج	56				
			12 س	الفاع	57				
			12 س	تبوك	58				
			12 س	ظهر مفر	59				
60	الأخضر (قلعة)	10 س	1	التزود بالماء ما يكفي مسافة 3 أيام					
			15 س	مكان غير معلوم للتزود بين جبال	61				
			16 س	قلعة الحمراء	62				

1	23 س	مدائن صالح	63		
1	؟	سهل المطران	64		
1	21 س	البئر الجديد	65		
1	20 س	هدية	66		
1	12 س	الفحلتين	67		
1	15 س	آبار ناصف	68		
3	؟	جبل سلع بظاهر المدينة	69		
1	2 س	ذا الحليفة (بيار علي)	70		
نصف يوم	16 س	الشهداء	71		
نصف يوم	15 س	قرية الجديدة	72		
التقاء الركب الشامي والركبين المصري والمغربي.	1			15 س	بدر
73					
15 س	القاع	74			
ميقات الركب الشامي بالقرب من ساحل البحر الأحمر.	2			20 س	دايع
75					
1	؟	قليد	76		
1	8 س	خليص	77		
1	13 س	سبل الجواخي	78		
وصل الركب إلى مكة بتاريخ 7 ذي الحجة 1201 الموافق لـ 20 شتير 1787				20 يوما	12 -
س	مكة	79			
مراحل الرحلة بين دمشق وعكا وجولته في فلسطين					
ملاحظات	مدة الاستراحة	مدة الرحلة	نقطة الوصول	رقم الرحلة	
الخروج من دمشق 9 ربيع 2- 1202	1 يوم	1 س ونصف	قرية المرة	1	
1	10 س	قصبة سمع	2		
1	5 س	خان الأرنب	3		
1	9 س	خان الجسر	4		
1	5 س	خان بجانب بئر يوسف	5		
1	5 س	قرية الرمة	6		
9	6 س	عكا	7		

1	6 س	مضارب بدو قرب ضريح الشيخ إبراهيم الزعبي	8
1	7 س	قلعة سنور	9
1	4 س و 1/2	نابلس	10
1	10 س	البيرة	11
2	2 س و 1/2	القدس الشريف	12
13	6 س	الخليل	13
2	6 س	القدس	14
1 (المبيت)	؟	قرية سنجيل	15
1 (المبيت)	؟	قلعة سنور	16
الإقامة في عكا إلى غاية 27 ربيع الثاني بقصد الإبحار نحو المغرب عبر مرسيليا.			
؟	عكا	17	
مراحل الرحلة البرية من تونس إلى فاس			
ملاحظات	مدة الاستراحة	مدة الرحلة	نقطة الوصول
الخروج من تونس في 3 رجب 1202	1 يوم	5 س	بلدة تبربة
1	6 س	مجاز الباب	2
1	4 س	بلدة تسر	3
1	4 س	قرية نبرسق	4
1	7 س	القنطرة موضع على وادي	5
يشير ابن عثمان إلى أن هذه البلدة هي حد إفريقية			
الكاف	6	1	4 س
1	8 س	عين الزرقا	7
1	7 س	تفش (موضع)	8
1	8 س	مرج كحيل (موضع)	9
9 س	مهيرز (موضع)	10	
7	4 س	قسنطينة	11
اللائت أنه بعد الخروج من قسنطينة لم يعد ابن عثمان يفصل في مراحل الطريق			
11 يوما	الجزائر	12	2

المبيت بوجدة 1 12 يوما تلمسان 13 وجدة (قرية) 14

الظاهر أن ابن عثمان استعجل الوصول بحيث أغفل ذكر مراحل الطريق، وكان دخوله فاس في آخر يوم من شعبان من سنة اثنين ومائتين وألف .

فاس ؟ 15

ملحق حول الجائزة

جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي 2003

جائزة سنوية تمنحها "دار السويدي" لأفضل الأعمال المحققة في أدب الرحلة والمؤلفات الجغرافية العربية والإسلامية قديماً، ووسيطاً، وحديثاً (من نهايات القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين) ولأفضل كتاب جديد في أدب الرحلة المعاصرة

في إطار مشروع "ارتياح الآفاق" الذي أطلقته "دار السويدي" من أبو ظبي وبيروت قبل عامين تعلن الدار، وهي مؤسسة ثقافية عربية غير ربحية، عن نتائج (جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي) التي تأسست مطلع عام 2003 وتمنح سنوياً لأفضل الأعمال المحققة في أدب الرحلة، وجاءت انسجاماً مع طموحات الدار في إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي.

فاز بالجائزة في دورتها الأولى سنة 2003 ثلاثة من المحققين المغاربة هم د. محمد بوكبوط، ود. سعيد فاضلي، ود. عبد الرحيم مودن، والشاعر العماني محمد الحارثي.

وقد اثبتت الجائزة في دورتها الأولى التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة، من جهة، وإلى تشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم في السفر. فضلاً عن ترجمة التراث الإنساني في أدب الرحلة الموضوع في اللغات الأخرى.

تهدف الجائزة إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في هذا

الميدان الخطير والمهم، وإيماناً من "دار السويدي" بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز، وتكريساً لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية، وإخراجه إلى النور، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان، والسفر فيه، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي، لم ينل اهتماماً يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات.

أهمية هذا المشروع تتزايد في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنّها العرب والمسلمون عن "الآخر" في مختلف الجغرافيات التي ارتادها رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم عنها، وعن التصورات الخاصة بالعرب عن الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري .

لجنة التحكيم

تشكلت لجنة التحكيم من 5 أعضاء هم د. شعيب حليفي (المغرب)، د. محمد لطفي اليوسفي (تونس)، الشاعر علي كنعان (سورية) د. شاكر لعبي (العراق)، د. عبد النبي ذاكر (المغرب). وبلغ عدد المخطوطات المشاركة 22 مخطوطاً جاءت من 7 بلدان عربية، توزعت على الرحلة المعاصرة بصورة أكبر وعلى المخطوطات المحققة بصورة أقل. وقد جرت تصفية أولى تم بموجبها استبعاد الأعمال التي لم تستجب للشروط العلمية المنصوص عنها بالنسبة إلى التحقيق، واستبعد ما غاب عنه المستوى بالنسبة إلى الجائزة التي تمنحها الدار للأعمال المعاصرة. وقد نرعت أسماء المشاركين من المخطوطات قبل تسليمها لأعضاء لجنة التحكيم لدواعي السرية وسلامة الأداء، وجاءت النتائج على النحو التالي :

المخطوطات الفائزة

- . مخطوطة لا تقل صفحاتها الأصلية عن 200 صفحة:
فاز بها مخطوط رحلة "إحراز المعلى في حج بيت الله الحرام" 1785 لمحمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي. قام بالتحقيق د. محمد بوكبوط (المغرب)
- . مخطوطة لا تقل صفحاتها الأصلية عن 150 صفحة:
فاز بها مخطوط "الرحلة الأوروبية" 1919 لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي. قام بتحقيق المخطوط د. سعيد فاضلي (المغرب).
- . مخطوطة لا تزيد صفحاتها الأصلية عن 100 صفحة:
وفاز بها مخطوط "الرحلة التتويجية لعاصمة البلاد الإنجليزية" 1902 للحسن بن محمد الغسال. قام بالتحقيق د. عبد الرحيم مودن (المغرب).

جائزة الرحلة المعاصرة

أما جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة، وهي جائزة تمنحها "دار السويدي" عن أفضل كتاب في أدب الرحلة يضعه كاتب معاصر فقد فاز بها الشاعر العماني محمد الحارثي عن كتابه "عين وجناح- رحلات في الجزر العذراء، زنجبار، تايلاند، فييتنام، الأندلس، والربع الخالي".

توزيع الجوائز في المغرب

صدرت الرحلات الثلاث في سلسلة "ارتياح الآفاق" والرحلة الرابعة في سلسلة "سندباد الجديد"

ومن المنتظر أن توزع الجوائز في احتفال يقام في الرباط خلال ندوة "الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر-المغرب منطلقاً وموتلاً" التي ستعقد في أيام 14-15-16 نوفمبر المقبل ويشرف عليها كل من "وزارة

الثقافة المغربية" والمشروع الجغرافي العربي "ارتباد الآفاق" في أبو ظبي،
ويشارك في أعمالها عدد كبير من الأكاديميين والدارسين في حقل الأدب
الجغرافي وتحمل هذه الدورة التأسيسية للندوة اسم دورة ابن بطوطة. وتأتي
الندوة في إطار احتفالات الرباط عاصمة الثقافة العربية. وستسلم الجوائز
بحضور الفائزين.

لم يكن مفاجئاً لـ "دار السويدي" ومشروع "ارتباد الآفاق" أن يأتي فوز
المخطوطات الثلاث بالجائزة من المغرب، فالمغرب أخرج ابن بطوطة والمغاربة
الحاليون هم من سلالة هذا الرحالة العظيم. وفي الأساس يمكن رد الأمر
إلى النشاط الملحوظ للدارسين والأكاديميين المغاربة في أقسام التاريخ في
الجامعات المختلفة في المغرب، وأيضاً إلى تمتع هؤلاء بوعي استثنائي للأهمية
التي يشغلها حقل الأدب الجغرافي. فضلاً عن تبنّيهم مناهج حديثة في قراءة
النصوص والظواهر التي تتكشف عنها.

قبول الطلبات للدورة الثانية للجائزة

يفتح باب قبول الطلبات للمشاركة في الجائزة بدءاً من شهر أيار / مايو
من كل عام، ويستمر مفتوحاً لـ 8 أشهر، ويقفل مع مطلع كانون الثاني/
يناير من كل عام. ومن شروط الاشتراك في الجائزة:

- أن يكون النص محققاً وفق قواعد التحقيق العلمية المعتمدة في الأوساط
الأكاديمية.
- تقبل المخطوطات التي هي رسائل أكاديمية لنيل درجات علمية.
- من حق الجهة المانحة للجائزة إجراء التعديلات الفنية التي تراها مناسبة على
النص الفائز ليتوافق وصيغة النشر المعتمدة من الدار بالاتفاق مع المؤلف أو
المحقق.
- أن يرسل النص في نسخة ورقية واحدة مرفقة بنسخة إلكترونية.
- تستقبل النصوص على عنوان "دار السويدي" في أبو ظبي ص.ب
44480 أو على البريد الإلكتروني:

وتقبل طلبات المشاركة حتى موعد أقصاه 3/1 من كل عام.

جائزة للدراسات

وقد قررت "دار السويدي" استحداث جائزة خامسة تمنح سنوياً للدراسات الموضوعة في حقل الأدب الجغرافي.

قطوف من آراء لجنة التحكيم

في المخطوطات الثلاث الفائزة والصادرة في هذه السلسلة

* رحلة المكناسي 1785

إحراز المولى والرفيق

في الحج إلى بيت الله الحرام

وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب

محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي

تحقيق د. محمد بوكبوط

* د. شعيب حليفي

عن الرحلة

العناصر التي تبرز أهمية وقيمة هذا النص متعددة لكون الفترة التاريخية وخط سير الرحلة عاملين أساسيين وحاسمين، إذا ما أضفنا عنصراً ثالثاً يتمثل في مؤلف الرحلة ابن عثمان المكناسي، السفير الأديب الذي يملك رصيдаً ثقافياً هاما وحنكة دبلوماسية.

عن التحقيق

المحقق كان صائباً في مرحلتين: تحقيق النص وضبطه ثم التقديم له وبناء جسور دقيقة ومتينة لفهمه والتواصل معه. والمقدمة التي مهدت للتحقيق كانت جيدة تتم عن دراية شاملة.

* د. محمد علي اليوسفي

عن الرحلة:

يستمد هذا العمل قيمته الفكرية والأدبية والتاريخية من كون المؤلف لم يكتف بوصف الأماكن والأمصار التي زارها بل وسع دائرة الجنس الأدبي الذي يكتب فيه أي الرحلة. فهي سياحة في المكان والفكر معاً. فقد ضم النص آراء وتأملات فكرية وأدبية.

عن التحقيق

تمكن المحقق في المقدمة التي وضعها من الإحاطة بتغريبه الكتاب وتغريبه منتجه إذ كشف عن الغبن الذي تعرض له طيلة أحقاب ظل الكتاب خلالها يقتبس إلى النهب دون ذكر له أو لمؤلفه. في حين ينهض هذا التحقيق على دقة علمية واضحة، وحرص على التمسك بالضوابط الأكاديمية.

إن إخراج كتاب "كتاب إحراز المعلى" من العتمة إلى ضوء النهار من شأنه أن يثري المكتبة العربية ويرد الاعتبار للنص ومنتجه. وهذا العمل يستحق فعلاً أن ينال الجائزة التي رشح لها عن جدارة واقتدار.

* أ. علي كنعان

عن الرحلة

عمل جدير بنيل الجائزة لعدة أسباب، منها: أنها من كنوز الخزانة المغربية المكنونة في مخطوطات لم تنشر من قبل، وهي ترصد مرحلة هامة من تاريخ الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر خلال الصراع العثماني الروسي.

عن التحقيق

يبدو جهد المحقق جلياً وكبيراً في دراسة النص وفحصه، بنسخته (أ) و(ب)، وتعليق حواشيه وإلقاء مزيد من الضوء على حياة المؤلف ومكانته

العلمية والدبلوماسية (...) وتقضي مختلف الإشارات والدراسات القديمة والحديثة التي تناولت هذا النص كلياً أو جزئياً.

* د. شاكراً لعبي

عن الرحلة

عنصران قويان يمنحان هذه الرحلة قيمتها الأدبية والأرشيفية، الأول: يتعلق بالمساهمة السياسية الكبيرة لمؤلفها في صنع الأحداث في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. والثاني: الثقافة العالية للمصنف ودقة ملاحظاته ورصوداته.

عن التحقيق

سعى المحقق بقدر كبير من المهارة والدقة والمنهجية في إخراج العمل بأحسن الهيئات الممكنة. فقد نقّب وتابع أسماء الأعلام الواردة في نص المخطوطة ووثقها وعاد التحقيق منها، كما عاود التأكد من الكلمات غير العربية التي يستخدمها المؤلف بما كان شائعاً في عصره بتأثير الهيمنة التركية كالقشلة والأكراك وأركلة.

* د. عبد النبي ذاكر

عن الرحلة

قيمة هذه المخطوطة تكمن في كونها رحلة شاملة إلى حد ما، جمعت بين الرحلة الحجية والزيارية والسفارية (...) صاحب النص دبلوماسي مغربي محنك ينتمي لأواخر القرن الثامن عشر، راسخ القدم في أدب الرحلة يشهد لذلك تصنيفه لرحلتين أخريين.

عن التحقيق

تحقيق علمي أكاديمي رصين، نهض على التعريف بأهمية المخطوط،

وقيمة صاحبه، وسرد منهج التحقيق المتمثل في المقابلة بين نسختين مخطوطتين.

* الرحلة الأوروبية 1919

محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي
حققها وقدم لها د. سعيد الفاضلي

* د. شعيب حليفي

عن الرحلة

هذا النص الرحلي شهادة متعددة الأوجه والقراءات عن طموح العالم إلى مستقبل بدون حروب، واستمرار ارتباط أوروبا بمستعمراتها. من جانب آخر تبرز الرحلة بجلاء وجهة نظر صريحة من طرف مؤلفها الحجوي، المثقف السياسي المتفتح، ووعيه الداعي إلى الاقتداء بحدثة الغرب.

عن التحقيق

جيد على كافة المستويات ويحترم قواعد التحقيق خصوصا وأنه معزز بالهوامش الشارحة والتعليقات المفيدة والمفسرة فضلا عن التقديم والفهارس المدققة.

* د. محمد لطفي اليوسفي

عن الرحلة

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى كون مؤلفه مغربي من عملاء الاستعمار الفرنسي. حتى أن المغاربة امتنعوا عن الصلاة في المكان الذي دفن فيه. الكتاب يمثل من هذا المنظور وثيقة فكرية وتاريخية هامة. إنه يتنزل في صميم ما يمكن أن نعتة بالخطاب الاستشراقي العربي الذي يرى في الغرب دار السعادة القصوى ويحرص على استنساخ القيم الغربية والحضارة الغربية وجعل الشعوب العربية تنجل بانتمائها الحضاري فتسعى إلى تبديله.

عن التحقيق

مقدمة التحقيق علمية على نحو صارم ثمة ضبط علمي للهوامش فهي حافلة بما يجعل منها دليلاً مهماً يسر القراءة على القارئ. عمل جدير بالتقدير وبنيل جائزة عربية.

*أ. علي كنعان

عن الرحلة

أهمية هذه الرحلة نابعة من أهمية المرحلة التاريخية التي ترصدها في أعقاب الحرب العالمية الأولى، فضلاً عن المكانة السياسية والأدبية لكاتبها وهاجسه التنويري.

عن التحقيق

المحقق درس النص بآناة بالغة وعلق حواشيه وأوضح خفاياه بشروح مستفيضة وعرف بالأعلام الجغرافية والتاريخية، فأضفى عمله على الرحلة أهمية كبيرة.

*د. شاكر لعبي

عن الرحلة

تقدّم هذه الرحلة مسحاً لأجزاء كبيرة من فرنسا في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى. تقدم الرحلة بحثاً عن أسئلة تنويرية ونهضوية ملتبسة، ويتقدّم الحجوي لهذا السبب بوصفه حالة رمزية لحيرة العالم العربي الإسلامي الخاضع للاستعمار. هذه الرحلة تضيء تلك المنطقة الحرجة بين استشرافات المثقفين المغاربة لمعارف اللحظة وبين طموحاتهم، بل مصائرهم الفردية.

عن التحقيق

التحقيق هو من الدقة بمكان، ويتبع المنهج العلمي في تحقيق

المخطوطات، مصتححاً الكثير من هفوات وعثرات التحقيق الأول، مُضيفاً إليها عناصر جديدة من أجل إضاءة النص بنور جديد والتعريف بمصادر مؤلفه الأدبية والثقافية والمعرفية.

* د. عبد النبي ذاكر

عن الرحلة

قيمة هذه الرحلة في كون صاحبها مثقف من عيار كبير، له نصوص رحلية أخرى. فالرحلة في حد ذاتها رؤية فقيه متنور للآخر في مطالع القرن العشرين، يتمتع بدقة الملاحظة وحصافة الرأي وحسن التفهم، دون أن يشبه عن انتقاد الذات والسخرية من تخلفها، في لغة هادئة مسترسلة، وأسلوب لا تصنع فيه.

عن التحقيق

تتجسد قيمة هذا التحقيق في إلقاء الضوء على شخصية الحجوي الثعالبي المثقف والسياسي. ويتميز التحقيق، علاوة على التقديم الموسع والتعليق المستفيض ولائحة المصادر والمراجع، بسرد لائحة شاملة للفهارس.

* الرحلة التتويجية إلى عاصمة البلاد الإنجليزية 1902

الحسن بن محمد الغسال الطنجي
حققها وقدم لها د. عبد الرحيم مودن

* د. شعيب حليفي

عن الرحلة

تجيب قيمة الرحلة لتكشف عن وجهة نظر مغربية/عربية تجاه المجتمع الأوروبي المتمثل في إنجلترا، باعتباره الآخر المتقدم القوي المالك لأدوات التكنولوجيا والتنمية والباحث عن مستعمرات وأسواق.

عن التحقيق

استطاع المحقق عبر مقدمة مفصلة تقديم أفكار خاصة بنص الحسن الغسال من خلال إضاءته من جوانب شتى تضع النص الرحلي [المحقق] ومؤلفه في السياق التاريخي والسياسي والفكري الذي وجد فيه. ويعتبر هذا التحقيق متقدماً على نشر سابق للنص نفسه سنة 1979 بإشراف الأستاذ عبد الهادي التازي.

* د. محمد لطفي اليوسفي

عن الرحلة

مخطوط يجسد ما يمكن أن ننعتة بـ 'أدب الرحلة المضاد' فالمخطوط ينبنى على مقاومة التمثيلات الاستشراقية التي تعج بها كتب الرحالة الغربيين الذين زاروا الشرق وكتبوا عنه نصوصاً تبني صورة دونية للشرق وناسه وحضارته عبر تكريس متخيلات مخترعة.

عن التحقيق

حرص المحقق في طبعته الكتاب على تبيان ظروف كتابة الغسال لمؤلفه. كما حرص أيضاً على تنزيل الكتاب في إطار التاريخ الثقافي المغربي والعالمي. وتبين منطلقات الغسال في مؤلفه مبرزاً بميزات الكتاب داخل أدب الرحلة في الثقافة العربية.

الرحلة تجمع إلى السيرة الذاتية بعداً توثيقاً واضحاً.

* أ. علي كنعان

عن الرحلة:

هذه الرحلة، على صغر حجمها، تكشف الهاجس الحضاري المستنير لمؤلفها وهو يشاهد مظاهر التقدم في مجتمع أجنبي منظم يحتمي بالعلم

والعمل معاً، بينما ما تزال البلاد العربية ترزح تحت ظلمات الجهل والامية والتناحر.

عن التحقيق:

الجهد العلمي واضح في تحقيق النص وتعليق حواشيه، ويتجلى ذلك بدءاً من المقدمة المستفيضة التي أشارت إلى إشكالية النهضة بين "الأنا" و "الآخر" حتى في مسألة اللغة وقدرتها على التعبير، كما أضاءت جوانب متعددة من حياة الكاتب وأعماله.

* د. شاكر لعبي

عن الرحلة:

على الرغم من قصر هذه الرحلة فإنها من المتعة بمكان، لأنها مهيّمة بمشكلة التحديث الذي كان يجابهه العالم العربي الإسلامي، ولأنها مكتوبة بروح من التحرر الذي يهجر قليلاً أو كثيراً فكرة (دار الكفر)، ولأنها كذلك تُظهر حياديةً نسبيةً للغسال مؤلفها.

هذه الرحلة تقدّم فكرة قيمة عن الإشكالية الفعلية لبدايات الترجمة في المغرب العربي.

عن التحقيق:

جاء التحقيق موفياً بالغرض وفق قواعد علمية دقيقة، وتمكنت المقدمة من الإحاطة بالرحالة ورحلته على نحو كاشف.

* د. عبد النبي ذاكر

عن الرحلة:

على الرغم من صغر حجم هذه الرحلة، إلا أنها تعطينا صورة متفتحة عن لقاء عقل عربي إسلامي متنور بمعالم حضارة غربية [إنجليزية أساساً] في البدايات الأولى من القرن العشرين.

عن التحقيق :

قيمة التحقيق تتجلى أساسا في التحقيق اللغوي العامي والفصيح والمعرب من الكلمات الأجنبية. وفي التأطير التاريخي للمتن الرحلي المحقق وتحليله والتعليق عليه ومقارنته بنصوص سابقة (...) ثم تنوير أعلام الأشخاص والأماكن.

كشاف حضاري وفهارس

آيات قرآنية

سورة النور، الآية الآية 35	ص 87، الآية 89
آل عمران، الآية 37	88
آل عمران، الآية 39	89
البقرة، الآية 277	89
فاطر، الآية 41	89
التوبة، الآية 18	89
الرعد، الآية 2	89
التوبة، الآية 108	89
البقرة، الآية 186	89
لقمان، الآية 22	89
البقرة، الآية 144	90
المملك، الآية 27	90
الزمر، الآية 49، 53، 71	91
البقرة، الآية 57	179

204	الكهف، الآية 66
204	الإسراء، الآية 66
210	طه 101
210	العنكبوت، الآية 13
211	هود، الآية 107
211	البقرة 86، الآية 162
211	آل عمران، الآية 88
211	فاطر، الآية 36
211	النساء، الآية 56
212	النور، الآية 2
214	الحديد، الآية 13
214	الحاقة، الآية 38، 39
217	العنكبوت، الآية 69
218	الإسراء، الآية 110
218	طه، الآية 5
218	البروج، الآية 12
248	المؤمنون، الآية 50
279	الحج، الآية 25
280	البلد، الآية 1، 2
296	الحديد، الآية 13
297	ص، الآية 26

299	ص، الآية 42
303	النخل، الآية 120
303	يس، الآية 72
306	آل عمران، الآية 96
311	البقرة، الآية 142
311 ، 205	البقرة، الآية 143
311	ق، الآية 41

أحاديث نبوية

111	(إن لله عز وجل في الخلق سبعة...)
121	(إذا رأيتم الرايات السود...)
108	(بلاء يصيب هذه الأمة حتى...)
105	(يخرج رجل من وراء النهر...)
111	(خيار أمتي في كل قرن خمسمائة...)
118	(يواطىء اسمه اسمي...)
121	(لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات...)
121	(يوشك الفرات أن يحس رعن كثر...)
122	(من قضى حاجته لمسلم...)
159	(لم يفضلكم أبو بكر لكثرة...)
159	(أنا مدينة العلم وعلي بابها...)
175	(أذنك أن ترفع الحجاب...)
203	(شهادة المسلمين بعضهم على بعض...)

- (أقرأ أمتي أبي بن كعب . . .) 232
(ما أودى نبي ما أوديت . . .) 241
(من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل . . .) 281
(أرض المحشر والنشر إيتوه فصلوا فيه . . .) 312
(هم لهم ولمن مر عليهن من غير أهلهم . . .) 338

أجناس

- الإصينول (الإسبان) 55، 56، 330، 333، 334
الترك 57، 58، 124، 137
الروم 68، 76، 79، 84، 86، 97، 164، 318
العجم 81، 146
العرب 84، 86، 237، 248، 250، 253، 256، 323
الفرس 164، 307
لازكي 105

أسلحة

- الأنفاض 55
البارود 334
السيوف 67
المدافع 55، 73، 78، 247، 250، 252، 265، 330، 331
المرامي الرعدية 78
المكاحل 67، 77، 78
النبال 67

أسواق

- أسواق الحرير والملف 75
- أسواق الذهب والفضة والأحجار 75
- أسواق السلاح 75
- سوق القيصرية 75

أعلام

أ -

- إبراهيم الخليل 303 ، 305 ، 306
- إبراهيم الكيلاني 316
- إبراهيم (ابن الرسول) 259
- ابن الأثير 159 ، 170 ، 234 ، 238
- ابن إسحاق 84
- ابن تيمية 337
- ابن جريح 233
- ابن جماعة 209 ، 335
- ابن الجوزي السبط 237
- ابن حجة 154
- ابن حجر العسقلاني 129 ، 234
- ابن الحوراني 166 ، 231
- ابن خلكان 156 ، 241
- ابن الخطيب 347

ابن دقيق العيد 202
 ابن الزبير 166
 ابن سلام 174
 ابن عبد البر 82، 166، 171، 172، 231، 234
 ابن عبد الملك (قائد طنجة) 52
 ابن عربي، الشيخ محيي الدين 183، 203، 206، 209
 ابن عباس 204، 307
 ابن عثمان 48، 103، 105، 135، 150، 178، 220، 242، 257،
 267، 268، 283، 314، 322، 327، 333، 339
 ابن عساكر 114، 237
 ابن عقيل الحنبلي 281
 ابن الفارض عمر 110
 ابن قاضي شهبة 226
 ابن قتيبة 180
 ابن الكلبي أبو المنذر 84
 ابن لازر (حاكم صربيا) 67
 ابن مالك الجياني 242
 ابن ماجة 312، 313
 ابن مأكولا 172
 ابن مطروح 302
 ابن مروود (بودوان) 305

ابن هشام 307
ابن يحيى (شيخ الركب) 58 ، 59
أبو أيوب الأنصاري 82 ، 83 ، 84
أبو بكر الصديق 158 ، 170 ، 175 ، 227 ، 316
أبو تاشفين المريني 336
أبو حمو المريني 336
أبو حنيفة 126 ، 127 ، 130 ، 205
أبو حفص عمر لوزبرق 48 ، 60
أبو الحسن المريني 336
أبو نعيم الأصفهاني 111
أبو يزيد المدني 85
أبو يزيد البسطامي طيفور 156
أبو عامر المؤدب 224
أبو البيان 224
أبو الخير الحمصي 225
أبو عبدة بن الجراح 227 ، 260
أبو عنان المريني 336
أبو الدرداء عويمر 230 ، 247
أبو إسحاق إبراهيم الناجي 230 ، 337
أبو داود 105 ، 107 ، 108 ، 113 ، 312
أبو الدحداح 233

- أبو قحافة 234
- أبو القاسم الصيرفي 125
- أبو بكر الباقلاني 323
- أبو الحق سنان بن سليمان 241
- أبو السعود الشيخ محمد 314
- أبو السعود الآمدي 246
- أبو سعيد الخذري 261
- أبو سعيد بن أبي سعيد السنوي 124
- أبو مدين الغوث 292 ، 301 ، 331 ، 334
- أبو موسى الأشعري 172
- أبو سالم العياشي 304
- أبو ذر الغفاري 306
- أبو هريرة 121
- أبو يعقوب المريني 335
- أبي بن كعب الصحابي 231
- أحمد الجزار (الباشا) 288
- آدم (عليه السلام) 114 ، 156 ، 172 ، 190 ، 228 ، 235 ، 303 ، 307 ، 308
- أرسلان الدمشقي 221 ، 222 ، 223 ، 224 ، 231 ، 235 ، 243
- إسحاق أرمياء (النبي) 307
- إسحاق (النبي) 200 ، 302 ، 304 ، 305

أسد الدين شيركوه 237 ، 238

أسعد أفندي 299

الإسكندري أبو الفتح 142

أسماء بنت أبي بكر 228

إسماعيل الجزاعي 244

الأسيوطي أو السيوطي 113 ، 117 ، 118 ، 120 ، 121 ، 123 ، 128 ،
203 ، 280 ، 306 ، 306

أم حبيبة 229

أم سلمة 107 ، 229

أم ميمونة 260

أمية بن خلف 227

أنس بن مالك 122 ، 180

أويس بن أويس الصحابي 230

أيوب (النبي) 72

- ب -

البخاري 164 ، 174 ، 227 ، 232 ، 306 ، 337

بخت نصر 307

بدر الدين بن جماعة 209 ، 210

بشر الخافي 154

بلال بن رباح 115 ، 227

بهاء الدين نقشبند 157

بني أد بن أد 280

بني حنيفة 163 ، 170

البيجري أبو عبدالله 343

البيضاوي 107 ، 114 ، 246 ، 306

- ت -

تقي الدين الفاسي 207

- ث -

الثعالبي عبد الرحمان 330

ثوبان بن يحد 121 ، 172

- ج -

جحا 141 ، 142

جعفر الصادق (الإمام) 158 ، 259

جعفر الطيار (ابن أبي طالب) 166 ، 167 ، 177

الجوهري الحسن بن علي 109

جويرة زوجة النبي 260

- ح -

الحارث بن همام 142

الحجاج بن يوسف 166

حسان بن ثابت 232

الحسن البصري 131 ، 317

الحسن بن علي 259

الحسين بن علي 119

الحسين بن حريث 233

حفصة بنت عمر 260

حكيم بن حزام 232

حليمة السعدية 261

حمزة (عم النبي) 173 ، 260 ، 282

حصن بن الهرمز 160

- خ -

خالد بن الوليد 161 ، 164 ، 165

خولة بنت الأزور 235

الخضر (النبي) 126 ، 127 ، 128 ، 130 ، 204 ، 208 ، 235 ، 313

الخصيب بن عبد الحميد 169

- د -

دامس أبي الهول 175

داوود (النبي) 292 ، 293 ، 295 ، 296 ، 297 ، 298 ، 307 ، 309

داود بن يحيى الحريري 224

دحية الكلبي 173 ، 287

الدقاق أبو علي 155

- ذ -

ذو الكفل (النبي) 235 ، 248

- ر -

راحيل (أم يوسف) 301

ربقة (زوجة النبي إسحاق) 302

- ز -

الزبير بن العوام 166 ، 261

الزهري 308

الزوين محمد 51

زين العابدين علي بن الحسين 159

زينب بنت علي 228

- س -

سارة (أم الأنبياء) 302 ، 305

سام بن نوح 307

السبكي 128 ، 281

سراج الدين البلقيني 202

سراج الدين المخزومي 210

السروجي أبو زيد 142

سرور (شريف مكة) 262 ، 263

سعد الدين النابلسي 242 ، 284

سعد بن أبي وقاص 171
سعيد بن زيد 173 ، 175
سكينة بنت الحسين 228 ، 229 هوامش
سلمان الفارسي 158 ، 230
سليمان (النبي) 293 ، 297 ، 301 ، 307 ، 311
سليمان شاه 68 ، 69
سليمان القانوني 56 ، 90 ، 246
السمعاني 228
سنان بن سليمان 241
سنان باشا 139
السهيلي 174

- ش -

الشاذلي أبو الحسن (القطب) 324
الشاطبي 179
الشبراملي 155
شداد بن أوس 298
الشرف الحصري 225
شمس الدين الجزيري 224
شمعون الصفا 151 ، 169
شمويل بن يعقوب 292

- ص -

الصاغاني 165 ، 170

صالح (النبي) 106 ، 257 ، 289

صلاح الدين العلاني 203

صلاح الدين يوسف (السلطان) 239 ، 242

صهيب الرومي 232

- ض -

ضرار بن الأزور 231

- ط -

طلحة (الصحابي) 261

طيطوش 307

- ع -

عائشة بنت أبي بكر 260 ، هامش: 112

عبادة بن الصامت 298 ، هامش 298

عبد الحميد I (السلطان) 49 ، 66 ، 88 ، 104 ، 133 ، 138 ، هامش:

49

عبد الغني بن النابلسي 170 ، 179 ، 234 ، 236 ، 242

عبد القادر الجيلاني 106 ، 110 ، 116 ، 155 ، 221 ، 295 ، هوامش:

106 ، 292

عبد القادر القادري 314

عبدالله بن عمر 164 ، 165 ، 166 ، 279 ، هوامش: 107 ، 111 ، 229

- عبدالله بن مسعود 122 ، 175 ، هوامش : 111 ، 175
- عبدالله بن مرداس 178
- عبدالله بن جعفر 228 ، هوامش : 228 ، 229
- عبدالله بن زين العابدين 229
- عبدالله بن أبي مليكة 233 ، هامش : 233
- عبد الرحمن بن عوف 176 ، هامش : 176
- عبد الرحمن بن أبي بكر 175 ، 176 ، 233 ، 234 ، 322 ، هامش : 175
- عبد الرحمان الجامي 117
- عبد الرؤوف المناوي 118 ، 167 ، 168 ، هامش : 167
- عبد السلام بن مشيش 298 ، هامش 324
- عبد الملك بن مروان 308 ، هامش : 166
- عبد الوهاب الشعراني 118 ، 202 ، 209 ، 226 ، هامش : 167
- عثمان بن عفان 179 ، 261 ، هوامش : 68 ، 177 ، 228 ، 229 ، 259
- عثمان الغازي (جد آل عثمان) 68 ، 71
- عثمان باشا (والي الشام) 254 ، 256
- عكاشة بن محصن (صحابي) 169 ، 170
- علاء الدين بن غانم 154
- علاء الدين خوارزم شاه 68
- علاء الدين كيقباد السلجوقي 69 ، 140 ، هوامش : 67 ، 69 ، 71
- علاء الدين السمناني 115
- علاء الدين القونوي 337

علي بن أبي بكر الهروي 157

علي بن أبي طالب 159، 317، هوامش: 154، 158، 159، 228،
229، 260

علي القاري 106، 108، 126، 129، 311

علم الدين السخاوي 179

علم الدين يعقوب بن أبي بكر 239

عمر بن الخطاب 165، 175، 240، 260، 296، 308، هوامش:
111، 156، 172، 231، 260

عمر بن عبد العزيز 169، 230، 238

عمرو بن أمية الضمري 170

عمرو بن العاص 179، هامش: 158

عمرو بن معدي كرب 176

عمرو بن عبسة 170، 171

عز الدين بن عبد السلام 202، 203، 206، 323، 325

عز الدين الخليلي 209

عقيل بن أبي طالب 228، 250

عيسى عليه السلام 122، 123، 127، 128، 129، 130، 151، 294،
297، 299، هامش: 291

عيسى بن هشام 142

عيسى بن يونس 233، هامش: 233

عيسى الأيوبي (الملك المعظم) 296

العباس (عم الرسول) 259

العياشي عبدالله 304، هوامش: 155، 304
العينى الحنفى بدر الدين 174، هامش: 174

- ف -

فاطمة بنت الرسول 260، هامش: 260
فاطمة بنت الحسين 229، هامش: 229
فاطمة بنت أسد 261
الفارابي 167، 169، هامش: 167

- ق -

قبايل 235
قيس بن أبي حازم 277
القاسم بن محمد بن أبي بكر 158، هامش: 158
القشيري أبو القاسم 127، 128، 129، 130، 154
القسطلاني الشهاب 155

- ك -

كعب الأحبار 166، 167، 177، 230، هوامشي: 156، 166
كورش (ملك الفرس) 307

- ل -

الليث بن سعد 83

- م -

مالك بن أنس 260، حواشي 84، 259

- متمم بن نويرة 233 ، 234 ، حواشي : 233
- مجد الدين بن الداية 238
- مجد الدين الفيروزنادي 205
- محمد الباقر 158 ، 159 ، 259 ، حواشي : 158 ، 259
- محمد بن الحسن العسكري 117 ، 118
- محمد بن الحسن الشيباني 205 ، حواشي : 205
- محمد البصري 226
- محمد الحوراني 166 ، 226 ، 236 ، حواشي : 166
- محمد بن عباد 124
- محمد بن عقيل 228
- محمد بن سعيد
- محمد بن عبد الرحمان بن أبي بكر 235
- محمد كمال الدين الغزي الشافعي 284
- محمد بن قلاوون (السلطان)
- محمد الرفاعي 133
- محمد العلمي 298 ، 299
- محمود الكردي الشيباني 225
- مريم العذراء 127 ، 200 ، 295 ، 297 ، 298 ، 301 ، هامش : 168
- مسلم (الإمام) 121 ، 175 ، 227 ، 232
- مسيلمة (الكذاب) 163
- معاوية بن أبي سفيان 180 ، 229

ملا خنكار 142، هامش: 142
موسى عليه السلام 114، 128
ميمونة (أم المؤمنين) 161، 164، 229، 260، 312
المخزومي سراج الدين 210
المقري أحمد 124، هامش: 124
المقريزي 168، 169، هوامش: 168، 169، 174، 207

- ن -

ناصر الدين الدمشقي 310
نافع القار 260، هامش 260
نجم الدين أيوب 238
نجم الدين بن إسرائيل 238
نور الدين الشهيد 225، 236، 241، 295
النجاشي (الملك) 168، هامش: 168
النجاشي ركن الدن 316
النجار حبيب 151، هامش: 151
النسائي 312، هوامش: 116، 312
النووي أبو زكريا يحيى 164، هامش 164

- ه -

هايل 235
هارون الرشيد 169، هوامش: 146، 205
هيلانة 307

- و -

وحشي بن حرب 173 ، هامش 172

الواقدي 232 ، هامش : 232

الونشريسي 125 ، هامش : 125

- ي -

ياقوت الحموي 159 ، هامش 160

يحيى بن بكير 166

يحيى بن زكريا (النبي) 178 ، 230

يزيد بن معاوية 76 ، 234 ، هامش : 228

يعقوب (النبي) 291 ، 307 ، هامش : 291

يوسف (النبي) 288 ، 301 ، 304

يونس بن محمد (الراوي) 83

يونس (النبي) 301 ، هامش : 151

اليافعي (الإمام) 116 ، 323

اليزيدس بن السلطان محمد الثالث 279

ألعاب وتسلّيات

حفل راقص 57

متنزه 104 ، 194 ، هامش : 252

أماكن

- أ -

- أدرنة 78 ، 94 ، هامش : 78
أذنة 146 ، هوامش : 146 ، 147 ، 148
أرزنجان 68 ، هامش : 68
أركله 144
أرمناك 69
أسكدار 74 ، 76 ، 92 ، 95 ، 137 ، هوامش : 73 ، 74
إسك شاهر (أسكشهير) 139
أكادير 152 ، هامش : 152
ألبستان 68 ، 219
أنطاكية 149 ، 151 ، 169 ، هامش : 169
أوابل 145
أياصوفيا 81 ، 86 ، 88 ، 92 ، هامش : 81
الأخضر (قلعة) 255 ، 256 ، هامش : 255
الأندلس 86 ، 160 ، 240 ، 327 ، هوامش : 179 ، 242

- إ -

- إزمير 95 ، هامش : 94
إسطنبول 74 ، 92 ، 246
إسكندرونة 149 ، هوامش : 148 ، 149
إسمل 143

إشبيلية 160 ، 328 ، هامش : 181

إلغين 142 ، 175

الإسكندرية 179 ، 305 ، هوامش : 168 ، 202

الإسماعيلية (قلاع) 241

- ب -

بجاية 292 ، 337

بحر الروم 77 ، 78

بحر القلزم 263

بدر 49 ، 56 ، 83 ، 84 ، 172 ، 174

بروسة 94 ، هامش : 94

بزاخة 170

بسظام 157

بعلبك 150 ، 160 ، 169 ، هوامش : 150 ، 153 ، 225

بغداد 117 ، 132 ، 133 ، 154 ، 225 ، 323 ، هوامش : 84 ، 110 ،

115 ، 153

بلخ 68 ، هوامش : 68 ، 116

بياض كوى 140

بيار علي 261

بيت لحم 301 ، 308

بيت المقدس 127 ، 184 ، 197 ، 200 ، 243 ، 246 ، 297 ، 299 ، 300 ،

306 ، 307 ، 308 ، 309 ، 310

بيلان 149، هوامش: 148، 149

البحرين 73، 170، 165، 180

البحر الأسود 77، 78، 79

البصرة 105، 131، 133، 170، 172، 180، هوامش: 131، 158،

172

البقيع 173، 175، 176، 240، 259، 261، 282، هامش: 155

البلقا 252، هامش 49

البيرة 199، 200، 292، هامش: 292

- ت -

تبوك 176، 255، هامش: 255

ترحت 157

تستر 227

تلمسان 292، 301، 331، 334، 338، هامش: 125

تونس 320، 322، 324، 325، 326، 328

- ج -

جدة 131، 133

جسر الشفـر 152، هامش: 152

جيحان (نهر) هوامش: 68، 146

جيحون (نهر) 127، 130، 146، هامش: 68

جيلان (جبل) 132

جيلان (بلاد) 122، 156، هوامش: 110، 132

الجديدة (بلدة) 242 ، 262

- ح -

حبرون 200 ، 301 ، هامش: 301

حلب 95 ، 149 ، 169 ، 207 ، 226 ، 228 ، 237 ، هامش: 120

حماة 153 ، 154 ، 155 ، 156 ، 160 ، هوامش: 150 ، 153

حمص 156 ، 159 ، 160 ، 161 ، 162 ، 165 ، 160 ، 169 ، 171

حمير 173

حنين 163 ، 164 ، 262 ، هامش: 262

الحبشي 233 ، 234

الحجاز 136 ، 157 ، 179 ، 245 ، 254 ، 283 ، 284 ، هامش: 153

الحديثة 164 ، هامش: 164

الحمراء (قلعة) 257

- خ -

خان الأرنب 287

خان الجسر 287

خان الزبيب 251

خان اللبان 291

خان الوزير 129

خراسان 116 ، 121 ، هامش: 58

خليص 263

الخليل 50 ، 292 ، 296 ، 298 ، 299 ، 301 ، 304

- د -

داغستان 105

دمشق 110 ، 157 ، 160 ، 164 ، 166 ، 169 ، 173 ، 174 ، 184

- ذ -

ذات حج 254 ، 255 ، هامش: 254

ذو طوى 165 ، هوامش: 165 ، 264

ذو النون 249

- ر -

رابع 263 ، هامش: 263

الرمة 288

الرمّة (الرمثا) 251

روم إيلي 67 ، 94 ، 97 ، هامش: 63

- ز -

زمزم 109 ، 184 ، 200 ، 266 ، 300

الزاهر (واد) 165 ، 281

الزرقا (واد) 251 ، 283

الزرقاء (عين) 328 ، هامش: 251

الزنبق 152

- س -

سرقوزة 55 ، 57 ، هامش: 55

سميع 198 ، 201 ، 287

سقلي 142

سلع 259

سنانيك 95

سنور (قلعة) 245 ، 290 ، 319

السرائ 173

السيبيان (واد) 287

السباع (وادي) 237 ، 261

- ش -

شفت خان 145

الشاقط 146

الشام 94 ، 103 ، 108 ، 109 ، 110 ، 129 ، 137

الشحر 131

الشهداء (موضع) 261

الشيخ محمود (موضع) 267

- ص -

صقلية 55 ، 57 ، هوامش: 55 ، 56

صنعاء 131

الصالحية 181 ، 182 ، 183 ، 184 ، 185 ، 219 ، 235 ، 242 ، 248

الصفاء 124 ، 151 ، 169 ، 264 ، 269 ، 274

الصفراء 262 ، هامش: 262

الصنمين 250

- ط -

طبرستان 156

طرسوس 180 ، 235

طومالغ (جبال) 69

الطائف 172 ، 204 ، 265

- ظ -

ظهر مغر (موضع) 255 ، 256

- غ -

عدن 131

عرفات 190 ، 265

عكا 286 ، 288 ، 319 ، 339

عنزة (قلعة) 253

العاصي 150 ، 152 ، 153

العراق 236

العقبة (جنوب الشام) 254 ، 266

العقبة (الحجاز) 83 ، 256

العوالي 170 ، 257

- غ -

غلاطة 73 ، 74 ، 76 ، 79

الغور 260

- ف -

فخ 165 - 166

الفحلتين 258

- ق -

قاسون (جبل) 183 ، 198 ، 235 ، 247

قديد 263

قربنار 143

قرطقراط 147

قرمان 77

قره حصار 71

قشلة (وادي) 144

قطرانة 252

قلعة جعبر 69

قلعة المضيق 152

قوسراق 67

قونية 69 ، 139 ، 142

القاع 255 ، 262

القدس 49 ، 50 ، 95 ، 197 ، 199 ، 237 ، 260 ، 290 ، 191 ، 192 ،

296 ، 298 ، 299 ، 300 ، 301 ، 305 ، 306 ، 314

القسطنطينية (إستانبول) 49 ، 51 ، 58 ، 61 ، 71 ، 76 ، 79 ، 86 ، 104 ،

139 ، 143 ، 244 ، 333

القطيفة 178

- ك -

كاور طاغ (جبل) 148

كربلاء 236

كوتاهية 70

كونبك 82

الكسوة 283

الكوفة 133 ، 170 ، 172 ، 175 ، 179 ، 260

- ل -

اللاذق 142

- م -

مالطة 246

مالقة 160

ماهان 68

ما وراء النهر 127

مدائن صالح 255 ، 257

مزيرب 250 ، 251

مصر 81، 94، 111، 137، 157، 168، 169، 179، 202، 236،
238، 244، 265، 266، 318

مصيصة (المصيصة) 147

معان 253، 254

مكة 81، 83، 94، 107، 108، 117، 126، 129، 133، 137،
163، 165، 166، 170، 171، 180، 192، 227، 233، 244، 251،
261، 266، 272، 275، 280، 301، 314، 321

منى 265، 266، 269، 274، 275

مورة 86

مؤنة 162، 164

المحصب 166

المدورة 254

المدينة المنورة 102، 209، 258، 259، 261، 316

المروة 264، 274، 349

المرزة 173، 174، 287

المزدلفة 265، 275

المعرة 169

المعظم 256

المغرب 75، 143، 144، 319، 320، 331، 338

المتفرق 25i

- ن -

نابلس 184 ، 201 ، 291

نمرة 265 ، 270

نيسابور 156

النبق 178

- ه -

هدية 258

- ي -

يثرب 171 ، 281

يكيشهر قنار 95

اليمامة 163 ، 170 ، 175 ، 231

اليمن 116 ، 131 ، 133 ، 173 ، 180

أمراض وكوارث

الصيحة (الصاعقة) 145

الطاعون 331 ، 337

القحط 151 ، 253

الرباء 151 ، 284 ، 325 ، 330

تضاريس

بسيط 150 ، 246 ، 251 ، 325

جبال 69 ، 70 ، 138 ، 139 ، 145 ، 149 ، 241 ، 249 ، 252 ، 257 ،

299 ، 329

عقبة 145 ، 266 ، 275

سهل 74 ، 141 ، 152 ، 257

صحراء 143 ، 144 ، 178

وادي 104 ، 105 ، 138 ، 139 ، 144 ، 145 ، 146 ، 147 ، 150 ، 156 ،
165 ، 199 ، 201 ، 252 ، 266 ، 283 ، 287 ، 291 ، 296 ، 333 ، 339 ، 342

جواهر وحلي

أخجار نفيسة 100

الجواهر والآلي 307

الحلي 345 ، 346

الذهب (للزينة) 101 ، 248 ، 307

الفضة (للزينة) 307

يواقيت 100

حيوانات

الإبل 149 ، 248 ، 249 ، 251 ، 253 ، 254 ، 256 ، 258 ، 283 ، 331

الجمال 250

الخيـل 62 ، 63 ، 65 ، 100 ، 135 ، 145 ، 198 ، 199 ، 217 ، 235 ،
290 ، 334

الغنم 74 ، 257 ، 265

الفرس 215 ، 250

صناعات

صناعة الجوارب 143

صاعة الخشب 224

صناعة الكاغيد (الورق) 104

صناعة الزرابي 142

ضرب السكمة 99

نسج الحرير 177

نسج القطن 153

طعام وشراب

شراب حلو 62

حلاوات وأشربة 102

قهوة 62، 136، 289، 320

عقاقير وعطور

الطيب والبخور 62، 102، 136، 248

ماء الورد 248

كتب

أخبار الدول وآثار الأول، القرماني 66، 67، 76

إنشاء الجداول والدوائر في حق الإنسان، ابن عربي 206

الإستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر 82، 166، 171، 172

الإشارات إلى أماكن الزيارات، ابن الحوراني 166

إيقاظ الغافل بسيرة الملك العادل، أبو الوفا المقدسي 236

الإشارات إلى معرفة الزيارات، الهروي علي بن أبي بكر 157

- الإصابة في أخبار الصحابة، ابن حجر العسقلاني 234
- الألفية والتسهيل، ابن مالك الجباني 242، 248
- الأنساب، السمعاني 156، 228
- البداية والنهاية، ابن الأثير 159، 170، 234
- بهجة الأنام، ابن طولون شمس الدين 229
- تاريخ الأنس الجليل في القدس والخليل، الحنبلي 296، 298
- تاريخ الخميس في أقوال نفس نفيس، الدياربيكري حسين 239
- تاريخ المدينة المشرفة، المطري جمال الدين 239
- تنبيه الغبي بثرثة ابن العربي، السيوطي 206
- تهذيب الأسماء واللغات، النووي 164، 166، 170، 229، 230، 231، 234، 236
- الجامع الصغير، السيوطي جلال الدين 203
- الجامع الصغير، الشيباني محمد بن الحسن 205
- الحق والواجب الناطق بأن المخلوق ليس عين الخالق، الخليلي عز الدين 209
- الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز، النابلسي 157، 170، 179
- الخطط، المقرئزي 168
- خمرة ألحان ورقة الألحان في شرح رسالة الشيخ أرسلان، النابلسي 221
- در السحابة في مواضع وفيات الصحابة، الصاغاني 165
- الدر المنثور في التفسير المأثور، السيوطي 219
- دفع النعمة بالصلاة على نبي الرحمة، أحمد بن يحيى بن أبي حجلة 305

- ديوان الأدب، الفارابي أبو نصر محمد 167، 169
- ديوان الدواوين وريحان الرياحين في تجليات الحق المبين، النابلسي 187
- رحلة ماء الموائد، العياشي أبو سالم عبدالله 304
- الرد المتين على متنقضي الشيخ محيي الدين، النابلسي عبد الغني 184،
186، 201، 202، 219
- الزيارات، النابلسي 234
- السنن، الترمذي 233
- شرح الشقاء، الشهاب الخفاجي 309
- شرح مشكاة المصابيح، القاري علي 106
- شرح موطأ مالك، أبو بكر بن العربي 310
- صحيح البخاري، البخاري 227، 232، 337
- صحيح مسلم، مسلم الإمام 175
- الطبقات الكبرى، المناوي عبد الرؤوف 168
- العرف الوردي في أخبار المهدي، السيوطي 120، 121
- عمدة القاري في شرح البخاري، العيني الحنفي بدر الدين 174
- عمل من طب لمن حب، البلوي 282
- غريب الموطأ، البرقي 310
- الفتوحات المكية، ابن عربي 207، 208، 210، 213
- القاموس، الفيروزبادي مجد الدين 114، 165، 205
- الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر، الشعراني 209
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة 168، 169

الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف، السيوطي 121
لب الألباب في تحرير الأنساب، السيوطي 168
المشترك وضعاً والمختلف صقلاً، ياقوت الحموي 159، 169
المشروب الوردي في مذهب المهدي، القاري 126
مشكاة المصابيح، البغوي 105
المصباح المنير 169
المعراج، الغيطي 310
مقامة ساجعة الحرم، السيوطي 280
منازل الأرض، الهروي 305
نفاضة الجراب، ابن الخطيب لسان الدين 340
نفع الطيب، المقرئ 124، 535
اليواقيت والجواهر، الشعراني عبد الوهاب 118، 202، 205، 210

لباس

أكراك 62

خلعة 102، 103، 148

قفاطين 62

قلانس 64، 347

مساجد

مسجد أبي أيوب الأنصاري 82

مسجد الأقباب (السادات) 236

المسجد الأقصى 290، 292، 293، 294، 295، 297، 300، 304،

305 ، 306 ، 308 ، 310 ، 311 ، 312 ، 313

مسجد الأمويين 179

مسجد أياصوفيا 86

مسجد باب توما 224

المسجد الحرام 90 ، 259 ، 264 ، 267 ، 280 ، 281 ، 306

مساجد حماة 153

مسجد خالد بن الوليد 224

مسجد خان قشلة 144

مسجد الخليل 303

مسجد داود 200

مسجد الراس 236

مسجد السلطان أحمد 88 ، 90

مسجد السلطان سليمان 90

مسجد السلطان عثمان 91

مسجد السلطان محمد الفاتح 92

مسجد السلطان مصطفى 91

مسجد الشافط 146

مسجد عكا 289

مسجد عمر 308

مسجد علي باشا 91

مسجد قنية 142

مسجد مسلمة بن عبد الملك 85

مسجد المغاربة 297 ، 308

مسجد منى 266

مسجد نمرة 265

معابد

كنيسة أياصوفيا 81

معادن

الذهب 75 ، 100 ، 101 ، 121 ، 307

الفضة 100 ، 101 ، 225 ، 240 ، 309

معالم أثرية

تربة 91 ، 142 ، 161 ، 179 ، 183 ، 185 ، 221 ، 248 ، 259 ، 260 ،
261 ، 281 ، 290 ، 297 ، 299 ، 302 ، 321 ، 322 ، 331

زاوية 88 ، 132 ، 142 ، 155 ، 183 ، 295 ، 298 ، 314 ، 318 ، 349

ضريح 82 ، 91 ، 132 ، 133 ، 136 ، 140 ، 142 ، 151 ، 176 ، 177 ،
183 ، 228 ، 230 ، 235 ، 297 ، 261 ، 282 ، 298 ، 302 ، 330 ، 336

قلعة 69 ، 70 ، 140 ، 147 ، 148 ، 152 ، 177 ، 179 ، 180 ، 230 ،
242 ، 247 ، 248 ، 252 ، 254 ، 255 ، 256 ، 2558 ، 283 ، 290 ، 319

منشآت

خان ألن قشلة 144

- خان الوزير 139
 خان قربنار 143
 خان قرطقراط 147
 خان بيلان 149
 خان قلعة المضيق 152
 خان الحسية 177
 خان النبق 178
 خان سمسع 287
 خان القنيطرة 198 ، 201
 خان الزبيب 251
 خان الأرنب 287
 خان الجسر 287
 خان عكا 288
 خان اللبان 291
 شفت خان 145

مواسم وعادات

- زفاف أميرة 100
 عيد المولد النبوي 101
 مهرجان استقبال الركب النبوي 178
 مهرجان انتهاء مناسك الحج 248

نباتات

الحرملة 143 ، 178 ، 251

الشيخ 143 ، 251

نقود

درهم 96 ، 155 ، 197 ، 224 ، 240

دينار 77 ، 100 ، 197 ، 225

ريال 98 ، 99 ، 151

هيئات ومنظمات

البحرية 55

حرس الشرطة 98

العسكر 55 ، 65 ، 78 ، 80 ، 81 ، 98 ، 99 ، 100 ، 135 ، 144 ، 198 ،
246 ، 247 ، 253 ، 256 ، 265 ، 330

وسائل وأدوات

أرجية 147

آلة الطبع (الدولاب) 99

دفوف 143

الدولاب 255

طبول 178 ، 248 ، 265 ، 328

مزامير 178 ، 265

ناعورة، نواعير 153 ، 154 ، 199

عناوين

- في فوائد الرحلة والاغتراب 47
تعيين ابن عثمان سفيراً ومهمته 48
تاريخ بداية الرحلة بالخروج من الرباط 50
مكوث البعثة ستة أشهر بتطوان وطنجة في انتظار هدوء البحر 51
نادرة 53
تاريخ مغادرة السفارة لميناء طنجة والتوجه نحو قرطاجنة 54
الرسو بميناء سرقوزة بصقلية ووصف الجزيرة 55
وصف حفلة لأهل صقلية على شرف البعثة 57
مظاهر الجفاء بين أعضاء السفارة المغربية 58
الوصول إلى إستانبول ومراسيم الاستقبال 61
استقبال الوزير للسفارة وتسليم رسائل السلطان 61
استقبال السلطان للسفارة المغربية 63
مراسيم لقاء السلطان 65
موجز تاريخ الدولة العثمانية 67
«ذكر القسطنطينية العظمى التي فاقت حواضر الدنيا ترتيباً ونظماً» 71
إيراد خبر فتح القسطنطينية 76

- بناء السلطان محمد الفاتح ضريح أبي أيوب الأنصاري 82
- عودة إلى القسطنطينية عند فتحها 85
- «صفة أياصوفيا التي بمدينة إصطنبول العظمى 86
- الخزانات والمكتبات بإستانبول 92
- المساجد والحمامات 92
- نظام التعليم والراتب العلمية العثمانية 93
- نظام الأمن في إستانبول 97
- مراسيم تفريق الراتب على العسكر 98
- وصف زفاف أميرة عثمانية 100
- وصف الاحتفالات بعيد المولد النبوي 101
- مواقف ابن عثمان من بعض الممارسات وانتقاداته 103
- وصف متزهات إستانبول 104
- ظهور رجل يدعي أنه مقدمة المهدي وخوض ابن عثمان في الموضوع 105
- «غربة» 131
- «رجع إلى خبر هذه الحاضرة القاهرة» 133
- الاستعداد للحرب ضد روسيا 133
- مراسيم توديع ابن عثمان ورفاقه واستعداداته لمغادرة إستانبول 135
- بداية الرحلة إلى الحجاز مع ركب الحج العثماني 136
- الوضع الأمني في المناطق الجبلية الكردية 147
- وصف خراب المدن وأسبابه وانتقادات ابن عثمان لولاة وعمال الجور 150

وصف مدينة حمص، عمرانها وعاداتها وحرفها 160

مغادرة حمص 177

استقبال دمشق للركب النبوي والحفاوة التي لقيها ابن عثمان 178

بدء المقام في دمشق بزيارة الأضرحة 178

«تكسير جامع الأموية بدمشق الشام» 180

زيارة قبر محيي الدين بن عربي وإيراد قصيدة في مدحه 181

لتعريف بالشيخ عبد الغني النابلسي وإيراد قصائد له في مدح ابن عربي

183

قصيدة للنابلسي يصف فيها رحلته إلى القدس 197

تلخيص بعض ما جاء في كتاب النابلسي «الرد المتين» 201

زيارة تربة أرسلان الدمشقي 221

زيارة قبر بلال الحبشي 227

نور الدين الشهيد محمود الملك العادل 236

تعرف ابن عثمان على علماء دمشق الأحياء 242

القضاء في الولايات واستنكار ابن عثمان انتشار الرشوة والفساد 244

وصف مقتضب لدمشق 246

مراسيم خروج الركب النبوي من قلعة دمشق 247

وصف آخر لدمشق 249

تنظيم شؤون الركب النبوي وممارسات الأعراب غير النزيهة 250

انعدام الأمن واستنفار خفر الركب لمواجهة غارات البدو 252

شق الطرق في الجبال وإعجاب السفير بذلك 254

- مرور الراكب بآثار الأنباط واندھاش ابن عثمان من الموقع 257
- الوصول إلى المدينة المنورة وزيارة قبر الحبيب 259
- زيارة قبور الصحابة والخلفاء الراشدين وزوجات النبي 259
- التقاء الراكب الشامي بالركبين المصري والمغربي 262
- الوصول إلى مكة وبدء شعائر الحج 264
- مغادرة مكة ووصف المسجد الحرام 267
- قصيدة لابن عثمان يلخص فيها مناسك الحج 267
- التلميح لحادث سطر مولاي اليزيد على أموال الهبة 279
- الرجوع من مكة مع الراكب الشامي 280
- رحلة العودة من الحجاز نحو الشام 283
- رجوع ابن عثمان إلى دمشق 283
- اشتداد الوباء في الشام خلال غيبة السفير في الحجاز 284
- التأهب للسفر إلى مدينة عكا 286
- الوصول إلى عكا وحفاوة الباشا الجزار وذكر بعض إنجازاته 288
- التعاقد مع صاحب الراكب للإبحار إلى المغرب وزيارة القدس الشريف 290
- طبيعة العلاقة بين الولاة والباب العالي 291
- وصف بلدة نابس 291
- مشاهدة ووصف المسجد الأقصى وقبة الصخرة 292
- التوجه إلى الخليل وزيارة قبر أب الأنبياء إبراهيم 301
- موجز تاريخ بيت المقدس 306

- لقاء ابن عثمان مع شيخه في الطريقة القادرية 314
- ترجمة الشيخ مصطفى البكري 315
- شخصية أهل القدس 318
- تظلم الناس من الولاة ومقارنة بين النظام الجبائي المغربي ومثيله العثماني 318
- رحلة العودة بحراً من عكا 319
- وصف جزيرة قبرص وأحوالها 319
- التوجه إلى مرسيليا ثم التوقف في تونس والرجوع برأ إلى المغرب 320
- حفاوة أهل تونس بالسفارة المغربية ولقاء الباي 320
- زيارة ابن عثمان للولي سيدي محرز وشكواه من معاناته وهمومه 322
- وصف مدينة تونس وإشارة إلى وباء 1200 هـ 325
- مغادرة تونس وحفاوة أهل القطر التونسي بالسفارة المغربية 326
- حفاوة أهل تستر المورسكيين وتسامر ابن عثمان معهم 327
- وصف مدينة قسنطينة وبعض أحوال ولاية الجزائر 329
- ذكر جانب من علاقات الجزائر مع الإسبان واستشراء الوباء 330
- وصف مدينة تلمسان وخرابها وجور حكامها 331
- دخول الأراضي المغربية 331
- وصف مدينة فاس 332
- لقاء ابن عثمان مع السلطان سيدي محمد 332
- إرسال ابن عثمان في مهمة تسليم أسرى إلى الجزائر 333
- أداء المهمة بالجزائر والرجوع إلى المغرب 338

رجوع ابن عثمان إلى فاس وإذن السلطان له بالتوجه إلى مكناس 339

وصف رقيق لمدينة مكناس وأحوالها 340

تاريخ الرجوع إلى مكناس ومدة السفارة 343

المحتويات

7 الاستهلال
11 المقدمة
41 مسار الرحلة
47 نص الرحلة
353 ملحق 1
355 ملحق 2
361 ملحق جائزة ابن بطوطة.
375 كشف حضاري وفهارس
415 عناوين